



مركز الأبحاث العقائدية

موسوعتنا

عبد الله بن عباس

حبر الأمة وترجم القرآن



المجلد الأول: تاريخ وسيرة

الجزء الرابع

تأليف

الشيخ محمد تقي بن محمد حسين الموسوي القمي



موسى وعيسى

عبد الله بن عباس

مُوسَىٰ عَمْرُو

عَبْدُ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ

حَبْرُ الْأُمَّةِ وَتَرْجُومُ الْقُرْآنِ

الْحَلِيقَةُ الْأُولَى: تَارِيخٌ وَسَبِيحَةٌ

الْجُزْءُ الرَّابِعُ

تَأَلَّفَتْ

عِنْدَ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ

مركز الأبحاث العقائدية

● العراق . النجف الأشرف . شارع الرسول (ص)
جنب مكتب آية الله العظمى السيد السيستاني (دام ظله)
ص . ب : ٧٢٩

الهاتف : ٣٣٢٦٧٩ (٣٣) ٩٦٤ +

● إيران . قم المقدسة . صفائية . ممتاز . رقم ٣٤

ص . ب : ٣٣٣١ / ٣٧١٨٥

الهاتف : ٧٧٤٢٠٨٨ (٢٥١) ٩٨ +

الفاكس : ٧٧٤٢٠٥٦ (٢٥١) ٩٨ +

الموقع على الانترنت : www.aqaed.com

البريد الإلكتروني : info@aqaed.com

شابك (ردمك) : ٧ - ٥٠٠ - ٣١٩ - ٩٦٤ دورة ٢٠ جزءاً احتمالاً

ISBN : 964 - 319 - 500 - 7 / 20 Vols.

شابك (ردمك) ج ٤ : ٤ - ٥٠٤ - ٣١٩ - ٩٦٤

ISBN : 964 - 319 - 504 - x

موسوعة عبدالله بن عباس حَبر الأُمَّة وترجمان القرآن
تأليف

السيد محمد مهدي السيد حسن الموسوي الخرساني

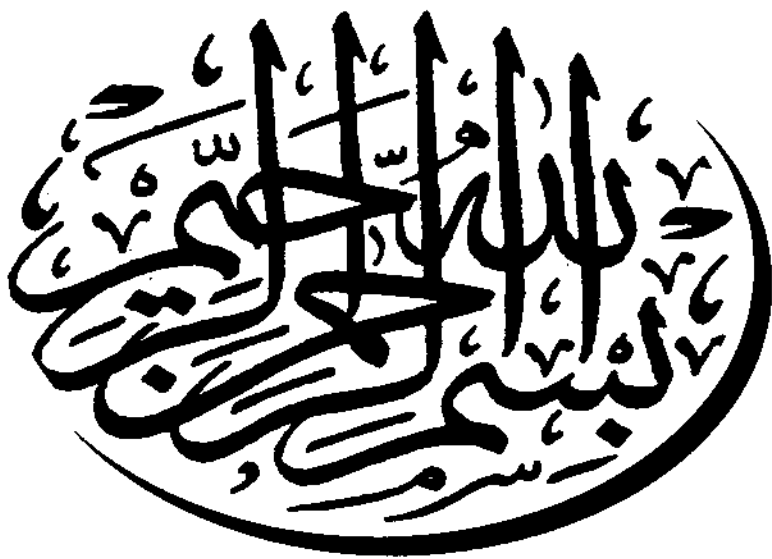
الجزء الرابع

الطبعة الأولى : ٢٠٠٠ نسخة

سنة الطبع : ١٤٢٨ هـ

المطبعة : ستارة

* جميع الحقوق محفوظة للمركز *



تقريرا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
به نستعين

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين،
ورضى الله عن الصحابة المرضيين المهتدين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم
الدين، واللعة الدائمة على أعدائهم أجمعين، وبعد:

فقد سايرنا في الأجزاء الثلاثة من الحلقة الأولى من موسوعة (عبد الله
بن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن)، شطراً كبيراً من حياته، وقرأنا شيئاً كثيراً
من صفاته وسماته، والآن نحن على أبواب عهد جديد من فصول سيرته، نبدأ
الحديث فيه من ولايته على البصرة بعد انتهاء مأساتها، إذ وضعت الحرب
أوزارها، وكانت أول حرب ضروس بين أهل القبلة، وقد قرأنا كيف كانت سيرة
الإمام أمير المؤمنين عليه السلام مع أولئك المحاربين، ولولا تلك السيرة المثلى، لما عرف
الفقهاء أحكام المحاربين من أهل القبلة، إذ يقتل المقاتلة، ولا تُسبى النساء ولا
الدراري، وليس من غنائم إلا ما حوته حومة الحرب، ثم الناس آمنون، كما
مرت الإشارة إلى ذلك.

ولمّا كان الإمام الخليلي من عزمه الرحيل عن البصرة وقاصداً إلى الكوفة، فلابدّ له من تعيين والي عليها من أصحاب الكفاءات، مثل باقي ولايته، لينعم المسلمون وغيرهم من أهل البصرة في ظل ولايته بالأمن والطمأنينة والرخاء. وكان المرشح الأول والأمثل هو عبد الله بن عباس رحمه الله.

فلتقرأ ماذا عن ولايته على البصرة، إذ هي الثغر الذي تتبعه ولايات كور فارس والأهواز شمالاً، وولايات الساحل العربي حتّى الزارة وخليج عُمان وما بعدها شرقاً، سوى ما في الجنوب من قبائل في البوادي حتّى نجد - وما والاهاز فهي - البصرة - صنو الكوفة أهمية، وهما معاً العرفان النابضان في حياة الخلافة الإسلامية، لأهميتهما موقعاً حيث الشرف الإسلامي بجميع ولاياته وأمصاره تابع لهما.

فالآن إلى قراءة تاريخ ابن عباس في أيام ولايته على البصرة:

حبر الأمة

ولايته على البصرة

ولايقته على البصرة:

قبل التحدث عن تلك الولاية، لابد لنا أن نتعرف - ولو بايجاز - جوانب تلك الولاية، بدءاً من بلد الولاية من خلال معرفة طبيعته الجغرافية والسكانية وسعتها الإدارية، ثم معرفة مهمة الوالي من خلال واجباته ومدى صلاحياته. وأخيراً: لماذا تم إختيار ابن عباس بالذات دون غيره؟ وهذه المحاور الثلاثة سوف نعرفنا البصرة بنية وملامح وحدودها، كما نعرفنا أهمية إختيار الإمام الشخص المناسب في الموقع المناسب في الظروف المناسبة.

والآن فإلى:

المحور الأول:

وهو معرفة طبيعة البصرة من خلال موقعها الجغرافي، ومن خلال التركيبة السكانية فيها، وبالتالي معرفة سعتها الإدارية.

أما عن موقعها الجغرافي فهي تقع موقعاً وسطاً تلتقي عنده الطرق البرية والبحرية التي تربط الحجاز جنوباً ببلاد الخليج شرقاً وحتى بلاد خراسان وما والاها. كما تتصل من خلال تلك الطرق بالكوفة شمالاً وبالشام غرباً، وذلك الموقع هياً جو التلاحق الفكري بين مختلف الأجناس التي كانت فيها أو التي تمرّ بها.

وأما عن التركيبة السكانية فيها، فقد كانت خليطاً من العرب والأنباط والفرس - وقد عرفوا بالأساورة - والهنود والزنج والزرط - وهم من الهند أو السند ومن فصيلتهم السبابجة - الذين كانوا يتولون حراسة السجون وبيت المال. وقد قتل منهم أربعمئة ظلماً وعدواناً، قتلهم جيش الناكثين بقيادة عائشة وطلحة والزبير، وذلك يوم الجمل الأصفر.

ثم إن العرب أنفسهم كانوا قبائل مختلفة متفاوتة في الطباع، ففيهم الحملان وداعة، ومنهم القساء الجفاة كالضباع والسباع.

فبلد تمازجت فيه حضارات مدنية أعجمية قبل دخول حضارة الإسلام العربية، لا بد أن تصادم فيه الرغبات والميول وتعدد فيه المناحي حسب الأهواء، ولو رجعنا إلى ما ذكره الجغرافيون والمؤرخون من خطط سكانية في تلك الأيام، لوجدنا بعض الخطط تضم قبائل مضرية وأخرى ربيعة وثالثة قحطانية، ومع كل خليط من غير العرب كالموالي يشاركون في العمل والسكن كما يشاركون في الجهاد وأخذ العطاء. ولم يعرف خلافاً أوقع شرخاً كبيراً بين القبائل العربية كما أوقعت حرب الجمل، فقد كانت لها مخلفات مربعة وفضيعة، فعاشت البصرة بعد يوم الجمل في جو قلق واضطراب. ولم لا تكون كذلك وهي تعيش مخلفات حرب ظالمة أودت بحياة أكثر من عشرين ألف قتيل في يوم واحد.

إذن ليس من السهل ولا بالمستطاع لأي والٍ أن يمحو أثر ذلك من النفوس بجرّة من القلم، لتستقر له البلاد بين عشية وضحاها. ومهما تمكّن من محو الفوارق الجنسية، فلن يتمكن من توحيد الأهواء النفسية. لذلك فلا مناص من

مواجهة صعوبات في الاستقرار السياسي خاصة، مضافاً إلى النزاع العصبية الداخلية كالتفرة بين المضربة والرعيّة والقحطانية، وهذه كلها عوامل مثيرة للقلق في الحياة الاجتماعية.

وأما عن مسعتها الإدارية، فحسبك أن تعرف أن الأقطار الشرقية التابعة لها تبدأ من كور الأهواز وتنتهي حيث وصل الفتح الإسلامي في بلاد خراسان وما والاها. وتشمل كثيراً من بلاد فارس ما بين العراقيين. مضافاً إلى المقاطعات التابعة لها في العراق.

والى القارئ كشفاً بأسماء تلك البلدان التابعة في حكومتها إلى إيالة البصرة:

- ١- كور دجلة - ويشتمل هذا القطر على المقاطعات التالية :- الأهلة - فرات البصرة - ميسان.
- ٢- الأهواز - ويشتمل هذا القطر على: مناذر - سرق - الأهواز - السوس - جنديسابور - رامهرمز.
- ٣- فارس - ويشتمل هذا القطر على: أرد شيرخره - سابور - اصطخر - دارا بجرد - توج - فساو دارا بجرد.
- ٤- سجستان - بما يشتمل عليه القطر من نوابغ وقصبات.
- ٥- كرمان - كسابقه.
- ٦- ثغر الهند - وما فيه من بلاد افتتحها المسلمون.
- ٧- اصفهان - وما يتبعها من القصبات.

ونظراً في المعهود من سائر أعماله فيصير عام النظر فيما كان محدوداً من عمل ومعهوداً من نظر، فيشتمل نظره فيه على سبعة أمور:

أحدها: النظر في تدبير الجيوش وترتيبهم في النواحي وتقدير أرزاقهم إلا أن يكون الخليفة قدرها فيذرها عليهم.

والثاني: النظر في الأحكام وتقليد القضاة والحكام.

والثالث: جباية الخراج وقبض الصدقات وتقليد العمال فيهما، وتفريق ما استحق منهما.

والرابع: حماية الدين والذب عن الحريم، ومراعات الدين من تغيير أو تبديل.

والخامس: إقامة الحدود في حق الله وحقوق الأدميين.

والسادس: الإمامة في الجمع والجماعات حتى يؤم بها أو يستخلف عليها.

والسابع: تسيير الحجيج من عمله ومن سلكه من غير أهله، حتى يتوجهوا معانين عليه. فإن كان هذا الأقليم ثغراً متاخماً للعدو اقترن بها.

والثامن: وهو جهاد من يليه من الأعداء وقسم غنائمهم في المقاتلة وأخذ خمسها لأهل الخمس. وتعتبر في هذه الإمارة الشروط المعتمدة في وزارة التفويض^(١).

((وتلك الشروط هي شروط الإمامة إلا النسب وحده... ويحتاج فيها إلى شرط زائد على شروط الإمامة وهو أن يكون من أهل الكفاية فيما وكل إليه من أمري الحرب والخراج له خبرة بهما ومعرفة بتفصيلهما...))^(٢).

(١) الأحكام السلطانية للماوردي الشافعي / ٢٧ - ٢٨ ط المحمودية بمصر بلد - وقارن الأحكام السلطانية لأبي يعلى الحنبلي / ١٧ - ١٨ ط حامد الفقي.

(٢) نفس المصدر / ٢٠.

ونظراً في المعهود من سائر أعماله فيصير عام النظر فيما كان محدوداً من عمل ومعهوداً من نظر، فيشتمل نظره فيه على سبعة أمور:

أحدها: النظر في تدبير الجيوش وترتيبهم في النواحي وتقدير أرزاقهم إلا أن يكون الخليفة قدرها فيذرها عليهم.

والثاني: النظر في الأحكام وتقليد القضاة والحكام.

والثالث: جباية الخراج وقبض الصدقات وتقليد العمال فيهما، وتفريق ما استحق منهما.

والرابع: حماية الدين والذب عن الحريم، ومراعات الدين من تغيير أو تبديل.

والخامس: إقامة الحدود في حق الله وحقوق الأدميين.

والسادس: الإمامة في الجمع والجماعات حتى يؤم بها أو يستخلف عليها.

والسابع: تسيير الحجيج من عمله ومن سلكه من غير أهله، حتى يتوجهوا معانين عليه. فإن كان هذا الأقليم ثغراً متاخماً للعدو اقترن بها.

والثامن: وهو جهاد من يليه من الأعداء وقسم غنائمهم في المقاتلة وأخذ خمسها لأهل الخمس. وتعتبر في هذه الإمارة الشروط المعتبرة في وزارة التفويض^(١).

((وتلك الشروط هي شروط الإمامة إلا النسب وحده... ويحتاج فيها إلى شرط زائد على شروط الإمامة وهو أن يكون من أهل الكفاية فيما وكل إليه من أمري الحرب والخراج له خبرة بهما ومعرفة بتفصيلهما...))^(٢).

(١) الأحكام السلطانية للماوردي الشافعي / ٢٧ - ٢٨ ط المحمودية بمصر بلد - وقارن الأحكام السلطانية لأبي يعلى الحنبلي / ١٧ - ١٨ ط حامد الفقي.

(٢) نفس المصدر / ٢٠.

وستأتي شواهد على ما قام به ابن عباس أيام إمارته بالبصرة في مهام الأعمال كتولية القضاء وديوان الخراج وبيت المال وشؤون الأمن إلى غير ذلك مما سيوافينا الحديث عنها فيما نقرأ من تاريخ حياته في أيام ولايته.

المحور الثالث:

لماذا تم اختيار ابن عباس بالذات دون غيره؟ وهل أثار النعمة؟

والجواب على السؤال الأول: هو أن النبي ﷺ كما في حديث ابن عباس قال: (من استعمل عاملاً من المسلمين وهو يعلم أن فيهم أولى بذلك منه وأعلم بكتاب الله وسنة نبيه فقد خان الله ورسوله وجميع المسلمين)^(١).

وهذا الحديث يجعلنا على يقين بأن الإمام لم يجاوزه في اختيار ولاته وعماله فهو الذي كان على وتيرة النبي ﷺ في اتباع سنته.

وأما الجواب على السؤال الثاني: هو أن مسألة اختيار الولاية منذ عهد عثمان كانت تعيش في أذهان المسلمين عقدة مستعصية ولدت النقد له والنعمة عليه، إذ كانت وقفاً على الأقرباء والأنساب، ولم تنزل بعدد نفوس المسلمين في تخوف من أن تعود الكرة في عهد الإمام كما كانت في عهد عثمان.

ولا شك أن الإمام كان يدرك ما في نفوس المسلمين من تخوف، ولما كان بصيراً بأصحابه الذين لهم قابليات الولاية حسب الكفاءة والمؤهلات، فهو سيختار منهم من لا تأخذه في تعيينه لومة لائم، فذلك هو الإجراء الملائم

(١) انظر تفسير المنار ٢١٥/٥ - ٢١٦ باختصار نقلاً عن صحيح مسلم وأبي داود.

وسلوكية الإمام وسياسته. ولو استعرضنا الذين ولأهم بالمدينة إبان حكمه، لوجدنا الأبعدين منهم أكثر من الأقرين وأنه لم يكن ليولي ذوي الأرحام على حساب القريب وهو يعلم نقمة المسلمين.

ولو عدنا نستذكر حديث أول والٍ أَرادَه ولم يتم له الأمر، لوجدناه أراد تولية عبد الله بن عباس على الشام، ومعلوم أن ابن عباس هو ابن عمه، ونسخة مصفرة عنه - لو صح التعبير - فلنقرأ ما رواه الطبري في ذلك في حديث مشورة المغيرة وابن عباس وقد مرّ، وقد جاء فيه: ((فقال لابن عباس: سر إلى الشام فقد وليتكها، فقال ابن عباس: ما هذا برأي، معاوية رجل من بني أمية وهو ابن عم عثمان وعامله على الشام، ولست آمن من أن يضرب عنقي، أو أدنى ما هو صانع أن يحبسني فيتحكم عليّ. فقال عليّ: ولم؟ قال: لقرابة ما بيني وبينك، وإن كل ما حُمِلَ عليك حُمِلَ عليّ، ولكن اكتب إلى معاوية فمَنِّه وعِدِّه، فأبى عليّ وقال: والله لا كان هذا أبداً))^(١).

إذن كل ما حُمِلَ على الإمام حُمِلَ على ابن عباس، للقرابة التي بينهما. ومن الطبيعي هكذا محاولة لا تثير لغطاً ولا تساؤلاً أو نقمة بين المسلمين، لأنها حديث خاص بين الإمام وبين ابن عمه، ولم يتسرب إلى الخارج إلا بعد حين، فهم لم يعلموا به في حينه لنعرف مدى تأثيره في مجتمعهم.

لكن الذي لا شك فيه أنهم علموا بأسماء الولاة الذين أرسلهم إلى الأقطار بعد توليه الحكم، وهم على ما في الطبري من حديث سيف (٩) في حوادث سنة ٣٦هـ: ((بعث عليّ عمّاله على الأمصار فبعث عثمان بن حنيف على البصرة،

(١) تاريخ الطبري ٤/٤٤٠، وطبقات ابن سعد ١/١٧٣ تح. السلمي.

وعمارة بن شهاب على الكوفة وكانت له هجرة، وعبيد الله بن عباس على اليمن، وقيس بن سعد على مصر وسهل بن حنيف على الشام... وقد عاد إثنان منهم سهل بن حنيف وعمار بن شهاب لمقاومة ردتهم^(١).

فهذه أسماء خمسة من العمال لم يكن بينهم هاشمي من ذوي القربى إلا عبيد الله بن عباس، فهو واحد من خمسة، وهذا لا يثير تساؤلاً فضلاً عن نعمته. ثم ذكر الطبري من حديث الزهري: «فبلغ علياً مسيرهم - يعني الناكثين - فأمر على المدينة سهل بن حنيف»^(٢).

وذكر ابن الأثير في أسد الغابة في ترجمة قثم: «ولمّا ولي عليّ بن أبي طالب الخلافة استعمل قثم بن العباس على مكة فلم يزل عليها حتى قتل عليّ قاله خليفة. وقال الزبير: استعمله عليّ على المدينة»^(٣).

وأحسب أن قول خليفة هو الأصح لأننا وجدنا في نهج البلاغة كتابين ذكرهما الشريف الرضي بعنوان الأول: ومن كتاب إلى قثم بن العباس وهو عامله على مكة، أقول: وفي هذا الكتاب يحذّره من جواسيس معاوية في عمله^(٤). والثاني: من كتاب إلى قثم بن العباس وهو عامله بمكة، أقول: وفيه يأمره بإقامة الحج وينهاه عن الاحتجاب، ويحظر على أهل مكة أخذ أجرة للسكنى من الحجاج^(٥).

(١) نفس المصدر/ ٤٤٢.

(٢) نفس المصدر/ ٤٥٢.

(٣) أسد الغابة ١٩٧/٣ ط الفتى إسلامية.

(٤) شرح نهج البلاغة لمحمد عبده ٦٥/٣.

(٥) نفس المصدر/ ١٤٠.

فهذان الكتابان خير دليل على خطأ الزبير بن بكار في زعمه تولية قثم على المدينة. نعم ذكر ابن قتيبة في الإمامة والسياسة فقال: «واستخلف على المدينة قثم بن العباس - وكان له فضل وعلم - وأمره أن يشخص إليه من أحبب الشخوص ولا يحمل أحداً على ما يكره»^(١). ففعل هذا الاستخلاف في فترة معينة لأمر معين، تخيَّله الزبير - بن بكار - ولاية عامة، مع أن الثابت أن الوالي كان سهل بن حنيف، ويؤكد ذلك ما جرى للناكثين بالبصرة مع أخيه عثمان بن حنيف حين أرادوا قتله قال لهم: ما شتمت، أما أن سهل بن حنيف وال على المدينة وإن قتلتموني انتصر^(٢).

والآن وبعد تولية قثم على مكة أصبح اثنان من ذوي القربى وليا لابن عمهما مكة واليمن، ولم نسمع نفثة سخط ولا تأفف ناقم لولايتهما^(٣)، ولكن سفاجيء القارئ برواية مجهولة الراوي تجعل من ولاية عبد الله بن عباس مثار نقمة وسخط، وإثارة لفظ استطال لسانه قائلاً: لماذا قتلنا الشيخ بالأمس. وتجعل

(١) الإمامة والسياسة ٥٠/١.

(٢) نفس المصدر ٤٧٤.

(٣) نسب الصولي شعراً للمأمون العباسي ذكره في حديثه مع الراضي بالله العباسي، بين فيه سبب إحسان المأمون إلى العلوية وهو قوله:

الأم على شكر الوصي أبي الحسن	وذلك عندي من عجائب ذا الزمن
خليفة خير الناس والأول الذي	أصان رسول الله في السر والعلن
ولولاه ما عدت لهاهم إمرة	وكانت على الأيام تُقصى وتُمْتَهَن
فولئ بني العباس ما اختص غيرهم	ومن منه أولى بالتكريم والمنن
فأوضح عبد الله بالبصرة الهدى	وفاض عبيد الله جوداً على اليمن
وقسم أفعال الخلافة بينهم	فلا زلت مريبوطاً بهذا الشكر مُرتَهَن

مروج الذهب ٣٣٤/٤ تح محي الدين ط التجارية سنة ٣٧٧ هـ.

الأشتر رفيق عبد الله بن عباس في درب الكفاح والسلاح وكأنه هو الناقم والساخط، وتجعل الإمام في موقف استلطاف لامتنصاص النعمة، فلا بد لنا من وقفة تنقيب عن صحة الرواية.

لماذا قتلنا الشيخ بالأمس؟

ذكر ابن أبي الحديد في شرح النهج في ترجمة مالك الأشتر فقال: «وكان فارساً شجاعاً رئيساً من أكابر الشيعة وعظماؤها شديد التحقق بولاء أمير المؤمنين عليه السلام ونصره، وقال فيه بعد موته: رحم الله مالكاً فلقد كان لي كما كنت لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ولما قنت علي عليه السلام على خمسة ولعنهم وهم معاوية وعمرو بن العاص وأبو الأعمور السلمي وحيب بن مسلمة ويسر بن أرطاة، قنت معاوية على خمسة وهم علي والحسن والحسين عليهم السلام وعبد الله ابن العباس والأشتر ولعنهم.

وقد روي أنه قال - لما ولي علي عليه السلام بني العباس على الحجاز واليمن والعراق -: فلماذا قتلنا الشيخ بالأمس؟ وأن علياً عليه السلام لما بلغت هذه الكلمة أحضره ولاطفه واعتذر إليه وقال له: فهل وليت حسناً أو حسيناً أو أحداً من ولد جعفر أخي أو عقيلاً أو واحداً من ولده، وإنما وليت ولد عمي العباس لأنني سمعت العباس يطلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم الإمارة مراراً فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا عم إن الإمارة إن طلبتها وكلت إليها، وإن طلبتك أعنت عليها، ورأيت بنيه في أيام عمر وعثمان يجدون في أنفسهم إن ولي غيرهم من أبناء الطلقاء ولم يول أحداً منهم، فأحييت أن أصل رحمهم وأزيل ما كان في أنفسهم، وبعد

فإن علمتَ أحداً هو خير من أبناء الطلقاء فأتني به، فخرج الأشتر وقد زال ما في نفسه... اهـ^(١).

هذه هي الرواية المجهولة الهوية راوياً ومصدراً من قبل ابن أبي الحديد، ولم أقف عليها عند المؤرخين قبله بهذا اللفظ، وصار هو المصدر لمن رواها بعده، كالمجلسي في البحار^(٢) ولم يعقب على الرواية بشيء، مع أنها تستبطن بطلانها - فيما أرى - بأدنى التفات ومن دون عناء كبير، وذلك في مساواة الإمام بين بني العباس من ولاته وبين أبناء الطلقاء، فقد ورد وصفهم بذلك مرتين، مع أن لفظ الطلقاء إنما أطلقه رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على مشركي قريش حين قال لهم متاً منه عليهم: اذهبوا فأنتم الطلقاء، وكان عمه العباس ممن هاجر إليه قبل الفتح فلقبه بالسقيا أو بالجحفة ثم عاد معه، فهو ليس من هؤلاء الطلقاء قطعاً وباتفاق المؤرخين، فكيف نصدق الرواية في وصف الإمام لبني عمه باللقاء؟

نعم إذا أخذنا معنى الطلقاء بمفهومه العام كما فسره ابن أبي الحديد في شرح النهج في شرح قول الإمام ﷺ في كتابه إلى معاوية: (ولا المهاجر كالطليق) حيث قال: ((فإن قلت فهل معاوية من الطلقاء؟ قلت نعم، كل من دخل عليه رسول الله ﷺ مكة عنوة بالسيف فملكه ثم من عليه عن إسلام أو غير إسلام فهو من الطلقاء ممن لم يسلم كصفوان بن أمية ومن أسلم كمعاوية بن أبي سفيان، وكذلك كان من أسر في حرب رسول الله ﷺ ثم امتن عليه بفداء أو بغير فداء فهو طليق فمن امتن عليه بفداء كسهيل بن عمرو،

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد، ٤١٦/٣، ط مصر الأولى.

(٢) بحار الأنوار ٧٢٧/٩ ط تبريز.

وممن امتنّ عليه بغير فداء أبو عزة الجمحي وممن امتن عليه معاوضة أي اطلق لأنه بأزاء أسير من المسلمين عمرو بن أبي سفيان بن حرب كل هؤلاء معدودون من الطلقاء...ها)^(١).

فعلی ما ذهب إليه المعتزلي يمكن عدّ العباس من الطلقاء باعتبار أسرهم في حرب بدر هو وعقيل ونوفل بن الحارث وحليف لهم وقد أمره رسول الله ﷺ بأن يفدي نفسه وهؤلاء فقداهم.

لكن لم نسمع ولم نقرأ أن أحداً زعم أن عقيلاً من الطلقاء أو نوفلاً منهم، وهذا يكشف أن يد السياسة لعبت دوراً في دمج أبناء العباس بأنهم من أبناء الطلقاء. هذا أولاً.

وثانياً: سيأتي في مكاتبات جرت بين ابن عباس ومعاوية في صفين ومحاورات بعدها في أيام تولي معاوية للسلطة، دمج معاوية بوصفه من الطلقاء وأبناء الطلقاء ولم يردّ معاوية في شيء منهما الحجر على ابن عباس بأنك أيضاً من أبناء الطلقاء.

وثالثاً: هل كان الإمام ملزماً بتولية أبناء الطلقاء فقط دون غيرهم من الأكفاء من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، حتى يقول للأشتر فإن علمت أحداً هو خير من أبناء الطلقاء منهم فإتني به (٢٢).

ورابعاً: نعود إلى الدلالة اللفظية في كلمة (والعراق) فهل كانت ولاية البصرة هي ولاية كل العراق؟

ثم في قول مالك: «فلماذا قتلنا الشيخ بالأمس» هل أن مالكاً كان من قتلة عثمان؟ فهو كيف يعترف الآن بذلك بعد أن كان بالأمس يدين الناكثين بدمه؟

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد ٤٢٢/٣.

ولو سلمنا أنه كان مع الثوار وممن أجلب على عثمان، فهل صار الآن يسميه بالشيخ؟ وهو تعبير محضوف بالاحترام - بعد أن كانت تسمية الثوار له بنعتل!

إنها تناقضات تنفي الركون إلى الرواية جملة وتفصيلاً.

ومن الغريب أن أقرّ بعض المحدثين في كتاباتهم عن مالك فذكر المقولة وكأنها ثابتة ثم صار إلى انتزاع العذر له بوجه وآخر، مع أنه لا يخفى خبث الراوي المجهول حين ضرب بحجر واحد ثلاثة حقول عصافيراً فقائد كالأشتر ناظم على إمامه تولية ابن عمه، وإمام يعتذر منه ويتلطف معه، ووالد كابن عباس صار من أبناء الطلقاء بشهادة ابن عمه؟ فماذا يريد زعانفة الأمويين بعد هذا؟

نعم ليس من دخان إلا ووراءه نار - كما يقولون - وأحسب أن منشأ انتزاع ما ذكره ابن أبي الحديد هو ما أخرجه ابن سعد في الطبقات، قال - ابن سعد :- ((أخبرنا أبو عبيد عن مجالد عن الشعبي وغيره قال: أقام عليّ بعد وقعة الجمل بالبصرة خمسين ليلة، ثم أقبل إلى الكوفة واستخلف عبد الله بن عباس على البصرة، ووجه الأشتر على مقدمته إلى الكوفة، فلحقه رجل. فقال: من استخلف أمير المؤمنين على البصرة؟ قال: عبد الله بن عباس، قال: فقيم قتلنا الشيخ بالمدينة أمس، قال: فلم يزل ابن عباس على البصرة...))

وقد علق السلمي على الخبر فقال: إسناده ضعيف. مجالد بن سعيد ليس بالقوي... الشعبي... ثقة مشهور^(١).

(١) طبقات ابن سعد ١/١٧٥ تح د. محمد صادق السلمي.

أقول: فإن كان مجالد بن سعيد ليس بالقوي - فيما يرى - فإن الشعبي - فيما أرى - ناصبي كذاب تالف، ولا أتجنّ عليه في تكذيبه فإنه قال: ((من زعم أنه شهد الجمل من أهل بدر إلا أربعة فكذبه، كان عليّ وعمّار في ناحية وطلحة والزبير في ناحية))^(١) مع أنه قد روى الذهبي وغيره قول المطلّب بن زياد عن السّدي: ((شهد مع عليّ يوم الجمل مائة وثلاثون بدرياً وسبعمائة من أصحاب النبي ﷺ))^(٢) فمن هو الكذاب الأشتر؟

ومع ذلك فلم يرو لنا اعتذار الإمام وملاطفته وما جرى بينه وبين الأشتر من كلام كما مر عن ابن أبي الحديد في الرواية المجهولة الهويّة!!

وذكرها الطبري في تاريخه في خبر عن كليب الجرمي قال فيه: ((واستعمل - عليّ - عبد الله بن عباس وهو يريد أن يقيم حتى يُحكم أمرها، فأمرني الأشتر أن اشترى له أئمن بعير بالبصرة ففعلت فقال إئت به عائشة واقراها مني السلام ففعلت فدعت عليه وقالت: اردده عليه، فأبلغته فقال: تلومني عائشة ان أقلت ابن اختها. وأتاه الخبير باستعمال عليّ ابن عباس فنضب وقال: علي ما قتلنا الشيخ إذا، اليمن لعبيد الله، والحجاز لقثم، والبصرة لعبد الله، والكوفة لعليّ، ثم دعا بدهاقته فركب راجعاً، وبلغ ذلك عليّاً فتأدى الرحيل، ثم أجده السير فلاحق به، فلم يره أنه قد بلغه عنه، وقال: ما هذا السير سبقتنا، وخشي إن ترك والخروج أن يوقع في أنفس الناس شراً))^(٣).

(١) العقد الفريد ٤/٣٧٨.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢/٣٣٩ ط دار الفكر.

(٣) تاريخ الطبري ٥/١٩٤ ط الحسينية.

وهذا الذي ذكره الطبري مضافاً إلى جهالة (شيوخ) في اسناده^(١)، فهو لا يلائم ما ذكره ابن أبي الحديد، كما لا يتفق وما رواه ابن سعد. ففي رواية ابن أبي الحديد: ((أحضره الإمام ولاطفه... الخ))، وفي رواية ابن سعد: ((ليس من ذلك شيء، بل أن الأشر كان خرج على مقدمة الإمام وبأمر منه فبلغه خبر تولية ابن عباس فقال ما قال))، وفي رواية الطبري: ((كان الأشر بعد حاضراً في البصرة فلما بلغه خبر التولية خرج مغاضباً فأدركه الإمام...)).

وهكذا نجد خبر المغاضبة مهلهلاً سنداً ومتناً، ولعل من أظنح ما قرأت عن الأشر ما رواه عمر بن شبة في كتابه تاريخ المدينة قال: ((حدثنا معمر بن بكار ابن معمر قال حدثنا إبراهيم بن سعد عن صالح بن كيسان قال: جاءت امرأة الأشر إلى علي[ؑ] فقالت: يا أمير المؤمنين سمعت من عدو الله مقالة ما وسعني القيام معه عليها.

قال: وماذا سمعت؟ قالت سمعت يقول: قتلنا بالأمس خير خلق الله واستعملنا شر خلق الله، يعنيك يا أمير المؤمنين. قال: فلم يزل في نفسي عليه حتى هاج هيج مصر، فقال علي[ؑ]: من لها؟ واستشار ابن عباس[ؑ] فقال: الأشر، وكيف به مع ما قد كان.

قال أحمل العبد على الفرس، فإن هلك هلك، وإن ملك ملك.

قال: فبعث علي ذلك، فلما أتاه مصابه قال: بالاتف لا بالقم^(٢).

فهذا الخبر مضافاً إلى وجود مجهول مثل معمر بن بكار، ومطعون فيه كإبراهيم بن سعد الذي كان مغنياً ومولعاً به فليم في ذلك فانزعج علي المحدثين

(١) نفس المصدر/ ١٩٢ في أول الخبر.

(٢) تاريخ المدينة ١٣٦/٢ تح فهم محمد هلتوت ط قم.

وحلف أنه لا يحدث حتى يغني قبله^(١)، وشيخه صالح بن كيسان كان مؤدب ولد عمر بن عبد العزيز وهو تلميذ الزهري الذي كان على شرطة بني مروان، مضافاً إلى ذلك حسبنا ما رواه الشريف الرضي في نهج البلاغة: «قال النبي ﷺ وقد جاءه نعي الأشرع^(٢): (مالك وما مالك، والله لو كان جبلاً لكان فندا، ولو كان حجراً لكان صلباً، لا يرتقيه الحافر، ولا يوفى عليه الطامر). قال الرضي: والفند: المنفرد من الجبال»^(٣).

ويبقى علينا أن نذكر تمة لما سبق أن تعيين ابن عباس لولاية البصرة كان بمشورة رجل حيادي من المعتزلين للحرب مع الطرفين، وذلك هو زياد ابن أبيه فيما رواه الطبري قال: «وكان زياد بن أبي سفيان ممن اعتزل ولم يشهد المعركة، قعد، وكان في بيت نافع بن الحارث، وجاء عبد الرحمن بن أبي بكر في المستأمنين مسلماً بعد ما فرغ علي من البيعة فقال له علي: وعمك المتربص المقاعد بي! فقال: والله يا أمير المؤمنين، إنه لك لواد، وإنه على مسرتك لحريص، ولكنه بلغني أنه يشتكي، فأعلم لك علمه ثم آتاك. وكنتم علياً مكانه حتى استأمره، فأمره أن يعلمه فأعلمه، فقال علي: أمش أمامي فاهدني إليه، ففعل، فلما دخل عليه قال: تقاعدت عني وتربصت - ووضع يده على صدره وقال: هذا وجع بين - فاعتذر إليه زياد، فقبل عذره واستشاره، وأراده عليّ على البصرة، فقال رجل من أهل بيتك يسكن إليه الناس، فإنه أجدر أن يطمئنوا أو ينقادوا، وسأكفكيه وأشير عليه، فافترقا على ابن عباس، ورجع عليّ إلى منزله.

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي ٥٥٢/٧ ط دار الفكر.

(٢) نهج البلاغة الحكمة / ٤٤٣.

وأمر ابن عباس على البصرة، وولى زياداً الخراج وبيت المال، وأمر ابن عباس أن يسمع منه، فكان ابن عباس يقول: استشرته عند هنة كانت من الناس، فقال: إن كنت تعلم أنك على الحق، وأن من خالفك على الباطل، أشرت عليك بما ينبغي، وإن كنت لا تدري، أشرت عليك بما ينبغي كذلك.

فقلت: إني على الحق وإنهم على الباطل، فقال: إضرب بمن أطاعك من عصاك، ومن ترك أمرك، فإن كان أعز للإسلام وأصلح له أن يضرب عنقه فاضرب عنقه. فاستكتبه، فلما ولى رأيت ما صنع، وعلمت أنه قد اجتهد لي رأيه^(١).

هذا ما رواه الطبري إلا أن ابن الأثير وابن كثير ذكرا في تاريخيهما أن المستشار في ذلك هو أبو بكر أخو زياد لأمه.

قال ابن الأثير: «وأناه عبد الرحمن بن أبي بكر في المستأمنين أيضاً فبايعه، فقال عليّ: وما عمل المترص المتقاعد بي أيضاً - يعني أباه أبا بكر - فقال: والله إنّه لمريض، وأنه على مسرتك لحريص، فقال عليّ: امش أمامي فمشى معه إلى أبيه فلما دخل عليه عليّ قال له: تقاعدت بي وترصت بي ووضع يده على صدره وقال: هذا وجع بين، واحتذر إليه، فقبل عذره، وأراده على البصرة فامتنع وقال: رجل من أهلك يسكن إليه الناس وسأشير عليه، فافترقا على ابن عباس».

قال أبو بكر: «قدم علينا ابن عباس البصرة وما في العرب مثله حشماً وعلماً وثياباً وجمالاً وكمالاً»^(٢).

(١) تاريخ الطبري ٥٤٣/٤ ط دار المعارف.

(٢) الإصابة ترجمة ابن عباس ٣٢٢/٢ ط مصطفى محمد بمصر.

«وولى زياداً الخراج وبيت المال، وأمر ابن عباس أن يسمع منه ويعطيه، وكان زياد معتزلاً»^(١).

إعلان الولاية:

قال الشيخ المفيد في كتاب الجمل: «وروى أبو مخنف لوط بن يحيى قال: لما استعمل أمير المؤمنين عبد الله بن العباس على البصرة، خطب الناس فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي ثم قال: (معاشر الناس قد استخلفت عليكم عبد الله بن العباس فاسمعوا له، وأطيعوا أمره ما أطلع الله ورسوله، فإن أحدث فيكم، أو زاغ عن الحق فاعلموا أنني أعزله عنكم، فإنني أرجو أن أجده عفيفاً تقياً ورعاً، وإنني لم أوله عليكم إلا وأنا أظن ذلك به، غفر الله لنا ولكم»^(٢).

وهذه أول ولاية في تاريخ الخلافة الإسلامية يقوم فيها الخليفة فيعلن بنفسه أمر الاستخلاف على المسلمين! إذ لم يُعهد مثل ذلك من قبل حتى من الإمام يوم استخلف سهل بن حنيف على المدينة وهو يريد الخروج إلى ملاحقة الناكثين، كما لم تتكرر ثانية منه ~~الخطبة~~ فإنه حينما استقر في الكوفة، ثم أراد الخروج إلى صفين واستعمل على الكوفة بها مسعود الأنصاري، لم يذكر لنا التاريخ صعوده المنبر وإعلان استخلاف الوالي بمكانه.

(١) الكامل في التاريخ ١١٠/٣ ط بولاق بمصر، وقارن البداية والنهاية لابن كثير ٢٤٥/٧ ط السعادة بمصر.

(٢) كتاب الجمل / ٢٠٨ ط الحيدرية سنة ١٣٦٨ هـ.

قال طه حسين: ((وأمر عليّ على البصرة عبد الله بن عباس، وما نرى أنه كان يستطيع أن يؤمر غيره، فالكثرة في البصرة مضرة، وما ينبغي أن يؤمر عليها بعد الفتنة إلا رجل من مضر شديد القرابة من عليّ))^(١).

وما ذكره لا يخلو من صحة، فإن القبائل المضرية بالبصرة كانت تفوق التركيبة السكانية كما يتّنت من قبل. ولعل تأكيد المستشار - أبي بكر أو زياد - على أن يكون الوالي رجلاً من أهل الإمام يسكن إليه الناس يشير إلى ذلك.

وقد ذكرت فيما مضى حديث حذيفة وفيه خروج عائشة، فقال: ((تقاتل معها مضر مضرها الله في النار، وأزد عمان سلت الله أقدامها، وإن قيساً لن تنفك تبغي دين الله شراً حتى يركبها الله بالملائكة فلا يمتنعوا ذنب تلمعة))^(٢). وسيأتي في حادثة مجيء الجاسوس ابن الحضرمي إلى البصرة لإفساد الأمر من قبل معاوية قال له معاوية: ((فانزل في مضر، وتودد الأزد فإنهم كلهم معك، ودع ربيعة، فلن ينحرف عنك أحد سواهم، لأنهم كلهم ترابية فاحذرهم...)).

فهذا جميعه يقرب صحة نظر الدكتور طه حسين في أن الإمام ما كان يستطيع أن يؤمر غير ابن عباس لأنه مضري وشديد القرابة منه، مضافاً إلى بقية مؤهلاته الشخصية.

(١) الفتنة الكبرى ٢/٦٠ ط دار المعارف.

(٢) ذكره ابن قتيبة في غريب الحديث ٢/٢٥٠. وقال ابن أبي الحديد في شرح النهج ٣/٤١: وهذا الحديث من اعلام نبوة النبي ﷺ لأنه إخبار عن قيب تلقاه حذيفة عن النبي ﷺ، وحذيفة أجمع أهل السيرة على أنه مات في الأيام التي قتل عثمان فيها واتاه نبيه وهو مريض فمات وعليه ﷺ لم يتكامل بيعة الناس ولم يدرك الجمل.

وذكر الشيخ المفيد في كتاب الجمل: «إن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام كتب بعد فتح البصرة إلى أهل الكوفة يخبرهم بالفتح، وجاء في آخر الكتاب: واخترت لهم عاملاً واستعملته عليهم وهو عبد الله بن عباس وإني سائر إلى الكوفة إن شاء الله تعالى. وكتب عبيد الله بن أبي رافع في جمادى الأولى سنة ست وثلاثين»^(١).

ويعيننا في المقام تاريخ الكتاب، فقد تبين أن استعمال الإمام علي أهل البصرة عامله ابن عباس كان في جمادى الأولى. وإذا عرفنا أن مغادرة الإمام للبصرة كانت في شهر رجب بعد إقامة خمسين ليلة، بعد الحرب تبين أن معايشة العامل الجديد لإمامه وخليفته استدامت قرابة شهرين. وهي فترة كافية للإفادة والاستفادة، فمباشرة من العامل في عمله وما أنيط به، ورقابة من الإمام على أعمال وإليه ومن يمت إليه وقد كانت في تلك الفترة قضايا شهد بها ابن عباس وذكروا له فيها ذاتية نشير إلى بعضها:

ففي تلك الفترة التي قضاها الإمام في البصرة وضع أساس علم النحو. فقد روى أبو القاسم الزجاجي في أماليه بسنده عن أبي الأسود الدؤلي قال: «دخلت على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فرأيتَه مطرَقاً مفكراً، فقلت: فيم تفكر يا أمير المؤمنين؟

قال: إني سمعت بيلدكم هذا لحناً، فأردت أن أضع كتاباً في أصول العربية. فقلت: إن فعلت هذا أحييتنا وبقيت فينا هذه اللغة.

ثم أتيت بعد ثلاث فألقي إلي صحيفة فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم: الكلام. كله اسم وفعل وحرف، فالاسم ما أنبأ عن المسمى، والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى، والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل.

ثم قال: تتبعه زد فيه ما وقع لك، واعلم يا أبا الأسود: أن الأشياء ثلاثة: ظاهر ومضمر، وشيء ليس بظاهر ولا مضمر، وإنما يتفاضل العلماء في معرفة ما ليس بظاهر ولا مضمر.

قال أبو الأسود: فجمعت منه أشياء وعرضتها عليه فكان من ذلك حروف النصب فذكرت منها: إن وأن، وليت ولعل وكأن، ولم أذكر لكن، فقال لي: لم تركتها؟

فقلت: لم أحسبها منها، فقال: بلى هي منها فزدها فيها^(١).

وهذا ما تكاد المصادر المعنية تجمع عليه، ويبدو من ابن جنبي في الخصائص (باب صدق النقلة وثقة الرواة والحمللة) في معرض كلامه عن أولية النحو، أن لابن عباس في ذلك أيضاً تحقق في المقام فقد قال: «هذا موضع من هذا الأمر لا يعرف صحته إلا من تصوّر أحوال السلف فيه تصوّرهم ورآهم من الوفور والجلالة بأعيانهم، واعتقد في هذا العلم الكريم ما يجب اعتقاده له، وعلم أنه لم يوفق لاختراعه، وابتداء قوائمه وأوضاعه، إلا البرّ عند الله سبحانه الحظيظ بما نوه به وأعلى شأنه، أو لا يعلم أن أمير المؤمنين علياً - ﷺ - هو البادئ والمنتبه عليه، والمنشئ والمرشد إليه.

(١) انظر الأضواء والنظائر للسيوطي ٧/١ ط حيدر اباد.

ثم تحقّق ابن عباس عليه السلام به، واكتفأل أبي الاسود رضي الله عنه - إياه، هذا بعد تنبيه رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - عليه وحضه على الأخذ بالحظ منه. ثمّ تآلى السلف...^(١).

وفي تلك الفترة أيضاً علم الإمام أمير المؤمنين عليه السلام كميل بن زياد الدعاء المعروف باسمه، وهو دعاء الخضر عليه السلام.

كما روى ذلك السيد ابن طاووس في كتابه الإقبال: «فقد قال كميل بن زياد: كنت جالساً مع مولاي أمير المؤمنين صلوات الله عليه في مسجد البصرة ومعه جماعة من أصحابه، فقال بعضهم: ما معنى قول الله تعالى ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾^(٢)»

قال عليه السلام: هي ليلة النصف من شعبان، والذي نفسي بيده إنه ما من عبد إلا وجميع ما يجري عليه من خير وشر مقسوم له في ليلة النصف من شعبان إلى آخر السنة في مثل تلك الليلة المقبلة، وما من عبد يحييها ويدعو بدعاء الخضر عليه السلام إلا أجيب له.

فلما انصرف طرفته ليلاً فقال عليه السلام: ما جاء بك يا كميل؟ قلت: يا أمير المؤمنين دعاء الخضر عليه السلام.

فقال: اجلس يا كميل إذا حفظت هذا الدعاء فادع به كل ليلة جمعة، أو في الشهر مرة، أو في السنة مرة، أو في عمرك مرة، تكف وتصر وترزق، ولن تعدم المغفرة، يا كميل أوجب لك طول الصحبة لنا أن نجد لك بما سألت.

(١) الخصائص ٣/٣٠٩.

(٢) الدخان / ٤.

ثم قال: اكتب وذكر له الدعاء المعروف بدعاء كميل^(١).

وفي تلك الفترة أيضاً حدثت بالبصرة حادثة الغلاة من الزط.

فقد روى الكليني في الكافي بسنده عن الصادق عليه السلام: ((إن أمير المؤمنين عليه السلام لما فرغ من أهل البصرة أتاه سبعون رجلاً من الزط فسلموا عليه وكلموه بلسانهم فردّ عليهم بلسانهم، ثم قال لهم: إني لست كما قلتُم أنا عبد الله مخلوق، فأبوا عليه وقالوا: أنت هو، فقال لهم: لئن لم تنتهوا وترجعوا عما قلتُم فيّ وتوبوا إلى الله تعالى لأقتلنكم، فأبوا أن يرجعوا ويتوبوا، فأمر لهم أن تحفر لهم آبار فحفرت ثم حرق بعضها إلى بعض، ثم قذفهم فيها، ثم خمر رؤوسها ثم ألهب النار في بئر منها ليس فيها أحد منهم، فدخل الدخان عليهم فماتوا))^(٢).

وهذه الحادثة التي ذكرت العامة أن ابن عباس نقد فيها فعل الإمام، وسيأتي الكلام في ذلك في روايات تافهة، في آخر خلافة الإمام، وأوفى من ذلك في الحلقة الثالثة في بحث (مسألة التحريق بين التشريع والتطبيق).

وصية الإمام للوالي:

قال الشيخ المفيد في كتابه الجمل: ((ومما رواه الواقدي عن رجاله قال: لما أراد أمير المؤمنين الخروج من البصرة استخلف عليها عبد الله بن العباس ووصاه، وكان في وصيته له أن قال: يا ابن عباس عليك بتقوى الله والعدل بمن وكيت عليه، وأن تبسط للناس وجهك، وتوسع عليهم مجلسك وتسعهم بحلمك، وإياك

(١) راجع الإقبال في أعمال ليلة النصف من شعبان.

(٢) الكافي ٢٥٩/٥ ط إسلامية والزهد: جيل من الناس الواحد: زطي مثل الزنج وزنجي والروم ورومي (الصحاح/١١٢٩) وهي قطر المحيط ٨٤٣/١: طائفة من أهل الهند... وهم المعروفون في الشام بالنور.

والغضب فإنه طيرة الشيطان، وإياك والهوى فإنه يصدك عن سبيل الله، واعلم أن ما قرئك من الله فهو مباحدك من النار، وما باعدك من الله فمقرئك من النار، واذكر الله كثيراً ولا تكن من الغافلين^(١).

وقد روى - ومن قبل المفيد - ابن قتيبة في الإمامة والسياسة هذه الوصية بتفاوت في اللفظ يسير^(٢)، كما رواها من بعده الشريف الرضي في نهج البلاغة بعنوان: (ومن وصية له عليه السلام لعبد الله بن عباس عند استخلافه إياه على البصرة)^(٣)، ويبدو من بعض نسخ النهج أن الوصية كانت تحريرية وليست شفاهاً لأن الشريف الرضي عنوانها ومن كتاب له عليه السلام^(٤)، ورواها السيد يحيى بن حمزة الزيدي المتوفى سنة ٧٤٩ في الطراز بتفاوت في اللفظ^(٥).

حياته في إمارة البصرة:

لا أريد استعراض جميع جوانب حياة حبر الأمة في أيام إمارته بالبصرة. فإنها حياة أمير دامت إمارته قرابة خمس سنين - من شهر ج ١ سنة ٣٦ إلى أن خرج من البصرة - وقد مرت به ملايسات ومعاكسات، وأحداث زادت وخر الصدور له وعليه، ووسعت الانقسام في الرأي بين ناصريه ومناوئيه. فما ظنك بحياة أمير يتولى إمرة أناس فرقتهم الفروق القبلية الظاهرة البينة، وزادتهم فرقة الإحن فيما بينهم - وتلك إحدى مخلفات الحرب بالأمس - وبينهم يعيش كثيرون

(١) كتاب الجمل / ٢٠٧ ط الحيدرية سنة ١٣٦٨ هـ.

(٢) الإمامة والسياسة / ٧٦.

(٣) شرح نهج البلاغة لمحمد عبده ١٤٩/٣.

(٤) لاحظ مصادر نهج البلاغة ٤٧٧/٣.

(٥) الطراز من وجوه الإجماع ٢/٢٩٣ ط مصر.

قلق الضمائر الخفي، فمنهم الراغب الطامع في المال والجاه على استحياء وبدون استحياء، وبينهم الراهب المستخفي بكرهيته لو يتاح له إعلان الخلاف، فهو خاضع رهباً ليس من الرضا وراحة الضمير بحيث يحب، وقليل ما هم المناصرون له في السر والعلن. فهكذا حياة يصعب تأريخها مستوفى لكل شاردة وواردة.

إذن لا بد من جمع الشذرات المتناثرة، واللمحات الإجتماعية المتباينة لتكون نواة دراسة قريبة من التكامل تكفي لإعطاء صورة عن حياة ذلك الأمير في ولاية ذلك البلد المترامي الأطراف سعة على اختلاف طبائع أهله من حيث التركيبة السكانية، وهذا هو النهج الذي سوف أسير عليه لتأريخ تلك الفترة المليئة بالمفاجآت والمفارقات.

وذلك هو السبيل لمعرفة الحياة العملية التي عاشها ابن عباس، ويتم من خلال عرض نماذج من جوانب حياته: النشاط الإداري والسياسي، والتوجيه العلمي والديني، والسلوك الشخصي.

١- النشاط الإداري والسياسي:

لقد تولى مهام الولاية العامة بعد مفادرة الإمام إلى الكوفة، فواجهته الانقسامات الفكرية من مخلفات الحرب قسمة طبقة القراء، وهؤلاء أقرب إلى العثمانية، وبعد فهم من أصحاب أبي موسى الأشعري يوم كان والياً بالبصرة من أيام عمر حتى عزله عثمان. ويمكن أن نعدّهم نواة للخوارج الذين خرجوا على طاعة الإمام في صفين.

وواجهته الإنقسامات القبلية وهي أشدّ عنفاً وشراسة، فالقبائل المضربة والأزد - وتميم منهم - إن لم تكن جميعها تبغض الحكم القائم، فلا شك في أن كثيراً منهم خصوصاً بعض قبائل بني تميم كانت تبغضه، وتتخذ علانية الحكم والنظام القائم الممثل بشخصية الوالي من دون خوف ولا حياء، وكلما تسامح معهم ازدادوا غيًّا، وكلما نصح صوّوا أسماهم عن نصائحه كأن رغاء (حسك) لا يزال ملأ أسماهم، مصرّين على الخلاف، واستداموا على ذلك - فيما يبدو - إلى أمد بعيد وأحسب أنها - كما سماها ابن عباس - الهناة التي كانت من الناس فاستشار فيها زياداً، وهي أوّل تجربة له في اختباره زياداً وهل بقي في نفسه بعد من درن الاعتزال شيء؟

فقال له: إن كنت تعلم أنك على الحق، وأن من خالفك على الباطل أشرت عليك بما ينبغي، وإن كنت لا تدري أشرت عليك بما ينبغي كذلك.

فقال له ابن عباس: إني على الحق وإنهم على الباطل.

فقال: اضرب بمن أطاعك من عصاك ومن ترك أمرك، فإن كان أعزّ للإسلام وأصلح له أن يضرب عنقه فاضرب عنقه^(١).

ومع أن زياداً اجتهد له رأيه، فإن ابن عباس لم يكتف بذلك فكان عليه أن يستطلع رأي الإمام، فكتب إليه فيما ينبغي له عمله في معالجة الأمور. فكان جواب الإمام إليه:

(من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى عبد الله بن عباس، أما بعد فالحمد لله ربّ العالمين وصلّى على سيّدنا محمّد عبده ورسوله. أما بعد فقد قدّم عليّ

(١) تاريخ الطبري ٤/٥٤٣ ط دار المعارف.

رسولك (أتاني كتابك) وذكرت ما رأيت (تذكر فيه ما رأيت من أهل البصرة بعد خروجي منهم وإنما ينتمون لرغبة يرجونها أو عقوبة يخافونها) وبلغك عن أهل البصرة بعد انصرافي وسأخبرك عن القوم: هم بين مقيم لرغبة يرجوها، أو عقوبة يخشاها، فأرغب راغبهم بالعدل عليه، والانصاف له، والاحسان إليه، وحلّ عقدة الخوف عن قلوبهم، فإنه ليس لأمرأه أهل البصرة في قلوبهم عظم إلا قليل منهم، وانه إلى أمري ولا تعلته، وأحسن إلى هذا الحي من ربيعة وكلّ من قبلك فأحسن إليهم ما استطعت ان شاء الله والسلام). وكتب عبيد الله بن أبي رافع في ذي القعدة سنة ٣٧^(١).

فانتهى الحبر لأمر الإمام، إلا أن من بني تميم من لم يزالوا على تكبرهم، حتى كانوا يترصدون عليه أعماله وأقواله لعلهم يصيبوا منه غرة عن خفلة، فهبأوا له ناساً يردون عليه وهو على المنبر، وهذا أزرى ما تقوم به الرعية مع الراعي، كما حدث أنه كان يخطب مرة بعد العصر، فلم يزل يخطب حتى غربت الشمس وبدت النجوم في السماء، فطفق رجل من بني تميم يقول: الصلاة الصلاة، ولا شك أنه قصد استغزاز الناس للنقمة بتلك النغمة. لكن ابن عباس وهو حبر الأمة لم يحفل به، بل قال له: لا أم لك أنت تعلمني السنة، فقد جمع رسول الله ﷺ بين الصلاتين بين المغرب والعشاء، ثم أقبل على الناس وأتمّ خطبته، ثم نزل فصلى بالناس^(٢).

وإذ تجاوز عتوّ بني تميم حدود الصبر عليه، تتمر لهم ابن عباس بإقصائهم عن مجلسه، وكلمه بعض الأشراف فيهم فسأهم له: شيعة الجمل وأنصار عسكر

(١) نهج الصاعدة ١٢٩/٤ نقلًا من كتاب صفين لنصر بن مزاحم وشرح ابن أبي الحديد، ويحار الأدوار، وذهمة الناظر للحلواني. وما بين القوسين منها.

(٢) سيااتي المصدر مع بيان أكثر حول هذه الواقعة هي (التوجيه العلمي والديني).

- اسم جمل عائشة - وحزب الشيطان، واشتد عليهم، فكبر ذلك على رجال منهم ممن أخلصوا للإمام في الطاعة وكانوا من شيعة كجارية بن قدامة السعدي الذي كتب إلى الإمام يخبره بجفاء ابن عباس وإضرار ذلك بهم، فكتب الإمام إلى ابن عباس يأمره بالعمو عنهم، وتقريبهم ليتألف بذلك قلوبهم.

(أما بعد فخير الناس عند الله غداً أعلمهم بطاعته فيما عليه وله، وأقواهم بالحق وإن كان مرأاً، ألا وإنه بالحق قامت السموات والأرض فيما بين العباد، فلتكن سريرتك فعلاً، وليكن حملك واحداً، وطريقتك مستقيمة، واعلم أن البصرة مهبط إبليس ومفرس الفتن، فحادث أهلها بالإحسان إليهم، واحلل عقدة الخوف عن قلوبهم، وقد بلغني تمرك لبني تيم وغلظتكم عليهم، وإن بني تيم لم يغب منهم نجم إلا طلع لهم آخر، وأنهم لم يسبقوا بوزم^(١) في جاهلية ولا إسلام، وإن لهم بنا رحماً مائة^(٢)، وقرابة خاصة^(٣)، نحن ماجورون على صلتها،

(١) الوهم: الحربة والحدق، والثار أي لم يسبقهم أحد في البأس.

(٢) حكى ابن أبي الحديد في شرح النهج ٤٢٥/٣ ط مصر الأولى عن أبي عبيدة معمر بن المثنى ذكر في كتابه التاج: إن لبني تيم مآثر لم يشركهم فيها غيرهم... وحكى عنه في ٤٢٧/ أنه قال: ولبني عمرو بن تيم خصال تعرفها لهم العرب ولا ينازهم فيها أحد: فمنها أكرم الناس مماً وعممة وجداً وجدته وهو هند بن أبي هالة واسم أبي هالة نباش بن زارة أحد بني عمرو بن تيم، كانت خديجة بنت خويلد قبل النبي ﷺ تحت أبي هالة، فولدت له هنداً ثم تزوجها رسول الله ﷺ وهند بن أبي هالة غلام صغير فتبناه النبي ﷺ ثم ولدت خديجة من رسول الله ﷺ القاسم والطاهر وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، فكان هند بن أبي هالة أخاهم لأمه، ثم أولد هند بن أبي هالة هند بن هند، فهند الثاني أكرم الناس جداً وجدته يعني رسول الله ﷺ وخديجة وأكرم الناس مماً وعممة يعني بني النبي ﷺ ونثاله.

أقول: ما ذكره أبو عبيدة يثبت لهم الرحم الماسة التي أثار إليها الإمام.

(٣) أما القرابة الخاصة لعل المراد بها مصاهرة الإمام لهم حيث كانت عنده لبلى بنت مسعود الحنظلية من بني تيم وهي أم ولديه عبيد الله وأبي بكر كما في تاريخ اليعقوبي

مأزورون على قطيعتها، فأربع أبا العباس -رحمك الله- فيما جرى على يدك
ولسانك من خير وشر، فإننا شريكان في ذلك، وكن عند صالح ظني بك، ولا
يفيلن رأبي فيك والسلام^(١).

ويبدو أن تميمياً - وهم أكبر قطاع عربي في البصرة - لم يستطع ابن عباس
أن يحول العثمانية منهم عن رأيهم وروحهم العدائني، لذلك فقد تسلل منهم -
ولتسميهم خوارج كما فعل ابن الأثير في تاريخه^(٢) حيث ذكر قصد الخوارج -
إلى سجستان حين نكث أهلها ببيعة الإمام.

قال ابن خلدون: ((ولمّا فرغ الناس من هذه الواقعة - يعني حرب الجمل -
اجتمع صماليك من العرب وعليهم جيلة بن عتاب الحنظلي، وعمران بن الفضل
البرجمي وقصدوا سجستان وقد نكث أهلها، وبعث عليّ اليهم عبد الرحمن بن
جرو الطائي فقتلوه، فكتب إلى عبد الله بن عباس أن يبعث إلى سجستان والياً،
فبعث رعي بن كاس العنبري في أربعة آلاف ومعه الحصين بن أبي الحر، فقتل
جيلة وانهمزوا وضبط رعي البلاد واستقامت))^(٣).

وأحسب أن رواية ابن خلدون غير متكاملة الصحة، لتحريف في بعض
الأسماء، وبالرجوع إلى رواية البلاذري في فتوح البلدان يتضح الحال.

(١) روي هذا الكتاب في النهج ٢٠/٣ من دون المقدمة، وروي معها في شرح النهج لابن ميثم
٣٩٥/٤ وعنه في بحار الأنوار ٦٣٤/٨ ط الكمباني.

وروي أبو هلال العسكري في الصناعاتين / ٢٧٠ ط الثانية محمد عليّ صبيح بمصر فقرات
منه ، والباقلاني في اصجاز القرآن ١٠٣/١، وفي الطراز للسيد يحيى الزبيدي طرفاً منه
راجع ٢١٩/١ و ٤١٦ ط مصر.

(٢) تاريخ ابن الأثير ١١٣/٣ ط بولاق.

(٣) تاريخ ابن خلدون ١٠٩٠/٢ ط التربية ودار الكتاب اللبناني بيروت.

قال البلاذري: «ولمّا فرغ عليّ بن أبي طالب عليه السلام من أمر الجمل خرج حسكة بن عتاب الحبطي وعمران بن الفضيل البرجمي في صعاليك من العرب، حتى نزلوا (زالق)^(١) وقد نكث أهلها فأصابوا مالا وأخذوا جد البخثري، الأصم ابن مجاهد مولى شيان، ثم أتوا (زرنج)^(٢) وقد خافهم مرزبانها فصالحهم ودخلوها وقال الراجز:

بشّر سجستان بجوع وحرب باهن الفضيل وصعاليك العرب
لا فضة تغنيهم ولا ذهب

وبعث عليّ بن أبي طالب عبد الرحمن بن جزء الطائي إلى سجستان فقتله حسكة، فقال عليّ: لأقتلنّ من الحبطات أربعة آلاف، فقبل له: إن الحبطات لا يكونون خمسمائة. فتخيل السامعون أنه أراد الحبطات نسباً ولم يفقه السامعون معنى كلامه عليه السلام، إنما أراد من كان على رأيهم ومعهم من الخوارج وإلا كيف يقتل من الحبطات من لم يشترك في الخروج مع حسكة ابن عتاب الحبطي)^(٣).

قال البلاذري في فتوح البلدان: «وقال أبو مخنف: وبعث عليّ عليه السلام عون بن جمدة بن هبيرة المخزومي إلى سجستان فقتله بهدالي اللصر الطائي في طريق العراق، فكتب عليّ إلى عبد الله بن العباس يأمره أن يولي سجستان رجلاً في أربعة آلاف، فوجه ربعي بن الكاس العنبري في أربعة آلاف، وخرج معه

(١) زالق، لاهه مكسورة، رستاق كبير من ذواحي سجستان في قصور وحصون.

(٢) زرنج، كسمند قهبة سجستان.

(٣) فتوح البلدان / ٤٠٦ - ٤٠٣.

الحصين بن أبي الحرّ - واسم أبي الحر مالك بن الخشخاش - العنبري، وثات بن ذي الحرّة الحميري، وكان على مقدمته، فلما وردوا سجستان قاتلهم حسكة فقتلوه، وضبط رعيّ البلاد فقال راجزهم:

نحن الذين اقتحموا سجستان على ابن عتاب وجند الشيطان
يقدمنا الماجد عبد الرحمن إننا وجدنا في منير الفرقان
أن لآنوالي شيعة ابن عفان

وكان ثات يسمى عبد الرحمن... (ها) (١).

ولما وردت الأخبار مباشرة بقتل حسكة (الخارجي) وضبط رعيّ بن كاس (القائد المظفر) للبلاد، فمن الطبيعي أن يسرّ ابن عباس كثيراً لأنه تمّ له بفضل اختياره للقائد ورجاله قمع أولّ خارجه على النظام في حكومة الإمام. كما أن من الطبيعي خُفّ وغر الصدور بينه وبين بني تميم، حين ولى رعيّ بن كاس العنبري وهو من بني تميم.

ومن الطبيعي أيضاً إنه كتب بخبر ذلك الفتح المبين وقطع دابر المفسدين إلى الإمام فسره بذلك، ولا شك في انتشار الخبر في الكوفة فقت ذلك في عضد المترهبين.

وفي أعقاب هذا الحدث جرت مكاتبات بين الإمام وبين ابن عباس، وذلك في غضون سبعة عشر شهراً التي أقامها الإمام في الكوفة قبل حرب صفين كاتب فيها معاوية وعمرو بن العاص، كما في حديث الشعبي حيث قال: ((إن علياً قدم

(١) نفس المصدر/٤٠٣.

البصرة مستهل رجب الكوفة وأقام بها سبعة عشر شهراً يُجري الكتب فيما بينه وبين معاوية وعمر بن العاص^(١).

ولمّا كان المعنيّ لنا فعلاً كتب الإمام إلى ابن عباس في مختلف الشؤون خلواً من التاريخ، فلم يسعني تحديد زمان صدورها إلا إجمالاً، وأنها في الفترة التي سبقت حرب صفين، فأنا أوردتها حسب ورودها في كتاب (وقعة صفين) لنصر بن مزاحم المتوفى ٢١٣ هـ فهو أقدم وثيقة تاريخية يمكنني الاعتماد عليها في المقام بعد تصحيح عنوان الأول منها لما سيأتي:

١- قال نصر: ((وكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى عبد الله بن عامر^(٢) والصواب: عباس.

أما بعد: فإن خير الناس عند الله ﷺ أقومهم لله بالطاعة فيما له وعليه، وأقولهم بالحق ولو كان مرأً، فإن الحقّ به قامت السموات والأرض، ولتكن سريرتك كعلايتك، وليكن حكمك واحداً، وطريقتك مستقيمة، فإن البصرة مهبط الشيطان، فلا تفتحن على يد أحد منهم باباً لا تطيق سدّه نحن ولا أنت. والسلام)).

أقول: زوى نصر ذلك في كتابه^(٣) باسم (عبد الله بن عامر) وذلك من غلط النسخة إمّا من سهو الرواة أو غلط النساخ، لأن الإمام لم يولّ عبد الله بن عامر على البصرة يوماً ما، والصواب: إلى عبد الله بن عباس.

٢- قال نصر: ((وكتب: بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى عبد الله بن عباس.

(١) وقعة صفين لنصر بن مزاحم المنقري ط الأولى بالقاهرة سنة ١٣٦٥ هـ.

(٢) نفس المصدر/ ١١٩، وهد حجرية بايران/ ٥٧/ سنة ١٣٠٠.

أنا بعد: فانظر ما اجتمع عندك من غلات المسلمين وفيهم، فاقسمه على من قبلك حتى تغنيهم، وابعث إلينا بما فضل نفسه فيمن قبلنا والسلام»^(١).

قال ابن أبي الحديد في شرح النهج: «وكان العمال يحملون المال من كور البصرة إلى ابن عباس فيكون هو الذي يبعث به إلى أمير المؤمنين عليه السلام»^(٢).

٣- قال نصر: «وكتب: بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى عبد الله بن عباس أما بعد: فإنّ الإنسان قد يسره ما لم يكن ليفوته، ويسوءه فوت ما لم يكن ليدركه وإن جهد، فليكن سرورك فيما قدّمت من حكم أو منطلق أو سيرة، وليكن أسفك على ما فرطت له فيه من ذلك، ودع ما فاتك من الدنيا فلا تكثر به حزناً، وما أصابك فيها فلا تبغ به سروراً، وليكن همك فيما بعد الموت. والسلام»^(٣).

أقول: لقد روى الشريف الرضي رحمته الله هذا الكتاب مرتين في نهج البلاغة. الأولى: قال الشريف الرضي: «ومن كتاب له عليه السلام إلى عبد الله بن العباس وكان ابن عباس يقول: ما انتفعت بكلام بعد كلام رسول الله كاتفاصي بهذا الكلام.

أما بعد: فإنّ المرء قد يسره درك ما لم يكن ليفوته، ويسوءه فوت ما لم يكن ليدركه، فليكن سرورك بما نلت من آخرتك، وليكن أسفك على ما فاتك منها، وما نلت من دنياك فلا تكثر به فرحاً، وما فاتك فلا تأس عليه جزعاً، وليكن همك فيما بعد الموت»^(٤).

(١) نفس المصدر.

(٢) شرح النهج لابن أبي الحديد ١/٣٧٠ ط مصر الأولى.

(٣) وقعة صفين ١١٩/ ط ١ بمصر بتحقيق هارون.

(٤) شرح النهج البلاغة لمحمد صيد ٣٣/٣ ط الاستقامة.

الثانية: قال الشريف الرضي: ((ومن كتاب له عليه السلام إلى عبد الله بن العباس، وقد تقدم ذكره بخلاف هذه الرواية: أما بعد: فإن المرء ليفرح بالشيء الذي لم يكن ليفوته ويحزن على الشيء الذي لم يكن ليصيبه، فلا يكن أفضل ما نلت في نفسك من دنياك بلوغ لذة أو شفاء غيظ، ولكن إطفاء باطل أو إحياء حق، وليكن سرورك بما قدمت، وأسفك على ما خلقت، وهمك فيما بعد الموت))^(١).

ورواه غير الشريف الرضي من كان قبله، ومن كان بعده بتفاوت يوحى بتعدد الروايات عند أصحاب المصادر، ولما كان جو الكتاب وفحوى الخطاب يوحى بوقوع حدث استوجب حزن ابن عباس، فكان الكتاب تسلية له عما فات، وموعظة له في شأن تقلبات الحياة بأن عظة الإنسان واعتباره فيما بعد الموت. وفي بعض مصادر الكتاب ما يؤكد ذلك.

فاليقوي في تاريخه ذكر سبب ذلك فقال: ((وكتب أبو الأسود الدؤلي - وكان خليفة عبد الله بن عباس بالبصرة - إلى علي عليه السلام يعلمه أن عبد الله أخذ من بيت المال عشرة آلاف درهم، فكتب إليه يأمره بردها فامتنع، فكتب يقسم له بالله لتردها، فلما ردها عبد الله بن عباس أو رد أكثرها كتب إليه علي عليه السلام: أما بعد فإن المرء يسره ما لم يكن ليفوته، ويسوؤه فوت ما لم يكن ليديره، فما أتاك من الدنيا فلا تكثر به فرحاً، وما فاتك منها فلا تكثر عليه جزعاً، واجعل همك لما بعد الموت والسلام. فكان ابن عباس يقول: ما اتعظت بكلام قط اتعظي بكلام أمير المؤمنين))^(٢).

(١) نفس المصدر ٣/١٣٩.

(٢) تاريخ اليقوي ٢/١٨١ ط النجف.

وورد في تذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي ما يؤكد صدور ذلك الكتاب في جوّ مماثل لما رواه يعقوبي^(١).

ولمّا كان الأمر يتعلق بمسألة أخذه من بيت مال البصرة من دون إذن الإمام، وهي إحدى الطعون الموجهة إليه، وكانت محل النقض والإبرام بين الأعلام، فالكلام في بحثها يأتي محققاً في الحلقة الرابعة (عبد الله بن عباس في الميزان) ضمن مسائل الطعون الأخرى، ونكتفي في المقام بذكر مصادر هذا الكتاب إجمالاً على اختلاف رواية أصحابها ويأتي التفصيل في محله إن شاء الله وهي:

- ١- أدب الدنيا والدين للماوردي / ٦٤.
- ٢- إعجاز القرآن للباقلاني ١٢١/١ ط السلفية سنة ١٣٤٩ هـ.
- ٣- أمالي القاضي ٩٤/٢.
- ٤- بحار الأنوار ٤٧٥/٨ ط الكمباني.
- ٥- البصائر والذخائر لأبي حيان التوحيدي / ٣٥٣.
- ٦- تاريخ دمشق لابن عساكر (ترجمة الإمام) ٢٢٠/٣.
- ٧- تاريخ يعقوبي ١٨١/٢ ط التنجف.
- ٨- تحف العقول / ١٩٧ ط كتابفروشي اسلامية.
- ٩- تذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي / ١٦٠.
- ١٠- الحكمة الخالدة لابن مسكويه / ١٧٩.
- ١١- دستور معالم الحكم للقضاعي / ٩٦.

(١) تذكرة الخواص / ١٦٠ ط حجرية سنة ١٢٨٥.

- ١٢- روضة الكافي شرح ملا صالح المازندراني برقم ٣٢٧. ٣١٠/١٢.
- ١٣- الرياض النضرة للمحب الطبري ٢٢٢/٢.
- ١٤- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٤٣٠/٣ و ٢٢٢/٤.
- ١٥- شرح نهج البلاغة لابن ميثم ٢١٥/٥.
- ١٦- شرح نهج البلاغة للخوئي ٣٤٤/١٨.
- ١٧- شرح نهج البلاغة لمحمد عبده ٢٣/٣ و ١٣٩.
- ١٨- الطراز في دلائل الاعجاز للسيد الزبيدي ٣٧٠/٢.
- ١٩- العقد الفريد لابن عبد ربه ١٤٢/٣ تح. أحمد أمين ورفيقه.
- ٢٠- عين الادب والسياسة لابن هذيل / ٢١٠.
- ٢١- قوت القلوب لأبي طالب المكي ١٥٨/١.
- ٢٢- الكشكول للبهائي ٢٨٤ ط نجم الدولة.
- ٢٣- المثل السائر لابن الأثير ١٠٤/١ ط سنة ١٣٥٤ وألحق في آخره: ((ولا تكن ممن يرجو الآخرة بغير عمل ويؤخر التوبة بطول الأمل وكان قد والسلام)).
- ٢٤- مجالس ثعلب ١٨٦.
- ٢٥- محاضرات الراغب ١٧٣/٢.
- ٢٦- مرآة العقول للمجسي ٣٥٤/٤ ط الحجرية.
- ٢٧- مطالب السؤول لابن طلحة الشافعي ٥٥/ ط حجرية في أول النوع الرابع في الحكم والأمثال.
- ٢٨- مناقب الخوارزمي ٢٧٠/ ط النجف.
- ٢٩- الوافي للفيض الكاشاني ٦٣/١٤.

٣٠- وقعة صفين ١١٩ ط الأولى بالقاهرة سنة ١٣٦٥هـ.

٣١- كتاب الكتاب وصفة الدواة والقلم وتعريفها تصنيف أبي القاسم عبد الله عبد العزيز مؤدب المهتدي بن الواثق العباس، سنة ٢١٨هـ المتوفى سنة ٢٥٦هـ (مجلة المورد العدد الثاني المجلد الثاني / ٦١ ط بغداد).

فهذه أكثر من ثلاثين مصدراً للكتاب وهو وثيقة مهمة تنفي حديث الخيانة جملة وتفصيلاً، وتهدد كثيراً من الشكوك والأوهام. كما سيأتي تفصيل ذلك في الحلقة الرابعة إن شاء الله.

ونعود إلى ذكر كتب الإمام إلى ابن عباس وهو على ولاية البصرة فمن ذلك:

٤- ما رواه الحسن بن شعبة - من أعلام القرن الرابع الهجري - في كتابه تحف العقول قال: «وكتب إلى عبد الله بن العباس: أما بعد فاطلب ما يعنيك، واترك ما لا يعنيك، فإن في ترك ما لا يعنيك درك ما يعنيك، وإنما تقدم على ما أسلفت لا على ما خلفت، وابن ما تلقاه على ما تلقاه والسلام»^(١).

٥- ومن كتبه عليه السلام إلى ابن عباس ما ذكره الشريف الرضي في نهج البلاغة قال: «ومن كتاب له عليه السلام إلى عبد الله بن العباس: أما بعد: فأتك لست بسابق أجلك، ولا مرزوق ما ليس لك، واعلم بأن الدهر يومان: يوم لك ويوم عليك، وأن الدنيا دار دول، فما كان منها لك أتاك على ضعفك، وما كان منها عليك لم تدفعه بقوتك»^(٢).

(١) تحف العقول قصار المعاني رقم ٢٠٩/١٢٢.

(٢) نهج البلاغة المختار/ ٧٢.

٦- ومن كتبه التي إليه ما رواه الحافظ السروي في مناقب آل أبي طالب: «وكتب أمير المؤمنين عليه السلام إلى ابن عباس: أما بعد، فلا يكن حظك في ولايتك مالا تستفيده، ولا غيظاً تشفيه، ولكن إمامة باطل وإحياء حق»^(١).

ولتقف نحن عند هذا الكتاب ولنستعرض الشواهد في سيرة ابن عباس أيام ولايته فكم أمات باطلاً وأحى حقاً.

فمن ذلك ما رواه أبو عبيد في كتاب الأموال عن الحسن البصري، قال: «جاء رجل إلى ابن عباس فقال أتقبل منك الأبلّة بمائة ألف، قال: فضربه ابن عباس مائة وصلبه حياً»^(٢).

فكان هذا منه بعضاً من إمامة الباطل التي أمره الإمام عليه السلام بأخذها حظاً من ولايته. فإن ابن عباس لما كان يقول: «القبالات حرام»^(٣) فأى طلب يتقدم به إليه إنسان يعتبره مخالفة شرعية لا بد من تأديبه بما يقتضيه نظره، ولما كانت العقوبة التأديبية شديدة فلا بد أن تكون الجناية كبيرة، ولا نعرف عظم الجناية إلا إذا عرفنا ما هي الأبلّة.

يقول ياقوت في معجم البلدان: «الأبلّة بلدة على شاطئ دجلة البصرة العظمى في زاوية الخليج الذي يدخل إلى مدينة البصرة وهي أقدم من البصرة، لأن البصرة مصرت أيام عمر، وكانت الأبلّة حيتز مدينة فيها مسالح من قبل كسرى وقائد.

(١) مناقب آل أبي طالب ١/ ٣٧٠ ط الحيدرية.

(٢) كتاب الأموال ٩٩/ ط الكلبيات الأزهرية تح محمد خليل هراس سنة ١٣٨٨ هـ.

(٣) نفس المصدر / ١٠٠.

وكان خالد بن صفوان يقول: ما رأيت أرضاً مثل الأبلّة مسافةً، ولا أخذى نطفةً، ولا أوطأ مطيةً، ولا أربح لتاجر، ولا أخفى لعائد»^(١).

وقال الأصمعي: «جنان الدنيا ثلاث: غوطة دمشق ونهر بلخ، ونهر الأبلّة، وحشوش الدنيا خمسة: الأبلّة، وسيراف، وحمّان، وأردبيل، وهيت»^(٢).

فإذا عرفنا أنّ الأبلّة بما تقدم من وصفها وعرفنا أنّها تابعة في شؤونها الإدارية لحكومة البصرة، ولما كان ابن عباس هو أمير البصرة، وهو يرى حرمة القبالات كما مرّ، فربّما اعتبر هذا الطلب تحدياً لأمر الشريعة بحرمة القبالات، لذلك عاقبه ليكون عبرة لغيره فلا يجراً على مخالفة أحكام الشرع.

ومن ذلك ما سنقرؤه في التوجيه العلمي والديني من شواهد على إحياء حق وإماتة باطل.

ومن ذلك ما سوف نقرؤه أيضاً في السلوك الشخصي بعض ما استفاده في ولايته من إماتة باطل وإحياء حق.

أمّا عن موظفي إدارته في البلاد. فقد استكتب زياد بن أبيه فترة ثم أرسله الإمام إلى فارس. فكان كاتبه أبو الأسود الدؤلي - كما ذكر ذلك أبو الفرج الاصفهاني - كما أنّه لما أراد الخروج إلى صفين استخلف أبا الأسود على الصلاة وزياداً على الخراج^(٣).

(١) معجم البلدان ٧/١ دار صادر.

(٢) باقتضاب من معجم البلدان.

ومن الطريف تعليق محقق كتاب الأموال - محمد خليل هراس - على كلمة الأبلّة فقال: لعلها ضيعة لابن عباس كانت على النهر المسمى بهذا الاسم. وهذا منتهى الغفلة منه، والصواب ما ذكرناه أعلاه.

(٣) النظر انساب الاشراف (ترجمة الإمام).

والاستخلاف يعني القيام بجميع وظائف المستخلف إلا ما استثناءه هو، كما أن الاستكتاب هو الاستيزار. ووظيفة الكاتب أنه صاحب تدبير الأمور والنائب عنه في أموره عند غيابه.

واستقصى لفترة أبا الأسود ثم الضحاك بن عبد الله الهلالي^(١). وفي رواية: عبد الرحمن بن يزيد^(٢).

ثم لم تخل فترة حياته في البصرة من افتراء وتلبيس شأنها شأن غيرها من بقية أيام عمره، وأهم ما كان من تلك الشوائب المفتراة هو حديث خيانة بيت مال البصرة، وقد استوفينا في الحديث عنه جميع ملابسات القضية في الحلقة الرابعة كما سيأتي ذلك إن شاء الله تعالى.

وثمة تآليل طفحت على السطح في تلك الفترة، ليس لها من سند مقبول، فضلاً عن تناقض متها لسلوك ابن عباس العملي في البصرة وغيرها.

وإلى القارئ ما وقفت عليه فعلاً في كتاب (تاريخ المدينة) لبصري عاش في القرن الثالث وذلك هو عمر بن شبة المتوفى سنة ٢٦٢ هـ.

فقد قال: «حدثنا محمد بن عباد بن عباد قال حدثنا بعض أصحابنا عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة: أن ابن عباس رضي الله عنه خطب بالبصرة فذكر عثمان بن عفان رضي الله عنه فعظم أمره وقال: «لو أن الناس لم يطلبوا بدمه لأمطر الله عليهم حجارة من السماء»^(٣)»^(٤).

(١) انظر أخبار القضاة لوكيع / ٢٨١، ٢٨٤ فما بعد.

(٢) نفس المصدر / ٢٨٨.

(٣) تاريخ الخلفاء للسيوطي / ٦٣، وأنساب الأشراف / ١٠١/٥ والرياض النضرة / ١٣٥/٢.

(٤) تاريخ المدينة / ١٢٥٤.

ويكفي في سقوطه جهالة بعض أصحابه، ولو سلم سنداً قفي المتن ما يكفي في تكذيبه فان ابن عباس مِمَّن قاتل الذين طالبوا بدم عثمان فلماذا قاتلهم إذن؟.

وقال أيضاً: ((حدثنا موسى بن إسماعيل قال حدثنا الصعق ابن حزن قال سمعت قتادة يقول حدثنا زهدم الجرسي قال قال ابن عباس ﷺ لأحدشكم حديثاً ما هو بسر ولا علانية، أما أنا فلا أسر، دونكم وأما أنتم فلا أحب أن تعلنوه، لما قتل عثمان ﷺ قلت لعلي ﷺ اعترل هذا الأمر قال: ألاقي استقداً فيه، وأيم الله ليظهرن عليه معاوية تصديق قول الله ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا﴾^(١) وأيم الله لتحملنكم قريش على فارس والروم، فإن تكونوا قوماً تكفرون وإلا تهلكوا وتكونوا كقرن من القرون هلك))^(٢).

وحسبك في كذب الخير أولاً: أن ابن عباس لم يكن حاضراً بالمدينة لما قتل عثمان بل كان أمير الموسم يقيم الحج للناس. وثانياً: لم يكن معاوية ولي دم عثمان، وإنما أولياء دمه هم بنوه. فهل يجهل ذلك ابن عباس وإذا كان يرى أن معاوية ولي دم عثمان فلماذا حاربه في صفين؟

وقال أيضاً: ((حدثنا موسى بن إسماعيل قال حدثنا حماد بن زيد عن أبي التياح عن غالب عن زهدم قال قال ابن عباس ﷺ، لأحدشكم حديثاً ما أدري أحديث سر هو أم حديث علانية، إني قلت لعلي ﷺ لما قتل عثمان ﷺ: اركب رواحلك فالحق بمكة، فان الناس سيتبعونك ولا يجدون منك بُدأً، فعصاني، وأيم

(١) الاسراء / ٣٣.

(٢) تاريخ المدينة / ١٢٥٥. والنظر مختصراً في العقد الفريد / ٤ / ٢٩١.

الله ليظهرن عليه معاوية، لأن الله قضى من قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً، ثم لتملككنم قريش ولتركنن بكم دبة فارس والروم فمن أخذ بما يعرف نجا، ومن ترك - وأنتم تاركون - كان كفرن من القرون هلك. قال فقلت لابن عباس عليه السلام ((^(١))).^(٢)

فهذا الخبر رواه زهدم أيضاً كسابقه وبالمقارنة نجد التضاوت بينهما. والجواب عنه كما تقدم في سابقه وبعده حديث سقط السند وشيئاً من أول المتن، وهو مشابه لما مرّ أيضاً.

فهذه هي الأخبار التي شَبَّهتها بالتأليل الطافحة، وقد بينت للقارئ ما في أسانيدنا ومتونها من عيوبها ما يسقطها عن الاعتبار.

ولعمر بن شبة كتاب (أخبار البصرة) أورد فيه قصة الجمل مطوّلة، فلخص منه ابن حجر^(٣) واقتصر على ما أورده بسند صحيح أو حسن، وترك ما عداه مما بينه. كما قال ذلك، ولو قدر لي أن أقف بعد هذا على كتاب أخبار البصرة فسأذكر ما أجده فيه مما يتعلق بابن عباس سلباً وإيجاباً.

٧- قال ابن خلدون في تاريخه: ((وأول من دعا للخليفة علي المنبر ابن عباس، دعا لعلي عليه السلام في خطبته وهو بالبصرة عامل له عليها فقال: اللهم انصر علياً على الحق))^(٤).

واتصل العمل على ذلك فيما بعد.

(١) بهاض لا يدري مقداره.

(٢) تاريخ المدينة / ١٢٥٥ .

(٣) انظر فتح الباري ١٦/١٦٤ ط مصطفى محمد.

(٤) تاريخ ابن خلدون ١/٤٧٧ ط دار الكتاب اللبناني سنة ١٩٥٦ .

وقد ذكر ذلك قبل ابن خلدون أبو نعيم^(١).

وحسبنا الآن بما مرّ معرفة جانباً من نشاطه الإداري والسياسي، وسيتبع هذا نماذج أخرى فيما يأتي عند الحديث عن حرب صفين وما تلاها، وفتنة ابن الحضرمي وما أبلهاها، وخروج الخريت بن راشد ثم فتنة مصقلة بن هبيرة، وحرب النهروان، وما أتى بعدها حتى استشهاد الإمام عليه السلام وبعده حتى صلح الإمام الحسن عليه السلام.

٢- التوجيه العلمي والديني:

لقد سبق ابن عباس في ولايته البصرة من تقدمه من الولاة في تثقيف أهلها سبقاً بعيداً، فإنّ الدين كانوا قبله وتعاقبوا على الولاية تفاوتت مداركهم لاستيعاب أحكام الإسلام، كما تباينت مسالكهم في إدارة البلاد، ولم يواجهوا ما واجهه ابن عباس من مشاكل اجتماعية أبعدت، وبالأصح شغلت الكثير من الناس عن تعلمهم الأحكام الشرعية، مضافاً إلى مختلفات حرب الجمل الفكرية، حيث نشأت مسائل لم يكن المجتمع الإسلامي على هدى منها، ومنها مسألة قتال المسلمين بعضهم بعضاً وهم جميعاً من أهل القبلة، ولما كان قتل المسلم من الكبائر فهل أن مرتكب الكبيرة يُعدّ كافراً أم يظل مسلماً؟ وهذا سؤال ضخم واجه العالم الإسلامي فأنبت الفكرة التي صارت ركيزة لما بنت عليها المعتزلة من رأي تجاذبته أصحاب الفرق الكلامية بين الدين والسياسة، والأخذ والرد.

(١) كما في ذكر أخبار اصبهان ٢/٢٢٩ ط الفتى / تبهن.

كما أن من مخلفات الحرب الفكرية التي واجهت المسلمين يومئذ في عقائدهم مسألة القضاء والقدر التي طرحها عائشة كعذر ميرر لخروجها^(١). وانصاع لهذه المسألة غير واحد من البصريين، واستمر الخلاف حولها بعد ذلك حتى انفصل واصل بن عطاء عن الحسن البصري وانضم إلى واصل عمرو ابن عبيد، وعلى ذلك انبثقت الفرق النظامية والهديلية والحاطبية والجاحظية وكلها فرق بصرية المنشأ بغدادية الثمر حتى قال أحمد: «إن ثلث أهل البصرة قدرية»^(٢).

فهذه المخلفات شكّلت تركة ثقيلة يصعب على الوالي الجديد تصريفها ومعالجتها من دون وعي وحزم مع صبر وأناة، مضافاً إلى التعقيدات الفكرية التي كان أصحاب الديانات الأخر كاليهود والنصارى ممن كانوا في البصرة يلقونها في أذهان المسلمين فيشوشوا أفكارهم، وقد ورد اسم أبي الجلد ممن كان يقرأ التوراة والقرآن، وذكروا له لقاءات مع ابن عباس، وسيأتي مزيد بيان عنه في الحلقة الثالثة من الموسوعة إن شاء الله تعالى، فكل تلك التراكمات والتداعيات تستدعي من ابن عباس أن يبذل جهداً مضاعفاً لهداية الناس وتوجيههم نحو السبيل الأمثل والطريق الأقوم، وقد فعل ذلك بكل حكمة ودربة، وتحمل من العناء جهداً كبيراً.

ولابدّ لنا من المرور ببعض الشواهد الدالة على التخلف الديني عند بعض شرائح المجتمع البصري - يومئذ - ولنأخذ بعض المسائل العبادية مثلاً

(١) كما مرّ في جوابها لابن عباس فراجع محاوراتها برواية البدء والتاريخ للمقدسي.

(٢) تهذيب التهذيب لابن حجر ١١٤/٨.

وجهلهم بالحكم الشرعي فيها مع أنها من المسائل التي يعمّ الإبتلاء بها عند الفرد المسلم:

١- فمثلاً في الصلاة كانوا - أولئك - يجهلون جواز الجمع بين الصلاتين. فقد أخرج الطبراني في معجمه بسنده عن عبد الله بن شقيق العقيلي قال: ((خطبنا ابن عباس يوماً بعد العصر حتى غابت الشمس وبدت النجوم، وعلق الناس^(١) يتادونه الصلاة، وفي القوم رجل من بني تميم ينادي، فقال ابن عباس: تعلمني السنّة لا أم لك، إني شهدت رسول الله ﷺ جمع بين العصر والظهر، والمغرب والعشاء. فلقيت أبا هريرة فواقفه))^(٢).

أقول: وهذا أخرجه أحمد في مسنده وفيه: ((قال عبد الله: فوجدت في نفسي من ذلك شيئاً فلقيت أبا هريرة فسألته فواقفه))^(٣)، ورواه أحمد ثانية في كتابه^(٤) وصححه معاً أحمد شاكر، وروى الحديث أيضاً مسلم في صحيحه^(٥).

ولا يخفى على القارئ أن عبد الله بن شقيق هذا كان عثمانياً ترجمه ابن حجر في تهذيبه وحكى فيه بأنه كان عثمانياً يبخض علياً ويحمل عليه^(٦)، فلا غرابة منه لو ارتاب في نفسه المريضة من حديث ابن عباس وإن كان هو حجر الأمة وترجمان القرآن، وراح يستثبت حديثه من أبي هريرة، لكن الغرابة حين

(١) علق الناص أي طفقوا.

(٢) المعجم الكبير للطبراني ١٦٢/١٢ ط ٢.

(٣) مسند أحمد ٧٠/٤ برقم ٢٣٦٩.

(٤) نفس المصدر ١٠٠/٥ برقم ٣٢٩٣.

(٥) صحيح مسلم ١/١٩٧.

(٦) تهذيب التهذيب ٥/٢٥٤.

نقرأ في ترجمته قول ابن معين فيه: ((من خيار المسلمين لا يطعن في حديثه))^(١)، وقول الجريدي فيه: ((كان مجاب الدعوة كانت تمر به السحابة فيقول: اللهم لا تجوز كذا وكذا حتى تمطر، فلا تجوز ذلك الموضع))^(٢) إذا كان مثل هذا من خيار المسلمين وهو يبغض علياً ويحمل عليه، فما بالك بشرارهم! نعوذ بالله من شر هكذا أخيار، كما نستعيذ به من شر الأشرار.

اللهم احفظ عقول أمة محمد من هذا التخبط والتخليط، فرسول الله ﷺ يقول لعلي عليه السلام: (لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق)^(٣)، وابن معين يقول: هو من خيار المسلمين!! (إِنَّهَا لِأَخْدَى الْكَبِيرِ)^(٤)، فقد أخرج ابن عساکر بسنده عن محمد بن منصور الطوسي قال: ((سمعت أحمد بن حنبل وقد سأله رجل عن قول النبي ﷺ: (علي قسيم النار) فقال: هذا حديث يضطرب طريقه عن الأعمش، ولكن الحديث الذي ليس عليه لبس قول النبي ﷺ: (يا علي لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق) وقال الله ﷻ: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾^(٥) فمن أبغض علياً فهو في الدرك الأسفل من النار))^(٦).

(١) نفس المصدر.

(٢) نفس المصدر.

(٣) راجع كتاب (علي إمام البررة ١/٩٣ ط دار الهدى).

(٤) سورة المدثر / ٣٥.

(٥) النساء / ١٤٥.

(٦) تاريخ ابن عساکر ترجمة الإمام ٢/٢٥٣، وهذا أخرجه أيضاً الكنجي الشافعي في كفاية

الطالب / ٧٢ ط الحيدرية سنة ١٣٩٠ هـ كما ذكره ابن أبي يعلى الحنبلي في طبقات

الحنابلة / ١/٣٢٠.

٢- وفي الزكاة كانوا يجهلون زكاة الفطر.

فقد أخرج أبو داود^(١) والنسائي^(٢) وأحمد^(٣) والدارقطني^(٤) والزيلعي واللفظ له عن الحسن بن ابن عباس: «أنه خطب في آخر رمضان على المنبر بالبصرة، فقال: أخرجوا صدقة صومكم، فكان الناس لم يعلموا، قال: من ههنا من أهل المدينة؟ قوموا إلى إخوانكم فعلموهم فإنهم لا يعلمون فرض رسول الله ﷺ هذه الصدقة، صاعاً من تمر أو شعير، أو نصف صاع من قمح على كل حر أو مملوك، ذكر أو أنثى صغير أو كبير»^(٥).

وفي لفظ أحمد المطول: «فجعل الناس ينظر بعضهم إلى بعض». لماذا صار الناس ينظر بعضهم إلى بعض؟ لأنه فاجأهم بحكم شرعي مفروض من الله على لسان نبيه، وهم يجهلونه، ولو كان الولاة قبل ابن عباس قد ذكروه لهم أو عملوا به لما استفربوا خطبة ابن عباس في ذلك. (فظن بالولاة شراً ولا تسأل عن الخير).

٣- وحتى صدقات البقول لم يكن يعطونها حتى أخذها منهم ابن عباس. روى يحيى بن آدم القرشي في كتابه الخراج بسنده عن أبي رجاء العطاردي قال: «كان ابن عباس بالبصرة يأخذ صدقاتها حتى دساتج الكراث»^(٦).

(١) سنن أبي داود ١١٤/٢ بتحقيق محمد محي الدين عبد الحميد باب من روى نصف صاع من قمح.

(٢) سنن النسائي في باب الحنطة وفي الجمعة في باب حث الإمام على الصدقة في الخطبة.

(٣) مسند أحمد برقم ٢٠١٨ مختصر ٣٢٩١ مطولة بتحقيق أحمد محمد شاكر ط مكتبة التراث الإسلامي.

(٤) سنن الدارقطني ٢٢٥/.

(٥) نصب الراية ٤١٨/٢ ط الأولى ١٣٥٧.

(٦) الخراج لأبي يوسف ١٤٤ ط السلفية.

٤- وفيما يخرج من البحر من حلية وعنبر ففيه الخمس.

وذلك فيما رواه طاووس عن ابن عباس: «أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استعمل يعلى بن أمية على البحر فكتب إليه في عنبرة وجدها رجل على الساحل يسأله عنها وعمًا فيها فكتب إليه عمر: أنه سيب من سيب، فيها وفيما أخرج الله جل ثناؤه من البحر الخمس. قال: وقال عبد الله بن عباس: وذلك رأيي»^(١). والبصرة يحلها البحر من جهة الشرق.

٥- وفي التعريف خارج عرفة لا يعلمون جواز ذلك لولا ما أعلمهم به ابن عباس عملياً.

فقد أخرج ابن سعد في ترجمة ابن عباس: «أن الحكم بن أيوب المرسل إلى الحسن - البصري - يسأله: من أول من جمع بالناس في هذا المسجد يوم عرفة؟

فقال: أول من جمع ابن عباس قال: وكان مشجّة - أحسب في الحديث - يشير العلم.

قال: وكان يصعد المنبر فيقرأ سورة البقرة فيفسرها آية آية»^(٢).

وهذا رواه عبد الرزاق في المصنف^(٣)، والبيهقي في السنن الكبرى^(٤)، والذهبي في سير أعلام النبلاء^(٥).

(١) نفس المصنف / ٧٠.

(٢) طبقات ابن سعد / ١٥٧/ تحت المسلمي ط الطائف.

(٣) المصنف / ٤ / ٣٧٦.

(٤) السنن الكبرى / ٥ / ١١٨.

(٥) سير أعلام النبلاء / ٣ / ٣٥.

وفي رواية الجاحظ في البيان والتبيين: ((وقال الحسن: كان عبد الله بن عباس أول من عرف بالبصرة، صعد المنبر فقرأ البقرة وآل عمران ففسرهما حرفاً حرفاً، وكان والله مشجاً يسيل غريباً))^(١). والخبر في لسان العرب (ثجج، غرب).

ومن الغريب تفسير عبد السلام محمد هارون لكلمة (أول من عرف بالبصرة) فقال: ((كذا ضبطت هذه الكلمة في ل، ب. والتعريف هنا بمعنى التعليم))^(٢)، ولم ينتبه إلى معنى التعريف في الخبر وأن المراد به جمع الناس في يوم عرفة كما مر في تفسير الحسن البصري حسب رواية طبقات ابن سعد.

٦- وفي مسألة إحرام من أرسل الهدى إلى الحرم وواعد بتقليد الهدى.

فقد روى مالك في الموطأ بسنده عن ربيعة بن عبد الله بن الهدي: ((أنه رأى رجلاً متجرداً بالعراق فسأل الناس عنه فقالوا: أنه أمر بهديه أن يُقلد فلذلك تجرد، قال ربيعة: فليت عبد الله بن الزبير فذكرت له ذلك فقال: بدعة ورب الكعبة))^(٣).

وهذا الخبر بما أحاطه من الضبابية على جهالة اسم المتجرد ولعل مالكا لم يذكره رعاية للعباسيين الذين أحاطوه بأفضالهم فكتب لهم الموطأ، لكن الراوي نم على أن ذلك الشخص المتجرد ممن له شأن يذكر فسأل عنه، وفي جواب ابن الزبير أيضاً ما يدل على التعريف به. وإذا بحثنا لمعرفة تلك الشخصية التي لُقِّبها

(١) البيان والتبيين ٣٣١/١ تح هارون.

(٢) هامش المصدر السابق.

(٣) الموطأ ٢٤٩/١.

الضباب عند مالك سنجد ابن أبي شيبة في المصنف يفصح عنه حين يذكر نفس الخبر عن ربيعة أنه رأى ابن عباس وهو أمير على البصرة في زمان علي بن أبي طالب متجرّداً على منبر البصرة فسأل الناس عنه، فقالوا: إنه أمر بهديه أن يُقلد فلذلك تجرّد - قال ربيعة - فلقيتُ ابن الزبير فذكرت ذلك له فقال: بدعة ورب الكعبة^(١). قال ابن حجر: «عرف بهذا اسم المبهم في رواية مالك»^(٢).

أقول: لقد مرّ الحديث عن هذا في حديث واحد خير شاهد فراجع.

٧- وفي مسألة تحريم تصوير ذوات الأرواح لم يكن المصورون يعلمون الحكم فيه. حتى إذا صار عبد الله بن العباس والياً عليهم وفقّهم، أتاه من المصورين من يسأله عن عمله.

فقد روى أحمد في مسنده بسنده عن سعيد بن أبي الحسن - وهو أخ الحسن البصري - قال: «جاء رجل إلى ابن عباس فقال: يا بن عباس إنني رجل أصوّر هذه الصور وأصنع هذه الصور فأقتني فيها؟ قال: أدن مني، فدنا منه حتى وضع يده على رأسه، قال: أنبتك بما سمعت من رسول الله ﷺ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: (كل مصوّر في النار يُجعل له بكل صورة صورها نفس تملذه في جهنم)، فإن كنت لا بدّاً فاعلماً فاجعل الشجر وما لا نفس له»^(٣). وهذا الحديث رواه البخاري في صحيحه.

وكان يتبع في تهذيب أهل البصرة دينياً مختلف الأساليب التبروية قولاً وعملاً، فرمّا رهبهم ورمّا رهبهم، فهو لا يصعد المنبر حتى يؤدي حق ذلك

(١) المصنف ٨٨/١٣٤ ط باكستان.

(٢) فتح الباري ٢٩٤/٤ ط مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر سنة ١٣٧٨ هـ.

(٣) مسند أحمد ٢٩٠/٤ برقم ٢٨١١.

الصعود، إمّا بتفسير آي من الذكر الحكيم، أو حديث عن النبي الكريم، وللتدليل على ذلك بشاهد فلتقرأ:

٨- ما رواه ابن سعد في ترجمة ابن عباس بسنده عن الحسن البصري قال: ((أول من عرف بالبصرة عبد الله بن عباس. قال: وكان مشجّة كثير العلم، قال: فقرأ سورة البقرة ففسرها آية آية.

فمن غيره من الولاة الذين كانوا قبله صنع مثل ذلك؟))^(١).

وكان يعلمهم الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن - كما يقول طاووس :- ((يقول ابن عباس قولوا: اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم وأعوذ بك من عذاب القبر وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات))^(٢). وعلى نمط هذا.

٩- ما رواه أحمد في مسنده بسنده عن أبي نصره قال: ((كان ابن عباس على منبر أهل البصرة فسمعه يقول: إن نبي الله ﷺ كان يتعوذ في ذمّ صلواته من أربع يقول: أعوذ بالله من عذاب القبر، وأعوذ بالله من عذاب النار، وأعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن، وأعوذ بالله من فتنة الأعداء الكذاب))^(٣).

١٠- ومن خطبه في ولايته بالبصرة التي أمات فيها باطلاً وأحيى بها حقاً كما أمره الإمام في كتابه إليه كما تقدم، ما أخرجه الشيخ الطوسي في أماليه بسنده عن عبد الوارث قال: ((بينا ابن عباس رضي الله عنه يخطب عندنا على منبر البصرة

(١) طبقات ابن سعد / ١٥٨/ تحفة السلمي ط الطائف.

(٢) مسند أحمد ٤/ ٣٧ برقم ٢١٦٨ تحفة أحمد محمد شاكر.

(٣) نفس المصنوع ٤/ ٣٣١ وأخرجه ثانية في ٢٧٥/ برقم ٢٧٧٩ واسناده في المرتين صحيح.

إذ أقبل على الناس بوجهه ثم قال: أيتها الأمة المتحيرة في دينها أم والله لو قدمتم من قدم الله، وأخرتم من آخر الله، وجعلتم الوراثة والولاية حيث جعلها الله ما حال سهم من فرائض الله، ولا حال ولي الله، ولا اختلف اثنان في حكم الله، فذوقوا وبال ما فرطتم فيه بما قدمت أيديكم: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾^(١).

١١- ومن تكريمه لأهل العلم، صنيعه مع أبي العالية رفيع بن مهران، قال: ((دخلت على ابن عباس وهو أمير البصرة فناولني يده حتى استويت معه على السرير، فقال رجل من بني تميم أنه مولى، قال: وعلي قميص ورداء وعمامة بخمسة عشر درهماً))^(٢).

وعند الذهبي: ((فتغامزت بي قريش، فقال ابن عباس: هكذا العلم يزيد الشريف شرفاً، ويجلس المملوك على الأسرة))^(٣). وستأتي ترجمة أبي العالية وفيها شواهد عن ولاته لأهل البيت عليهم السلام في الحلقة الثالثة إن شاء الله.

١٢- أتاه رجل بسعاية فقال له: ((يا هذا إن كنت صادقاً مقتناك، وإن كنت كاذباً عاقبتك وإن شئت أقتناك. فقال: أقتني))^(٤).

وهذا مأخوذ من الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قولاً وفعلاً، فقد أتاه رجل يسعى إليه برجل فقال: ((يا هذا نحن نسأل عما قلت، فإن كنت صادقاً مقتناك، وإن كنت كاذباً عاقبتك، وإن شئت أن نقتلك. فقال: أقتني يا أمير المؤمنين))^(٥).

(١) أمالي الطوسي ١/٦٢ و ٩٧ مط النعمان والآية من سورة الشعراء ٢٢٧-

(٢) انظر طبقات ابن سعد ٧/٨٠ - ٨٥.

(٣) سير أعلام النبلاء ٥/٢٠٨.

(٤) إحياء العلوم للقرظي بشرح تحاف السادة الممتقين ٩/٣٥٢.

(٥) نفس المصدر.

١٣- ومن خطبه الترغيبية في البصرة ما أخرجه أحمد أيضاً في روايتين واللفظ بينهما وكلاهما بسند - صحيح - عن أبي نصره قال: «خطبنا ابن عباس على هذا المنبر منير البصرة فقال: قال رسول الله صلى الله عليه (وآله) وسلم: إنه لم يكن نبي إلا له دعوة قد تنجزها في الدنيا، وإني قد اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي، وأنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول من تشق عنه الأرض ولا فخر، وييدي لواء الحمد ولا فخر، آدم فمن دونه تحت لوائي ولا فخر، قال ويطول يوم القيامة على الناس، فيقول بعضهم لبعض: انطلقوا بنا إلى آدم أبي البشر، فليشفع لنا إلى ربنا ﷻ فليقبض بيننا، فيأتون آدم صلى الله عليه (وآله) وسلم، فيقولون: يا آدم أنت الذي خلقك الله بيده، وأسكنك جنته، وأسجد لك ملائكته، اشفع لنا إلى ربنا فليقبض بيننا، فيقول: إني لست هناكم، إني قد أخرجت من الجنة بخطيئتي، وأنه لا يهمني اليوم إلا نفسي، ولكن اتنوا نوحاً رأس النبيين، فيأتون نوحاً فيقولون يا نوح اشفع لنا إلى ربنا فليقبض بيننا فيقول: إني لست هناكم، إني دعوت بدعوة أغرقت أهل الأرض، وأنه لا يهمني اليوم إلا نفسي، ولكن اتنوا إبراهيم خليل الله ﷺ، فيأتون إبراهيم ﷺ فيقولون يا إبراهيم اشفع لنا إلى ربنا فليقبض بيننا، فيقول: إني لست هناكم، إني كذبت في الإسلام ثلاث كذبات (٩١) فإنه لا يهمني اليوم إلا نفسي - فقال رسول الله ﷺ: إن حاول بهن إلا عن دين الله، قوله: «إني سقيم»^(١) وقوله: «بَلْ فَعَلَهُ كَيْدُهُمْ هَذَا»^(٢) وقوله لامراته: إنها أختي، ولكن اتنوا موسى ﷺ الذي اصطفاه برسائه

(١) الصافات / ٨٩.

(٢) الأنباء / ٦٣.

وكلامه، فيأتون موسى، فيقولون: يا موسى أنت الذي اصطفاك الله برسالته وكلمك، فاشفع لنا إلى ربك فليقبض بيننا، فيقول: إني لست هناكم، إني قتلت نفساً بغير نفس، وأنه لا يهمني اليوم إلا نفسي، ولكن إئتوا عيسى روح الله وكلمته، فيأتون عيسى، فيقولون: يا عيسى أنت روح الله وكلمته، فاشفع لنا إلى ربك فليقبض بيننا، فيقول: إني لست هناكم قد أتخذت إلهاً من دون الله، وأنه لا يهمني اليوم إلا نفسي ثم قال: أرايتم لو كان متاع في وعاء قد ختم عليه، أكان يُقدَّر على ما في الوعاء حتى يفض الخاتم؟ فيقولون: لا فيقولون إن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم خاتم النبيين قد حضر اليوم، وقد عُفِّر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: فيأتوني فيقولون: يا محمد اشفع لنا إلى ربك فليقبض بيننا، فأقول: نعم، أنا لها حتى يأذن الله لمن يشاء ويرضى، فإذا أراد الله ﷻ أن يصدع بين خلقه نادى مناد: أين أحمد وأمه؟ فنحن الآخرون الأولون، فنحن آخر الأمم وأول من يحاسب، فنخرج لنا الأمم عن طريقنا فنمضي غرباً محجلين من أثر الطهور، وتقول الأمم: كادت هذه الأمة أن تكون أنبياء كلها.

قال: ثم آتني باب الجنة فأخذ بحلقة باب الجنة فأقرع الباب، فيقال: من أنت؟ فأقول: محمد، فيفتح لي، فأرى (نور) ربي ﷻ وهو على كرسيه أو سريره، فأخبر له ساجداً، وأحمده بمحامد لم يحمده بها أحد كان قبلي، ولا يحمده بها أحد بعدي، فيقال: إرفع رأسك، وقل تسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع، قال: فارفع رأسي فأقول: أي رب أمتي أمتي، فيقال لي: أخرج من النار من كان في قلبه مثقال كذا وكذا، فأخرجهم، ثم أعود فأخبر ساجداً، وأحمده بمحامد لم يحمده

بها أحد كان قبلي، ولا يحمد به أحد بعدي، فيقال لي: ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعطه، واشفع تُشَفِّع، فأرفع رأسي فأقول: أي ربّ أمّتي أمّتي، فيقال: أخرج من النار من كان في قلبه مثقال كذا وكذا، فأخرجهم قال: وقال في الثالثة مثل هذا أيضاً^(١).

وختاماً لحديثنا عن جهود ابن عباس في حقل التوجيه الديني والعلمي نختم بما جاء في أخبار الدولة العباسية بالسند عن أبي عرابة الهجيمي قال: ((كان ابن عباس يفتقر الناس في شهر رمضان بالبصرة، فكانوا لا يتقبلون في كل ليلة أن يسمعوا فائدة في دين أو دنيا، فكانوا إذا فرضوا من العشاء تكلم فأقل وأوجز، فقال لهم ليلة: ملاك أمركم الدين، وزينكم العلم، وحصون أراضكم الأدب، وعزكم الحلم، وصلتكم الوفاء، وطولكم في الدنيا والآخرة المعروف، فاتقوا الله يجعل لكم من أمركم يسرا.

فقال رجل: يا أبا العباس من أشعر الناس؟ فإننا قد تمارينا في ذلك منذ اليوم فكان كل قوم يقول شاعرنا. وأقبل عبد الله على أبي الأسود فقال: يا أبا الأسود من أشعر الناس؟ فقال أبو الأسود الذي يقول:

ولقد اغتدى يدافع ركني	أجولسي ذو ميمة إضربج
مخلط مزيل مِعْن مِعْن	منفح مطرَح سبوح خَروج
سَلهب شرجب كأن رَماحاً	حملته وفي السراة دُموج
تتعادى به قوائم لأم	وحوام صم الحوافر عَوج

(١) مسند أحمد ١٨٧/٤ برقم ٢٥٤٦ و٢٤١/٤ برقم ٣٦٩٢ تصد أحمد محمد شاكر.

مقبلات في الجري أو مديرات بهوى طائع بهن يهيج^(١)

هذا الشعر لأبي داود الأيادي وكان أبو الأسود يفضلهُ.

فقال ابن عباس: إن شعراءكم قد قالوا فيبلغ كل رجل منهم بعض ما أراد، ولو كانت لهم غاية يستبقون إليها يجمعهم فيها طريق واحد، لعلمنا أيهم أسبق إلى تلك الغاية، فإن يك قال ولم يقل عن رغبة ولا رهبة فامرؤ القيس بن حجر^(٢).

وقد روي هذا الخبر برواية راو آخر في نفس المصدر قال: ((كان ابن عباس مثجاً ينحدر غرْباً، وكان أمير البصرة يعشي الناس في شهر رمضان، فلا ينقضي الشهر حتى يفقههم، وكان إذا كانت آخر ليلة من شهر رمضان يعظهم، ويتكلم بكلام يردعهم ويقول: ملاك أمركم الدين، وصلتكم الوفاء، وزينتكم العلم، وسلامتكم الحطم، وطولكم المعروف، إن الله كلّفكم الوسع فاتقوا الله ما استطعتم.

قال: فقام أعرابي فقال: من أشعر الناس أيها الأمير؟

قال: أفي أثر العظة؟ قل يا أبا الأسود، قال فقال أبو الأسود الدؤلي: أشعر

الناس الذي يقول:

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المتأى عنك واسع

قال: ناهية بني ذبيان^(٣).

(١) الأبيات هي الأثاني ١٦/٣٧ بتفاوت في اللفظ.

(٢) أخبار الدولة العباسية / ٢٩.

(٣) نفس المصدر / ٣٣ - ٣٤.

والذي أراه في إحالة ابن عباس على أبي الأسود والسؤال منه من أشعر الناس؟ لأنه لم يستغ لنفسه الخوض في ذلك على أثر العظة وقد استكرر سؤال الأعرابي لذلك السبب، وإلا فابن عباس أعلم الناس بذلك كما في محاورته له مرت في أيام عمر وقد سأله نفس السؤال فأجابه بأن ذلك زهير بن أبي سلمى المزني لقوله يمدح قوماً من غطفان يقال لهم بنو سنان واستشده من شعره فيهم فأنشده:

لو كان يخلد أقوام بمجدهم أو ما تقدّم من أيامهم خلدوا
أو كان يقعد فوق الشمس من قوم بأولهم أو مجدهم قعدوا
قوم أبوهم سنان حين تنسبهم طابوا وطاب من الأولاد ما ولدوا
إلى آخر ما أنشده.

فجثا عمر على ركبته ثم قال: ما لهذا الشاعر قاتله الله، لقد قال كلاماً حسناً ما كان ينبغي أن يقال إلا في أهل رسول الله ﷺ لما خصّهم الله به من النبوة والكرامة. إلى آخر ما جرى بين ابن عباس وعمر حول صرف قريش الخلافة عن أهل البيت، وأنتهت المحاورته بقول عمر لجلسائه: ((لله در ابن عباس، واهأ لابن عباس والله ما رأيت له لحي أحداً قط إلا خصمه)).
وهذه المحاورته مع أمثالها ستأتي في الحلقة الثانية من الموسوعة إن شاء الله تعالى.

وحسبنا ما ذكرنا من شواهد دلت على جهوده وجهاده في نشر الوعي الديني في المجتمع البصري الذي كان متخلفاً كثيراً في هذا الجانب، ولا شك في أن الولاة قبل ابن عباس يتحملون نصيباً كبيراً من وزر ذلك التخلف، ومن

شك في ذلك فليقرأ تاريخ ولايتهم فهل يجد فيهم من كان مشابهاً لابن عباس، ولولا الاطتاب لمرضت نماذج من سير أولئك للمقارنة.

ومع ما كان عليه ابن عباس من فهم وعلم، إذا استعصى عليه أمر كتب إلى الإمام فيه فيكتب الإمام إليه بالجواب كما في مسألة ميراث الجد مع ستة أخوة، فكتب إليه: «إجمعه كأحدهم وامح كتابي» كما في المصنف^(١)، ويدولي وقوع تصحيف في آخره، وأن الصواب كما في كتاب ذكر أخبار اصبهان، فقد ذكر أبو نعيم الاصبهاني في ترجمة محمد بن الحارث الصيداوي الأسدي حديثاً رواه عن قيس بن الربيع عن سليمان وفراس المكب: «كتب ابن عباس إلى عليّ في سبعة أخوة وجدة فكتب إليه أقسم المال بينهم، وانسخ كتابي ولا تجلده»^(٢)، وهذا النص يدلنا على أن ابن عباس كان ينسخ كتاب الإمام وأنه كان يجلد الكتب التي ترده من الإمام عليه السلام، وعليه فيمكن عدّ ابن عباس من الأوائل الذين جمعوا كلام الإمام في مجلد. وإن لم يشر إلى ذلك دارسو نهج البلاغة، وهذا نص له دلالة الإيجابية.

ثم إنه قد وردت عن ابن عباس مرويات في شتى فنون المعرفة رواها عنه رواة بصريون يعدّون بالعشرات، ستأتي تراجمهم في الحلقة الثالثة من الموسوعة إن شاء الله تعالى، وهؤلاء كانوا امتداداً لمدرسته في البصرة.

٣- السلوك الشخصي:

أما عن سلوكه الشخصي في البصرة، فهو جزء متشابك مع النشاط الإداري والسياسي والتوجيه الديني والعلمي ولما كانت البصرة مهبط إبليس - كما مر

(١) مصنف أبي هيبه ٢٩٣/١١ ط باكستان.

(٢) أخبار اصبهان ١١٣/٢ ط أمست إسماعيليان عن ط لندن.

وصفها عن الإمام - فإن جند الشيطان بها كثير، ولا ريب أنهم يطمعون في التسلل إلى مراكز القوة لنيل أمانيتهم، وهل مطمع فوق مركز رأس السلطة، فمتى نفذوا إليه واستحوذوا عليه، ثم لهم ما أرادوا ونالوا مبتغاهم، ولا يضيق السيل على ابليس وجنده، ولهم في النسيمة خير وسيلة لاختداع الوالي والتقرب منه، وتلك سيرتهم مع الولاة والحاكمين في كل زمان ومكان، فإن وجدوا أذناً صاغية لقد نجحوا في مساعهم ونالوا مبتغاهم، وإن لم يجدوا وكان الوالي له أذن عن الفحشاء صمّاء مثل ابن عباس، فليس أبور من سلعتهم، إذ لا تفّاق للتفّاق، وقد ابتلي ابن عباس في ولايته بنماذج من يريدون أن يأكلوا المال بالباطل، فمنهم التماقون، ومنهم الشعراء الهجّاون الذين يثلبون أعراض الناس، وأضراب أولاً وأولئك كثيرون.

غير أنه بما أتاه الله من قوة الشخصية مع حدة الفهم ويعد النظر ما ينفذ به إلى بواطن الأمور، وكان على حدّ قول الإمام فيه، وهو مرّيه وموليه: (كأنما ينظر إلى الغيب من وراء ستر رقيق)^(١)، ثم هو على حدّ وصفه له في خطبة ولايته بالفقه والتقوى والورع، فلمّا كان كذلك كان من الطبيعي أن لا يفسح المجال أمام الإنتهازين، فكان شديداً بلا صنف، وليناً بلا ضعف.

وإلى القارئ نموذجين من مواقفه: أحدهما مع نمام، وآخر مع هجّاء. فقد روي أن رجلاً أتاه بنسيمة، فقال له: يا هذا إن شئت سألتنا عما جثت به، فإن كنت صادقاً مقتتاك، وإن كنت كاذباً عاقبتناك، وإن شئت أقتلناك، فاستعفى الرجل، ومن الطبيعي أن يعرف ذلك المترلقون إلى الحكّام بالنسيمة، فقد

(١) جاء في هيض التقدير للمناوي ٦٠/١ قال فيه - ابن عباس - عليّ كرم الله وجهه (كأنما ينظر إلى الغيب من وراء ستر رقيق).

قطع عليهم الطريق، فلا يعرضوا أنفسهم إلى حساب ابن عباس وربما أدى إلى العقاب.

أما عن شريحة الشعراء الهجائين فيكفي ما صنعه ابن عباس مع عيينة بن مرداس - وحديثه: ((قالوا: أتى عيينة بن مرداس - وهو ابن فسوة - عبد الله بن العباس (عليه السلام)، وهو عامل لعلي بن أبي طالب صلوات الله عليه على البصرة - وتحتة يومئذ شميلة بنت جنادة ابن بنت أبي أزر الزهرانية، وكانت قبله تحت مجاشع بن مسعود السلمى - فاستأذن عليه فأذن له - وكان لا يزال يأتي أمراء البصرة فيمدحهم فيعطونه ويخافون لسانه - فلما دخل على ابن عباس قال له ما جاء بك إلي يا بن فسوة؟ فقال له: وهل عنك مقصراً، ووراءك معدى، جئتك لتعينني على مرؤتي وتصل قرابتي.

فقال له ابن عباس: وما مرؤة من يعصي الرحمن ويقول البهتان، ويقطع ما أمر الله به أن يوصل، والله لئن أعطيتك لأعينتك على الكفر والعصيان، انطلق فأنا أقسم بالله لئن بلغني أنك هجوت أحداً من العرب لأقطعن لسانك.

فأراد الكلام فمنعه من حضر، وحبسه يومه ذلك، ثم أخرجه من البصرة، فوفد إلى المدينة بعد مقتل علي (عليه السلام)، فلقى الحسن بن علي (عليه السلام) وعبد الله بن جعفر (عليه السلام) فسألاه عن خبره مع ابن عباس (عليه السلام) فأخبرهما، فاشترى عرضه بما أرضاه، فقال يمدح الحسن وابن جعفر (عليه السلام) ويلوم ابن عباس (عليه السلام):

أتيت ابن عباس فلم يقض حاجتي	ولم يرج معروفني ولم يخش منكري
حبست فلم أنطق بعذر لحاجة	وشدَّ خِصاص البيت من كل منظر
وجئت وأصوات المصوم وراءه	كصوت الحمام في القليب المغور

وما أنا إذ زاحمت مصراع بابه
فلو كنت من زهران لم ينس حاجتي
وباتت لعبد الله من دون حاجتي
ولم يقترب من ضور ناز تحتها
تطالع أهل السوق والباب دونها
إذا هي همت بالخروج يردّها
فليت قلو صي عريت أو رحلتها
إلى ابن رسول الله يأمر بالتقى
إلى معشر لا يخلصون نعالهم
فلما عرفت اليأس منه وقد بدت
تسنمت حرجوجاً كأن بغامها
فما زلت في التسيار حتى أنختها
فلا تدعني إذ رحلت اليكم

بذي صولة باقٍ ولا بحزور
ولكنني مولى جميل بن معمر^(١)
شميلة تلهو بالحديث المقتر
شميلة إلا أن تصلي بمجمر
بمستفلك الذفري أسيل المدثر
عن الباب مصراعاً منيف محبر^(٢)
إلى حسن في داره وابن جعفر
وللدين يدعو والكتاب المطهر
ولا يلبسون السبب ما لم يخلصر
أيادي سبا الحاجات للمتذكر
أحيح ابن ماء في براع مفجر
إلى ابن رسول الأمة المتخير
بني هاشم أن تصدروني لمصدر

وهي قصيدة طويلة هذا ذكر في الخبر منها... (هـ)^(٣).

فهذا الذي رواه صاحب الأغاني رواه أيضاً غيره، فالبلاذري روى ذلك
بأنخصر ممّا رواه الأصفهاني، وجاء عنده: ((فقال له ابن جعفر: أنا أعطيك ما

(١) وكان حليفاً لجميل بن معمر القرظي.

(٢) وجدت بخط إسحاق الموصلي: محبر.

(٣) الأغاني ١٩/١٤٣.

تريد على أن تمسك عن ابن عباس فلا تذكره بعد هذه الكلمة فأعطاه وأرضاه...

وقال: إن عبد الله بن عباس دعا على ابن فسوة فخرس وأصابه خبل مات فيه...^(١). وروى الخبر ابن قتيبة^(٢).

وقد يساور الشك بعض القراء فيتخيل البخل في ابن عباس حيث لم يتق شر لسان ابن فسوة، فيسد فمه بلهوه، ولكن سرعان ما يتبدد ذلك الخيال حين يقرأ نماذج من أقوال معاصريه في سخائه.

كقول عطاء: «ما رأيت مجلساً قط أكرم من مجلس ابن عباس أكثر علماً وأعظم جفنة»^(٣).

وقول مجاهد: «كان ابن عباس أمثهم قامه، وأعظمهم جفنة، وأوسعهم علماً»^(٤).

وقول الضحاك: «ما رأيت بيتاً أكثر خبزاً ولحماً من بيت ابن عباس»^(٥). فمن كان كذلك في بذله الطعام، وإكرام الكرام، لا يذهب الوهم بالقارئ أنه منع ابن فسوة بخلاً، وإنما رأى في إعطائه معونة على الكفر والعصيان فلا يحل له إكرامه، وهو يعصي الرحمن ويقول البهتان.

وحسبنا دليلاً على وضعه الكرم موضعه حديث وفادة أبي أيوب الأنصاري على ابن عباس بالبصرة وإكرامه، حتى خرج عن داره فأنزله فيها - كما أنزل

(١) انساب الأشراف (ترجمة ابن جعفر) ٤٩/٢ تح المحمودي.

(٢) الشعر والشعراء / ١٣٧.

(٣) انظر تاريخ بغداد / ١٧٤/١.

(٤) انظر طبقات ابن سعد ترجمة ابن عباس تح السلمي ص ٢٠٣.

(٥) انظر سير أعلام النبلاء للذهبي ٤٥١/٤ حد دار الفكر.

رسول الله ﷺ في داره، وملكه كل ما أطلق عليها بابها، إلى غير ذلك مما يأتي حديثه مفصلاً في أخريات أيام ولايته.

وكذلك ما روي في أخبار الدولة العباسية قال: وقدم ركب من بني عبد الله بن بلال - كذا والصواب: هلال - بن عامر البصرة، فبلغ ذلك عبد الله بن العباس وهو يومئذ عامل علي بن أبي طالب على البصرة فأرسل إليهم فأتوه فقال: ما منعكم من النزول على ابن اختكم - وكانوا أخواله - فقالوا: نزلنا في بني هلال، وكرهنا جماعة الناس وغم الأزقة، وأحببنا فسحة هذا الظهر نسرح فيه.

قال: إذن لا تعبدوا من أن يأتيكم القرى، فكانت الجفان تغدو عليهم وتروح بألوان الطعام، فقال ابن المتخب الهلالي:

إن ابن عباس وجود يمينه كفى كل معتل قراناً وباخل
وأرحلنا عنه ولم ينأ خيرُهُ ولا غاله عن برتنا أم غافل
تروح وتغدو كل يوم جفانةً بكل سديف النبي للجوع قاتل^(١)

وروي الغزالي^(٢)، والقاضي التنوخي في المستجد^(٣)، والفيض الكاشاني^(٤)، وعبد الحفيظ أبو السعود^(٥)، وغيرهم: «أنه اجتمع قراء البصرة إلى ابن عباس وهو عامل بالبصرة، فقالوا: لنا جارٌ صوامٍ قوامٍ يتمنى كل واحد

(١) أخبار الدولة العباسية / ١٢٤ تح. الدوري والمطليبي.

(٢) إحياء العلوم ٢/٢١٥.

(٣) المستجد من فعلات الأجواد / ٣٤ تح. محمد علي كرد علي ط الترقى بدمشق سنة ١٣٦٥.

(٤) المحجة البيضاء ٦/٢٧.

(٥) محمد وصحبه ط دار الكتاب العربي بمصر سنة ١٣٦٧.

منا أن يكون مثله، وقد زوج ابنة له من ابن أخيه وهو فقير، وليس عنده ما يجهزها به. فقام عبد الله بن عباس فأخذ بأيديهم فأدخلهم داره ففتح صندوقاً فأخرج منه ست بُدْرٍ ثم قال: احمِلوا فحملوا. فقال ابن عباس: ما أنصفناه أعطينا ما يشغله عن صيامه وقيامه، ارجعوا نكن أعرانه على تجهيزها، فليس للدنيا من القدر ما يشغل به مؤمناً عن عبادة ربه تعالى، وما بنا من التكبر ما لا نخدم معه أولياء الله تعالى، ففعل وفعلوا».

وروى البلاذري: «إن ابن عباس كان يعشي الناس بالبصرة في شهر رمضان ويحدثهم ويفقههم فإذا كانت آخر ليلة من الشهر ودعهم ثم قال: ملاك أمركم الدين، ووصلتكم الوفاء، وزينتكم العلم، وسلامتكم في الحاكم، وطولكم في المعروف، إن الله كلّفكم الوسع فاتقوه ما استطعتم»^(١).

هذه نبذة مقتطفة من تاريخ حياته في البصرة. ولم أقف على أصدق واصف له في أيام ولايته من صعصعة بن صوحان العبدي رضي الله عنه، وذلك عندما قدم إلى الكوفة فسأله الإمام عنه فقال: «يا أمير المؤمنين، إنّه أخذ بثلاث وتارك لثلاث:

أخذ بقلوب الناس إذا حدّث، وبحسن الاستماع إذا حدّث، وبأيسر الأمر إذا خولف. وتارك المراء، ومقارنة اللثيم، وما يعتذر منه»^(٢).

ولم يخطيء صعصعة في وصفه، كما أنه لم يبالغ، فقد كان ابن عباس كذلك منذ كان فتى لم تستو شؤون رأسه كما قال عمر في حقه، ولقد رآه

(١) انساب الأشراف (ترجمة ابن عباس) برقم ١١٧ نسخة مخطوطة بقلمى.

(٢) مختصر تاريخ دمشق ١٢/٣١٣.

الحطينة الشاعر في مجلس عمر وقد علا القوم بلسانه ونزل عنهم بسنه فسأل عنه فقيل له هذا ابن عباس حبر الأمة ولسان قريش فأنشأ يمدحه بأبيات منها:

أنتي وجدت بيان المرء نافلة تُهدى له ووجدت العي كالمصم
والمرء يبلى ويبقى الكلم سائرة وقد يلام الفتى يوماً ولم يلم^(١)
وصدق وصف القائل فيه:

صموت إذا ما زين الصمت أهله وفتاق أبقار الكلام المختم
وعن ماحوى القرآن من كل حكمة وسيطت له الآراء باللحم والدم^(٢)

حل مشكلة في التاريخ:

نقرأ أحياناً في التاريخ أحداثاً لفتها الغموض الزماني بضبابية تكاد تخفي حقائقها، وإذا دققنا النظر فيها ملاحظين البعد الزماني والمكاني، نجد ما حدث من تشويش إنما هو من فعل المؤرخين، حين يذكرون النصوص المختلفة وأحياناً متضادة ومتنافرة، ثم لا يتحملون عناء معالجتها، مكتفين بسياقها مسندة - كما فعل الطبري وابن اعثم - أو نسبتها إلى القيل، وبذلك يحسبون أنهم رفعوا عن أنفسهم إصر التبعة، غافلين عن حساب البعد الزماني والمكاني في تكوين الحدث، ومهما كان عذرهم، فإن المشكلة التي تواجهنا فعلاً، هي تحديد الفترة التي أقامها الإمام في الكوفة بدءاً من دخوله إليها في ١٢ رجب سنة ٣٦ إلى أن

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة ٢٢٩/١ ط دار الكتب والإصابة ٣٥٢/٢ والاستيعاب بهامش

الإصابة ٣٤٦/٢ ط مصطفى محمد.

(٢) الروض الألف للسهيلي ٣١٣/٢ ط مصر.

غادرها إلى حرب معاوية بصفين، فإن تحديد الفترة بدقة إنما ينفعنا فعلاً وفي المستقبل لترتيب الأحداث فيما بعدها، وما وكّده من تداخيات أفرزت مفاهيم خاطئة وجسيمة، ومع ذلك فإنما علينا الأناة، ولا بد لنا من الاستهداء بما ذكره المؤرخون على علّته. ثم علينا الموائمة بين أقوالهم ورواياتهم المتضاربة ما وسع التوفيق لذلك.

ولناخذ نموذجاً منهم المسعودي المتوفى سنة ٣٤٦هـ، فقد قال: ((وولى على البصرة عبد الله بن عباس وسار إلى الكوفة، فكان دخوله لأنتي عشرة ليلة مضت من رجب... وصرف عن همدان جرير بن عبد الله البجلي وكان عاملاً لعثمان... ووجهه بجرير بن عبد الله إلى معاوية، فلما قدم عليه جرير دافعه وسأله أن ينتظره وكتب إلى عمرو بن العاص... فقدم جرير على علي فأخبره خبرهم...))^(١).

وقال: ((وكان سير علي من الكوفة إلى صفين لخمس خلون من شوال سنة ست وثلاثين...))^(٢).

وقال: ((ولما كان أول يوم من ذي الحجة بعد نزول علي هذا الموضع - يعني شريعة الماء بصفين - بعث إلى معاوية يدعوه إلى اتحاد الكلمة، فاتفقوا على المواعدة إلى آخر المحرم سنة سبع وثلاثين...))^(٣).

فهذا نموذج واحد ولم يحد عنه الآخرون في ضبط الأحداث باليوم والشهر والسنة، وهذا ما يبعث على العجب! وأصعب منه ما رواه أبو هلال

(١) مروج الذهب ٢/٣٨١، تح محمد محي الدين عبد الحميد.

(٢) نفس المصدر/٣٤٨.

(٣) نفس المصدر/٣٨٧.

المسكري بسنده عن الزهري قال: ((ورد عليّ الكوفة بعد الجمل في شهر رمضان سنة ست وثلاثين))^(١) ||

فإنّ الزمن الذي حدده - ومنهم المسعودي - من دخول الإمام إلى الكوفة في ١٢ رجب سنة ٣٦هـ وبين خروجه منها إلى صفين في ٥ شوال سنة ٣٦هـ لم يبلغ ثلاثة أشهر، مع أنّ المسعودي بالذات ذكر في كتابه قولاً: ((أنّ كان بين دخول الإمام الكوفة وبين التقائه معاوية للقتال بصفين ستة أشهر وثلاثة عشر يوماً))^(٢) ولم يعقب على ذلك القول بشيء، ممّا دل على رضاه به. وهذا التحديد على ما فيه أحسنه أقرب إلى الواقع إذا ما جعلناه ستة عشر شهراً وثلاثة عشر يوماً، واحتملنا سقوط (عشر) من بعد الستة من الناسخ. وحينئذ يتفق مع قول الشعبي الذي رواه نصر بن مزاحم: ((إنّ عليّاً قدم من البصرة مستهلاً رجب وأقام بها سبعة عشر شهراً يجري الكتب فيما بينه وبين معاوية وعمرو بن العاص...))^(٣).

فإنّا إذا اعتمدنا هذا القول في تحديد الفترة تكشفت بعض الجوانب من الضبابية، لأنّها - الفترة - حينئذٍ تسع لتلك الأحداث المذكورة.

وللتوضيح وعلى سبيل المثال، فلنأخذ حدثاً له أبعاد زمانية ومكانية تثير الدرب أمامنا. ذلك هو كتاب الإمام إلى جرير بن عبد الله وكان عاملاً لعثمان على همدان وإرساله إلى معاوية ولترجع في حكايته على طولها إلى أقدم مصدر بين أيدينا هو كتاب وقعة صفين لنصر بن مزاحم المتوفى سنة ٢١٢هـ.

(١) جمهرة الأمثال ١٥٨/٢.

(٢) مروج الذهب ٣٦٠/٢.

(٣) وقعة صفين ٨٩/٩٠.

قال: «فكتب إليه مع زحر بن قيس الجعفي: أما بعد فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مردّ له وما لهم من دونه من وال، وإني أخبرك عن نبأ من سرنا إليه من جموع طلحة والزبير عند نكثهم بيعتهم، وما صنعوا بعاملي عثمان بن حنيف. إني هبطت من المدينة بالمهاجرين والأنصار، حتى إذا كنت بالقلديب بعثت إلى أهل الكوفة بالحسن بن عليّ وعبد الله بن عباس وعمّار بن ياسر وقيس بن سعد بن عبادة، فاستنقروهم فأجابوا، فسرت بهم حتى نزلت بظهر البصرة فأعذرت في الدعاء، وأقلت العشرة، وناشدتهم عقد بيعتهم، فأبوا إلا قتالي، فاستعنت بالله عليهم فقتل من قتل وولوا مدبرين إلى مصرهم، فسألوني ما كنت دعوتهم إليه قبل اللقاء، فقبلت العافية، ورفعت السيف، واستعملت عليهم عبد الله بن عباس، وسرت إلى الكوفة، وقد بعثت إليكم زحر بن قيس فاسأل عما بدا لك»^(١).

ثم ذكر نصر: خطبة جرير في الناس وخطبة زحر بن قيس وذكر من الشعر لابن أخت جرير ولجرير ولغيرهما ممّا لا يعيننا ولا يغنيننا ذكره، سوى أنّ الذي يعيننا قول الراوي: «فأجاب جرير وكتب جواب كتابه بالطاعة»^(٢)، وهذا الذي جرى كلّه يحتاج إلى زمان لا يقل عن الشهر.

وقال أيضاً: «ثم أقبل جرير سائراً من ثغر همدان حتى ورد على عليّ عليه السلام بالكوفة فبايعه ودخل فيما دخل فيه الناس من طاعة عليّ واللزوم لأمره»^(٣).

(١) نفس المصدر/ ١٩ فما بعدها.

(٢) نفس المصدر/ ٢٠.

(٣) نفس المصدر/ ٢٤.

وقال أيضاً: «عن عامر الشعبي ان علياً عليه السلام حين قدم من البصرة نزع جريراً عن همدان فجاء حتى نزل الكوفة، فأراد علي أن يبعث إلى معاوية رسولا فقال له جرير: ابعثني إلى معاوية فإنه لم يزل لي مستصحباً ووداً، آتبه فأدعوه على أن يسلم لك هذا الأمر، ويجمعك على الحق، على أن يكون أميراً من أمرائك، وعاملاً من عمالك ما عمل بطاعة الله، واتبع في كتاب الله، وأدع أهل الشام إلى طاعتك وولايتك، وجلبهم قومي وأهل بلادي وقد رجوت ألا يعصوني.

فقال له الأشر: لا تبعته ودعه، ولا تصدقه، فوالله إنني لأظن هواه هواهم، وتبته تبهم.

فقال له علي: دعه حتى ننظر ما يرجع به الينا، فبعثه علي عليه السلام... وهذا أيضاً يجب أن يحسب له مقدار من الزمان ولا أقل من شهر»^(١).

وقال أيضاً: «فانطلق جرير حتى أتى الشام ونزل بمعاوية فدخل عليه...»^(٢). ثم ذكر كلام جرير في الإمام وبيعة أهل الإسلام له إلا الشام ودفع إليه كتاب الإمام عليه السلام - وذكر نسخة الكتاب.

ثم ذكر خطبة جرير وهي خطبة بليغة: «ثم قعد فقال معاوية: أنظر ونظر واستطلع رأي أهل الشام ثم خطب معاوية فيهم ودعاهم إلى أنه ولي دم عثمان فأجابوه إلى الطلب بدمه...»^(٣).

وقال أيضاً: «واستحبه جرير بالبيعة فقال يا جرير إنها ليست بخلسة، وإنه أمر له ما بعده، فأبغضني ربي حتى أنظر، ودعا ثقافته فقال له عتبة بن أبي سفيان -

(١) نفس المصدر/٣٢.

(٢) نفس المصدر/٣٣.

(٣) نفس المصدر/٣٤-٣٦.

وكان نظيره - إجتمع على هذا الأمر بعمر بن العاص وأثمن له دينه، فإنه من قد عرف، وقد اعتزل أمر عثمان في حياته وهو لأمر أشد اعتزالاً إلا أن ير فرصة^(١).

وقال أيضاً: «وكتب معاوية إلى عمرو وهو بالسبع من فلسطين... فلما قرأ الكتاب علي عمرو استشار ابنه... فأشار عليه عبد الله بما هو خير له في دينه، وأشار عليه محمد بما هو خير له في دنياه - وأخيراً ذكر تردده حتى قطع عليه ذلك غلامه وردان - فسار حتى قدم على معاوية، وعرف حاجته إليه، فكايد كل منهما صاحبه حتى تمت الصفقة فاعطى معاوية مصر طعمة لعمر وكتباً بذلك كتاباً»^(٢).

وذكر بعد ذلك: «قال - معاوية لعمر - ما ترى في علي؟ فأشار عليه بأن يرسل إلى شرحبيل بن السمط الكندي وهو عدو لجرير المرسل إليك، فأرسل إليه ووطن له ثقاتك فليفشوا في الناس علياً قتل عثمان... فكتب - معاوية - إلى شرحبيل أن جرير بن عبد الله قدم علينا من عند علي ابن أبي طالب بأمر فظيح فأقدم.

ودعا معاوية رؤوس قحطان واليمن وكانوا ثقات معاوية وخاصته وبني عم شرحبيل، فأمرهم أن يلقوه ويخبروه أن علياً قتل عثمان، واستشار شرحبيل أهل اليمن، فنهاه عبد الرحمن بن غنم الأزدي وهو صاحب معاذ بن جبل وخته وكان أفتة أهل الشام... وبعث إليه عياض الشمالي وكان ناسكاً بشعر ينصحه فيه،

(١) نفس المصدر / ٣٨.

(٢) نفس المصدر / ٣٩ - ٤٢.

لكنه لم يقبل النصيحة، وأتى معاوية وتلقاه الناس وعظّموه بأمر معاوية، فدخل على معاوية وقد حشي دماغه بأن علياً قتل عثمان. فقال يا معاوية أباي الناس إلا أن علياً قتل عثمان، ووالله لئن بايعت له لنخرجنك من الشام أو لنقتلنك. قال معاوية: ما كنت لأخالف عليكم، وما أنا إلا رجل من أهل الشام. قال: فردّ هذا الرجل إلى صاحبه إذاً. ثم أمر حصين بن نمير أن يحضر له جريراً فأحضره وتجادلا هو وشرحيل إلى أن كتب جرير رسالة شعرية إلى شرحيل ينصحه فيها، فتراجع عن رأيه وبلغ معاوية ذلك فلفق له رجالاً يدخلون عليه ويعظمون عنده قتل عثمان ويرمون به علياً فأعادوه إلى رأيه الأول. وبلغ ذلك قومه فأرسل إليه ابن أخت له من بارق بشعر ينصحه ويعيره بمتابعة ابن هند، فعزم على قتاله إلا أنه هرب إلى الكوفة، ثم أتى معاوية وجعل يحرضه على الطلب بدم عثمان فقال له جرير يا شرحيل، مهلاً فإن الله حقن الدماء ولمّ الشعث وجمع أمر الأمة... فإياك أن تفسد بين الناس، وأمسك عن هذا القول قبل أن يظهر منك قول لا تستطيع رده... ثم قام فتكلم فصدّقه الناس، فعندها أيس جرير^(١).

وهذا كلّه يحتاج إلى حساب الزمان الذي استغرقته تلك المفاوضات والمكاتبات.

وقال أيضاً: «أتى معاوية جريراً في منزله فقال يا جرير أتى قد رأيت رأياً قال: هاته قال اكتب إلى صاحبك يجعل لي الشام ومصر جباية، فإذا حضرته الوفاة لم يجعل لأحد بعده بيعة في عنتي، وأسلم له هذا الأمر واكتب إليه بالخلافة، فقال: جرير أكتب بما أردت واكتب معك، فكتب معاوية بذلك إلى عليّ.

(١) نفس المصدر/٤٩.

فكتب عليّ إلى جرير: أما بعد فإنما أراد معاوية ألا يكون لي في عنقه بيعة، وأن يختار من أمره ما أحب وأراد أن يريثك حتى يدوق أهل الشام، وإن المغيرة بن شعبة قد كان أشار عليّ أن استعمل معاوية على الشام وأنا بالمدينة، فأبيت ذلك عليه، ولم يكن الله ليراني اتخذ المضلين عضداً، فإن بايعك الرجل، وإلا فأقبل.

وقال: وفشا كتاب معاوية في العرب فبعث إليه الوليد بن عقبة - وهذا كان في المدينة - وذكر مقطوعتين من الشعر يحرضه على الحرب^(١).

وقال أيضاً: «فخرج جرير يتجسس الأخبار فإذا هو بسلام يتغنى على قعود له - ثم ذكر شعره يسمي قاتلي عثمان والمحرضين عليه، وقال في الإمام:

فأما عليّ فاستغاث بيته فلا أمر فيها ولم يك ناهياً

... إلى آخر أبياته.

فسأله جرير من أنت؟ قال من قريش وأصلي من ثقف، أنا ابن المغيرة بن الأخنس بن شريق قتل أبي مع عثمان يوم الدار، فعجب جرير من قوله وكتب بشعره إلى عليّ. فقال عليّ: والله ما أخطأ الغلام شيئاً^(٢).

وقال أيضاً: «أبطأ جرير عند معاوية حتى أتهمه الناس. وقال عليّ: وقتاً لرسولي وقتاً لا يقيم بعده إلا مخدوعاً أو عاصياً، وأبطأ عليّ حتى أيس منه^(٣).

(١) نفس المصدر/ ٥٨.

(٢) نفس المصدر/ ٦٠.

(٣) نفس المصدر/ ٦١، وفي شرح النهج لابن أبي الحديد ٢١٩/١ كلام لما نقله في ذلك.

وقال أيضاً: «وكتب عليّ إلى جرير بعد ذلك: أما بعد فإذا أتاك كتابي هذا فاحمل معاوية على الفصل، وخذه بالأمر الجزم، ثمّ خيره بين حرب مُجلية، أو سلم مُحظية. فإن اختار الحرب فانبذ له وإن اختار السلم فخذ بيته. فلما انتهى الكتاب إلى جرير أتى معاوية فأقرأه الكتاب فقال له يا معاوية، إنه لا يطع على قلب إلا بدنب، ولا يُشرح صدر إلا بتوبة، ولا أظن قلبك إلا مطبوخاً، أراك قد وقفت بين الحقّ والباطل كأنك تنتظر شيئاً في يدي غيرك.

فقال معاوية: ألقاك بالفصل أول مجلسي إن شاء الله.

فلما بايع معاوية أهل الشام وذاقهم قال: يا جرير الحقّ بصاحبك وكتب إليه بالحرب^(١)، ولم يذكر نص الكتاب إلا أن المبرّد ذكره في الكامل وعنه ابن أبي الحديد في شرح النهج^(٢).

وقال نصر: «لما رجع جرير إلى عليّ كثر قول الناس في التهمة لجرير في أمر معاوية...»^(٣).

ثمّ ذكر ما جرى بين الأشتر وجرير من كلام وتبادل التهم وحتى الشتم ممّا أغضب جريراً فخرج مفاضباً إلى قرقيسيا ولحق به أناس من قسر من قومه، ولم يشهد صفين من قسر غير تسعة عشر، ولكن أحسن شهداء منهم سبعمائة رجل.

(١) وقعة صفين / ٦٢.

(٢) شرح النهج لابن أبي الحديد / ١ / ٢٥٢.

(٣) وقعة صفين / ٦٦ - ٦٧.

وقال أيضاً: «وخرج عليّ إلى دار جرير فشمع منها وحرّق مجلسه، وخرج أبو زرعة بن عمر بن جرير فقال: أصلحك الله إن فيها أرضاً لغير جرير، فخرج عليّ منها إلى دار ثوير بن عامر فحرّقها وهدم منها. وكان لحق بجرير»^(١).

وفي رواية ابن سعد في طبقاته في ترجمة جرير بسنده عنه قال: ((بعث إليّ عليّ ابن عباس والأشعث بن قيس قال: فأتيتني وأنا بقرقيسيا فقالا: إن أمير المؤمنين عليه السلام يقرئك السلام يخبرك أنه نعم ما آراك الله من مفارقتك معاوية، وإني أنزلت منزلة نبيّ الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي أنزلكها، فقال لهما جرير: إن نبيّ الله صلى الله عليه وآله بعثني إلى اليمن أقاتلهم وأدعوهم إلى الإسلام، فإذا قالوا لا إله إلا الله حرمت أموالهم ودمائهم، ولا أقاتل رجلاً يقول لا إله إلا الله أبداً فرجعا على ذلك))^(٢).

فهذا الخبر يضيف أبعاداً زمانية أخرى مضافاً إلى ما تقدم.

ولنتقف هنا وقفة تأمل وحساب لأبعاد الزمان والمكان لجميع ما مرّ بنا منذ كتاب الإمام إلى جرير وهو بهمدان وحتى نهاية مفارقة جرير الكوفة إلى قرقيسيا، فذلك كلّه جرى والإمام بعدئذ في الكوفة لم يخرج إلى حرب صفين، فياترى كم يستغرق جميع ما جرى من زمان؟

ولا يفاجأ القارئ إذا ما أتيناها بنص عند ابن اعثم جاء فيه: ((فأمر جرير فقدمت أقالمه ثم استوى على فرسه وسار حتى قدم على عليّ عليه السلام بعد عشرين ومائة ليلة فأخبره بأخبار معاوية))^(٣)!

(١) نفس المصدر/٦٨.

(٢) طبقات ابن سعد ٦/٢٩٤ ط ١ تح. الدكتور عليّ محمد صبر نشر مكتبة الخالجي بالقاهرة.

(٣) كتاب الفتوح لابن اعثم ٢/٤٠٤ ط دار الندوة الجديدة ببيروت.

فإذا كانت مدة مكث جرير بالشام وحدها كانت أربعة أشهر، وهي تزيد على ما ذكروه من مدة دخول الإمام الكوفة ١٢ رجب إلى خروجه منها إلى صفين في ٥ شوال سنة ٣٦هـ، إذن فالصحيح أن لا نبهر بأسماء المؤرخين، كما أنا لا نبخسهم حقهم، ولكن الحق أحق أن يتبع، ونذهب إلى أن حرب صفين كانت سنة ٣٧هـ إلى سنة ٣٨هـ، ويؤكد صحة ما ذهبنا إليه قول الشعبي في فترة المكث كانت سبعة عشر شهراً يجري الكتب فيها فيما بينه وبين معاوية وعمرو بن العاص.

ويزيدنا إيماناً بصحة ذلك، أن ابن عباس أقام الحج سنة ٣٦هـ^(١) فحج الناس بأمر من الإمام، ولو كان الإمام قد خرج في شوال أو ذي القعدة إلى حرب معاوية وكان ابن عباس معه، لا يمكن أن يحج بالناس في تلك السنة، لأن الحرب بدأت في ذي الحجة وكان قد ولأه الإمام على الميسرة، ولم يرد في شيء من التواريخ أنه ترك الحرب وتوجه إلى الحج.

وأحسب أنني بصرت القارئ بعرض المشكلة وحلها بما يتفق ومنطق العقل وحساب الزمان والمكان. فإن الناس يومئذ كانوا يستعملون في مراكبهم الخيل والإبل - واليغال على ندره - وتلك وسائلهم لنقل رسائلهم، ولا بد لرسولهم من قطع المسافات، كما لا بد من ملاحظة حال الرسول وحال المرسل وحال المرسل إليه، فكل ذلك يستدعي منا فرض مدة زمنية على أقل تقدير. ومهما افترضناها من قلة فهي تبلغ أضعاف مآ ذكره المؤرخون ومنهم المسعودي - كما قدمنا - فلم يكن لدى الناس يومئذ وسائل الاتصالات كما هي اليوم فلا طائرات ولا فاكس ولا إنترنت ولا موبايل، ولا هم يحزنون.

(١) تاريخ الطبري ٢٤٤/٥ ط الحسينية وتاريخ الهمداني ١٩٠/٢ ط الفهرست ومروج الذهب

٥١٧/٢ ط المامرة البهية سنة ١٣٤٦ هـ.

معاوية والمخاتلة:

قال صاحب الحدائق الوردية: ((ولمّا انقضى - كذا - حرب الجمل بالفتح المبين لأمر المؤمنين، وبلغ إلى معاوية ذلك كتب إلى عليّ عليه السلام بسم الله الرحمن الرحيم، لعليّ بن أبي طالب من معاوية بن أبي سفيان سلام عليك فإنّي أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أمّا بعد: فوالله ما بقي أحد أحبّ أن يكون هذا الأمر إليه منك، ولقد عرفت رأي أبي قبل، لقد جاءك يوم توفى رسول الله صلى الله عليه وآله يدعوك إلى البيعة، فأنا على ذلك اليوم أسرع إن أعطيتني النصف، وتعاملت على نفسك لقرابتي إن استعملتني على الشام، وأعطيتني ما أثلج به لا تنزلني عنه، بايعت لك ومن قبلي، وكنا احوالك، فقد رأيت عمر قد ولّاني فلم يجد عليّ، وإن لم تفعل فوالله لأجلبنّ عليك خمسين ألف حصان قارح في غير ذلك من الخيل.

فلمّا قرأ عليّ عليه السلام الكتاب استشار فيه عبد الله بن عباس والحسن بن عليّ وعمّار بن ياسر رجلاً رجلاً.

فقال عمّار: والله ما أرى أن تستعمله على الزرقاء، وإنما فيها خمسة أنفس.

فقال عليّ: أطو ذلك.

ثمّ دعا الحسن وابن عباس، فقالا: قد كنّا أشرنا عليك أن تقرّه على عمله، ولا تحركه، حتى إذا بايع الناس أخذت ما أردت وأقررت إن رأيت أهلاً لذلك^(١).

(١) الحدائق الوردية / ٣٥ نسخة مخطوطة بمكتبة الإمام كاشف الغطاء. وقد طبع الكتاب أخيراً في صنعاء بتحقيق د. المرتضى بن زيد المحطوري الحميني سنة ١٤٢٣ والخبر في ٦٦/١ وأشار في الهامش إلى أنه في المصابيح / ٣٠٨.

قال صاحب الحداثق: وروينا عن السيد أبي العباس بإسناده أن علياً عليه السلام قال: كان المغيرة بن شعبة قد أشار عليّ أن استعمل معاوية على الشام وأنا بالمدينة فأبيت عليه، ولم يكن الله ليراني أن اتخذ المضلين عضداً.

قال: قال الواقدي في حديثه: فلما علم معاوية ذلك من عليّ، قال: والله ما كتبت إليه وأنا أريد أن أليّ له شيئاً ولا أبايعه، ولكن أردت أن أخدعه وأقول لأهل الشام انظروا إلى عليّ وإلى ما عرض عليّ فيزيدهم بصيرة ويختلف أهل العراق عليه.

وروى غير واحد: أن معاوية أرسل أبا هريرة وأبا الدرداء إلى الإمام يدعوانه ليعيد الأمر شورى بين المسلمين، وقد مرّ في رجوعهما من الإمام بحمص فعاتبهما عبد الرحمن بن غنم بن كريب الأشعري صاحب معاذ بن جبل وكان أفتق أهل الشام، فكان ممّا قال لهما: عجبت منكما كيف جاز عليكما ما جئتما به تدعوان عليّاً إلى أن يجعلها شورى، وقد علمتما أنه قد بايعه المهاجرون والأنصار وأهل الحجاز والعراق، وأن من رضيه خيراً ممّن كرهه، ومن تبعه خير ممّن لم يتابعه، وأي مدخل في الشورى لمعاوية، وهو من الطلقاء الذين لا تجوز لهم الخلافة، وهو أبوه رؤوس الأحزاب^(١).

إلى جهاد القاسطين:

لما عزم الإمام على المسير بنفسه إلى حرب معاوية، وكان ذلك قصده الأول منذ كان في المدينة، لولا أن الناكثين - طلحة والزبير - ومن لفّ لهما من بني أمية واستغوانهم عائشة خرجوا معلنين بالخلاف على الإمام، صرفه عن قصده

(١) انظر المقفى الكبير للمقرئزي ٤٧/٤ دار الغرب الإسلامي.

الأول، ولولاهم لمعاجله الحرب، ولكن جرى القدر الماضي على قدر، فلما قضى على الزمرة الناكثة واتباعهم، وأتى الكوفة أخذ في إسداء النصائح قبل أن يعلن الحرب، وجرت مكاتبات دامت سبعة عشر شهراً، لم تردع معاوية ولم تخضعه، فصمَّ حينئذٍ على الاستعداد والمسير بنفسه، فكتب إلى عماله وأمراء الأجناد أن يوافوه بأجنادهم إلى النخيلة. وكان ابن عباس أحد من كتب إليه الإمام في ذلك. روى نصر في كتابه بسنده عن عبد الله بن عوف بن الأحمر: ((أَنْ عَلِيًّا لَمْ يَبْرَحِ النَّخِيلَةَ حَتَّى قَدِمَ عَلَيْهِ ابْنُ عَبَّاسٍ بِأَهْلِ الْبَصْرَةِ، وَكَانَ كَتَبَ عَلِيٌّ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ وَإِلَى أَهْلِ الْبَصْرَةِ:

أَمَّا بَعْدُ فَأَشْخَصَ إِلَيَّ مَنْ قَبْلَكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَذَكَرَهُمْ بِلَاثِي عِنْدَهُمْ، وَعَفَوِي عَنْهُمْ، وَاسْتِقْنَانِي لَهُمْ، وَرَغْبَهُمْ فِي الْجِهَادِ، وَأَعْلَمَهُمُ الَّذِي لَهُمْ فِي ذَلِكَ مِنَ الْفَضْلِ.

فَقَامَ فِيهِمْ ابْنُ عَبَّاسٍ فَقَرَأَ عَلَيْهِمْ كِتَابَ عَلِيٍّ، فَحَمَدَ اللَّهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: (أَيُّهَا النَّاسُ، اسْتَعْمُوا لِلْمَسِيرِ إِلَى إِمَامِكُمْ، وَانْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ تَقَاتِلُونَ الْمُحَلِّينَ وَالْقَاسِطِينَ، الَّذِينَ لَا يَقْرءُونَ الْقُرْآنَ، وَلَا يَعْرِفُونَ حُكْمَ الْكِتَابِ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ، مَعَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَابْنِ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَالصَّادِقَ بِالْحَقِّ وَالْقَيِّمَ بِالْهُدَى، وَالْحَاكِمَ بِحُكْمِ الْكِتَابِ، الَّذِي لَا يَرْتَشِي فِي الْحُكْمِ وَلَا يَدَاهِنُ الْفَجَّارَ، وَلَا تَأْخُذُهُ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَائِمٌ).

فَقَامَ الْأَحْضَفُ بْنُ قَيْسٍ، فَقَالَ: نَعَمْ وَاللَّهِ لَنَجِيَّتِكَ، وَلَنُخْرِجَنَّ مَعَكَ عَلَى الْعَسْرِ وَالْيَسْرِ، وَالرِّضَا وَالْكَرَمِ، نَحْسَبُ فِي ذَلِكَ الْخَيْرَ، وَنَأْمَلُ مِنَ اللَّهِ الْعَظِيمِ مِنَ الْأَجْرِ.

وقام إليه عمرو بن مرجوم العبدي، فقال: وفق الله أمير المؤمنين، وجمع له أمر المسلمين، ولعن المحطّين القاسطين، الذين لا يقرءون القرآن، نحن والله عليهم حقون، ولهم في الله مفارقون. فمتى أردتتا صحبتك خيلنا ورجلنا. وأجاب الناس وخفوا، فاستعمل ابن عباس على البصرة أبا الأسود الدؤلي، وخرج حتى قدم على عليّ ومعه رؤوس الأخماس:

خالد بن المعمّر السدوسي^(١) على بكر بن وائل، وعمرو بن مرجوم العبدي^(٢) على عبد القيس، وصبرة بن شيمان الأزدي^(٣) على الأزدي، والأحنف بن قيس^(٤) على تميم وضبة والرياب، وشريك بن الأصور الحارثي^(٥) على أهل العالية.

(١) خالد بن المعمّر السدوسي، من رؤساء بني بكر في عهد عمر، وكان مع الإمام عليّ في الجمل وصفين ومن أمراء جيشه أدرك عصر النبوة وبقي حتى عهد معاوية هؤلاء إمرة إرمينية فقصدها فمات في طريقه إليها بنصيبين. الأعلام للزركلي ٢/٢٤٠.

(٢) عمرو بن مرجوم العبدي كانت إليه رئاسة عبد القيس وله موقف مشرف ومشكور في فتنة ابن الحضرمي كما سيأتي الحديث عنها في أيام الإمام الحسن عليه السلام، وقد هداه الشيخ الطوسي في رجاله من أصحاب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

(٣) صبرة بن شيمان الأزدي، رأس الأزدي في أيامه وقائدهم في وقعة الجمل، كان مع عائشة على يسارها، وله كلام مع معاوية وقد اجتمعت الوفود عنده فتكلموا فأكثروا فقام صبرة فقال يا أمير المؤمنين، إنا حيّ فعال ولعننا بحيّ مقاتل، ونحن بأدنى فماننا عند أحسن فمانهم، فقال: صدقت. الأعلام للزركلي ٣/٢٨٦.

(٤) الأحنف بن قيس سيد بني تميم، أحد ضمام النضاهة الفصحاء الشجمان، يضرب به المثل في الحلم، اعتزل الحرب يوم الجمل ثم شهد صفين مع الإمام عليّ عليه السلام ولما تولى معاوية الأمر بعد الصلح مع الإمام الحسن عليه السلام كاتبه معاوية فأغضب له في الجواب فسئل معاوية عن صبره عليه فقال، هذا الذي إذا غضب غضب له مئة ألف لا يدرون قيم غضب. توفي بالكوفة سنة ٧٢ هـ وأخباره كثيرة جمع الجلودي كتاب (أخبار الأحنف) وللزركلي أيضاً نحو ذلك.

(٥) شريك بن الأصور الحارثي هو ابن عبد الله الأصور البصري كان من شيعة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بالبصرة جليل القدر شهد صفين وقاتل مع صمار بن ياسر، وهو الذي أتى

فقدموا عليّ بالنخيلة...»^(١).

قال البلاذري: «وقد كان الأحنف وشريك قدما الكوفة مع عليّ، فردّهما إلى البصرة ليستقرا هؤلاء الذين ساروا معهما إلى الكوفة، ويقال إنهما شيّعا فردّهما قبل أن يلبقا الكوفة ليستقرا الناس إليه فعلا، ثمّ أشخصهما ابن عباس معه»^(٢).

إلى صفين:

قال الخضري في محاضراته: «لم تكن واقعة الجمل على شدة هولها وفضاعة أمرها إلا مقدمة لما هو أشد منها وأفظع أمراً وهو الحرب في صفين». قال أبو حنيفة الدينوري: «فلما اجتمع إلى عليّ قواصيه، وانضمت إليه أطرافه، تهيأ للمسير من النخيلة، ودعا زياد بن النضر وشريح بن هانئ فعقد لكل واحد منهما على ستة آلاف فارس. وذكر وصية الإمام لهما - ثمّ قال: فلما كان اليوم الثالث من مخرجهما قام في أصحابه خطيباً فقال: أيها الناس نحن سائرون غداً في آثار مقدمتنا، فإياكم والتخلف، فقد خلّفت مالك بن حبيب اليربوعي، وجعلته على الساقة، وأمرته ألا يدع أحداً إلا الحقّه بنا.

به ابن زياد معه من البصرة إلى الكوفة حين قدمها لضبطها من الثورة على الأمويين وقد دخلها مسلم بن عقيل، فنزل شريك على هانئ بن عمرو وبها مسلم فحرّضه على اغتيال ابن زياد حين يأتي لميقاته وكان مريضاً، ومات بالكوفة سنة ٦٠ ودفن بالثوية، وصلى عليه ابن زياد، ولما علم ابن زياد أنّه كان يحرّض على قتله قال: والله لا أصلي على جنازة عراقى أبداً، ولو لا أن قبر زياد فيهم لنبشت شريكاً. تاريخ الطبري ٦/ ٢٠٢ ط الحسينية.

(١) وقعة صفين / ١٣٠ - ١٣١ .

(٢) أنساب الأشراف (ترجمة الإمام) ٢/ ٢٩٦٢٩٥ .

فلما أصبح نادى في الناس بالرحيل، وسار - ثم ذكر منازل التي مرّ بها من رسوم بابل إلى سباط المدائن وقد هبّت له فيه الأنزال، ثم إلى الأنبار وهكذا قطع المنازل حتى وصل إلى صفين فوجد معاوية قد نزل على شريعتها الوحيدة التي لم يصلح غيرها للرواء، لأن ما عداها أخراق عالية وأماكن وعرة، وغياض ملتفة، فيها نزور طولها نحو من فرسخين، وليس في ذينك الفرسخين طريق إلى الفرات إلا طريق واحد مفروش بالحجارة، وسائر ذلك خلاف وغرب ملتف لا يسلك، وجميع الفيضة نزور ووحل^(١). هكذا وصفها الدينوري.

قال ابن أبي الحديد في شرح النهج: «وكان وصول عليّ عليه السلام إلى صفين لثمان بقين من المحرم من سنة سبع وثلاثين»^(٢).

وذكر نصر بن مزاحم في وقعة صفين القتال على شريعة الماء حتى ملكها العراقيون: وأرادوا منع أهل الشام منه فموتوا عطشا، لكن الإمام منعهم من ذلك وأبت نفسه الشريفة إلا تكرّما، وأباح الماء للواردين منهم أسوة بجنده، فالناس فيه شرع سواء^(٣).

وقال نصر: «ومكث عليّ يومين لا يرسل إلى معاوية ولا يأتيه من قبل معاوية أحد»^(٤).

وقال أبو حنيفة في الأخبار الطوال: «ثم توادع الناس وكف بعضهم عن بعض، وأمر على ألاّ يمنع أهل الشام من الماء فكان يسقون جميعاً، ويختلط

(١) الأخبار الطوال/ ١٦٦.

(٢) شرح النهج/ ١/ ٢٩٢.

(٣) وقعة صفين/ ١٨٥/ ٢٠٨.

(٤) المصدر السابق/ ٢٠٩.

بعضهم ببعض، ويدخل بعضهم في معسكر بعض، فلا يعرض أحد من الفريقين لصاحبه إلا بخير، ورجوا أن يقع الصلح... فلم يزالوا يتراسلون شهر ربيع - الأول والثاني - وجمادى الأولى»^(١).

وقال نصر: «فتراسلوا ثلاثة أشهر ربيع الآخر وجماديين، فيفزعون الفزعة فيما بين ذلك»^(٢).

وقال أبو حنيفة: «وفزعون فيما بين ذلك يزحف بعضهم إلى بعض، فيحجز بينهم القراء والصالحون، فيفترقون من غير حرب، حتى فزعوا في هذه الثلاثة أشهر خمساً وثمانين فزعة، كل ذلك يحجز بينهم القراء. فلما انقضت جمادى الأولى بات عليٌّ عليه السلام بعبيء أصحابه ويكتب كتابه، وبعث إلى معاوية يؤذنه بحرب، فمبى معاوية أيضاً أصحابه وكتب كتابه، فلما أصبحوا تراحضوا وتواقفوا تحت راياتهم في صفوفهم، ثم تحاجزوا فلم تكن حرب، وكانوا يكرهون أن يلتقوا بجميع القبيلتين مخافة الاستئصال غير أنه يخرج الجماعة من هؤلاء إلى الجماعة من أولئك، فيقتلون بين العسكرين، فكانوا كذلك حتى أهلّ هلال رجب، فأمسك الفريقان»^(٣).

وقال نصر: «حتى إذا كان رجب وخشي معاوية أن يبایع القراء علياً على القتال، أخذ في المكر، وأخذ يحتال للقراء لكيما يحجموا عنه، ويكفوا حتى ينظروا - وان معاوية كتب في سهم: من عبد الله الناصح فإنني أخبركم أن معاوية يريد أن يفجر عليكم الفرات فيفرقكم فخذوا حذرکم.

(١) الأخبار الطوال / ١٦٩.

(٢) وقعة صفين / ٢١٣.

(٣) الأخبار الطوال / ١٦٩.

ثم رمى معاوية بالسهم في عسكر علي عليه السلام فوقع في يدي رجل من أهل الكوفة فقراه ثم أقرأه صاحبه، فلما قرأه وأقرأه الناس... فلم يزل حتى رفع إلى أمير المؤمنين. فقال: وبحكم إن الذي يعالج معاوية لا يستقيم له ولا يقوى عليه، وإنما يريد أن يزيلكم عن مكانكم، فالهوا عن ذلك ودّعوه».

ثم ذكر نصر عدم طاعتهم وخلافهم ونجاح معاوية بمكره حتى اضطروا إلى القتال مرة ثانية على الماء، فاسترجعوا الشريعة وأرادوا منع الماء على معاوية وجنده، فمنعهم الإمام وقال: «أيها الناس إن الخطب أعظم من منع الماء...»^(١).
والآن فلنتقرأ:

ماذا عن ابن عباس في صفين ؟

لقد مرّ بنا قول المؤرخين: إن الإمام لم يبرح النخيلة حتى وافاه ابن عباس. ومرّ بنا قولهم: إنه أتاه من البصرة ومعه أجناده ورؤوس الأخماس. وفارقناه منذ النخيلة وحتى صفين فلم نقف له على ذكر في تلك المنازل التي قطعها مع الإمام، ولما كان هو مع الإمام لم يفارقه في حله وترحاله، ولم يزل معه من بدء الحرب وحتى نهايتها المحزنة بخدعة التحكيم، ثم لم يفارقه حتى عاد معه إلى الكوفة، فلا شك أنه كانت له في خلال تلك المدة التي استدامت شهوراً طويلة مواقف كثيرة، وإذا كنا لا نحصيها عدداً، لأننا لم نحط بتفاصيلها خبراً، لكن ما ظهر منها أثرى الموضوع دلالة وأصالة، حيث وجدناه رأساً منظوراً في موقفه القيادي، وقائداً عسكرياً في قتاله الميداني، ومناوراً بارعاً صلباً مع المخادعين، وخطيباً بليغاً في تعبئة أجناده.

(١) وقعة صفين / ٢١٣.

وما علينا الآن إلا أن نلمّ ببعض النصوص التاريخية لنستعلم منها صفحات جهاده في صفين، لتبدو مواقفه الناصعة الثيرة المشرقة.

أولاً: مركزه القيادي

قال نصر وأبو حنيفة الدينوري: «وقد استعمل علي الميسرة عبد الله بن عباس... وجعل في الميسرة ربيعة... وجعل علي قريش وأسد وكنانة عبد الله بن عباس...»^(١)، وهذا الذي تكاد تتفق عليه المصادر الأولى التاريخية، وفي بعضها نجد: «وعبأ علي بن أبي طالب أصحابه... وجعل علي خيل القلب عبد الله بن عباس والعباس بن ربيعة بن الحارث»^(٢)، ويصح جميع ذلك إذا عرفنا أن الحرب استدامت شهوراً وشهوراً، فلا مانع من تغيير مكان القيادة تبعاً لما تمليه حالة الحرب وتعبئة العدو.

فقد قال نصر: «فمكثوا علي ذلك حتى كان ذو الحجة فجعل علي يأمر هذا الرجل الشريف فيخرج معه جماعة فيقاتل، ويخرج إليه من أصحاب معاوية رجل معه آخر... فاقتل الناس ذا الحجة كله، فلما مضى ذو الحجة تداعى الناس أن يكف بعضهم عن بعض إلى أن ينقضي المحرم، لعل الله أن يجري صلحاً واجتماعاً، فكف الناس بعضهم عن بعض»^(٣).

ثم ذكر نصر وغيره أيضاً - تبادل الرسل بالمساعي الحميدة لكن معاوية بعناده لم يرضخ لقبول الحق.

(١) وقمة صفين / ٢١٣، الأخيار الطوال / ١٧١.

(٢) تاريخ الفتوح لابن اثم الكوفي / ٣٢/٣.

(٣) وقمة صفين / ٢١٩، ٢٢١.

قال أبو حنيفة: «فلما انسلخ المحرم - أي من سنة ٢٨ - بعث عليّ منادياً فنادى في عسكر معاوية عند غروب الشمس: إنا أمسكتنا لتصرم الأشهر الحرم وقد تصرمت، وإنا ننبذ إليكم على سواء، إن الله لا يحب الخائنين. فبات الفريقان يكتبون الكتاب، وقد أوقدوا النيران في العسكرين، فلما أصبحوا تراخفوا»^(١).

هذا ما ذكره الدينوري، ولم يعد عن رواية نصر بن مزاحم في وقعة صفين كثيراً. إلا أن نصرأ ذكر في موضع آخر فقال: «فلما انسلخ المحرم واستقبل صفر وذلك سنة تسع وثلاثين»^(٢)، وأحسب وهماً أو تصحيفاً جرى في تحديد السنة.

والصحيح فيما أراه كما بيناه بين شارحين عند ذكر رواية الدينوري أنها سنة ثمان وثلاثين، لأنه قد مرّ بنا قول ابن أبي الحديد في تاريخ وصول الإمام إلى صفين (لثمان بقين من المحرم من سنة سبع وثلاثين)، ومرّ بنا عن نصر والدينوري ذكر المراسلة طيلة الأشهر ربيع الأول والثاني وجمادى الأولى والآخرة، ومرّ بنا ذكر الفزعات التي تخللت تلك الشهور، ثم ذكر المواعدة في رجب، ثم استمرت الحال على نحو ذلك اللون من الحرب إلى نهاية شهر ذي الحجة وهو نهاية سنة سبع وثلاثين فلا بد أن يكون هذا المحرم الذي تمت فيه المواعدة وقد انسلخ هو بداية سنة ثمان وثلاثين، ولمزيد من الإيضاح أرجع إلى حلّ مشكلة في التاريخ مستجد مزيداً من التوضيح.

(١) الأخبار الطوال / ١٧١.

(٢) وقعة صفين / ٢٢٨.

ونعود إلى ابن عباس فلا نجد طرؤً تبدل على مركزه القيادي منذ بدء الحرب حتى نهايتها، محافظاً على السلامة الفكرية عند قواد أجناده، ورفع المعنويات القتالية عند الأفراد، ولم يذكر مؤرخو الأحداث ان الميسرة أصابها ما أصاب الميمنة من تضعف وحتى انكشاف بدت آثاره السيئة على القلب، حتى قالوا ان الإمام انحاز إلى الميسرة فاستقلت ربيعة في حمايته وتحالفت على الموت دونه، وكان خطيبهم يقول لهم يا معشر ربيعة لا عذر لكم بعد اليوم عند العرب إن أصيب أمير المؤمنين وهو فيكم.

وما رجعت الميمنة إلى مراكزها وانتظمت صفوفها إلا بعد أن اعترضهم الإمام وأرسل إليهم الأشتر فثابوا وتابوا، والميسرة مستمرة في قتالها، وقد ذكر نصر مشاهد قتالية دلت على بطولات نادرة، ومع ذلك فقد ذكر ربيعة ناس في أحد رؤوس الأخماس وذلك هو خالد بن المعمر السدوسي، واتهموه بأنه كاتب معاوية وخافوا خيائته وهذا من ربيعة البصرة الذين جاؤا مع ابن عباس فاتوا الإمام وأخبروه بخشيتهم، واتخذ الإمام الإجراء المناسب والحيطه، ولم يذكر عن قبائل ربيعة أي شائبة في صدق القتال وبذل النصيحة، وما ذلك إلا بفضل القيادة الحكيمة التي كانت تحت إمرة ابن عباس.

ثانياً: منازلته الحربية

لم نجد ابن عباس يياشر الحرب بنفسه إلا في أيام معلومات، وهذا يفرض سؤالاً وجيهاً لماذا لم يياشر الحرب؟ مع أنه بحكم مركزه القيادي يجب أن يكون مع المقاتلين في كل حملة فضلاً عن المبارزة الانفرادية.

وللجواب على ذلك: وجدنا نهياً من الإمام - وهو القائد الأعلى - ينهى جماعة عن مباشرة القتال كان منهم ابن عباس.

فقد روى ابن قتيبة في كتابه عيون الأخبار قال: ((قال أبو الأخر التميمي: بينا أنا واقف بصفين مرّ بي العباس بن ربيعة بن الحرث بن عبد المطلب، مكثراً بالسلح، وعيناه تبصّان من تحت المغفر كأنهما عينا أرقم ويده صفيحة يمانية يقبها وهو على فرس له صعب، فينا هو يمقته ويلين من عريكته، هتف به هاتف من أهل الشام يعرف بعرار بن أدهم، يا عباس هلمّ إلى البراز، قال العباس: فالنزول إذا فإن أياس من القفول، فنزل الشامي وهو يقول:

إن تركبوا فركوب الخيل عادتنا أو تنزلون فإننا معشرٌ نزل

وثنى العباس رجله وهو يقول:

ويصد عنك مخيلة الرجل العريض موضحة عن العظم

بحسام سيفك أو لسانك والكلم الأصيل كأرغب الكلم

ثم عصّب فضلات درعه في حجزته، ودفع فرسه إلى غلام له أسود يقال له: أسلم، كأنني والله انظر إلى فلافل شعره، ثم دلف كل واحد منهما إلى صاحبه فذكرت قول أبي ذؤيب:

فتنازلا وتواقفت خيلاهما وكلاهما بطل اللقاء مخدع

وكفّت الناس أحنّة خيولهم ينظرون ما يكون من الرجلين، فتكافحا بسيفيهما ملياً من نهارهما لا يصل واحد منهما إلى صاحبه لكمال لامته، إلى أن لحظ العباس وهناً في درع الشامي فأهوى إليه يده فهتكه إلى شدوته، ثم عاد لمجادته وقد أصحّر له مفتق الدرع فضربه العباس ضربة انتظم بها جوانح صدره،

فخر الشامي لوجهه وكبر الناس تكبيرة ارتجت لها الأرض من تحتهم، وسما العباس في الناس، فإذا قائل يقول من ورائي: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ وَيَذْهَبَ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ^(١) فالتفت فإذا أمير المؤمنين عليه السلام، فقال لي يا أبا الأغر من المنازل لعدونا؟

قلت: هذا ابن أخيكم، هذا العباس بن ربيعة. فقال: وأنه لهو، يا عباس ألم أنهك وابن عباس أن تخلأ بمراكز كما وأن تباشرا حرباً؟ قال: إن ذلك كان، قال: فما عدا مما بدا؟ قال: يا أمير المؤمنين أفادعي إلى البراز فلا أجيب؟ قال: نعم طاعة أمامك أولى من إجابة عدوك، ثم تغيظ واستطار، حتى قلت: الساعة الساعة، ثم سكن وتطامن ورفع يديه مبتهلاً فقال: اللهم اشكر للعباس مقامه واغفر ذنبه أني قد غفرت له فاغفر له^(٢).

فهذا الخير فيه صراحة النهي لابن عباس أن يخلّ بمركزه - القيادي - وأن يباشر حرباً - بنفسه -

ويبدو من الخير الآتي أنه قد علم بهذا النهي معاوية وخاصة، إلا أنهم فسروه حفاظاً من الإمام على سلامة ابن عباس والنفر الآخرين. وذلك فيما رواه لنا نصر بن مزاحم في كتابه قال: ((وحدثنا عمر بن سعد عن الأجلع بن عبد الله الكندي عن أبي جحيفة قال: ثم إن معاوية جمع كل قرشي بالشام فقال: العجب يا معشر قريش إنه ليس لأحد منكم في هذه الحرب فعال يطول به لسانه غداً ما عدا عمرأ، فما بالكم

(١) التوبة / ١٤ - ١٥.

(٢) عيون الأخبار / ١٧٩.

وأين حمية قريش؟ فضضب الوليد بن عقبة وقال: وأي فعالي تريد، والله ما نعرف في أكفأتنا من قريش العراق من يغني غنائنا باللسان ولا باليد فقال معاوية: بل إن أولئك قد وقوا علينا بأنفسهم.

قال الوليد: كلا بل وقاهم علي بنفسه.

قال: ويحكم أما منكم من يقوم لقرنه منهم مبارزة أو مفاخرة.

فقال مروان: أما البراز فإن علينا لا يأذن لحسن ولا لحسين ولا لمحمد بنيه

فيه، ولا لابن عباس وأخوته^(١) ويصلى بالحرب دونهم، فلايهم نبارز؟

وأما المفاخرة فماذا نفاخرهم أبالإسلام أم بالجاهلية؟ فإن كان بالإسلام فالفخر لهم بالنبوة، وإن كان بالجاهلية فالملك فيه لليمن، فإن قلنا قريش قالت العرب فأقروا لبني عبد المطلب...^(٢).

فبدلالة هذين الخبيرين عرفنا نهي الإمام لابن عباس عن مباشرة الحرب مبارزة، وإنما كان النهي لثلاث تخل المبارزة والمباشرة بالمركز الذي منه تنطلق الأوامر إلى رؤساء الأخماس بالتوجيه بما تمليه الحرب في الساعة

(١) لعل الصواب في العبارة أن تكون هكذا، ولا لابن عباس ولا بني أخوته. أي بني أخوة الإمام الذين كانوا معه بصفين من أبناء جعفر وعقيل. أما أخوة ابن عباس فلم يذكر في أسماء من حضر صفين اسم أحد منهم إلا أن ابن عبد البر في الاستيعاب ذكر في آخر ترجمة الحبر ابن عباس فقال: شهد عبد الله بن عباس مع علي بن أبي طالب الجمل وصفين والنهروان، وشهد معه الحسن والحسين ومحمد بنوه وعبيد الله وقتلنا ابننا العباس ومحمد وعبيد الله وصون بنو جعفر بن أبي طالب والمغيرة بن نوفل بن الحرث بن عبد المطلب وعقيل بن أبي طالب وعبيد الله بن ربيعة بن الحرث بن عبد المطلب... اهـ.

أقول: وهذا لا يخلو من نظر، فإن عبيد الله وقتلنا كانا والييين على اليمن ومكة، وعقيل لم يحضر أي من الحروب الثلاثة، نعم ورد ذكر مسلم بن عقيل في صفين وربما كان معه بعض أخوته.

(٢) وقعة صفين / ٥٢٧ . ٥٢٨ .

والساحة، من تنظيم وتوجيه أو منازل أو مرابطة، أو هجوم عام، وذلك كله إنما يتم من خلال البقاء في المركز القيادي وليلتقى الأوامر أيضاً من الإمام عليه السلام فهذا هو المدلول لكلمة الإمام: (ألم أنك وابن عباس أن تخلأ بمراكز كما وأن تباشرا حرباً).

وأما تفسير مروان لذلك الموقف فهو خطأ محض، ولو كان لما ذكره وجه من الصحة لشمّل الذكر بقية من حضر الحرب من بني هاشم كأبناء أخيه جعفر الطيار وهم محمد وعبد الله وحون، وكالمغيرة بن نوفل بن الحارث وعمه عبد الله بن ربيعة أخ العباس بن ربيعة وبقية الهاشميين، فإن شفقة الإمام كانت على الجميع سواسية، مع أن أبناء الإمام أمير المؤمنين عليه السلام كانوا يخوضون الحرب معه ويحوطنونه ويتقون النبال دونه، ولا يمنع ذلك من الشفقة عليهم، والتصدي بنفسه للعدو دونهم إذا خشي عليهم منه.

فقد روى نصر بسنده عن زيد بن وهب قال: ((مرّ عليّ يومئذ ومعه بنوه نحو الميسرة ومعه ربيعة وحدها، وإني لأرى النبل بين عاتقه ومنكبيه، وما من بنيه أحد إلا يقيه بنفسه، فيكره عليّ ذلك، فيتقدم عليه ويحول بينه وبين أهل الشام، ويأخذ بيده إذا فعل ذلك فيلقيه بين يديه أو من ورائه...))^(١).

ويبدو من خلال وقائع الحرب التي استدامت طويلاً، كانت لابن عباس بعض المنازل الميدانية، ولا بد أنها كانت بإذن من الإمام عليه السلام، وقد وجدت له ثلاثة مواقف قتالية مع أقطاب قادة أهل الشام المميّزين: كعمرو بن العاص والوليد بن عقبة وعبيد الله بن عمر، وذي الكلاع الحميري.

ثالثاً: موقف خطابي ومنازلة ميدانية مع عمرو بن العاص
 روى نصر بسنده عن سمع عمرو بن العاص قبل الوقعة العظمى بعين وهو
 يحرض أصحابه بعينين: ((قام محثياً على قوس، فقال - ثم ذكر الخطبة وجاء في
 آخرها: مع أن القوم - ويعني أهل المراق - قد وطئوا بلادكم ونفوا عليكم، فجلتوا في
 قتال عدوكم، واستعينوا بالله ربكم، وحافظوا على حرمتكم))^(١).

وقال نصر: ((ثم إنه جلس قدام عبد الله بن العباس خطيباً فقال:
 الحمد لله رب العالمين، الذي دحا تحتنا سبماً، وسماك فوقنا سبماً، ثم خلق
 فيما بينهن خلقاً وأنزل لنا منهن رزقاً، ثم جعل كل شيء يلى ويفنى غير وجهه
 الحي القيوم الذي يحيا ويمتلى.

ثم إن الله بعث أنبياء ورسلاً فجعلهم حججاً على عباده، عُدراً أو تُدراً، لا
 يطاع إلا بعلمه وإذنه، يمن بالطاعة على من يشاء من عباده ثم يثيب عليها،
 ويعصى بعلم منه فيعفو ويغفر بحلمه، لا يقدر قدره، ولا يبلغ شيء مكانه، أحصى
 كل شيء عدداً، وأحاط بكل شيء علماً.

ثم إنني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً
 عبده ورسوله ﷺ إمام الهدى والنبي المصطفى، وقد ساقنا قدر الله إلى ما
 قد ترون، حتى كان فيما اضطرب من حبل هذه الأمة، وانتشر من أمرها، أن
 ابن آكلة الأكباد قد وجد من طعام أهل الشام أعواناً على علي بن أبي
 طالب ابن عم رسول الله وصهره، وأول ذكر صلى معه، بدري قد شهد مع
 رسول الله ﷺ كل مشاهدته التي فيها الفضل، ومعاوية وأبو سفيان مشركان
 يعبدان الأصنام.

واعلموا والله الذي ملك الملك وحده فبان به وكان أهله، لقد قاتل علي بن أبي طالب مع رسول الله ﷺ وعلي يقول: صدق الله ورسوله، ومعاوية وأبو سفيان يقولان: كذب الله ورسوله.

فما معاوية في هذه بأثر ولا أتقى ولا أرشد ولا أصوب منه في تلکم، فعليکم بتقوى الله والجد والحزم والصبر، والله إنکم لعلی الحق وإن القوم لعلی الباطل، فلا یكوننّ أولى بالجدّة فی باطلهم منکم فی حکمکم، أما والله إنّنا لتعلم أنّ الله سيمدّ بهم بأيديکم وبأيدي غيرکم.

اللهم ربنا أعنا ولا تخذلنا، وانصرنا على عدونا، ولا تخلّ عنا، وافتح بيننا وبين قومنا بالحق، وأنت خير الفاتحين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم^(١).

ثم جرت منازلة ميدانية واشتد القتال فيها، فقد قال ابن اعثم الكوفي: ((خرج عمرو بن العاص في خيل عظيمة، فأخرج إليه علي رضي الله عنه بن عباس في خيل مثلها، فاتصرفوا عن قتلى وجرحى))^(٢).

رابعاً: يوم من أيام صفين مع الوليد بن عقبة

قال نصر في كتابه وقعة صفين: ((فلما أن كان اليوم الخامس - من شهر صفر - خرج عبد الله بن العباس، والوليد بن عقبة، فاقتتلوا قتالاً شديداً، ودنا ابن عباس من الوليد بن عقبة، فأخذ الوليد يسبّ بني عبد المطلب وأخذ يقول: يا بن عباس قطعتم أرحامكم، وقتلتم إمامكم، فكيف رأيتم صنع الله بكم، لم تعطوا ما طلبتم، ولم تدركوا ما أمّلتكم، والله - إن شاء الله - مهلككم وناصرنا عليكم.

(١) نفس المصدر/٣٥٩.

(٢) كتاب الفتوح ٣/٣٠.

فأرسل إليه ابن عباس: أن ابرز إلي، فأبى أن يفعل، وقاتل ابن عباس يومئذ قتالاً شديداً».

ثم قال نصر: «ثم انصرفوا عند الظهر وكلّ غير غالب وذلك يوم الأحد»^(١).

هذا ما ذكره نصر من عدم الغلبة لأي من الطرفين - يخالفه ما رواه المسعودي فقد قال: «وأكثر الوليد من سب بني عبد المطلب بن هاشم، فقاتله ابن عباس قتالاً شديداً وناداه: ابرز إلي يا صفوان - وكان لقب الوليد - وكانت الغلبة لابن عباس، وكان يوماً صعباً»^(٢).

وقد ورد ذكر هذا اليوم عند الطبري^(٣)، وفي تاريخ ابن الأثير^(٤)، والبداية والنهاية لابن كثير^(٥)، وتاريخ ابن خلدون^(٦). وغيرها من المصادر، وجميعها متفقة على أن المنازلة كانت بين ابن عباس وبين الوليد - إلا أن البلاذري بعد أن روى ما هو المذكور عند المؤرخين عقب قاتلاً ومن قال: إن الوليد اعتزل القتال، قال: كان القتال في اليوم الخامس بين عبد الله بن عباس وملحان^(٧) بن حارثة بن سعد بن الحشرح الطائي وهو من أهل الشام، وفيه يقول الشاعر:

(١) وقمة صفين / ٢٤٩.

(٢) مروج الذهب ٢/٢٨٩ تح. محمد محي الدين عبد الحميد.

(٣) تاريخ الطبري ١٣/٥ ط دار المعارف.

(٤) تاريخ ابن الأثير ٣/١٢٧ ط بولاق.

(٥) البداية والنهاية ٧/٢٦١ ط السعادة.

(٦) تاريخ ابن خلدون ١/١١٠٣ ط دار الكتاب اللبناني.

(٧) هو ابن عم حاتم الطائي الجواد المشهور. حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرح الطائي، وهذا ملحان بن حارثة بن سعد بن الحشرح الطائي وله ذكر في أخبار حاتم في الألفاني ١٦/٩٥ و ٩٨ ط الساسي وفيها: وكان - حاتم - لا يماهر إلا وهو - يعني ملحان بن حارثة - معه.

ليك على ملحان ضيف مدقع وأرملة تزجى مع الليل أرملا^(١)

خامساً: مع عبيد الله بن عمر وذي الكلاع الحميري في قتال شديد قال أبو حنيفة في الأخبار الطوال: ((وخرج يوماً ذو الكلاع في أربعة آلاف فارسي من أهل الشام قد تبايعوا على الموت، فحملوا على ربيعة، وكانوا في ميسرة علي، وعليهم عبد الله بن عباس، فتصدعت جموع ربيعة، فناداهم خالد ابن المعمر - وهو أحد رؤساء الأحماس من البصرة - يا معشر ربيعة أسخطم الله، فثابوا إليه فاشتد القتال حتى كثرت القتلى، ونادى عبيد الله بن عمر: انا الطيب ابن الطيب، فسمعه عمار فناداه: بل أنت الخيث ابن الطيب.

فاقتلوا بين الصفيين، وعبيد الله أمامهم يضرب بسيفه، فحمل عليه حرث ابن جابر الحنفي قطعنه في لثته فقتله^(٢).

وقال أيضاً: ((وخرج ذو الكلاع في كتيبة من أهل الشام من عك ولخم، فخرج إليه عبد الله بن عباس في ربيعة فالتقوا، ونادى رجل من مذحج العراق: يا آل مذحج خذموا^(٣) فاعترضت مذحج عكاً يضرهون سوقهم بالسيوف فيبركون، فنادى ذو الكلاع: يا آل عك بروكاً كبيروك الإبل، وحمل رجل من بكر بن وائل يسمى خندقا على ذي الكلاع فضربه بالسيف على عاتقه، فقدّ الدرع وقرى عاتقه

(١) انساب الأشراف (ترجمة الإمام) ٢/٣٠٥.

(٢) الأخبار الطوال / ١٧٨.

(٣) خذموا أي اضربوا السوق، والتخديم ضرب مكان الفلحال من الرجل. وقد وهم محقق كتاب الأخبار الطوال طبع وزارة الثقافة والإرشاد القومي - الاقليم الجنوبي - الإدارة العامة. حيث ذكر النص (خذموا) بالذال المعجمة وعلق في الهامش بقوله: في الاصل خذموا والصواب: خذموا أي أسرهوا في السير. وهذا مبلغ علمه فلا غرابة لكن الأهراب مراجعة الدكتور جمال الدين الشيال للكتاب ولم يلتفت إلى خطأ ذلك.

فخر ميتاً، فلما قُتل ذو الكلاع تمحكت عك، وصبروا لعضّ السيوف، فلم يزالوا كذلك حتى أمسوا»^(١).

هذه رواية الدينوري في الأخبار الطوال، لكن نصر بن مزاحم روى مقتل ذي الكلاع قبل مقتل عبيد الله بن عمر كما ذكر له مخالطة فاشلة ولذا ذكر روايته باقتضاب. قال: «إن زياد بن خصفة أتى عبد القيس - وهم من ربيعة البصرة - يوم صفين، وقد عُيِّت قبائل حمير مع ذي الكلاع - وفيهم عبيد الله بن عمر - ليكر بن وائل، فقاتلوا قتالاً شديداً خافوا فيه الهلاك فقال زياد لعبد القيس: لا بكر بعد اليوم، إن ذا الكلاع وعبيد الله أبادا ربيعة، فانهضوا لهم وإلا هلكوا، فركبت عبد القيس وجاءت كأنها غمامة سوداء، فشذت إزاء الميسرة فعظم القتال، فقتل ذو الكلاع الحميري قتله رجل من بكر بن وائل اسمه خندف، وتضعفت أركان حمير، وثبتت بعد ذي الكلاع تحارب مع عبيد الله بن عمر وبعث عبيد الله بن عمر إلى الحسن بن عليّ فقال: إن لي اليك حاجة فالقني، فلقبه الحسن فقال له عبيد الله: إن أباك قد وتر قريشاً أولاً وآخرأ، وقد شئتوه فهل لك أن تخلمه ونوليك هذا الأمر؟

قال: كلا والله لا يكون ذلك، ثم قال له الحسن: لكأني أنظر إليك مقتولاً في يومك أو غدك، أما إن الشيطان قد زين لك وخدعك حتى أخرجك مخلقاً بالخلق تري نساء أهل الشام موقفك، وسيصرعك الله ويبطحك لوجهك قتيلاً.

قال: فوالله ما كان إلا كيومه أو كالغد وكان القتال، فخرج عبيد الله في كتيبة رقطاء - وهي الخضراء - كانوا أربعة آلاف عليهم ثياب خضر، ونظر

(١) الأخبار الطوال/ ١٧٩.

الحسن فإذا هو برجل متوسط رجل قتييل قد ركز رمحه في عينه، وربط فرسه برجله، فقال الحسن لمن معه: انظروا من هذا، فإذا هو برجل من همدان، فإذا القتييل عبيد الله بن عمر بن الخطاب قد قتله وبات عليه حتى أصبح، ثم سلبه... واخذ سيفه ذا الوشاح، فأخذ به معاوية بالكوفة بكر بن وائل حين يبيع فقالوا: إنما قتله رجل منا من أهل البصرة يقال له محرز بن الصحصح، فبعث معاوية إليه بالبصرة فأخذ السيف منه^(١).

(١) وقعة صفين / ٣٣٤.

ولقد اختلف الرواة في قاتل عبيد الله بن عمر فقالوا من همدان وقالوا من حضرموت وقالوا من ربيعة وهذا هو الذي استقر به ابن أبي الحديد في شرح النهج ٤٩٩/١٤٠ مستنداً بضمير كعب بن جعيل في رثاله حيث ذكر اسم أسماء وهي بنت عطارد إحدى زوجتي عبيد الله والأخرى بحرية بنت هاني الشيبانية، وكان عبيد الله أخرجهما معه إلى الحرب ذلك اليوم لينظرا إلى قتاله فوقفتا راجلتين. ويبدو من رواية المسعودي أن نساءه كادت أكثر من اثنتين.

قال المسعودي في مروج الذهب ٣٩٥/٢: وكان عبيد الله إذا خرج إلى القتال قام إليه نساؤه فشدن عليه سلاحه ما خلا الشيبانية بنت هاني بن قبيصة، فخرج في هذا اليوم - يوم مقتله - وأقبل على الشيبانية وقال لها: إني قد صبات اليوم لقومك وأيم الله إني لأرجو أن أربط بكل منب من أطناب فسطاطي سيداً منهم. فقالت له: ما أبغض إلا أن تقاتلهم، قال: ولم؟ قالت: لأنه لم يتوجه إليهم صنيدي في جاهلية ولا إسلام وفي رأسه صمر إلا أبادوه، وأخاف أن يقتلوه، وكأني بك قتيلاً وقد أتيتهم أسائهم أن يهبوا لي جيفتك، فرماها بقوس فشجها، وقال لها ستعلمين بمن أتيتك من زعماء قومك، ثم توجه فحمل عليه حريث بن جابر الجعفي فطعنه فقتله، وقيل إن الأستر النخعي هو الذي قتله، وقيل إن علياً ضربه ضربة فقطع ما عليه من الحديد حتى خالط سيفه حشوة جوفه، وإن علياً قال حين هرب فطلبه ليقيد منه بالهرمزان؛ لكن فاتني في هذا اليوم لا يفوتني في غيره. وكلم نساؤه معاوية في جيافته فأمر أن تأتين ربيعة هتبتان في جيافته عشرة آلاف، فعلن ذلك فاستأمرت ربيعة علياً فقال لهم: إنما جيافته جيفة كلب لا يحل بيها، ولكن إذا أحببتهم فاجعلوا جيافته تبنت هاني بين قبيصة الشيباني زوجته، فقالوا نعوذ عبيد الله؛ إن شئت شدنا، إلى ذنب بقل ثم ضربناه حتى يدخل إلى عسكر معاوية فصرخن وقلن: هذا أهد علينا، واخبرن معاوية بذلك فقال لهن: اتوا الشيبانية

سادساً: مشاهد من مشاهد صفين برواية ابن عباس

روى فرات بن إبراهيم بسنده عن ضرار بن الأزور^(١): «أن رجلاً من الخوارج سأل ابن عباس عن علي بن أبي طالب عليه السلام، فأعرض عنه ثم سأله فقال: كان والله علي أمير المؤمنين يشبه القمر الزاهر، والأسد الخادر، والفرات الزاخر، والربيع الباكر، فأشبهه من القمر ضوءه وبهاؤه، ومن الأسد شجاعته ومضاؤه، ومن الفرات جوده وسخاؤه، ومن الربيع خصبه وحياؤه.

عقمت النساء أن يأتين بمثل علي بن أبي طالب عليه السلام بعد رسول الله صلى الله عليه وآله.

تالله ما سمعت ولا رأيت إنساناً مثله، لقد رأيت يوم صفين وعليه عمامة يضاء وكان عينيه سراجان...»^(٢) إلى آخر ما سيأتي.

وروى هذا أبو جعفر محمد بن محمد بن علي الطبري بسنده عن عكرمة عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: «عقم النساء أن يأتين بمثل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ما كشفت النساء ذيولهن عن مثله، لا والله ما رأيت فارساً محرباً يوزن به، لرأيته يوماً ونحن معه بصفين وعلى رأسه عمامة سوداء، وكان عينيه سراجا سليط تتواقدان من تحتها، يقف على شذمة شذمة يخطبهم حتى انتهى

فسلوها ان تكلمهم في جيفته، ففعلن واقت القوم وقالت: انا بنت هانئ بن قبيصة، وهذا زوجي القاطع الظالم وقد حنرت ما صار إليه ههبوا لي جيفته ففعلوا، واقت إلهم بمطرف خز فأدرجوه فيه ودفعوه إليها، فمضت به، وكان قد هد في رجله إلى منب فسقاط من فساطيطهم. قارن البلاذري في انساب الأشراف (ترجمة الإمام) ٣٢٦/٢.

(١) هذا ليس هو الممدود في الصحابة والذي قتل مالك بن نويرة فإنه قتل في أيام أبي بكر وقيل في أيام عمر راجع الإصابة في ترجمته وإنما هذا رجل آخر غيره لم ألق على من ذكره في الرجال عندنا. فهو مجهول. ولكن اتفاق جمهرة من المؤرخين على رواية المشهد عن ابن عباس يجعلنا من المطمئنين برواية فرات بن إبراهيم.

(٢) في تفسيره ١٦٣/ حد الحسينية.

إلى نفر أنا فيهم، وطلعت خيل لمعاوية تدعى بالكتيبة الشهباء، عشرة آلاف دارع على عشرة آلاف أشهب، فاقشعرت الناس لها لما رأوها، وانحاز بعضهم إلى بعض. فقال أمير المؤمنين عليه السلام: فيما النخع والنخع يا أهل العراق؟ هل هي إلا أشخاص مائلة فيها قلوب طائفة، لو مستها سيوف أهل الحق لرأيتموها كجراد بقيمة سفته الريح في يوم عاصف.

ألا فاستشعروا الخشية، وتجلببوا بالسكينة، واذرعوا الصبر، وعضوا الأصوات، وقلقوا الأسياف في الأغماد قبل السلة، وانظروا الخزر، واطعنوا الشزر، وكافحوا بالظبا، وصلوا السيوف بالخطي والنبال بالرماح، وعادوا الكر، واستحيوا من الفر، فإنه حار في الأعقاب، ونار يوم الحساب، فطيوا عن أنفسكم نفساً، وامشوا إلى الموت مشياً سجعاً، فإنكم بعين الله عليه السلام ومع أخ رسول الله عليه السلام وعليكم بهذا السرادق الأدلم، والرواق المظلم، فاضربوا ثبجه، فإن الشيطان راقد في كسره، نافس حفضيه، مفترش ذراعيه، قد قدم للوثية يداً، وأخر للنكوص رجلاً، فصمدا صمداً، ينجلي لكم عمود الحق وأنتم الأعلون **(وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَكُنْ يَتَرَكُمُ أَهْمًا لَكُمْ)** ^(١) ها أنا شاذ فشدوا باسم الله حم لا ينصرون.

ثم حمل عليهم أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام حملة وتبعته خويلة لم تبلغ المائة فارس، فأجالهم فيها جولان الرحي المسرحة بثقالها، فارتفعت عجاجة منعتي النظر، ثم انجلت فأنهت النظر فإذا أمير المؤمنين قد أقبل وسيفه ينطف، ووجهه كشقة القمر وهو يقول: قاتلوا أئمة الكفر إنهم لا إيمان لهم.

قال عكرمة: وكان ابن عباس رضي الله عنه يحدث فيقول: أمر رسول الله صلى الله عليه وآله علياً رضي الله عنه بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين^(١).

أقول: لقد أخرج هذه الخطبة - كلاً أو بعضاً - كثير من الأعلام بدءاً من فرات ابن إبراهيم (المعاصر للإمام الرضا رضي الله عنه المتوفى سنة ٢٠٣هـ) فقد رواها بسنده كما مر، ثم رواها نصر بن مزاحم المتوفى سنة ٢١٢ في كتابه وقعة صفين كما حكاهما عنه ابن أبي الحديد^(٢) وإن خلت النسخة المطبوعة من كتاب صفين عن ذلك، ورواها الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥هـ^(٣)، ورواها ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦هـ^(٤)، والمسعودي المتوفى سنة ٣٤٦هـ في مروج الذهب^(٥)، والشريف الرضي المتوفى سنة ٤٠٦هـ^(٦)، والقاضي القضاعي المتوفى سنة ٤٥٤هـ^(٧)، والبيهقي المتوفى سنة ٤٥٨هـ^(٨)، والزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨هـ^(٩)، وابن عساکر المتوفى سنة ٥٧٧هـ^(١٠)، والطبري الإمامي من علماء القرن السادس^(١١)، والمتقي الهندي^(١٢)، وغير هؤلاء من المتأخرين عنهم، فجميع الذين ذكروا الخطبة بتمامها مروية عن ابن عباس رضي الله عنه وروايته لها

(١) بشارة المصطفى لشيمة المرتضى / ١٧٢ ط الحيدرية.

(٢) شرح النهج / ١ / ٤٨٣ ط مصر الأولى.

(٣) البيان والتبيين / ٢ / ٢٤.

(٤) صيون الأخبار / ١ / ١١٠ ط.

(٥) مروج الذهب / ٢ / ٣٨٩.

(٦) نهج البلاغة المختار / ٦٤.

(٧) دستور معالم الحكم / ١٢٤.

(٨) المحاسن والمساوي / ٤٥.

(٩) الفائق مادة (زَن) و(نَتْر) و(نَتْر) و(نَتْر).

(١٠) تاريخ دمشق (ترجمة الإمام) / ٣ / ١٤٥ - ١٥٠.

(١١) بشارة المصطفى / ١٧٢.

(١٢) كنز العمال / ١١ / ٣٣٨ ط حيدرآباد الثانية.

بالفاظها في ذلك الموقف الرهيب على ما فيه من تداعيات القلق، وحفظه لها بنصها
وفصها - كما يقولون - لتبرز لنا احدى معالم النبوغ عنده، وتظهر احدى ملامح
العبقرية الفذة النادرة التي كان يمتاز بها.

فهذه احدى مفردات مواقفه الحربية في صفين مضافاً لما قدمنا ذكره من
شواهد على مركزه القيادي ومنازلته الحربية.
والآن إلى لون آخر من تلك المواقف التي تتجلى من خلالها رهبة العدو
منه، فجهد محاولاً خداعه. وإليك:

حديث الخديعة:

قبل ذكر الحديث لابد من توثيقه لأن هشام بن عمار الدمشقي كان يقول
للبلادري وهو من شيوخه: «هذا الحديث مما صنعه ابن دأبكم لأن البلادري
رواه عن المدائني عن عيسى بن يزيد»^(١) - وهو ابن دأب -

وإذا رجعنا إلى الجاحظ وجدناه يقول: «يزيد بن بكر بن دأب وكان عالماً
ناسباً وراوية شاعراً وهو القائل:

الله يعلم في علمي علمه وكذلك علم الله في عثمان

ثم قال: وولد يزيد بن يحيى وعيسى، فعيسى هو الذي يعرف في العامة
بإبن دأب، وكان من أحسن الناس حديثاً وبياناً، وكان شاعراً راوية، وكان
صاحب رسائل وخطب، وكان يجيدهما جداً.

ومن آل دأب حديفة بن دأب وكان عالماً ناسباً. وفي الدأب علم بالنسب
والخير»^(٢).

(١) انساب الأشراف ٢/٣١٠ تحم محمودي.

(٢) كتاب البيان والتبيين ١/٣٢٣ - ٣٢٤ تحم هارون.

فهؤلاء بنو دأب، ومنهم عيسى بن دأب الذي اتهمه هشام بن عمار الدمشقي، وهشام على ما ورد في ترجمته في تهذيب التهذيب من مدح فقد ورد فيه من القدح ما ينسف مدحه. ويكفي أنه كان يُلَقَّن فيتلقَّن ولا يفهم بما يحدث.

ثم إن الحديث رواه غير ابن دأب فلاحظ سند نصر بن مزاحم فقد رواه عن محمد بن اسحاق عن عبد الله بن أبي يحيى عن عبد الرحمن بن حاطب وهذا صحابي مولود على عهد عليه السلام وتوفي سنة ٦٨هـ وقيل قتل يوم الحرة كما في الإصابة.

ولاحظ سند الجاحظ فقد رواه ^(١) عن محمد بن سعيد عن إبراهيم بن حويطب إلا أنه ذكره مقالة قالها عمرو بن العاص لابن عباس، وليس ذلك بضائر. وأما ابن اعثم فقد ذكر ما جرى من الكتب... لما عضهم سلاح أهل العراق وبدأها بلفظ (قال): وإذا رجعتا نلتمس القاتل نجد الرجل قد ذكر في ابتداء خبر وقعة صفين عدة أسانيد ليس بين أسماء رجالها عيسى بن دأب، وقال بعد ذكرهم وغير هؤلاء... وقد جمعت ما سمعت من رواياتهم على اختلاف لغاتهم فألفته حديثاً واحداً على نسق واحد... فعرفنا أنه هو القاتل.

١- بين عمرو بن العاص وابن عباس:

والآن إلى رواية الحديث بلفظ نصر وإضافة ما عند البلاذري بين قوسين وكذا ما عند ابن اعثم من زيادة وقال: ((وإن معاوية لما يش من جهة الأشعث قال لعمرو بن العاص:

(١) نفس المصدر ٢٩٨/٢ تمه هارون.

إن رأس الناس بعد عليّ هو عبد الله بن عباس، فلو أقيمت إليه كتاباً لملك ترققه به، فإنه إن قال شيئاً لم يخرج عليّ منه، وقد أكلتنا الحرب، ولا أرانا نصل إلى العراق إلا بهلاك أهل الشام.

فقال له عمرو: إن ابن عباس (أريب) لا يُخدع، ولو طمعت فيه لطمعت في عليّ.

فقال معاوية: صدقت إنه لأريب ولكن علي ذلك فاكتب إليه (رقعة لطيفة وتنتظر ما عنده فتعمل على حسب ذلك).

(قال) فكتب إليه عمرو: (من عمرو بن العاص إلى عبد الله بن العباس): أما بعد، فإن الكدي نحن وأنتم فيه ليس بأول أمر قاده البلاء، وساقه سفه العافية، وأنت رأس هذا الأمر بعد عليّ (ابن عمك)، فانظر فيما بقي ودع ما مضى، فوالله ما أبقت هذه الحرب لنا ولا لكم حياة ولا صبراً، واعلم إن الشام لا تملك إلا بهلاك العراق، وإن العراق لا تملك إلا بهلاك الشام، وما خيرنا بعد هلاك أعدادنا منكم، وما خيركم بعد هلاك أعدادكم منا، ولست نقول ليت الحرب عادت، ولكننا نقول ليتها لم تكن، وإن فينا من يكره القتال، كما أن فيكم من يكرهه، وإنما هو أمير مطاع (أو مأمور مطيع)، أو مؤتمن مشاور وهو أنت، وأما الأشتر الغليظ الطبع القاسي القلب فليس بأهل أن يُدعى في الشورى، ولا في خواص أهل النجوى (وقد طال هذا بيتنا حتى لقد ظننا أن فيه الفناء وفي ذلك أقول) وكتب في أسفل الكتاب:

طال البلاء وما يُرجى له آسى بعد الإله سوى رفق ابن عباس^(١)

(١) أما الجرح أسوأ وأسأ: داوام وأما بينهم أصلح، والاسي: الطبيب.

قولاً له قول من يرضى بحظوته
يا بن الذي زمزم سقيا الحجيج له
كل لصاحبه قرن يساوره
لو قيس بينهم في الحرب لا عدلوا
فانظر فدى لك نفسي قبل قاصمة
إن العراق وأهل الشام لن يجدوا
بسرراً وأصحاب بسر والذين هم
قوم عراة من الخيرات كلهم
قالوا يرى الناس في ترك العراق لكم
إني أرى الخير في سلم الشام لكم
أنت الشجاع شجاعها في حلوقهم
(فاصدع بأمرك أمر القوم إنهم)

لا تنس حظك إن الخاسر الناسي^(١)
أعظم بذلك من فخر على الناس
أسد العرين أسود بين أخياس^(٢)
العجز بالعجز ثم الرأس بالرأس
للظهير ليس له اراق ولا آسي
طمع الحياة مع المستغلق القاسي^(٣)
داه العراق رجال أهل وسواس
فما يساوي به خلق من الناس^(٤)
والله يعلم ما بالسلم من باس
والله يعلم ما بالشام من ناس
مثل اللجام شجاع موضع القاس^(٥)
خشاش طير رأت صقراً بحساس^(٦)

(١) الحظوة: بالضم والكسر، والحطة كعدة المكانة والحظ من الرزق، وهي نسخة: قول من يرجو مودته. وفي انساب الأشراف والفتوح: قول مسرور بحظوته.

(٢) في انساب الأشراف (قرن يعادله) وفي المصدر: يساوره أي يواشيه، وهو اصح أيضاً مما يوجد في بعض المصادر: (يشاوره). والأخياس: جمع خيس - بالكسر - وهو الشجر الكثير الملتصق. وفي انساب الأشراف: (أسد تلامي أسودا بين أخياس).

(٣) استغلقني في بيته ثم يجعل لي خياراً في رده واستغلق علي بيته صار كذلك (لقاموس) وفي انساب الأشراف:

أهل العراق وأهل الشام لن يجدوا طمع الحياة لحرب ذات القاس

(٤) في طبعة صفين بمصر/ ٤٦٩: فما يساوي به أصحابه كاسي.

(٥) اللجام ككتاب للدابة ويكون في حلق الدابة لذلك فهو الشجاع، وكل ما يعترض الحلق من عظم ونحوه فهو شجاع.

(٦) كذا في انساب الأشراف ٢/ ٣٠٨ (لترجمة الإمام علي). وخشاش الطير كالصافير ونحوها، والحساس: السيف المبير.

فيها التقى وأمور ليس يجهلها إلا الجهول وما التوكل كأكياس^(١)

قال: فلما فرغ من شعره عرضه على معاوية، فقال معاوية: لا أرى كتابك على رقة شعرك.

فلما قرأ ابن عباس الكتاب (والشعر) أتى به علياً فأقرأه شعره فضحك وقال: قاتل الله ابن العاص (ابن النابغة) ما أغراه بك يا بن عباس، أجهه وليردّ عليه شعره الفضل بن العباس فإنه شاعر.

فكتب ابن عباس إلى عمرو: أما بعد فإني لا أعلم رجلاً من العرب أقلّ حياءً منك، إنّه مال بك معاوية إلى الهوى، ويحتد دينك بالثمن اليسير، ثمّ خبطت بالناس في عشوة (عشواء طخياء) (مظلمة) طمعاً في الملك فلما لم تر شيئاً أعظمت الدنيا إعظام أهل الذنوب (الدين) وأظهرت فيها (زهادة) نزاهة أهل الورع، فإن كنت (أردت) (تريد أن) ترضي الله ﷻ بذلك فدم مصر وارجع إلى بيتك (أهل بيت نبيك محمد ﷺ)، (فإن) هذه الحرب ليس معاوية فيها كعليّ، ابتدأها عليّ بالحقّ وانتهى فيها إلى العذر، وبدأها معاوية بالبغي وانتهى فيها إلى السرف، وليس أهل العراق فيها كأهل الشام، بايع أهل العراق علياً وهو خير منهم، وبايع أهل الشام معاوية وهم خير منه، ولست أنا وأنت فيها بسواء، أردتُ الله وأردتُ أنت مصر وقد عرفتُ الشيء الذي باعدك مني، ولا أرى الشيء الذي قربك من معاوية، فإن تردّ شراً لا نسبقك إليه، وإن تردّ خيراً لا تسبقنا إليه والسلام.

(١) التوكل: الحمقى، والكيس: خلاف الحمقى.

ثم دعا الفضل بن العباس، فقال له يا ابن أم^(١) أجب (عني) عمراً (على شعره هذا).

فقال الفضل:

يا عمرو حسبك من خلدع ووصواس	فاذهب فليس لداء الجهل من آسي ^(٢)
إلا تواتر طعن في نحوركم	يشجي النفوس ويشفي نخوة الرأس
(بالسمهريّ وضرب في شواربكم)	يردي الكماة ويلدري قبة الرأس)
هذا الدواء الذي يشفي جماعتكم	حتى تطيعوا علياً وابن عباس
أما عليّ فإنّ الله فضله	بفضل ذي شرف عالٍ على الناس
إن تعقلوا الحرب نعقلها مخيصة	أو تبعثوها فإننا غير أنكاس ^(٣)
قد كان منا ومنكم في عجاجتها	مالا يرذ وكلّ عرضة البأس ^(٤)

(١) في قول ابن عباس يا ابن أم - على تقدير صحة النسخة - نحو تجوز له ما يبرره في الاستعمال والمخاطبات بين الناس لشدة العزيمة وطلب العمولة. والأمن المعلوم الثابت أن أخاه الفضل بن العباس بن عبد المطلب قد مات في طامون عمواس سنة ١٧ - أو ١٨ - بالشام. وإنما المخاطب في المقام هو الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب، وهو ابن أخت عبد الله بن عباس، فإن أمه أمنة بنت العباس، ويقال لها: أمينة - قال البلاذري: كانت عند العباس بن عتبة بن أبي لهب فولدت له الفضل الشاعر. ولما كان الاشتراك في الاسم واسم الأب بين الشاعر اللهبي وبين خاله، فظن من لا خبرة له أن الشاعر هو الفضل بن عباس بن عبد المطلب، فافلاً عن تقدم واثته ومن تظن إلى ذلك فقد احتمل تصحيف التنبية (يا بن لم) عن (يا بن عم) باعتبار الشاعر من ذرية أبي لهب وهو من اصنام عبد الله بن عباس، لكن الصواب في نظري (يا بن أختي) لأنه هو ابن أخته كما تقدم.

(٢) في الفتوح (فاذهب فما لك في ترك الهدى آسي).

(٣) المخيصة من الإبل - بالفتح - التي لم تشرح ولكنها حُبِست للنحر أو للقسم فشبه الحرب بالابل في اعتقائها، وانكاس جمع كس وهو المقصر عن غاية الكرم.

(٤) في الفتوح (من لا يفرّ وليس الليث كالجاسي كالخاسي).

قتلى العراق بقتلى الشام ذاهبة هذا بهذا وما بالحق من باس
لا بارك الله في مصر لقد جلبت شراً وحظك منها حسوة الكأس
يا عمرو إنك عارٍ من مغارمها والراقصات لأثواب الخنا كاسي
ان عادت الحرب عدنا فالتمس هرباً في الأرض أو سلمأفي الأفق يا قاسي^(١)
ثم عرض الشعر والكتاب على عليّ فقال: (أحسنت) ولا أراه يجيبك بشيء
بعدها إن كان يعقل، ولعله يعود فتعود عليه.

فلما انتهى الكتاب إلى عمرو أتى به معاوية فقال: أنت دعوتني إلى هذا، ما
كان أغثاني وإياك عن بني عبد المطلب.

فقال: إن قلب ابن عباس وقلب عليّ قلب واحد، كلاهما ولد عبد المطلب،
وإن كان قد خشن فلقد لان، وإن كان قد تعظم أو عظم صاحبه فلقد قارب
وجنح إلى السلم).

قال ابن اعمش^(٢): «فلما وصل الكتاب والشعر إلى عمرو فأتى به معاوية
فأقرأه إياه، ثم قال: ما كان أغثاني وإياك عن بني عبد المطلب.

فقال معاوية: صدقت أبا عبد الله، ولكنك قد علمت ما مرّ علينا بالأمس من
القتل والهلاك، وأظنّ حلياً سياترنا الحرب غداً ويعمل على المناجزة، وقد
رأيت أن أشغله أنا غداً عن الحرب بكتاب أكتبه إلى ابن عباس، فإن هو أجابني
إلى ما أريد فذلك، وإلا كتبت إلى عليّ وتحملت عليه بجميع من في عسكره
فإن أجاب، وإلا صادته وجعلتها واحدة لي أم عليّ، فهذا رأيي وإنما أريد بذلك

(١) الأبيات المقوسة من الفتوح لابن اعمش ٣/ ٢٥٣ - ٢٥٤.

(٢) هي الفتوح ٣/ ٢٥٤. ٢٥٥.

أن أجمّ الحرب أياماً، فقد تعلم ما نزل بنا في هذه الأيام وإن كان عندك رأي غير هذا فهاته؟

فقال عمرو: أما أنا فأقول إن رجاءك لا يقوم رجاءه، ولست بمثله، وهو رجل يقاتلك على أمر وأنت تقاتله على غيره، وهو يريد الفناء وأنت تريد البقاء، وليس يخاف أهل الشام من عليّ إن ظفر بهم ما يخاف أهل العراق إن ظفرت بهم، وأظنك تريد مخادعة عليّ، وابن أنت من خديعتك.

فقال معاوية: فكيف ذلك؟ ألسنا ببني عبد مناف؟

فضحك عمرو ثم قال: بلى لعمرى أنت وهو من بني عبد مناف كما تقول ولكن لهم النبوة من دونك، فإن شئت فاكتب..

ب- بين معاوية وابن عباس:

قال نصر: ((وإن معاوية كان يكتب ابن عباس، وكان يجيبه بقول لئین، وذلك قبل أن يعظم الحرب))^(١).

أقول: ولم أقف على شيء من تلك المكاتبات سوى ما ذكره ابن عساکر في تاريخ دمشق ونقله المتقي الهندي قال: ((عن عبد الملك بن حميد قال: كتنا مع عبد الملك بن صالح بدمشق فأصاب كتاباً في ديوان دمشق:

بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله بن عباس إلى معاوية بن أبي سفيان، سلام عليك، فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو، عصمتنا الله وإياك بالتقوى، أما بعد فقد جاءني كتابك فلم اسمع منه إلا خيراً، وذكرت شأن المودة بيننا،

(١) وقعة صفين / ٤٧١.

وإنك لعمر الله لودود في صدري من أهل المودة الخالصة والخاصة، وإني للخلة التي بيننا لراع، ولصالحها لحافظ ولا قوة إلا بالله.

أما بعد فإنك من ذوي النهى من قريش وأهل الحطم والخلق الجميل منها، فليصدر رأيك بما فيه النظر لنفسك والتقية (البقية ظ) على دينك، والشفقة على الإسلام وأهله، فإنه خير لك وأوفر لحظك في دنياك وآخرتك، وقد سمعتك تذكر شأن عثمان بن عفان فاعلم إن اتباعك في الطلب بدمه فرقة وسفك للدماء، وانتهاك للمحارم، وهذا لعمر الله ضرر على الإسلام وأهله، وإن الله سيكفيك أمر سافكي دم عثمان، فتأن في أمرك، واتق الله ربك، فقد يقال لك: إنك تريد الإمارة، وتقول: إن معك وصية من النبي صلى الله عليه (وآله) وسلم بذلك، فقول نبي الله صلى الله عليه (وآله) وسلم الحق فتأن في أمرك، ولقد سمعت رسول الله صلى الله عليه (وآله) وسلم يقول للعباس أن الله يستعمل من ولدك اثني عشر رجلاً منهم السفاح والمنصور والمهدي والأمين والمؤمن وأمير العصب، أفتراني استعجل الوقت أو أنتظر قول رسول الله صلى الله عليه (وآله) وسلم؟ وقوله الحق، وما يرد الله من أمر يكن ولو كره العالم ذلك، وأيم الله لو أشاء لوجدت متقدماً وأحوائاً وأنصاراً ولكني أكره لنفسي ما أنهاك عنه فراقب الله ربك، واخلف محمداً في أمته خلافة صالحه، فأما شأن ابن عمك علي بن أبي طالب فقد استقامت له عشيرته وله سابقته وحقه، وبحوله على الحق أعوان ونصحاء لك وله ولجماعة المسلمين.

والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

وكتب عكرمة ليلة البدر من صفر سنة ست وثلاثين... اهـ^(١).
 فهذا الكتاب نموذج من تلك الأجوبة اللينة والتي لم تجد الأرض الصالحة
 لتثمر نفعاً وقد استمر معاوية في خداعه وهو الآخر لم يجد الأذن الصاغية
 لاستماعه، حتى إذا عظم الخطب، واشتعلت نار الحرب، تغيرت اللهجة،
 وتفاعرت الحجة بالحجة وصار إلى المخادعة والمخاتلة بطريقة ايقاع الفرقة بين
 الهاشميين، واغراء بعضهم على بعض، وليس ذلك بيدع منه فقد كان - على حدّ
 قول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام -: ((يودّ ما ترك من بني هاشم نافع ضرمة إلا طعن
 في نيّته))^(٢).

وهل في الهاشميين بعد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام مثل ابن عباس في فهمه
 وعلمه، وعقله وفضله، فليجهد معاوية نفسه فيما يفرّق به بين المرء وإمامه، وذلك
 بخديعة ابن عباس وإنه الرأس بعد الإمام.

وهذه الفكرة لم تبارح معاوية طيلة حكمه، فسيأتي من الشواهد عليها بعد
 موت الإمام الحسن عليه السلام وقوله لابن عباس: ((أصبحت سيّد أهلك))، ولكن ابن
 عباس الذكي الألمي لا ينخدع بزهرج الألفاظ فرد عليه قائلاً: ((أما ما بقي أبو
 عبد الله الحسين بن عليّ فلا...)).

والآن إلى حديثه في صفتين برواية نصر بن مزاحم:
 قال نصر بن مزاحم: ((قلّمَا قتل أهل الشام قال معاوية: إن ابن عباس رجل
 من قريش، وأنا كاتب إليه في عداوة بني هاشم لنا، وأخوفه عواقب هذه الحرب
 لعله يكف عنّا. فكتب إليه:

(١) كنز العمال ١١/٣٣٣. ٣٣٥ طه حيدرآباد الثانية برقم ١٣٣٦.

(٢) الفائق للزمخشري (نيط).

أما بعد فإنكم يا معشر بني هاشم لستم إلى أحد أسرع بالمساءة منكم إلى أنصار عثمان بن عفان، حتى أنكم قتلتم طلحة والزبير لطلبهما بدمه، واستعظامهما ما نيل منه، فإن يكن ذلك لسلطان بني أمية فقد وليها عدي وتيم (قبل بني أمية) فلم تنافسوهم وأظهرتم لهم الطاعة، وقد وقع من الأمر ما قد ترى (وأدالت هذه الحروب منا ومنكم)، وأكلت هذه الحرب بعضها من بعض حتى استوتينا فيها، فما أطعمكم فينا أطعمنا فيكم، وما آيسكم منا آيسنا منكم، وقد رجونا غير الذي كان وخشينا دون ما وقع، ولستم بملائينا اليوم بأحد من حدّ أمس، ولا غداً بأحد من حدّ اليوم، وقد قنعنا بما كان في أيدينا من ملك الشام، فاقنعوا بما في أيديكم من ملك العراق، وأهتوا على قريش (واتقوا الله ريكم) فإنما بقي من رجالها ستة: رجلان بالشام ورجلان بالعراق ورجلان بالحجاز، فأما اللذان بالشام فأنا وعمرو وأما اللذان بالعراق فأنت وعليّ، وأما اللذان بالحجاز فسعد وابن عمر، واثنان من الستة ناصبان لك (ولابن عمك) واثنان واقفان فيك، وأنت رأس هذا الجمع اليوم، ولو بايع لك الناس بعد عثمان لكنا إليك (إلى طاعتك) أسرع منا إلى عليّ (فرايك فيما كتبت إليك)»^(١).

قال نصر في كلام كثير كتب إليه: «فلما انتهى الكتاب إلى ابن عباس (تبسم ضاحكاً) أسخطه ثم قال: حتى متى يخطب ابن هند إليّ عقلي؟ وحتى متى اجمع على ما في نفسي؟ فكتب إليه:

بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد فقد أتاني كتابك وقرأته (وفهمت ما سطرته فيه)، فأما ما ذكرت من سرعتنا إليك بالمساءة في أنصار ابن عفان،

وكراهيتنا لسلطان بني أمية، فلعمري لقد أدركت في عثمان حاجتك حين استصرك فلم تنصره، حتى صرت إلى ما صرت إليه، وبينى وبينك في ذلك ابن عمك وأخو عثمان الوليد بن عقبة.

وأما طلحة والزبير فإنهما أجبا عليه وضيقا خناقه، ثم خرجا ينتفضان البيعة ويطلبان الملك، فقاتلناهما على النكث، وقاتلناك على البغي، وأما قولك: إنه لم يبق من قريش غير ستة، فما أكثر رجالها وأحسن بقيتها، وقد قاتلك من خيارها من قاتلك، ولم يخذلنا إلا من خذلك.

وأما إغراؤك إيانا بعدي وتيم، فأبو بكر وعمر خير من عثمان، كما أن عثمان خير منك (وأما ذكرك الحرب) فقد بقي لك منا يوم ينسبك ما (كان) قبله، وتخاف ما (يكون) بعده.

وأما قولك: إنه لو بايع الناس لي لاستقاموا لي (لأسرعت إلى طاهتي)، فقد بايع الناس علياً (وهو أخو رسول الله ﷺ وابن عمه ووصيه ووزيره) وهو خير مني فلم تستقيموا له، وإنما الخلافة لمن كانت له في المشورة، (وأما أنت فليس لك فيها حق) وما أنت يا معاوية والخلافة، وأنت طليق وابن طليق (رأس الأحزاب وابن آكلة الأكباد)، والخلافة للمهاجرين الأولين، وليس الطلقاء منها في شيء^(١).

قال نصر في روايته: فلما انتهى الكتاب إلى معاوية قال: هذا عملي بنفسى، لا والله لا أكتب إليه كتاباً سنة كاملة. وقال معاوية في ذلك:

دعوت ابن عباس إلى حد خطة وكان امرأ أهدى إليه رسائلي

وأخلف ظنني والحوادثُ جمّةً
وما كان فيما جاء ما يستحقه
فقل لابن عباس تراك مفرقاً
وقل لابن عباس تُراك مخوفاً
فأبرق وأرعد ما استطعت فإتني
(وصفين داري ما حبيت وليس ما
ولم يك فيما قال مني بواصلي
وما زاد أن أغلى عليه مراجلي
بقولك من حولي وأنتك آكلي
بجهلك حلمي إتنى غير غافل
إليك بما يشجيك سبط الأنامل^(١)
ترئص من ذاك الوعيد بقاتلي^(٢))

قال نصر في روايته: ((فلما قرأ ابن عباس الشعر قال: لن أشتمك بعدها.

وقال الفضل بن عباس:

ألا يا بن هند إتنى غير غافل
لأن الذي إجتبت إلى الحرب نابها
فأصبح أهل الشام (صرعى فكلهم)
وأيقنت أنا أهل حق وإنما
دعوت ابن عباس إلى السلم خدعة
فلا سلم حتى تشجر الخيل بالقنا
وآليت: لا تهدي إليه رسالةً
وإنك ما تسمى له غير نائل
عليك وألقت بركها بالكلاكل^(٣)
كفقمة قاع أو كشحمة آكل^(٤)
دعوت لأمر كان أبطل باطل
وليس لها حتى تدين بقابل
وتضرب هامات الرجال الأماثل
إلى أن يحول الحول من رأس قابل

(١) سبط اليتيم، وسبط الأنامل هو السخي.

(٢) وقمة صفين / ٤٧٣، والفتوح ٥٩/٢، والبيت ما بين القوسين منه.

(٣) الكلاكل، جمع كلكل.

(٤) الفقمة، الكمأة البيضاء الرخوة، ويقال للدليل وهو لال من فقع بقرقرة لأنه لا يمتنع على من اجتناه، أو لأنه يوطأ بالأرجل.

أردتَ به قطع الجواب وإنما
وقلتَ له لو بايعوك تبعتهم
وصي رسول الله من دون أهله
فدونكه إن كنت تبغي مهاجراً
رماك فلم يخطى بنان المقاتل
فهذا عليّ خير حافرٍ وناصل
وفارسه إن قيل هل من منازل
أشمٌ كمنصل السيف غير حلال^(١)
فعرض شعره على عليّ فقال: أنت أشعر قریش، فضرب بها الناس إلى
معاوية^(٢).

قال ابن اعثم: ((فوصل الكتاب إلى معاوية فقرأه وفهم الشعر فلم يرد على
ذلك إلى أن كتب إلى عليّ...))^(٣).

أقول: في صحة نسبة هذه الأبيات إلى الفضل بن عباس عندي توقف، لأن
ابن شهر اشوب المتوفى سنة ٥٨٨هـ ذكر منها البيت الخامس منسوباً إلى عبد الله
ابن عباس بتغيير في القافية من (بقائل) إلى (بخادع) واحتمال وهم النساخ جار
في المقام، خصوصاً وقد ذكر ابن أبي الحديد في شرح النهج^(٤) البيتين الأخيرين
مصرحاً بنسبتهما إلى عبد الله بن عباس، وتابعه السيّد شرف الدين في
المراجعات^(٥) على ذلك وأيضاً خلو ما ذكر من اشعار الفضل بن العباس اللهبي
من الأبيات المذكورة، ولا يبعد أن تكون جميعها لعبد الله بن عباس وهم

(١) نعل السيف: حديدية في أسفل فمذ السيفه خير حلال، خير سيّد هجاج اي فدونكه
وأنت كنعل السيف غير حلال. وفي الفتوح (أشم بتصل السيف ليس بناكل).

(٢) وقعة صفين / ٤٧٤.

(٣) الفتوح ٢/ ٢٥٩.

(٤) شرح النهج لابن أبي الحديد ١/ ٥٠.

(٥) المراجعات / ٢٨٧.

الراوي أو الناسخ فنسبها إلى الفضل بن عباس لقرب ذكره فيما تقدم له من الشعر في المقام.

ومهما كان الصحيح في نسبة الشعر فإنه شعر صادق في التعبير عما كان أدخله كتاب ابن عباس والشعر الأول في نفس معاوية من انهيار معنوي حتى حلف أن لا يكتب إلى ابن عباس كتاباً سنة كاملة. وأياته المذكورة تنبئ عن فشله وندامته ولكنه على عادته في المكابرة ختمها بقوله:

فأبرق وأرعد ما استطلعت فلأنتي إليك بما يشجيك سبط الأنامل

أي سخني بما يشجيك، ولم يكن يتوقع أن يأتيه من قبل ابن عباس ما يشجيه هو أيضاً، ولقد صدقت فراسة عمر بن الخطاب في ابن عباس ومعاوية وعمرو بن العاص حين ذكر نعر عنده معاوية وابن العاص، فقال لهم: أين أنتم عن عبد الله بن عباس؟ فقالوا: والله أنه - أي كما ذكرت - ولكنهما أذكي سنّاً وأطول تجربة. فقال عمر: إن هذا لهما عليه، ولئن بقي يجري في عناتهما ليبرحنّ بهما تبريح الأشقر مقرأً وشيحاً^(١).

نعم لقد برّح بهما أيما تبريح، حتى قال معاوية بعد وصول الجواب إليه: هذا عملي بنفسي، لا أكتب والله إليه كتاباً سنة كاملة.

ومرّ بنا قول عمرو بن العاص معانياً ومعاتباً معاوية على حمله أن يكتب إلى ابن عباس وجاءه الجواب المليء تقريماً وتسفيهاً فقال: أنت دعوتني إلى هذا، ما كان أغثاني وإياك عن بني عبد المطلب.

(١) انباء نجباء الأبناء لابن ظفر المكي / ٨٠ ط مصر. والمعنى برّح به الأمر تبريحاً أي جهده والأشقر من الخجل حمرة صافية يحمّر معها العرف والذنب والمقر - ساكن - دق العنق والضحج - في لغة هذيل - الجاد في الأمور.

ليلة الهرير:

ليلة كان الموت أقرب إلى المقاتلين من حبل الوريد، لم تغمد السيوف ولم تسكن الرجال - وكانت تلك ليلة الجمعة - اقتتل الناس فيها حتى الصباح، فتضاربوا بالسيوف حتى أهدرت، وتطاعنوا بالرماح حتى تقصفت، وتراموا بالنبل والحجارة حتى فئت، لم يصلوا لله إلا إيماء - صلاة الخوف والمطاردة - لشدة الجلال والمسايغة، حتى بلغ من قتالهم أن تكادموا بالأفواه والفارس - يعتنق الآخر مثله فيقعان معاً إلى الأرض عن فرسيهما. وهذا هو الموقف الذي توعدت به ابن عباس معاوية حين هدده فيما كتب به إليه (وقد بقي لك منّا يوم ينسبك ما قبله).

فقد روى السيد ابن طاووس عن ابن عباس قال: «قلت لأمير المؤمنين عليه السلام ليلة صفين: أما ترى الأعداء قد أحذقوا بنا؟ فقال: وقد راعك هذا؟ قلت: نعم. فقال: اللهم إني أعوذ بك أن أضام في سلطانك، اللهم إني أعوذ بك أن أضل في هداك، اللهم إني أعوذ بك أن أضطر في غناك، اللهم إني أعوذ بك أن أصبح في سلامتك، اللهم إني أعوذ بك أن أخلب والأمر إليك (لك)»^(١).

قال أبو مخنف: «فاقتتل الناس تلك الليلة كلها حتى الصباح، وهي ليلة الهرير، حتى تقصفت الرياح ونفذ النبل، وصار الناس إلى السيوف، وأخذ علي يسير فيما بين اليمنة والميسرة، ويأمر كل كتيبة من القراء أن تقدم على التي تليها، فلم يزل يفعل ذلك بالناس، ويقوم بهم حتى أصبح، والمركة كلها خلف

(١) مهج الدعوات / ١٠٣ ط حجرية سنة ١٣٣٣. والأمان من أخطار الأسفار والأزمان / ١١٤ ط الحيدرية سنة ١٣٧٠.

ظهره، والأشتر في ميمنة الناس، وابن عباس في الميسرة، وعليّ في القلب، والناس يقتلون من كلّ جانب وذلك يوم الجمعة، وأخذ الأشتر يزحف بالميمنة ويقا تل فيها، وكان قد تولأها عشية الخميس وليلة الجمعة إلى ارتفاع الضحى، وأخذ يقول لأصحابه: إزحفوا قيد هذا الرمح، وهو يزحف بهم نحو أهل الشام^(١).

قال أبو مخنف: «فلما رأى عمرو بن العاص ان أمر أهل العراق قد اشتد، وخاف في ذلك الهلاك، قال لمعاوية: هل لك في أمر أعرضه عليك لا يزيدنا إلا اجتماعاً، ولا يزيدهم إلا قرقة؟ قال: نعم، قال: نرفع المصاحف ثم نقول: ما فيها حَكَمٌ بيننا وبينكم، فإن أبى بعضهم أن يقبلها وجدت فيهم من يقول: بلى، ينبغي أن نقبل، فتكون فرقة تقع بينهم، وإن قالوا بلى، نقبل ما فيها، رفعنا هذا القتال عنا وهذه الحرب إلى أجل أو إلى حين»^(٢).

قال نصر بسنده عن تميم بن حذيم: «يقول: لما أصبحنا من ليلة الهرير نظرنا فإذا أشباه الرايات أمام صفّ أهل الشام وسط الفيلق من حيال موقف معاوية، فلما أسفرنا إذا هي المصاحف قد رُبطت على أطراف الرماح، وهي عظام مصاحف العسكر، وقد شدوا ثلاثة أرماع جميعاً وقد ربطوا عليها مصحف المسجد الأعظم، يمسه عشرة رهط.

وقال أبو جعفر وأبو الطفيل: استقبلوا علياً بمائة مصحف، ووضعوا في كلّ مجنبة مائتي مصحف، وكان جميعها خمسمائة مصحف.

(١) انظر تاريخ الطبري ٤٧/٥ ط المعارف.

(٢) نفس المصدر ٤٨/٥.

قال أبو جعفر: ثم قام الطفيل بن أدهم حيال عليّ، وقام أبو شريح الجذامي حيال الميمنة، وقام ورقاء بن المعمر حيال الميسرة ثم نادوا: يا معشر العرب الله الله في نسائكم وبناتكم، فمن للروم والأتراك وأهل فارس غداً إذا فنيتم. الله الله في دينكم. هذا كتاب الله بيننا وبينكم، فقال عليّ: اللهم إنك تعلم أنهم ما الكتاب يريدون، فاحكم بيننا وبينهم إنك أنت الحكيم الحقّ الممين.

فاختلف أصحاب عليّ في الرأي فطائفة قالت القتال، وطائفة قالت المحاكمة إلى الكتاب ولا يحل لنا الحرب وقد دعينا إلى حكم الكتاب، فعند ذلك بطلت الحرب ووضعت أوزارها. فقال محمد بن عليّ: فعند ذلك حُكّم الحكمان^(١).

رأي طه حسين في مكيدة ابن العاص:

قال في كتابه الفتنة الكبرى: «وأكاد أعتقد أن مكيدة عمرو بن العاص تلك التي كادها برفع المصاحف لم تكن من عند نفسه، لا لأنه قلّد فيها عليّاً فحسب، بل لشيء آخر سنراه قريباً، فقد ينبغي أن نذكر أن عليّاً إنما رفع المصاحف بين الصّفين في حرب البصرة قبل أن ينشب القتال، يريد أن يُعذر إلى خصمه، وقد ينبغي أن نذكر أيضاً أنّ مكان طلحة والزبير وأم المؤمنين من النبيّ، كان يدعوهم إلى أن يحتاط ويتأني، ويذكّرهم بالقرآن وما فيه، ولا يقاتلهم حتى يستئس من إستجابتهم إلى ما دعاهم إليه، فلمّا رشق أهل البصرة ذلك الفتى الذي أمره عليّ برفع المصحف بين الصّفين بالنبل حتى قتلوه، قال عليّ: الآن طاب الضراب.

(١) وقعة صفين / ٥٤٦.

فلو قد أراد أهل الشام أن يتقوا الفتنة والحرب حقاً لرفعوا المصاحف ودعوا إلى ما فيها قبل بدء القتال، ولكنهم لم يفعلوا، وما أكثر ما ذكروا بالقرآن فلم يذكروه، وما أكثر ما ردوا سفراء عليّ دون أن يعطوهم الرضا أو شيئاً يشبه الرضا، فما كان رفعهم للمصاحف بعد أن اتصلت الحرب أياماً وأسابيع، وبعد أن توادع الجيشان شهر المحرم كله، إلا كيداً لا يتقون به الفتنة، وإنما يتقون به الهزيمة.

وأكبر الظن أن بعض الرؤساء من أصحاب عليّ لم يكونوا يُخلصون له نفوسهم ولا قلوبهم، ولم يكونوا ينصحون له، لأنهم كانوا أصحاب دنيا لا أصحاب دين، وكانوا يندمون في دخائل أنفسهم على تلك الأيام الهينة اللينة التي قضوها أيام عثمان ينعمون بالصلوات والجوائز والإقطاع.

ولست أذكر من هؤلاء إلا الأشعث بن قيس الكندي، ذلك الذي أسلم أيام النبيّ ثم ارتدّ بعد وفاته، وألب قومه حتى ورطهم الحرب ثم أسلمهم وأسرع إلى المدينة تائباً، فلم يعصم دمه من أبي بكر فحسب، ولكنه أصهر إليه وتزوج اخته أم فروة، ثم حمل في أيام عمر وظهر في أيام عثمان فتولى له بعض أعماله في فارس، فلما همّ عليّ أن ينهض إلى الشام عزله عن ولايته، ويقال أنه طالبه بشيء من مال المسلمين، ثم استصحبه واستصلحه، فلما رُفعت المصاحف ودُعي إلى التحكيم كان أشدّ الناس على عليّ في الدعاء إلى قبول التحكيم.

ويجب أن نذكر أيضاً أن عليّاً لم ينهض إلى الشام بأهل الكوفة وبمن تابعه من أهل الحجاز وحدهم، وإنما نهض كذلك بألوف من أهل البصرة كان منهم

من وفى له يوم الجمل، وكان منهم من اعتزل الناس في ذلك اليوم أيضاً، وكان منهم مع ذلك كثير من الذين انهزموا بعد مقتل طلحة الزبير.

فهم إذا كانوا عثمانيه، لا يقاتلون مع عليّ عن رضیّ وصدق، وإنما يقاتلون معه كارهين، وهم إذا كانوا واجدين عليه لأنه قتل منهم من قتل واضطرهم إلى الهزيمة اضطراراً.

لم يكن أصحاب عليّ إذا كلهم مخلصين له مؤمنين به، وإنما كان منهم المخلص والمدخول.

وقد قدمنا ان الفريقين كانا يلتقيان في أمر ودعة أثناء شهر المحرم الذي توادعا فيه، ونضيف الآن أن القتلى كثروا ذات يوم، فطلب عليّ هدنة موقوتة ليدفن الناس قتلاهم، وأجيب إلى ما طلب.

وإذا فقد كان أهل الشام وأهل العراق يلتقون ويختلطون في غير موطن، ولم يكن من العسير أن يتاجروا ولا أن يأتروا بينهم بما يشاؤون، فما استبعد أن يكون الأشعث بن قيس، وهو ماكر أهل العراق وداهيتهم، قد اتصل بعمرو بن العاص، ماكر أهل الشام وداهيتهم، ودبروا أن يقتل القوم فإن ظهر أهل الشام فذاك، وإن خافوا الهزيمة أو أشرفوا عليها رفعوا المصاحف فأوقعوا الفرقة بين أصحاب عليّ وجعلوا بأسهم بينهم.

وقد تمّ لهم ما دبروا إن كانوا قد دبروا شيئاً، واستكره الأشعث ومن أطاعه عليّاً على كف القتال، فلم ير بدءاً من الإذعان لما أرادوا.

وأكبر الظن عندي كذلك أن المؤامرة لم تقف عند هذا الحد، وإنما تجاوزته إلى ما هو أشد منه خطراً، وهو اختيار الحكيمين فلأمر ما ألح الأشعث

ومن تبعه من اليمانية في أن يختار عليّ أبا موسى الأشعري، ولم يطلقوا له الحرية في اختيار حَكَم يثق به ويطمئن إليه، وهم يعلمون أن أبا موسى قد خذَل الناس عن عليّ في الكوفة حتى عزله عن عمله، فقد كان عليّ إذاً مكرهاً على قبول التحكيم، ومكرهاً على اختيار أحد الحكمين، ولم تأت الأمور مصادفة، وإنما جاءت عن ائتمار وتديير بين طلاب الدنيا من أصحاب عليّ وأصحاب معاوية جميعاً... اهـ^(١).

أقول: لقد أصاب الدكتور طه حسين وأجاد في تحليله لمكيدة عمرو ابن العاص. فلم يخطيء في ذكره الأشعث نموذجاً للخائنين في صفّ العراقيين. وأنا أضيف إليه تدليلاً على صحة رأيه في النموذجين القذرين عمرو بن العاص والأشعث بن قيس، أن الأشعث كان قد قام في ليلة الهرير يخطب في أصحابه من كندة ويقول لهم: ((قد رأيتم يا معشر المسلمين ما قد كان في يومكم هذا الماضي، وما قد فني فيه من العرب، فوالله لقد بلغت من السنّ ما شاء الله أن أبلغ فما رأيت مثل هذا اليوم قط، ألا فليبلغ الشاهد الغائب، أنا ان نحن توافقنا غداً أنه لفناء العرب وضيعة الحرمات، أما والله ما أقول هذه المقالة جزعاً من الحتف، ولكنني رجل مسنّ أخاف على النساء والذراري غداً إذا فنينا...))^(٢).

قال صعصعة - الراوي -: ((فانطلقت عيون معاوية إليه بخطبة الأشعث فقال: أصاب وربّ الكعبة، لئن نحن التقينا غداً لتميلنّ الروم على ذرارينا ونساتنا،

(١) الفتنة الكبرى ٢/ ٨٨ - ٩٠.

(٢) وقعة صفين / ٥٤٩، والأخبار الطوال / ١٨٨.

ولتميلن أهل فارس على نساء أهل العراق وذريتهم، وإنما يبصر هذا ذوو الأحلام والنهي، اربطوا المصاحف على أطراف القنا...»^(١).

فلم تكن الصدفة هي التي دعت الأشعث إلى خطبته، ولم تكن الصدفة هي التي احضرت عيون معاوية فسمعت الخطبة ثم انطلقت إليه بحاجته، ولم تكن الصدفة هي التي جعلت الأشعث من أعظم الناس قولاً في إطفاء الحرب والركون إلى المودعة، ولم تكن الصدفة هي التي أعجلت الأشعث فبادر أن يذهب إلى معاوية وليسأله ماذا يريد، بل كل ذلك كان عن تدبير واتمار كما يراه طه حسين، ولم يكن بدعاً في رأيه، ولا متجنّ في قوله على الأشعث، بل ذلك ما ذكره عنه التاريخ.

ففي تاريخ اليعقوبي: «(فرفعوا المصاحف ودعوهم إلى التحكيم بما فيها وقالوا ندعوكم إلى كتاب الله.

فقال علي عليه السلام إنها مكيدة، وليسوا بأصحاب قرآن. فاعترض الأشعث ابن قيس الكندي - وقد كان معاوية استماله وكتب إليه ودعا إلى نفسه - فقال: قد دعوا القوم إلى الحق، فقال علي عليه السلام إنهم إنما كادوكم وأرادوا صرفكم عنهم.

فقال الأشعث: والله لئن لم تجبهم انصرفت عنك، ومالت اليمانية مع الأشعث، فقال الأشعث والله لتجيبنهم إلى ما دعوا إليه أو لندفننك اليهم برمتك، فتنازع الأشتر والأشعث في هذا كلاماً عظيماً حتى كاد أن يكون الحرب بينهم

(١) نفس المصدر/ ٥٥٠ و ١٨٩.

وحتى خاف علي عليه السلام أن يفترق عنه أصحابه، فلما رأى ما هو فيه أجابهم إلى
الحكومة^(١).

وقال المسعودي في خدعة رفع المصاحف: «فلما رأى كثير من أهل
العراق ذلك قالوا نجيب إلى كتاب الله وتنب إليه، وأحب القوم الموادة، وقيل
لعلي قد أعطاك معاوية الحق، ودعاك إلى كتاب الله فاقبل منه، وكان أشدهم في
ذلك اليوم الأشعث بن قيس، فقال علي: أيها الناس، إنه لم يزل من أمركم ما
أحب حتى قرحتكم الحرب، وقد والله أخذت منكم وتركت، وإني كنت
بالأمس أميراً فأصبحت اليوم مأموراً وقد أحبيتكم البقاء... وقال: وما رفعوها لكم
إلا خديعة ودهاء ومكيدة... ويحكم إنما قاتلتم ليدنوا بحكم الكتاب فقد عصوا
الله فيما أمرهم به، ونبدوا كتابه، فامضوا على حكمكم وقصدكم وخدوا في قتال
عدوكم، فإن معاوية وابن العاص وابن أبي مُعيط وحبيب بن مسلمة وعدداً غير
هؤلاء ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، وأنا أعرف بهم منكم، صحبتهم أطفالاً
ورجالاً فهم شرُّ أطفال ورجال.

قال المسعودي: وجرى له مع القوم خطب طويل قد أتينا ببعضه، وتهددوه أن
يصنع به ما صنع بعثمان، وقال الأشعث: ان شئت أتيت معاوية فسألته ما يريد^(٢).

قال نصر بن مزاحم في كلام له عن الأشعث: «فإنه لم يرض بالسكوت،
بل كان من أعظم الناس قولاً في إطفاء الحرب والركون إلى الموادة^(٣)».

(١) تاريخ اليعقوبي ١٦٤/٢. ١٦٥. ط الفردي.

(٢) مروج الذهب ٤٠٠/٢. ٤٠١.

(٣) وقعة صفين / ٥٥٣.

ابن عباس وابن العاص في كفتي ميزان:

لست في مقام الموازنة بينهما من جهة السياسة التي هي اللف والدوران، ولا من جهة الأحساب والأنساب، ولا من جهة الفضائل الخلقية، ففي جميع تلك الجهات بينهما البون الشاسع بُعد اليمين من الشمال، أو قل بُعد المشرقين.

ولكن أردت التنبيه على ما يقتضيه المقام لعرف لماذا كان يأبى معاوية وعمرو بن العاص أن يكون ابن عباس حَكَمًا لأهل العراق؟ ولماذا كان يصبر الأشعث واليمانية على أن يكون الحَكَم أباً موسى لا سواء؟

وإن الذي يقرأ حَقبة تلك الحرب الطاحنة - حرب صفين - من بدايتها لا بد وأن يمر بحديث مساومة عمرو بن العاص لمعاوية في مناصرته على حرب الإمام، ولا يغيب عنه حديث اشتراط مصر طعمة له ويده صك على ذلك فيما يقولون. فهو من أحرم الناس على إنجاح التحكيم لصالح معاوية ليصيب مصلحته المحققة ويملك مصر طعمة له، ويزداد من عاجل الدنيا ثمن دينه الذي باعه لمعاوية بثمن بخس.

أما ابن عباس فهو منذ بداية الحرب وحتى منتهاها لم نجد له نبوة أو هفوة في قول أو فعل تنافي الدين. وهو لم يكن يرجو مطعماً أو مطعماً في شيء يناله أزاء ما كان يبذله من جهد أو عمل، وحتى لو أدى ذلك إلى ذهاب نفسه طعمة للرماح ودريشة للسيوف في سوح القتال، وتلك سمة المخلصين من المؤمنين الذين كانوا مع الإمام عليه السلام، فلم يكن أحدهم يتنفي سوى مرضاة الله تعالى والمثوبة منه سبحانه على نصرتهم للحق لوجه الحق،

فأين من يعمل بإخلاص ويقين إبتغاء مرضاة الله ممن يعمل لنيل العاجل من الحطام كابن العاص وأهل الشام؟

إذن فهم إنما يخشون ابن عباس لو صار حكماً أن يُخصَّ عمراً بريقه، ويسدَّ عليه منافذ رأيه، وبالتالي يفسد عليه خطته، ويرد كيده في نحره، فيخسر بالتالي صفقته التي باع بها دينه من معاوية.

فقد روى الشريف المرتضى: «أن عتبة بن أبي سفيان قال لعبد الله بن عباس: ما منع علياً أن يجعلك أحد الحكّمين؟

فقال: منعه والله من ذلك حاجز القدر، وقصر المدة، ومحنة الإبتلاء. أما والله لو بعثني مكانه، لا عرضت لعمره في مدارج أنفاسه، ناقضاً ما أبرم ومبرماً ما أنقضه، أسفاً إذا طار، وأطير إذا أسف، ولكن مضى قدر وبقي أسف، ومع اليوم غد، والآخرة خير لأمر المؤمنين من الأولى»^(١).

فتبيّن من هذا الكلام -الذي جمع من أسرار البلاغة والفصاحة ما ضمّ المعنى الخطير الكثير في القول اليسير- أنه لو كان حكماً لأفضل كلّ خطط عمرو بن العاص وبالتالي هي افضال لمخطط معاوية. لذلك كان إصرارهم بعناد على رفضه حكماً من خلال الأشعث واليمانية الذين سدّوا منافذ الاختيار على الإمام بالوعيد والتهديد. فقال: (فاصنعوا ما أردتم. اللهم إني أبرأ إليك من صنيعهم). كما سيأتي عن قريب. كما وسيأتي أيضاً قوله: (ما أصنع أنا مضطهد).

(١) الأماثي للمرتضى ٢٨٧/١. وقارن إصجاز القرآن ١٢٢/، والعقد الفريد للملك السعيد ١٤/، وشرح النهج لابن أبي الحديد ١٩٥/١، وأسرار البلاغة بنيل المخلاة المنسوبة لبهاثي ٤/ وغيرها.

وقد اعترف عمرو بن العاص بخوفه من أن يكون ابن عباس حَكَمًا لعجزه وقصوره عن مقابلته حتى كان يقول: «ما اتقيت جواب أحد من الناس غير جواب ابن عباس لبداهته»^(١). وستأتي محاوراة جرت بينهما بعد انقضاء أمر صفين وقد جمعها الموسم جاء فيها: «وذكرت يومك مع أبي موسى فلا أراك فخرت إلا بالغدرة ولا منيت إلا بالفجور والغش... ولعمري، أن من باع دينه بدنيا غيره لحري حزنه على ما باع واشترى، أما إن لك بياناً ولكن فيك خطل، وإن لك لرأياً ولكن فيك فشل، وإن أصغر عيبك فيك لأعظم عيب في غيرك»^(٢).

والآن إلى قراءة بعض النصوص الدالة على الآثار السيئة التي خلفتها خدعة

التحكيم:

لقد روى إبراهيم بن ديزيل في كتاب صفين بسنده عن ابن عباس قال: «لقد حدثني معاوية (بعد حين) أنه كان يومئذ قد قَرَّبَ إليه فرساً أنثى بعيدة البطن من الأرض ليهرب عليها حتى أتاه آت من أهل العراق فقال له: إنني تركت أصحاب علي في مثل ليلة الصَدْر من منى فأقمت.

قال (ابن عباس) ققلنا له: فأخبرنا مَنْ هو ذلك الرجل فأبى وقال: لا أخبركم مَنْ هو»^(٣).

أقول: لئن لم يخبر عنه معاوية مَنْ هو، فقد نَمَّ علي أن له في أهل العراق بعض العيون يوافونه بما يحدث، وهذا يؤكد رواية صعصعة عن أولئك

(١) محاضرات الأدباء للراغب باب ذم المرء في المناظرة مخطوطة الرضوية برقم ٤٤٠٣، و٣٦/ من المطبوع.

(٢) شرح النهج لابن أبي الحديد ١٩٦/١ ط مصر الأولى.

(٣) نفس المصدر ١٨٨/١.

الجواسيس، وقد مرّت نقلاً عن نصر في وقعة صفين وأبي حنيفة في الأخبار الطوال، ولئن لم يفصح عن اسمه معاوية فقد مرّ ذكر الأشعث وما كان له من مواقف خيائته، فلم لا كان هو ذلك الآتي بخبر أهل العراق إلى معاوية؟ وستأتي شواهد على تأمر الأشعث ومواقفه الخيائية. وفيما مرّ كفاية حيث رأينا وجماعة كانوا سفراء بين أهل العراق وأهل الشام، وانهم تحدثوا إلى أهل الشام في أمر الحَكَم الذي وقع عليه اختيار الإمام، وإن أهل الشام لم يرضوا بأبي معاوية، ومن هم أهل الشام الذين لم يرضوا بأبي عباس؟ أليس هم معاوية وعمرو بن العاص؟ ولماذا لم يرضوا بأبي عباس؟ أليس لما يعلمان من قوة حجته في بيانه ولسانه؟ ثمّ العجب كلّ العجب أن يعترض أهل الشام وعلى رأسهم معاوية وعمرو بن العاص على اختيار ابن عباس حَكَمًا، ويسمع اعتراضهم الأشعث ويناصره؟ ولا يسمع اعتراض الإمام على اختيار أبي موسى ليكون حَكَمًا فضلاً عن عدم اعتراض الأشعث على اختيار عمرو بن العاص! إن هذا من المفارقات في المواقف، ولا تخفى دلالتها على تبييت التآمر على ما يريد معاوية من الأشعث وجماعته اليمانية، ولنتظر لماذا أبا الأشعث وبالأحرى أبي معاوية وعمرو بن العاص ان يكون حَكَم أهل العراق هو ابن عباس؟ والجواب بكل بساطة أنه كان يتمتع بالمعبة وذكاء مع تقوى الله سبحانه، فهو سوف يدفع كيد عمرو وما دبره، فلا يغلبه عمرو بداهته، ولنضع لهما موازين القسط، ولننظر أي الكفتين هي الراجحة؟

كما لا غضاضة لو قرظ الإمام ابن عمه عندما تتكشف الحقيقة للناس كما رآها ابن عباس، وإن كان هو تلميذه ومن بحره ينزف وهو القائل ما علمي وعلم أصحاب محمد ﷺ في علم علي إلا كقطرة في سبعة أبحر. وقد دلت الأحداث الآتية على صحة مضمون الخبر.

قال الدينوري: ((وقال الأشعث ومَن كان معه من قراء أهل العراق: (قد رضينا نحن بأبي موسى) فقال لهم علي: (لست أثق برأي أبي موسى ولا بحزمه، ولكن أجعل ذلك لعبد الله بن عباس).

قالوا: والله ما نفرق بينك وبين ابن عباس، وكأنك تريد أن تكون الحاكم، بل اجعله رجلاً هو منك ومن معاوية سواء، ليس إلى أحدٍ منكما بأدنى منه إلى الآخر.

قال علي ﷺ: ((فلم ترضون لأهل الشام بأبن العاص وليس كذلك؟)).

قالوا: أولئك أعلم، إنما علينا أنفسنا...))^(١).

وفي حديث نصر وقد ذكر رجوع الأشتر عن القتال وكلامه مع القراء والأشعث - إلى أن قال: ((فسبهم وسبوه وضربوا بسياطهم وجه دابته وضرب بسوطه وجوه دوابهم، فصاح بهم علي فكفوا.

فتصايحروا: إن علياً أمير المؤمنين قد قبل الحكومة ورضي بحكم القرآن ولم يسعه إلا ذلك... فأقبل الناس يقولون قد رضي أمير المؤمنين، وهو ساكت لا يرضُ بكلمة - (أي لا يتكلم) - مطرق إلى الأرض))^(٢).

(١) الأخبار الطوال / ١٩٢ ط تراثنا .

(٢) وقعة صفين / ٥٦٣ .

كما لا غضاضة لو قرظ الإمام ابن عمه عندما تتكشف الحقيقة للناس كما رآها ابن عباس، وإن كان هو تلميذه ومن بحره ينزف وهو القائل ما علمي وعلم أصحاب محمد ﷺ في علم علي إلا كقطرة في سبعة أبحر. وقد دلت الأحداث الآتية على صحة مضمون الخبر.

قال الدينوري: ((وقال الأشعث ومَن كان معه من قراء أهل العراق: (قد رضينا نحن بأبي موسى) فقال لهم علي: (لست أثق برأي أبي موسى ولا بحزمه، ولكن أجعل ذلك لعبد الله بن عباس)).

قالوا: والله ما نفرق بينك وبين ابن عباس، وكأنك تريد أن تكون الحاكم، بل اجعله رجلاً هو منك ومن معاوية سواء، ليس إلى أحدٍ منكما بأذى منه إلى الآخر.

قال علي ﷺ: ((فلم ترضون لأهل الشام بأبن العاص وليس كذلك؟)).

قالوا: أولئك أعلم، إنما علينا أنفسنا...^(١).

وفي حديث نصر وقد ذكر رجوع الأشتر عن القتال وكلامه مع القراء والأشعث - إلى أن قال: ((فسبهم وسبوه وضربوا بسياطهم وجه دابته وضرب بسوطه وجوه دوابهم، فصاح بهم علي فكفوا.

فتصايحروا: إن علياً أمير المؤمنين قد قبل الحكومة ورضي بحكم القرآن ولم يسعه إلا ذلك... فأقبل الناس يقولون قد رضي أمير المؤمنين، وهو ساكت لا يرضُ بكلمة - (أي لا يتكلم) - مطرق إلى الأرض^(٢).

(١) الأخبار الطوال / ١٩٢ ط تراثنا .

(٢) وقعة صفين / ٥٦٣ .

قال السيد أمير عليّ الهندي: «ووقع الخيار لسوء الطالع على رجل كبير السن ضعيف الرأي اسمه أبو موسى الأشعري»^(١).

نعم والله، هو من سوء الطالع عند العراقيين الذين اختاروه حكماً وهو من المنافيين الذين اتخذوا القرآن عضيّن.

٢- قال ابن اعثم الكوفي في الفتوح في ذكر الحكمين: «ثمّ اجتمع قرّاء أهل العراق وقرّاء أهل الشام بين العسكريين ومهمّ المصحف فنظروا فيه وتدارسوه واجتمعوا على ما فيه أن يحيوا ما أحيا القرآن، وأن يميتوا ما أمات القرآن قال: فرضي الفريقان جميعاً بالحكمين، وجعلوا المدة فيما بين ذلك إلى سنة كاملة.

فقال أهل الشام: قد رضينا بعمر بن العاص.

وقال الأشعث بن قيس والذين صاروا خوارج بعد ذلك، فإننا قد رضينا بأبي موسى الأشعري، فإنّه وافد رسول الله ﷺ إلى اليمن، وصاحب مقاسم أبي بكر، وعامل عمر بن الخطاب.

فقال عليّ ﷺ: ولكنني لا أرضى أبا موسى ولا أوليه هذا الأمر.

فقال الأشعث بن قيس وزيد بن حصن ومسعر بن فدكي وعبد الله بن الكواء: فإننا لا نرضى إلا به، لأنّه قد كان حدّرتنا ما وقعنا فيه.

فقال عليّ ﷺ: فإنّه ليس لي برضاً، وقد كان فارقتي وخذلّ الناس عني، ثمّ هرب حتى أمته بعد ستة أشهر، ولكن هذا عبد الله بن عباس قد جعلته حكماً لي.

(١) مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي / ٤٥.

فقال القوم: والله لا نبالي أنت كنت أو ابن عباس، ألا إننا لا نريد رجلاً هو منك وأنت منه.

فقال عليؑ: فإنا أجعل الأشر حَكَمًا.

فقال الأشعث: وهل ستر الأرض علينا إلا الأشر؟ وهل نحن إلا في حكم الأشر؟

قال علي: وما حكمه؟

فقال الأشعث: حكمه أن يضرب الناس بعضهم بعضاً بالسيوف حتى يكون ما أردت وما أراد.

فقال له الأشر: أنت إنما تقول هذا القول لأن أمير المؤمنين عزلك عن الرئاسة ولم يرك أهلاً لها.

فقال الأشعث: والله ما فرحت بتلك الرئاسة، ولا حزنت لذلك العزل.

فقال عليؑ: ويحكم إن معاوية لم يكن ليختار لهذا الأمر أحداً هو أوثق برأيه ونظرة إلا عمرو بن العاص وأنه لا يصلح للقرشي إلا مثله، وهذا عبد الله بن عباس فارموه به، فإن عمراً لا يعقد عقدة إلا حلها، ولا يبرم أمراً إلا نقضه، ولا ينقض أمراً إلا أبرمه.

فقال الأشعث ومن معه: لا والله لا يحكم فينا مضرئان أبداً حتى تقوم الساعة، ولكن يكون رجل من مضر ورجل من اليمن.

فقال عليؑ: إنني أخاف أن يخدع يمانيكم، فإن عمرو بن العاص ليس من الله في شيء.

فقال الأشعث: والله لأن يحكما ببعض ما نكره وأحدهما من اليمن أحببنا من أن يكون ما نحب وهما مضران.

فقال علي عليه السلام: وقد أيتم إلا أبا موسى؟

قالوا: نعم.

قال: فاصنعوا ما أردتم، اللهم إني أبرا إليك من صنعهم»^(١).

وفي مناقب ابن شهر آشوب: «قال الأعمش: حدثني من رأى علياً عليه السلام يوم صفين يصفق بيديه ويقول: يا عجباً أعصى ويطاع معاوية؟ وقال: قد أيتم إلا أبا موسى قالوا: نعم قال: فاصنعوا ما بدا لكم، اللهم إني أبرا إليك من صنعهم»^(٢).

٣- روى البلاذري عن المدائني بسنده عن علقمة بن قيس قال: «قلت

لعلي: أتقاضى معاوية على أن يحكم حكمان؟

فقال: ما أصنع أنا مضطهد»^(٣).

٤- روى البلاذري عن المدائني بسنده عن داود بن الحصين قال: «قيل

لابن عباس: ما دعا علياً إلى الحكمين؟

فقال: إن أهل العراق ملؤا السيف، وجزعوا منه جزءاً لم يجزعه أهل الشام، واختلفوا بينهم، فخاف علي لما رأى من وهنهم أن ينكشفوا منه ويضربوا عنه، فمال إلى القضية مع أنه أخذ بكتاب الله حين أمر بالحكمين في الصيد والشقاق، ولو كان معه من يصبر على السيف لكان الفتح قريباً»^(٤).

(١) الفتوح ١/٤ - ٤.

(٢) مناقب ابن شهر آشوب ٣٦٥/٢ ط الحيدرية.

(٣) انساب الأشراف (ترجمة الإمام) ٣٣٧/٢.

(٤) نفس المصدر ٣٣٧/٢.

وإلى هنا فقد لاحظنا اتفاق المؤرخين الأوائل لحديث مأساة التحكيم على الدور الفاعل والمؤثر للأشعث بن قيس ونشاطه المحموم هو والقراء معه في ترجيح كفة معاوية على كفة علي، بدءاً من رفع المصاحف وانتهاءً بسكوت الإمام علي مفضض لما يريدون، حتى أن بعض المؤرخين نمّ على نفسه في حديثه عن تلك المأساة باقتضابه بعد حديثهما.

ولقد مرت بنا كلمة اليعقوبي: «فتنازع الأشتر والأشعث في هذا كلاماً عظيماً حتى كاد أن يكون الحرب بينهم».

ومرّ بنا قول المسعودي: «وجرى له - للإمام - مع القوم خطب طويل قد أتينا ببعضه».

فيا ترى ما ذلك الخطب الطويل؟ ولماذا كتبه المسعودي؟

ومهما يكن فإنّ الإمام - كما مرّ - كان مضطهداً، وكما قال ابن عباس: «فخاف أن ينكشفوا منه ويتفرقوا عنه... ولو كان معه من يصبر على السيف لكان الفتح قريباً».

٥- قال نصر: «وذكروا أنّ ابن الكوّاء قام إلى عليّ فقال: هذا عبد الله بن قيس وافد أهل اليمن إلى رسول الله ﷺ، وصاحب مقاسم أبي بكر، وعامل عمر، وقد رضي به القوم، وعرضنا على القوم عبد الله بن عباس فزعموا أنّه قريب القرابة منك ظنّون في أمرك... اهـ»^(١).

ولم يذكر لنا نصر ما ردّ به الإمام على ابن الكوّاء؟ إلاّ أنّه قال: «فبلغ ذلك أهل الشام، فبعث أيمن بن خريم الأسدي - وهو معتزل لمعاوية - هذه الأبيات، وكان هواه أن يكون هذا الأمر لأهل العراق فقال:

(١) وقعة صفين / ٥٧٥ ط مصر سنة ١٣٦٥.

لو كان للقوم رأي يعصمون به
 لله درّ أبيه أئماً رجلاً
 لكن رموكم بشيخ من ذوي يمن
 إن يخل عمرو به يقدفه في لجج
 أبلغ لديك علياً غير عائبه
 ما الأشعري بمأمون أبا حسن
 فاصدم بصاحبك الأدنى زعيمهم

من الضلال وموكم باهن عباس
 ما مثله لفصال الخطب في الناس
 لم يدر ما ضرب أخماس لأسداس
 يهوي به النجم تيساً بين أتياس
 قول امرئ لا يرى بالحق من بأس
 فاعلم هديت وليس العجز كالرأس
 إن ابن عمك عباس هو الآسي^(١)

قال: فلما بلغ الناس قول أيمن طارت أهواء قوم من أولياء علي عليه السلام وشيعته إلى عبد الله بن عباس وأبت القراء إلا أبا موسى^(٢).

ومهما قيل من شعر أو نثر في تجلّد الوحي ويقظة الضمير عند البعض من أولياء الإمام وشيعته حتى طارت أهواؤهم إلى ابن عباس، فإن القراء والأشعث ابن قيس أبوا إلا أبا موسى الأشعري وهذا الإصرار في تحكيمه هو جزء من المؤامرة التي أشار إليها طه حسين كما تقدم.

وإنها لمنحة الإمام، وإنها لمنحة أولياء الإمام، وكيف لا تكون المنحة، والأشعث بن قيس ذي السابقة السيئة في الإسلام يملئ إرادته بكل صكف وتكون له الكلمة النافذة. ويُعصى الإمام وهو الخليفة وأمين المؤمنين، إنَّها لقاصمة الظهر. والله صبر الإمام ومَن معه على تلك المنحة.

(١) لقد ورد البيهتان الأولان في الأخبار الطوال للدينوري /١٩٣، ومروج الذهب ٤١٠/٢، وكذا في البدء والتاريخ ٢٢١/٢ إلا أنه لم يسم القائل، وفي سمط النجوم الموالى للمصامبي المكي ٤٥٩/٢ نسب الشعر لخزيمة بن مالك الأسدي.

(٢) وقعة صفين /٥٧٦.

ولتنوير القارئ بشيء من سابقتي الرجلين الأشعث وأبي موسى نذكرهما بما قيل فيهما بشهادة سادة الصحابة:

أما الأشعث فقد كان ذا سابقة سيئة في الإسلام، فقد أسلم أيام النبي ﷺ ثم ارتدت بعد وفاته، وألب قومه حتى ورطهم الحرب، ثم أسلمهم وأسرع إلى المدينة إلى أبي بكر ليعصم دمه بالتوبة، ولم يكف حتى أصهر إلى أبي بكر على اخته أم فروة، وخمل أيام عمر إلا أن عثمان في أيامه ولاء أذربيجان، ولما تولى الإمام الخلافة عزله لخيانته، وقد وصفه عليه السلام وصفاً رائعاً ودقيقاً فقال: (أما هذا الأعمور - يعني الأشعث - فإن الله لم يرفع شرفاً إلا أحسده، ولا أظهر فضلاً إلا عابه، وهو يمني نفسه ويخدعها، يخاف ويرجو فهو بينهما لا يثق بواحد منهما، وقد من الله عليه بأن جعله جباناً، ولو كان شجاعاً لقتله الحق)^(١).

قال ابن أبي الحديد: ((كل فساد كان في خلافة علي عليه السلام، وكل اضطراب حدث فأصله الأشعث، ولولا محاكمة أمير المؤمنين عليه السلام في معنى الحكومة في هذه المرة لم يكن حرب النهروان، ولكان أمير المؤمنين عليه السلام ينهض بهم إلى معاوية ويملك الشام، فإنه صلوات الله عليه حاول أن يسلك معهم مسلك التعريض والمواربة، وفي المثل النبوي صلوات الله على قائله: الحرب خدعة، وذاك إنهم قالوا له تب إلى الله مما فعلت كما تبنا ننهض معك إلى حرب أهل الشام، فقال لهم كلمة مجملّة مرسلّة يقولها الأنبياء والمعصومون وهي قوله: استغفر الله من كل ذنب، فرضوا بها وعدّوها إجابة لهم إلى سؤالهم، وصفت له عليه السلام تياتهم واستخلص بها ضمائرهم من غير أن تتضمن تلك الكلمة اعترافاً

(١) انظر شرح النهج لابن أبي الحديد ٥٤٥/٤ في الحكم المنشورة برقم ٤٧٨.

بكفر أو ذنب، فلم يتركه الأشعث وجاء إليه مستغسراً وكاشفاً عن الحال وهاتكأ ستر التورية والكتاية، ومخرجاً لها من مظلة الإجمال وستر الحيلة إلى تفسيرها بما يفسد التدبير ويوغر الصدور إلى المقال»^(١).

وهكذا الدول التي تظهر فيها إمارات الانقضاء والزوال يتاح لها أمثال الأشعث من أولى الفساد في الأرض ﴿سِنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَكِنْ نَجِدَ لِسِنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾^(٢).

أقول: ومن قرأ مثلثات أبي بكر عند موته يجد ندمه على عدم قتله الأشعث يوم أتى به أسيراً. فقد قال: «وأما الثلاث التي تركتهن فوددت أني كنت فعلتهن فوددت أني يوم أتيت بالأشعث بن قيس أسيراً كنت ضربت عنقه ولم أستحيه، فإنه تخيل إلي أنه لا يرى شراً إلا أعان عليه»^(٣).

فمثل هكذا إنسان حسود وحقود وتافه تكون له الكلمة النافذة، إنها لإحدى الكبر!

وأما أبو موسى الأشعري فهو أخزى، فقد كان من المنافقين الذين لعنهم الله ورسوله بشهادة الصحابين الجليلين عمّار بن ياسر وحديفة بن اليمان الذي كان عارفاً بالمنافقين وقد أسر إليه رسول الله ﷺ أمرهم وأعلمه أسماءهم.

أما شهادة عمّار بن ياسر: فقد أخرج ابن عدي في الكامل وابن عساكر في التاريخ عن أبي نجا حكيم قال: «كنت جالساً مع عمّار فجاه أبو موسى فقال: ما

(١) نفس المصدر ٢١٦/١ ط مصر (الأولى).

(٢) الاحزاب/٦٢.

(٣) راجع تاريخ الطبري ٥٢/٤ ط الحسينية ومروج الذهب ٤٠٨/١ ط محمد محي الدين والإمامة والسياسة لابن قتيبة ١٩/١ ط سنة ١٩٢٨، والعقد الفريد ٦٨/٣.

لي ولك؟ ألسنتُ أخاك؟ قال: ما أدري ولكن سمعت رسول الله ﷺ يلعنك ليلة الجبل.

قال: أنه استغفر لي. قال عمار: قد شهدت اللعن فلم أشهد الاستغفار^(١).
وأما شهادة حذيفة: فقد ذكر ابن عبد البر في الاستيعاب في ترجمة أبي موسى قال: «فلما قتل عثمان عزله عليّ ﷺ عنها - الكوفة - فلم يزل واجداً لذلك على عليّ ﷺ حتى جاء منه ما قال حذيفة فيه، فقد روى حذيفة فيه كلاماً كرهت ذكره والله يغفر له...ها»^(٢).

قال ابن أبي الحديد بعد نقل ذلك: «قلت: الكلام الذي أشار إليه أبو عمر ابن عبد البر ولم يذكره قوله فيه وقد ذكر عنده بالدين: أما أنتم فتقولون ذلك، وأما أنا فأشهد أنه عدو لله ولرسوله وحرباً لهما في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار. وكان حذيفة عارفاً بالمنافقين أسراً إليه رسول الله ﷺ أمرهم وأعلمه أسماءهم»^(٣).

وذكر الفسوي في المعرفة والتاريخ: «حدثني ابن نمير قال حدثني أبي عن الأعمش عن شقيق قال: كنا مع حذيفة جلوساً فدخل عبد الله (يعني ابن مسعود)

(١) انظر كنز العمال ٢١٩/١٦ ط حيدرآباد الثانية ومنتخب كنز العمال بهامش مسند أحمد ٣٣٤/٥.

(٢) نقلاً من شرح الصمدية ٢٨٨/٣ وما في الاستيعاب بهامش الإصابة ١٧٤/٤ ط مصطفى محمد بمصر (فلم يزل على الكوفة حتى قتل عثمان ثم كان منه الصنفين وفي التحكيم ما كان وكان متحرفاً من علي رضي الله عنه لأنه عزله ولم يستعمله وطلبه أهل اليمن في إرساله في التحكيم فلم يجزه وكان لحذيفة قبل ذلك، فيه كلام رحمة الله عليهم أجمعين).

(٣) شرح النهج لابن أبي الحديد ٢٨٨/٣.

وأبو موسى (يعني الأشعري) المسجد فقال (حذيفة): أحدهما منافق ثم قال: إن أشبه الناس هدياً ودلاً وسناً برسول الله ﷺ عبد الله... اهـ^(١).
فهذا نص له قيمته الدلالية في أن أبا موسى هو المنافق الذي أشار إليه حذيفة بقوله: أحدهما منافق.

وقال ابن أبي الحديد: ((وروي أن عمّاراً سئل عن أبي موسى فقال: لقد سمعت فيه من حذيفة قولاً عظيماً سمعته يقول: صاحب البرنس الأسود، ثم كلع كلوحاء، علمت منه أنه كان ليلة العقبة بين ذلك الرهط))^(٢).
فبعد هذا العرض الموجز تبيّن للقارئ أن الأشعث وأبا موسى لم يكونا من الصحابة المؤمنين الذين امتحن الله قلوبهم للإيمان، بل كانا من المنافقين الذين لعنهم الله ورسوله.

وحسبنا بما قدمنا دلالة لمن يريد أن يتعرف دخيلة الرجلين الأشعث وأبا موسى تحت المجهر، ولعل من السخرية بعقول الناس أن يكون أبو موسى هو الراوي لقول الرسول ﷺ يكون في هذه الأمة حكمان ضالان ضال من تبعهما، فقال له سويد بن غفلة: يا أبا موسى انظر لا تكن أحدهما.

ثم ينبري علماء التبرير لتضعيف الحديث حفاظاً على أبي موسى^(٣). ثم هم يروون: كان أبو موسى يحدث قبل وقعة صفين ويقول: إن الفتن لم تنزل في بني إسرائيل ترفهم وتخفصهم حتى بعثوا الحكمين يحكمان بحكم لا يرضى به من

(١) المعرفة والتاريخ ٧٧١/٢.

(٢) شرح النهج لابن أبي الحديد ٢٨٨/٣.

(٣) مجمع الزوائد ٢٤٥/٧-٢٤٦ ط القدسي قال الهيثمي رواه الطبري وقال: هذا مندي باطل لأن جعفر بن عليّ شيخ مجهول لا يعرفه قلت - والقاتل هو الهيثمي - إنما ضعفه من عليّ بن عابس الأسدي فإنه متروك.

اتبهما، وإن هذه الأمة لا تزال بها الفتن ترفعها وتخفضها حتى يبعثوا حكيمين يحكمان بما لا يرضى به من اتباعهما.

فقال له سويد بن غفلة: إياك إن ادركت ذلك الزمان أن تكون أحد

الحكيمين.

قال: أنا؟ قال: نعم أنت.

قال: فكان يخلع قميصه ويقول: لا جعل الله لي إذا في السماء مصعداً، ولا

في الأرض مقعداً.

فلقبه سويد بن غفلة بعد ذلك فقال: يا أبا موسى أتذكر مقاتلك؟ قال: سل

ربك العافية^(١).

وهنا أيضاً ينبري علماء التبرير بالتروير فيرووا لنا حديث سويد بن غفلة أنه

قال: ((إني لأمشي مع عليّ بسط الفرات فقال: قال رسول الله ﷺ إن بني إسرائيل

اختلفوا فلم يزل اختلافهم بينهم حتى بعثوا حكيمين فضلاً وأضلاً، وإن هذه الأمة

ستختلف فلا يزال اختلافهم بينهم حتى يبعثوا حكيمين قِضِلَانٌ وقِضِلَانٌ من

اتبهما)). وهذا قد رواه البيهقي في الدلائل وحكاه عنه ابن كثير ولم يرق له

ذلك فتعقبه بقوله: ((فإنه حديث منكر، ورفع موضوع والله أعلم. إذ لو كان هذا

معلوماً عند عليّ لم يوافق على تحكيم الحكيمين حتى لا يكون سبباً لإضلال

الناس، كما نطق به هذا الحديث، وآفة هذا الحديث هو زكريا بن يحيى وهو

الكندي الحميري الأعمى قال ابن معين: ليس بشيء^(٢))).

(١) مروج الذهب ٤٠٣/٢، ومناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب ٣٦٣/٢ ط الحيدرية نقلاً عن

ابن مردويه.

(٢) البداية والنهاية ٢٨٣/٧ - ٢٨٤.

أرأيت كيف كان دفاع ابن كثير المستميت حفاظاً على كرامة الحكمين (٩). وتليساً منه على القارئ باسم الدفاع عن أمير المؤمنين عليه السلام. وما أدري كيف يكون دفاعه عما رواه ياقوت؟!

قال ياقوت في معجمه: ((وقرأت في كتاب الخوارج قال: حدثنا محمد بن قلابة بن إسماعيل عن محمد بن زياد قال حدثنا محمد بن عون قال حدثنا عبد الله بن عيسى بن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: مررت مع أبي موسى بدومة الجندل فقال: حدثني حبيبي أنه حكّم في بني إسرائيل في هذا الموضع حكّمان بالجور، وأنه يحكم في أمّتي في هذا المكان حكّمان بالجور. قال: فما ذهبت إلا أيام حتى حكم هو وعمرو بن العاص بما حكّما. قال: فلقيته فقلت له: يا أبا موسى قد حدثتني عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بما حدثتني؟ فقال: والله المستعان))^(١).

٦- روى المدائني في كتاب صفين قال: ((لما أجمع أهل العراق على طلب أبي موسى وأحضروه للتحكيم على كره من علي عليه السلام أتاه عبد الله بن العباس وعنده وجوه الناس وأشرفهم. فقال له: يا أبا موسى إن الناس لم يرضوا بك ولم يجتمعوا عليك لفضل لا تشارك فيه، وما أكثر أشباهك من المهاجرين والأنصار والمتقدمين قبلك، ولكن أهل العراق أبوا إلا أن يكون الحكم يمانياً، ورأوا أن معظم أهل الشام يمان، وأيم الله إنّي لأظن ذلك شراً لك ولنا، فإنّه قد ضمّ إليك داهية العرب، وليس في معاوية خلة يستحق بها الخلافة، فإن تقذف بحقك على باطله تدرك حاجتك منه، وإن يطمع باطله في حقك يدرك حاجته منك. واعلم

(١) معجم البلدان ٤٨٨/٢ - ٤٨٩.

يا أبا موسى إن معاوية طليق الإسلام، وأن أباه رأس الأحزاب، وأنه يدعي الخلافة من غير مشورة ولا بيعة، فإن زعم لك أن عمر وعثمان استعملاه، فلقد صدق استعمله عمر وهو الوالي عليه، بمنزلة الطيب يحميه ما يشتهي ويوجره ما يكره، ثم استعمله عثمان برأي عمر، وما أكثر ما استعمل ممن لم يدع الخلافة. واعلم أن لغزرو مع كل شيء يسرك خبأ يسؤك، ومهما نسيت فلا تنس أن علياً بايعه القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان، وأنها بيعة هدى، وأنه لم يقاتل إلا العاصين والناكثين.

فقال أبو موسى: رحمك الله والله ما لي إمام غير علي، وإني لواقف عندما أرى، وإن حق الله أحب إلي من رضا معاوية وأهل الشام، وما أنت وأنا إلا بالله^(١).

قال ابن أبي الحديد: وروى في الموفقيات أيضاً الخبر الذي رواه المدائني وقد ذكرناه آنفاً من كلام ابن عباس لأبي موسى وقوله: إن الناس لم يرضوا بك لفضل عندك لم تشارك فيه، وذكر في آخره: فقال بعض شعراء قريش:

والله ما كلم الأقوام من بشر بعد الوصي علي كابن عباس
أوصى ابن قيس بأمر فيه عصمته لو كان فيها أبو موسى من الناس
إني أخاف عليه مكر صاحبه أرجو رجاء مخوف شيب بالياس^(٢)

٧- قال المسعودي في مروج الذهب: «ولمّا وقع التحكيم تباغض القوم جميعاً، وأقبل بعضهم يتبرأ من بعض، يتبرأ الأخ من أخيه، والابن من أبيه، وأمر

(١) انظر شرح النهج لابن أبي الحديد ١/١٩٥.

(٢) نفس المصدر ١/٢٠١.

عليّ بالرحيل، لعلمه باختلاف الكلمة، وتفاوت الرأي، وعدم النظام لأمرهم، وما لحقه من الخلاف منهم، وكثر التحكيم في جيش أهل العراق، وتضارب القوم بالمقارع ونعال السيوف، وتساؤوا، ولام كل فريق منهم الآخر في رأيه»^(١).

٨- قال أبو مخنف: «حدثني إسماعيل بن يزيد عن حميد بن مسلم عن جندب بن عبد الله، إنّ عليّاً قال للناس يوم صفين: لقد فعلتم فعلةً ضعفت قوةً، وأسقطت ثمةً، وأوهنت وأورثت وهناً وذلةً، ولما كتتم الأعلىين، وخاف عدوكم الاجتياح، واستحزّب بهم القتل ووجدوا ألم الجراح، رفعوا المصاحف، ودعوكم إلى ما فيها ليفتتوكم عنهم، ويقطعوا الحرب فيما بينكم وبينهم، ويترهبوا بكم ريب المنون خديعة ومكيدة، فأعطيتموهم ما قد سألوا، وأيتم إلا أن تُدهنوا وتجوزوا، وأيم الله ما أظنكم بعدها توافقون رشداً، ولا تصيبون باب حزم»^(٢).

٩- عن أبي الودّاع قال: «لما تداعى الناس إلى الصلح بعد رفع المصاحف قال عليّ: إنّما فعلت ما فعلت لما بدا فيكم الخور والفشل - والضعف -»^(٣).

١٠- أخرج ابن أبي شيبة في المصنف^(٤) وعنه في كنز العمال^(٥) وأنساب الأشراف^(٦) عن عبد الله بن الحسن قال: «قال عليّ للحكمين: على أن تحكما بما في كتاب الله، وكتاب الله كله لي، فإن لم تحكما بما في كتاب الله فلا حكومة لكما».

(١) مروج الذهب ٢/٤٠٥.

(٢) انظر تاريخ الطبري ٥٦/٥ دار المعارف.

(٣) انظر وقعة صفين ٥٩٦.

(٤) المصنف ١٥/٢٩٤ ط باكستان (إدارة القرآن).

(٥) كنز العمال ١١/٣٠٨ ط حيدرآباد الثانية.

(٦) أنساب الأشراف ٢/٣٣٨ تح المحمودي.

وفي حديث آخر عن جعفر قال: «قال عليّ: أن تحكما بما في كتاب الله فتحيا ما أحيا القرآن، وتميتا ما أمات القرآن ولا تزنيا»^(١).

١١- أخرج البلاذري في أنسابه بسنده عن الشعبي قال: «لما اجتمع عليّ ومعاوية على أن يحكما رجلين اختلف الناس على عليّ فكان عظيمهم وجمهورهم مقرّين بالتحكيم راضين به، وكانت فرقة منهم - وهم زهاء أربعة آلاف من ذوي بصائرهم والعباد منهم - منكرة للحكومة، وكانت فرقة منهم وهم قليل متوقفين. فأنت الفرقة المنكرة عليّاً فقالوا: عد إلى الحرب - وكان عليّ يحبّ ذلك - فقال الذين رضوا بالتحكيم، والله ما دعانا القوم إلا إلى حقّ وإنصاف وعدل، وكان الأشعث بن قيس وأهل اليمن أشدهم مخالفة لمن دعا إلى الحرب، فقال عليّ للذين دعوا إلى الحرب: يا قوم قد ترون خلاف أصحابكم وأنتم قليل في كثير، ولئن عدتم إلى الحرب ليكونن هؤلاء أشدّ عليكم من أهل الشام، فإذا اجتمعوا وأهل الشام عليكم أفنوكم، والله ما رضيت ما كان ولا هويته، ولكن ملت إلى الجمهور منكم خوفاً عليكم ثم أنشد:

وما أنا إلا من غزيرة إن ضوت غويت وإن ترشد غزيرة أرشد

فقارقوه، ومضى بعضهم إلى الكوفة قبل كتاب القضية، وأقام الباقر على إنكارهم التحكيم ناقلين عليه يقولون: لعله يتوب ويراجع...»^(٢).

(١) المصنف لابن أبي شيبة ٢٩٤/١٥ نشر إدارة القرآن والعلوم الإسلامية كراتشي باكستان

سنة ١٤٠٦ هـ.

(٢) أنساب الأشراف ٣٢٨/٢ تح المحمودي.

١٢- قال ابن البطريق في كتابه العمدة: «فلما حضروا لكتابة المقاضاة وكان عبد الله بن العباس رضي الله عنه كاتب أمير المؤمنين عليه السلام فلما كتب: هذا ما قاضى عليه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب معاوية بن أبي سفيان. قال له عمرو بن العاص: امح أمير المؤمنين فإننا لا نعرفه، فلو عرفنا أنه أمير المؤمنين لما نازعناه.

فقال أمير المؤمنين عليه السلام لابن عباس امحه. فقال ابن عباس: لا أمحوه، فمحاها أمير المؤمنين عليه السلام بعد أن قال لعمرو بن العاص: يا بن النابغة ألا تعرف أنني أمير المؤمنين. فقال ابن العاص: والله لا جمعني وإياك مجلس أبداً. فقال له أمير المؤمنين عليه السلام أرجو أن يطهر الله تعالى مجلسي منك ومن أمثالك...»^(١).

وقد ذكر اليعقوبي في تاريخه: «وكتبوا كتابين بالقضية كتاباً من علي عليه السلام بخط كاتبه عبيد الله بن أبي رافع وكتاباً من معاوية بخط كاتبه عمر بن عبادة الكناني، واختصموا في تقديم علي أو تسمية علي بأمرة المؤمنين، فقال أبو الأعرور السلمي لا نقدم علياً. وقال أصحاب علي: لا نغير اسمه ولا نكتب إلا بأمرة المؤمنين، فتنازحوا على ذلك منازعة شديدة حتى تضاربوا بالأيدي. فقال الأشعث: أمحو هذا الاسم. فقال له الأشتر: والله يا أعرور لهمت أن أملاً سيفي منك، فلقد قتلت قوماً ما هم بأشر منك، وإني أعلم أنك ما تحاول إلا الفتنة، وما تدور إلا على الدنيا وإيثارها على الآخرة. فلما اختلفوا قال علي عليه السلام الله أكبر قد كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية...»^(٢).

(١) العمدة / ١٧٢ ط حجرية وقارن الدرجات الرفيعة / ١١٧ ط الحيدرية سنة ١٣٨٢ هـ ووقعة

صفين / ٥٠٨ ط الثانية بمصر ١٣٨٢ هـ.

(٢) تاريخ اليعقوبي / ١٦٥/٢ ط الغري قضية الكتاب.

وقال أيضاً: «وكتب كتاب القضية على الفريقين يرضون بذلك بما أوجه كتاب الله، واشترط على الحكمين في الكتابين أن يحكما بما في كتاب الله من فاتحته إلى خاتمته، لا يتجاوزان ذلك ولا يعيدان عنه إلى هوى أو ادّمان، وأخذ عليهما أغلظ العهود والمواثيق، فإن هما جاوزا بالحكم كتاب الله من فاتحته إلى خاتمته فلا حكم لهما»^(١).

لقد صدقت نبوءة النبي ﷺ حين قال للإمام يوم صلح الحديبية حين أبي الإمام أن يمحو اسم رسول الله لأن سهيل بن عمرو لم يرض بذلك، فمحا ﷺ بيده وقال للإمام: (إنك ستدعى إلى مثلها).

وصدق الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حين قال: (إن مما عهد إلي النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن الأمة ستغدر بي من بعده)^(٢).

وأخيراً صدق ابن عباس في وصفه للإمام في محنة تلك الحرب الضروس الطاحنة وموقف الناس منه، فقد سئل عن سبب قبوله التحكيم فأجاب بما ذكرناه من قبل وختم ذلك بقوله: (ولو كان معه من يصبر على السيف لكان الفتح قريباً).

والذي يبدو لي مما تقدّم أن ابن عباس كان هو الذي افتتح كتابة كتاب القضية، ولما وقع الاختلاف حول كلمة (أمير المؤمنين) وأبى محوها فمحاها الإمام بيده كما ذكر ذلك ابن البطريق الحلبي في العمدة كما مرّ، وتولى كتابة الكتاب لنسخة أهل العراق عبيد الله بن أبي رافع كاتب الإمام، وتولى كتابة نسخة لأهل العراق كاتب معاوية عمير بن عبّاد الكناني كما مر عن اليعقوبي. ومهما

(١) نفس المصدر / ١٦٦.

(٢) انظر كنز العمال ٢٨٤/١١ ط حيدرآباد الثانية نقلاً عن مصنف ابن أبي شيبة ومسنند الحارث ومسنند البزار ودلائل البيهقي وغيره.

يكن من أمر الكتابة والكتاب، فقد تم الاتفاق على أن يوافي عليّ ومعاوية موضع الحكمين بدومة الجندل في شهر رمضان مع كل واحد منهما أربعمائة من أصحابه وأتباعه^(١).

واشترط على الحكمين أن يرفعا ما رفع القرآن، ويخفضا ما خفض القرآن، وأن يختارا لأمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأنها يجتمعان بدومة الجندل^(٢) فإن لم يجتمعا لذلك، اجتمعا من العام المقبل بأذرح^(٣).

قال أبو مخنف: ((فكان الكتاب في صفر والأجل رمضان إلى ثمانية أشهر، إلى أن يلتقي الحكمان، ثم إن الناس دفنوا قتلاهم، وأمر عليّ الأعور - يعني الحارث - فنادى في الناس بالرحيل))^(٤).

قال أبو مخنف: ((حدثنا أبو جناب الكلبي عن عمارة بن ربيعة قال: خرجوا مع عليّ إلى صفين وهم متوادون أحياء، فرجعوا متباغضين أعداء، ما برحوا من عسكريهم بصفين حتى فشا فيهم التحكيم، ولقد اقبلوا يتدافعون الطريق كله ويتشاتمون ويضطربون بالسياط، يقول الخوارج: يا أعداء الله دهنتم في أمر الله ﷻ وحكمتم. وقال الآخرون: فارقتم إمامنا وفرقتم جماعتنا، فلما دخل عليّ الكوفة لم يدخلوا معه حتى أتوا حروراء^(٥)، فنزل بها منهم اثنا عشر ألفاً، ونادى

(١) انظر تاريخ الطبري ٥/٥٧.

(٢) مكان وسط بين أهل الشام وأهل العراق لا هي على عشر مراحل من الكوفة وكذلك من الشام (الأعلاق النفسية لابن رسته ١٧٧).

(٣) تاريخ الطبري ٥/٥٧.

(٤) نفس المصدر ٤/٨٩.

(٥) حروراء كجولاء، بالمد وقد تقصر قرية بالكوفة على ميلين منها، نزل بها جماعة خالفوا علياً من الخوارج، تاج العروس ٣/١٣٧.

مناديهم: أن أمير القتال شيب بن ريمي التميمي، وأمير الصلاة عبد الله بن الكواء
اليشكري، والأمر شورى بعد الفتح، والبيعة لله ﷻ والأمر بالمعروف والنهي عن
المنكر^(١).

والآن لنقرأ محاورات ابن عباس مع المحكمة أولاً في حروراء ثم في
الكوفة، ونأتي على البقية في مواردها حسب ورودها تاريخياً مع الأحداث.
قال البلاذري في أنساب الأشراف وابن عساكر في تاريخه وغيرهما بالسند
عن الزهري قال: «لما قدم علي بن أبي طالب إلى الكوفة من صفين، خاصمت
الحرورية علياً ستة أشهر، وقالوا شككت في أمرك، وحكمت عدوك... وطالت
خصوصتهم لعلي... فأرسل إليهم علي عبد الله بن عباس وصمصعة بن صوحان
فدعواهم إلى الجماعة وناشدهم...»^(٢).

مجاورة ابن عباس مع المحكمة في حروراء:

قال ابن اعثم في الفتح وغيره: «فينا علي كرم الله وجهه مقيم بالكوفة
يانتظر انقضاء المدة التي كانت بينه وبين معاوية ثم يرجع إلى مطربة أهل الشام،
إذ تحركت طائفة من أصحابه في أربعة آلاف فارس، وهم من النساك العباد
أصحاب البرانس، فخرجوا عن الكوفة وتحزبوا وخالفوا علياً كرم الله وجهه،
وقالوا: لا حكم إلا لله ولا طاعة لمن عصى الله.

قال: وانحاز إليهم ثيف عن ثمانية آلاف رجل ممن يرى رأيهم، فصار القوم
في اثني عشر ألفاً وساروا حتى نزلوا بحروراء، وأثروا عليهم عبد الله بن الكواء.

(١) تاريخ الطبري ٦٣/٥.

(٢) أنساب الأشراف ٢/٣٥٢، وتاريخ مدينة دمشق (ترجمة ابن الكواء).

قال: فدعا علي^{عليه السلام} بعبد الله بن عباس فأرسله إليهم وقال: يا ابن عباس امض إلى هؤلاء القوم فانظر ما هم عليه ولماذا اجتمعوا؟

[وأوصاه بقوله: لا تخاصمهم بالقرآن فقال له ابن عباس: يا أمير المؤمنين فأنا أعلم بكتاب الله منهم، في بيوتنا نزل.

قال: صدقت، ولكن القرآن حمّال ذو وجوه تقول ويقولون، ولكن حاججهم بالسنة فإنهم لن يجدوا عنها محيصاً^(١) فخرج ابن عباس اليهم فحاججهم بالسنة فلم يبق بأيديهم حجة^(٢).

قال ابن اعثم في حديثه: فأقبل عليهم ابن عباس حتى إذا شرف عليهم ونظروا إليه ناداه بعضهم وقال: ويلك يا ابن عباس أكفرت بربك كما كفر صاحبك علي بن أبي طالب؟

فقال ابن عباس: إنني لا أستطيع أن أكلمكم كلكم، ولكن انظروا أيكم أعلم بما يأتي ويدر فليخرج إلي حتى أكلمه.

قال: فخرج إليه رجل منهم يقال له عتاب بن الأعمور التغلبي، حتى وقف قبالة، وكان القرآن إنما كان ممثلاً بين عينيه، فجعل يقول ويحتج ويتكلم بما يريد، وابن عباس ساكت لا يكلمه بشيء، حتى إذا فرغ من كلامه، أقبل عليه ابن عباس فقال: إنني أريد أن أضرب لك مثلاً، فإن كنت عاقلاً فافهم. فقال الخارجي: قل ما بدا لك.

(١) الإتيان للسيوطي ١/١٧٥، ولابن أبي الحديد الممتزلي في شرح هذه الوصية كلام بداه

بقوله، هذا الكلام لا نظير له في هرفه وطلو معناه...

(٢) الدر المنثور للسيوطي ١/١٥٠ عن ابن سعد.

فقال له ابن عباس: خبّرني عن دار الإسلام هذه هل تعلم لمن هي؟ ومن

بناها؟

فقال الخارجي: نعم، هي لله ﷻ وهو الذي بناها على أيدي أنبيائه وأهل طاعته، ثم أمر من بعثه إليها من الأنبياء أن يأمرؤا الأمم أن لا يعبدوا إلا إياه، فأمن قوم وكفر قوم، وآخر من بعثه إليها من الأنبياء محمداً صلى الله عليه (وآله) وسلم.

فقال ابن عباس: صدقت، ولكن خبّرني عن محمد حين بعث إلى دار الإسلام فبناها كما بناها غيره من الأنبياء، هل أحكم عمارتها وبيّن حدودها، وأوقف الأمة على سبلها وعملها، وشرائع أحكامها ومعالم دينها؟

فقال الخارجي: نعم قد فعل محمد ذلك.

قال ابن عباس: فخبّرني الآن عن محمد هل بقي فيها أو رحل عنها؟

قال الخارجي: بل رحل عنها.

قال ابن عباس: فخبّرني رحل عنها وهي كاملة العمارة بينة الحدود؟ أم

رحل عنها وهي خربة ولا عمران فيها؟

قال الخارجي: بل رحل عنها وهي كاملة العمارة بينة الحدود قائمة المنار.

قال ابن عباس: صدقت. الآن فخبّرني هل كان لمحمد صلى الله عليه

(وآله) وسلم أحد يقوم بعمارة هذه الدار من بعده أم لا؟

قال الخارجي: بلى قد كان له صحابة وأهل بيت ووصي وذريته يقومون

بعمارة هذه الدار من بعده.

قال ابن عباس: ففعلوا أم لم يفعلوا؟

قال الخارجي: بلى قد فعلوا وعمروا هذه الدار من بعده.

قال ابن عباس: فخبّرني الآن عن هذه الدار من بعده هل هي اليوم على ما تركها محمد صلى الله عليه (وآله) وسلم من كمال عمارتها وقوام حدودها؟ أم هي خربة عاطلة الحدود؟

قال الخارجي: بل هي عاطلة الحدود خربة.

قال ابن عباس: أفذريته وليت هذا الخراب أم أمته؟
قال: بل أمته.

قال ابن عباس: فأنت من الأمة أم من الذرية؟
قال: أنا من الأمة.

قال ابن عباس: يا عتاب فخبّرني الآن عنك كيف ترجو النجاة من النار وأنت من أمة قد أخربت دار الله ودار رسوله، وعطلت حدودها؟
فقال الخارجي: إنا لله وإنا إليه راجعون، ويحك يا بن عباس احتلت والله حتى أوقعتني في أمر عظيم وألزمتني الحجة حتى جعلتني ممن أخرب دار الله. ولكن ويحك يا بن عباس فكيف الحيلة في التخلص مما أنا فيه؟
قال ابن عباس: الحيلة في ذلك أن تسعى في عمارة ما أخربته الأمة من دار الإسلام.

قال: فدلني على السعي في ذلك.

قال ابن عباس: إن أول ما يجب عليك في ذلك أن تعلم من سعى في خراب هذه الدار فتعاديها، وتعلم من يريد عمارتها فتواليه.

قال: صدقت يا بن عباس والله ما أعرف أحداً في هذا الوقت يحبّ عمارة دار الإسلام غير ابن عمك عليّ بن أبي طالب، لولا أنه حكّم عبد الله بن قيس في حقّ هو له.

قال ابن عباس: ويحك يا عتاب إنا وجدنا الحكومة في كتاب الله ﷺ أنه قال تعالى: ﴿فَابْتِئُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾^(٢).

قال: فصاحت الخوارج من كل ناحية وقالوا: فكأن عمرو بن العاص عندك من العدول؟ وأنت تعلم أنه كان في الجاهلية رأساً وفي الإسلام ذنباً، وهو الأبر بن الأبر، ممن قاتل محمداً صلى الله عليه (وآله) وسلّم وفتن أمته من بعده.

فقال ابن عباس: يا هؤلاء إن عمرو بن العاص لم يكن حَكَمًا (لنا) أفتحتجون به علينا؟ إنما كان حَكَمًا لمعاوية وقد أراد أمير المؤمنين عليّ ﷺ أن يعثني أنا فأكون له حَكَمًا فأبيتم عليه وقتلتم: قد رضينا بأبي موسى الأشعري، وقد كان أبو موسى لعمري رضيّ في نفسه وصحبته وإسلامه وسابقته، غير أنه خُدع فقال ما قال، وليس يلزمنا من خديعة عمرو بن العاص لأبي موسى، فاتفقوا ربكم وارجعوا إلى ما كنتم عليه من طاعة أمير المؤمنين، فإنه وإن كان قاعداً عن طلب حقّه، فإنما ينتظر انقضاء المدة ثم يعود إلى محاربة القوم، وليس عليّ ﷺ ممن يقعد عن حقّ جعله الله له.

(١) النساء / ٣٥.

(٢) المائدة / ٩٥.

قال: فصاحت الخوارج وقالوا: هيهات يا بن عباس نحن لا نتولى علياً بعد هذا اليوم أبداً، فارجع إليه وقل له فليخرج إلينا بنفسه حتى نحتج عليه ونسمع كلامه ويسمع من كلامنا، فلعنا إن سمعنا منه شيئاً يعلق أننا أن نرجع عما اجتمعنا عليه من حربه.

قال: فخرج عبد الله بن عباس إلى عليٍّ رضي الله عنه ففخر بذلك.

قال: فركب علي إلى القوم في مائة رجل من أصحابه حتى وافاهم بحروراء^(١).

هذا جزء من أولى محاورات كانت لابن عباس مع الخوارج وقد كان معه في هذه المرة جماعة من أصحاب الإمام منهم صعصعة بن صوحان وزبيد بن النضر الحارثي^(٢) كما كان معه عبد الله بن شداد - وهو ابن خالته - وقد حدث هذا عن ذهابه معه إلى حروراء وذلك حين سأله عائشة عن الخوارج وكان ذلك بعد رجوعه من العراق إلى المدينة. وحديثه من الأحاديث الصحيحة فقد أخرجه أحمد والطبراني والحاكم والضياء المقدسي وأبو يعلى والبيهقي وغيرهم كما سيأتي ذكرهم.

وإلى القارئ لفظ الحديث بلفظ البيهقي في سننه الكبرى بسنده عن عبد الله بن شداد بن الهاد:

(١) الفتوح ٨٩/٤، وقارن مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب ٣١٩/٢ ط الحيدرية وناسخ التواريخ ٥٧٥/٣ ط حجرية.

(٢) انظر الكامل للمبرد ٢١٠/٣ ط نهضة مصر تحم محمد أبو الفضل إبراهيم، والبده والتاريخ المنسوب لأبي زيد البلخي ٢٢٢/٥.

قال: «قدمت على عائشة رضي الله عنها فينا نحن جلوس عندها مرجعها من العراق ليالي قوتل عليّ - قتل عليّ - رضي الله عنه، إذ قالت لي يا عبد الله بن شداد هل أنت صادق عما أسألك عنه حدثني عن هؤلاء القوم الذين قتلهم عليّ، قلت: وما لي لا أصدقك؟ قالت: فحدثني عن قصتهم:

قلت: إن عليّاً لما أن كاتب معاوية وحكم الحكمين، خرج عليه ثمانية آلاف من قرءاء الناس، فنزلوا أرضاً من جانب الكوفة يقال لها حروراء، فإنهم انكروا عليه فقالوا: انسلخت من قميص البسكة الله وأسماك به، ثم انطلقت فحكمت في دين الله ولا حكم إلا لله، فلما أن بلغ عليّاً ما عتبوا عليه وفارقوه، أمر فأذن مؤذن لا يدخلن علي أمير المؤمنين إلا رجل قد حمل القرآن، فلما أن امتلأ من قرءاء الناس الدار، دعا بمصحف عظيم فوضعه عليّ رضي الله عنه بين يديه فطفق يصكه بيده ويقول: أيها المصحف حدث الناس، فناداه الناس فقالوا: يا أمير المؤمنين ما تسأله عنه، إنما هو ورق ومداد، ونحن نتكلم بما روينا منه فماذا تريد؟

قال: أصحابكم الذين خرجوا بيني وبينهم كتاب الله تعالى. يقول الله تعالى في امرأة ورجل ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَهْبُوا حَكْمًا مِنْ أَهْلِهِ﴾ ^(١) فأمة محمد أعظم حرمة من امرأة ورجل.

ونقموا عليّ إني كاتب معاوية وكتبت عليّ بن أبي طالب. وقد جاء سهيل بن عمرو، ونحن مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالحديبية حين صالح قومه قريشاً، فكتب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: بسم الله الرحمن الرحيم.

فقال سهيل: بسم الله الرحمن الرحيم لا تكتب قلت: فكيف أكتب؟ قال:
أكتب باسمك اللهم.

فقال رسول الله صلى الله عليه (وآله) وسلم: اكتبه، ثم قال: اكتب من
محمد رسول الله، فقال: لو تعلم أنك رسول الله لم نخالفك، فكتب هذا ما صالح
عليه محمد بن عبد الله قريشاً، يقول الله في كتابه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ
أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾^(١).

فبعث إليهم علي بن أبي طالب عليه السلام عبد الله بن عباس. فخرجت معه حتى
إذا توسطنا عسكريهم قام ابن الكواء فخطب الناس فقال: يا حملة القرآن إن هذا
عبد الله بن عباس فمن لم يكن يعرفه فأنا أعرفه من كتاب الله، هذا من نزل فيه
وفي قومه ﴿تِلْهُمُ قَوْمٌ خَصِيْمُونَ﴾^(٢) فردوه إلى صاحبه ولا تواضعوه كتاب
الله ﷺ، فقام خطبائهم فقالوا: والله لنواضعنه كتاب الله، فإذا جاءنا بحق نعرفه
اتبعناه، ولئن جاءنا بالباطل لنبكتنه بباطله، ولتردنه إلى صاحبه، فواضعوه على
كتاب الله ثلاثة أيام فرجع منهم أربعة آلاف كلهم تائب، فأقبل بهم ابن الكواء
حتى أدخلهم على علي عليه السلام، فبعث علي إلى بقيتهم فقال قد كان من أمرنا وأمر
الناس ما قد رأيتم، ففوا حيث شتمتم حتى تجتمع أمة محمد صلى الله عليه (وآله)
وسلم، وتزلوا فيما حيث شتمتم، بيتنا وبينكم أن نقيمكم رماحنا ما لم تقطعوا سيلاً
وتطّلوا دماً، فإنكم إذا فعلتم ذلك فقد نبذنا إليكم الحرب على سواء إن الله لا
يحب الخائنين.

(١) الأحزاب/٢١.

(٢) الزخرف/٥٨.

قالت عائشة رضي الله عنها يا بن شداد فقد قتلهم؟ فقال والله ما بعث إليهم حتى قطعوا السيل وسفكوا الدماء وقتلوا ابن خباب واستحطوا أهل الذمة.

قالت: آله؟ قلت: آله الذي لا إله إلا هو لقد كان.

قالت: فما شيء بلغني عن أهل العراق يتحدثون به يقولون: ذو النُدَيّ ذو

النُدَيّ؟

قلت: قد رأيت ووقفت عليه مع علي رضي الله عنه في القتلى، فدعا الناس فقال: هل تعرفون هذا؟ فما أكثر من جاء يقول قد رأيت في مسجد بني فلان يصلي، ورأيت في مسجد بني فلان يصلي، فلم يأتوا بثبت يعرف إلا ذلك.

قالت: فما قول علي حين قام عليه كما يزعم أهل العراق؟ قلت: سمعته

يقول: صدق الله ورسوله.

قالت: فهل سمعت أنت منه قال غير ذلك؟ قلت: اللهم لا.

قالت: أجل صدق الله ورسوله، يرحم الله علياً إنه من كلامه، كان لا يرى

شيئاً يعجبه إلا قال: صدق الله ورسوله^(١).

(١) سنن البيهقي ١٧٩/٨ ط دار الفكر وط دار البازيمكة.

أخرج حديث عبد الله بن شداد بن الهاد جملة من الحفاظ منهم أحمد والطبراني والحاكم ومنهم نقله ابن حجر في فتح الباري ٢٩٦/١٢ ط بيروت دار المعرفة، وأخرجه الضياء المقدسي في الأحاديث المختارة ٢٢٣ ط مكتبة النهضة الحديثة بمكة المكرمة سنة ١٤١٠، وأخرجه أبو يعلى في مسنده ٣٦٧/١ ط دار المأمون بدمشق سنة ١٤٠٤، وأخرجه البيهقي في سننه الكبرى ١٧٩/٨ ط دار الفكر وكذلك ط دار البازيمكة وأخرجه الزيلعي في نصب الراية ٤٦١/٣ ط دار الحديث بمصر سنة ١٣٥٧، وأخرجه ابن حجر أيضاً في الدراية لتخريج أحاديث الهداية ط دار المعرفة بيروت، وأخرجه الشوكاني في نيل الأوطار ٣٤٩/٧ ط دار الجيل بيروت سنة ١٩٧٣ وهؤلاء كلهم من جهابذة الحفاظ، سوى غيرهم من المؤرخين كالمطيري وابن اثم وأخرين كثيرين، وأخرجه ابن عساکر في تاريخ دمشق ترجمة الإمام ١٥٣/١٥٣ ط المحمودي. ولم يكن محادثة عائشة لعبد الله بن

أقول: إنما ذكرت هذه المحاوره بنصّها كما وردت في مصادر أهل الحديث بأسانيدهم الصحيحة فضلاً عن ورودها في المصادر التاريخية والأدبية، لأنّي وقفت في كتاب العقود الفضية في أصول الأباضية على ذكر المحاوره التي دارت بين ابن عباس وبين الخوارج وفيها من الدسّ والإقتراء ما يدعو إلى العجب، كما سنأتي على ذكرها فيما بعد.

ونعود إلى تمة حديث الحرورية. فقد اختلف المؤرخون في ذكر عدد الذين رجعوا إلى الطاعة والجماعة.

فمنهم المقلّ، فقال: رجع منهم ألفان، كالمبرد في كامله^(١)، والخوارزمي في مناقبه^(٢)، وابن عبد ربه في العقد الفريد^(٣)، وابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب^(٤)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم^(٥) وآخرين غيرهم.

هداد نشأت من فراخ، لولا أن ابن العاص كتب إليها بأنه قتل ذا النديه بنيل مصر أخرج البيهقي في دلائل النبوة بسنده من مسروق قالت عائشة: عندك علم من ذي النديه الذي أصابه علي في الحرورية؟ قلت: لا، قالت فاكتب لي بشهادة من شهدهم، فرجعت إلى الكوفة وبها يومئذ أسباع فكتبت شهادة صخرة من كل سبع ثم اتبعتها بشهادتهم فقرأتها عليها، قالت: أكل هؤلاء ما ينوه، قلت: لقد سألتهم فأخبروني بأن كلهم قد ماينوه فقالت: لعن الله فلاناً فإنه كتب إلي أنه أصابهم بنيل مصر، ثم أرخت عندها فبكت فلما سكنت صبرتها قالت رحم الله علياً لقد كان علي الحق، وما كان بيني وبينه إلا كما يكون بين المرأة وأحمالها. راجع البداية والنهاية ٣٠٣/٧ - ٣٠٤ ط السعادة بمصر.

ولئن كتّم اسم الكاتب الكذاب الملعون على لسان عائشة فكتبي منه (فلاناً)، فإن ابن أبي الحديد في شرح النهج ٢٠٢/١ نقل من كتاب صفين للمدائني التصريح باسمه فقال: من مسروق ابن عائشة قالت له لما عرضت أن علياً يقتل ذا النديه: لعن الله عمرو بن العاص فإنه كتب الي يخبرني أنه قتله بالأسكندرية... وهكذا تُضيق الحقائق.

(١) الكامل ٢١٢/٣ تح محمد أبو الفضل إبراهيم.

(٢) مناقب الخوارزمي/ ١٣٦ ط حجرية.

(٣) العقد الفريد ٣٤٢/١.

(٤) شذرات الذهب ٥٠/١.

(٥) جامع بيان العلم ١٠٤/٢.

ومنهم المكثّر، فذهب إلى أنّه رجع من الخوارج عشرون ألفاً، كأبي نعيم في حلية الأولياء^(١)، وهذا لا شك عندي فيه وهم من أبي نعيم، لأنّ الخوارج الحرورية لم يبلغ عددهم جميعاً يومئذ هذا القدر وقد مرّ أنّهم اثنا عشر ألفاً فكيف رجع منهم عشرون ألفاً. وقال ابن تيمية في كتابه الفرقان بين الحقّ والباطل: «فأرسل إليهم ابن عباس فناظرهم فرجع نصفهم والآخرون أغاروا على ماشية الناس واستحلوا دماءهم فقتلوا ابن خباب... فقاتلهم علي...»^(٢).

وما بين المقل والمكثّر أقوال، أقومها وأقسطها عندي ما ذكره عبد الله بن شداد بن الهاد في حديثه وقد مرّ أنّهم أربعة آلاف، وقد رواه عنه سوى من تقدم ذكره آنفاً وصححه الحاكم في المستدرک^(٣) وأقره الذهبي في تلخيصه، وذكره القسطلاني في إرشاد الساري^(٤) نقلاً عن الطبراني والحاكم وأبي يعلى من طريق أفلح بن عبد الله.

وهذا ما يظهر من كلام المحب الطبري في ذخائر العقبى حيث قال: «فرجع ثلثهم، وانصرف ثلثهم، وقتل سائرهم على الضلالة»^(٥). ولم يبعد عن ذلك ابن كثير مع التحوير في التعبير فقد قال في البداية والنهاية: «فرجع بعضهم واستمر بعضهم على ضلالهم»^(٦). وربما تبع في ذلك غيره.

(١) حلية الأولياء ١/٣١٨.

(٢) مؤلفات ابن تيمية ١٣ / ٢٠٨ ط الثانية.

(٣) مستدرک الحاكم ٢/١٥٣.

(٤) إرشاد الساري ١٠/٨٨.

(٥) ذخائر العقبى / ٢٣٣.

(٦) البداية والنهاية ٧/٣٧٩.

وحسيناً مثلاً قول ابن سعد في طبقاته: «فرجع منهم قوم كثير، وثبت قوم على رأيهم»^(١).

محاورة ابن عباس مع المحكمة في الكوفة:

أ- بين يدي المحاورة:

قال المبرّد: «ويروى أن علياً في أول خروج القوم عليه دعا صعصعة بن صوحان العبدي - وقد كان وجهه إليهم وزيد بن النضر الحارثي مع عبد الله بن العباس - فقال لصعصعة: بأي القوم رأيتم أشد إطفاء؟ فقال: يزيد بن قيس الأرحبي.

فركب عليّ إليهم إلى حروراء، فجعل يتخللهم حتى صار إلى مضرب يزيد بن قيس فصلى فيه ركعتين ثم خرج فاتكأ على قوسه وأقبل على الناس ثم قال: هذا مقام من فلج فيه فلج يوم القيامة.

أنشدكم الله، أعلمتم أحداً منكم كان أكره للحكومة مني؟ قالوا: اللهم لا.
قال: أعلمتم أنكم أكرهتموني حتى قبلتها؟ قالوا: اللهم نعم.
قال: فعلام خالفتموني وناهدتموني؟ قالوا: إنا أتينا ذنباً عظيماً، فبنا إلى الله، فتب إلى الله منه وأستغفره نعد لك. فقال عليّ: إني أستغفر الله من كل ذنب، فرجعوا معه وهم ستة آلاف، لما استقروا بالكوفة أشاعوا أن علياً رجع عن التحكيم ورآه ضلالاً، وقالوا: إنما ينتظر أمير المؤمنين أن يسمن الكراع ويجبي المال، فينهض إلى الشام.

(١) طبقات ابن سعد ٣ ق ١/٢١٠.

فأتى الأشعث بن قيس علياً عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين إن الناس قد تحدثوا أنك رأيت الحكومة ضللاً، والإقامة عليها كفرة. فخطب عليّ الناس فقال: من زعم إنني رجعت عن الحكومة فقد كذب، ومن رآها ضللاً فهو أضلّ، فخرجت الخوارج من المسجد فحكمت، فقبل لعليّ: إنهم خارجون عليك فقال: لا أقاتلهم حتى يقاتلوني وسيفعلون، فوجه إليهم عبد الله بن العباس...^(١).

ب- توثيق المحاورّة:

والآن فلنقرأ ما رواه ابن عباس عما جرى له مع أولئك المحكمة وهم في الكوفة وقد اعترضوا في دار، ولنوثق ذلك أولاً، وحديثه رواه النسائي في السنن^(٢)، وفي الخصائص^(٣)، وتاريخ ابن عساكر ترجمة الإمام^(٤)، كما رواه الطبراني في المعجم^(٥)، ورواه الحاكم في المستدرک^(٦) وقد صححه وأقره الذهبي في التلخيص، ورواه البيهقي في السنن الكبرى^(٧)، ورواه الضياء المقدسي في الأحاديث المختارة بأسانيد متعددة آخرها ذكر أنه برواية أبي داود صاحب السنن^(٨)، ورواه الفسوي في المعرفة والتاريخ^(٩)، ورواه الهيثمي في مجمع

(١) الكامل للمبرد ٢١٠/٣.

(٢) السنن الكبرى ١٠٥ / ٥ - ١٦٩.

(٣) الخصائص ٤٨ / ط مصر سنة ١٣٤٨ و٢ / ١٩٥ - ٢٠٠ ط مكتبة المعلا بالكويت سنة ١٤٠٦.

(٤) تاريخ مدينة دمشق (ترجمة الإمام) ١٥٠ / ٢.

(٥) المعجم الكبير ٢٥٧ / ١٠ ط الموصل.

(٦) مستدرک الحاكم ١٦٥ / ٢ ط اصبحت بيروت.

(٧) السنن الكبرى ١٧٩ / ٨.

(٨) الأحاديث المختارة ٤١١ / ٤١٦.

(٩) المعرفة والتاريخ ٥٢٢ / ١ - ٥٢٤ ط أوقاف بغداد.

الزوائد^(١) وقال رواه الطبراني وأحمد ببعضه ورجالهما رجال الصحيح، ورواه ابن كثير في البداية والنهاية^(٢) نقلاً عن أحمد وقال: واسناده صحيح، والذهبي في تاريخ الإسلام^(٣).

واليكم نص المحاوره برواية أبي زميل سماك الحنفي عن ابن عباس - وأبو زميل هنا كان قد هوى نجلة بن عويمر الخارجي فهو خارجي الهوى غير متهم في حديثه عن ابن عباس عند أصحابه فيما جرى بينهم - :

ج- نص المحاوره:

قال ابن عباس: ((لَمَّا اعْتَرَلَتِ الْخَوَارِجُ الْحُرُورِيَّةَ دَخَلُوا دَاراً وَاعْتَرَلُوا فِي دَارِ عَلِيٍّ حَدِيثَهُمْ وَكَاتَبُوا سِتَّةَ آلَافٍ^(٤) وَأَجْمَعُوا أَنْ يَخْرُجُوا عَلَيَّ عَلِيٌّ بَنَ أَبِي طَالِبٍ وَأَصْحَابَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَعَهُ.

قال: وكان لا يزال يجيء إنسان فيقول: يا أمير المؤمنين إن القوم خارجون عليك. فيقول: دعوهم فإنني لا أقاتلهم حتى يقاتلوني وسوف يفعلون. فلَمَّا كان ذات يوم أتته قبل صلاة الظهر فقلت له: يا أمير المؤمنين أبرد بالصلاة - بالظهر أي آخرها حتى يبرد الوقت - لعلني آتي هؤلاء القوم فأكلمهم، قال: إنني أخافهم عليك. قال: قلت: كلاً.

قال: فخرجت آتيهم وليست أحسن ما يكون من حليل اليمن، فلبست أحسن ما أقدر عليه من هذه اليمانية وترجلت، فأتيتهم ودخلت عليهم وهم

(١) مجمع الزوائد ٦/٢٤١.

(٢) البداية والنهاية ٧/٢٨٠ - ٢٨١.

(٣) تاريخ الإسلام ٢/١٨٣ ط القدسي بمصر سنة ١٣٦٨ هـ.

(٤) انظر سنن النسائي ٥/١٠٥، والخصائص له أيضاً وسنن البيهقي والمعرفة والتاريخ وغيرها ذكر هذا العدد وتاريخ الإسلام للذهبي ٢/١٨٣ وهم ستة آلاف أو نحوها.

مجتمعون في دار، وهم قائلون في نحر الظهيرة نصف النهار فسلمت عليهم، فقالوا: مرحباً بك يا أبا عباس فما هذه الحطة؟ قال قلت: ما تعيين علي، لقد رأيت على رسول الله ﷺ أحسن ما يكون من الحطل، ونزلت ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾^(١).

قالوا: فما جاء بك؟

قلت: أتيتكم من عند أصحاب النبي ﷺ من المهاجرين والأنصار، ومن عند ابن عم النبي ﷺ وصهره، لأبلغكم ما يقولون، وتخبرون بما يقولون، فعليهم نزل القرآن وهم أعلم بالوحي منكم، وفيهم أنزل، وليس فيكم منهم أحد. فقال بعضهم: لا تخاصموا قريشاً فإن الله يقول ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَبِيثُونَ﴾^(٢).

قال ابن عباس: وأتيت قوماً لم أر قوماً قط أشدَّ اجتهاداً منهم، مسهمة وجوههم من السهر كأن أيديهم وزكبيهم كأنها ثفن الإبل ووجوههم معلمة من آثار السجود وعليهم قمص مرخصة مشمرين.

فقال اثنان أو ثلاثة: لو كلمتهم، فانتحى لي نفر منهم قال بعضهم: لنكلمنه ولننظرن ما يقول.

قلت: أخبروني هاتوا ما نعمتم على ابن عم رسول الله ﷺ وصهره والمهاجرين والأنصار؟

قالوا: ثلاثاً، قلت: ما هن؟ قالوا: أمّا إحداهنَّ فإنه حكّم الرجال في أمر الله، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ الْحَكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾^(٣) ما شان الرجال والحكم. فقلت: هذه واحدة.

(١) الأعراف / ٣٢.

(٢) الزخرف / ٥٨.

(٣) الأنعام / ٥٧.

قالوا: وأما الثانية فإنه قاتل ولم يسب ولم يغنم، فلتن كان الدين قاتل كفاراً
لقد حل سيهم وغنيمتهم، ولئن كانوا مؤمنين ما حل سيهم ولا قتالهم.

قلت: هذه ثتان فما الثالثة؟

قالوا: إنه محا اسمه من أمير المؤمنين، فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير
الكافرين.

قلت: هل عندكم شيء غير هذا؟ قالوا: حسبنا هذا.

فقلت لهم: أرايتم إن قرأت عليكم من كتاب الله جل ثناؤه وسنة نبيه ﷺ
ما يردّ به قولكم أترضون؟ أترجون؟

قالوا: نعم، فقلت لهم: أما قولكم حكم الرجال في أمر الله فإني اقرأ عليكم
ما قد ردّ حكمه إلى الرجال في ثمن ربع درهم في أرنب ونحوه من الصيد، فأمر
الله تبارك وتعالى أن يحكموا فيه، أرايتم قول الله تبارك وتعالى ﴿رَبَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ
النَّعْمِ يَعْظَمُ بِهِ ذَوْا عَدَلٍ مِنْكُمْ﴾^(١) وكان من حكم الله أنه صيره إلى الرجال
يحكمون فيه، ولو شاء يحكم فيه، فجاز من حكم الرجال، فنشدتكم بالله أحكم
الرجال في أرنب ونحوها من الصيد أفضل أم حكمهم في حقن دمايتهم وإصلاح
ذات بينهم؟ قالوا: بل هذا أفضل.

وقال الله ﷻ في المرأة وزوجها: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْهِنُوا حَكْمًا مِنْ
أَهْلِهِ وَحَكْمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾^(٢) فنشدتكم بالله حكم

(١) المائدة / ٩٥.

(٢) النساء / ٣٤.

الرجال في صلاح ذات بينهم وحقن دمايتهم أفضل من حكمهم في بضع امرأة؟ فجعل حكم الرجال سنة ماضية، أخرجت من هذه؟ قالوا: نعم.

قلت: وأما قولكم: قاتل ولم يسب ولم يغتم، افتسبون أمكم عائشة تستحلون منها ما تستحلون من غيرها وهي أمكم، فإن قلت: إنا نستحل منها ما نستحل من غيرها فقد كفرتم، وإن قلت: ليست بأنا فقد كفرتم فإن الله تعالى يقول: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم﴾^(١) فأنتم تدورون بين ضلالتين أيهما صرتم إليها صرتم إلى ضلالة فاتوا منها بمنخرج فاختاروا أيتهما شتم - فنظر بعضهم إلى بعض - قلت: أخرجت من هذه؟ قالوا: نعم. قال: قلت: وأما قولكم محا نفسه من أمير المؤمنين، فأنا آتيكم بما ترضون أراكم قد سمعتم أن نبي الله صلى الله عليه (وآله) وسلم يوم الحديبية كاتب المشركين سهيل بن عمرو وأبا سفيان بن حرب فقال رسول الله صلى الله عليه (وآله) وسلم لأمير المؤمنين اكتب يا علي: هذا ما أصطلح عليه محمد رسول الله، فقال المشركون: لا والله ما نعلم أنك رسول الله، لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك. فقال رسول الله صلى الله عليه (وآله) وسلم: اللهم إني رسولك، اكتب يا علي: هذا ما أصطلح عليه محمد بن عبد الله. فوالله لرسول الله خير من علي، وقد محا نفسه، ولم يكن محوه نفسه ذلك محاه من النبوة أخرجت من هذه؟ قالوا: نعم.

قال عبد الله بن عباس: فرجع منهم ألفان، وخرج سائرهم فقتلوا على ضلالتهم، قتلهم المهاجرون والأنصار).

أقول: لقد ذكر عيد الرزاق في المصنف هذه المحاورة^(١)، ولم يذكر في أولها أنهم كانوا ستة آلاف. وذكر في آخرها فرجع منهم عشرون ألفاً وبقي منهم أربعة آلاف قتلوا، وأحسبه قد وهم في ذكر رجوع عشرين ألفاً، والصواب ما مر من رجوع الفين وبقي منهم أربعة آلاف على ضلالتهم، فصاروا جميعاً ستة آلاف، وهو ما مرّ ذكره عن سنن النسائي والخصائص له وسنن البيهقي والمعرفة والتاريخ للبسوي وغيرهم.

ولما كانت المحاورات متعددة ومتشابهة في النقص والإبرام كما أنها كانت متعاقبة من الحبر ابن عباس والإمام عليه السلام، فهي مظنة للإيهام ومزكة الأعلام على تعاقب الأيام.

ومن شاء الاستزادة في المقام فليراجع المصادر التالية مضافاً إلى ما مر ذكره:

١- مصباح الأنوار للشيخ الجليل هاشم بن محمد، مخطوط.

ومن المطبوعات:

٢- بحار الأنوار ٦١١/٨ - ٦١٩ ط كمياني.

٣- درر البحار ٢٨٥/٣ ط حجرية.

٤- شرح نهج البلاغة للمعتزلي ٢١٦/١ ط مصر الأولى.

٥- مناقب الخوارزمي ١٧٥ - ١٧٦ ط حجرية.

٦- كتز العمال ٧٩/٦ ط حيدر آباد الأولى.

٧- أحكام القرآن للجصاص ٤٩٤/٣.

(١) المصنف ١٥٧/١٠ - ١٦٠ منشورات المجلس العلمي.

- ٨- كفاية الطالب للشنقيطي / ٨١ ط الاستقامة بمصر.
- ٩- رغبة الأمل ١٧٠/٥.
- ١٠- ترجمة الأعمش لابن اعثم ٣١٩/ ط حجرية.
- ١١- ناسخ التواريخ ٣ / كتاب ٣ / ٥٧٥ ط حجرية.
- ١٢- الفرق الإسلامية للبشبيشي ط الرحمانية بمصر.
- ١٣- مطالب السؤل لابن طلحة الشافعي / ١٥٢ ط حجرية.

وحن الأجل الموعود:

قال الطبري: «وقدم معن بن يزيد بن الأحنس السلمي في استبطاء إمضاء الحكومة وقال لعلي: إن معاوية قد وفي، فف أنت، لا يلفتتكَ عن رأيك أعاريب بكر وتميم - يعني الخوارج -».

فأمر عليّ بإمضاء الحكومة، وقد كانوا افترقوا من صفين على أن يقدم الحكّمان في أربعمئة أربعمئة إلى دومة الجندل»^(١).

وذكر أيضاً عن أبي مخنف بسنده عن زياد بن النضر الحارثي: «أن علياً بعث أربعمئة رجل، عليهم شريح بن هاتمي الحارثي، وبعث معهم عبد الله بن عباس وهو يصلي بهم ويلي أمورهم، وأبو موسى الأشعري معهم، وبعث معاوية عمرو بن العاص في أربعمئة من أهل الشام، حتى توافوا بثومة الجندل بأذرح»^(٢).

قال المسعودي في حديثه عن التقاء الحكّمين بدومة الجندل: «فلما تدانى القوم من الموضع الذي كان فيه الاجتماع. قال ابن عباس لأبي موسى: إن علياً لم

(١) تاريخ الطبري ٦٦/٥ ط المعارف.

(٢) نفس المصدر.

يرض بك حَكماً لفضل عندك، والمتقدمون عليك كثير، وإن الناس أبوا غيرك،
وَأني لأظن ذلك لشرِّ يُراد بهم، وقد ضَمَّ داهية العرب معك، إن نسيت فلا تنس
أن عليّاً بايعه الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان، وليس فيه خصلة تباعده من
الخلافة، وليس في معاوية خصلة تقرِّبه من الخلافة.

قال: ووصى معاوية عمراً حين فارقه وهو يريد الاجتماع بأبي موسى فقال:
يا أبا عبد الله إن أهل العراق قد أكرهوا عليّاً على أبي موسى، وأنا وأهل الشام
راضون بك، وقد ضَمَّ إليك رجل طويل اللسان قصير الرأي فأخَّر الحزَّ وطَبَّق
المفصل ولا تلقه برأيك كلّه^(١).

قال الطبري في حديثه: «فكان معاوية إذا كتب إلى عمرو جاء الرسول
وذهب لا يُدرى بما جاء فيه، ولا بما رجع به، ولا يسأله أهل الشام عن شيء.

وإذا جاء رسول عليٍّ جاؤا إلى ابن عباس فسألوه ما كتب به إليك أمير
المؤمنين؟ فإن كتمهم ظنوا به الظنون فقالوا: ما نراه كتب إلا بكذا وكذا.

فقال ابن عباس: أما تعقلون؟! أما ترون رسول معاوية يجيء لا يُعلم بما
جاء به، ويرجع لا يُعلم ما رجع به، ولا يُسمع لهم صياح ولا لفظ - كذا والصواب
لفظ - أنتم عندي كلَّ يوم تظنون الظنون^(٢).

وفي حديث نصر بن مزاحم (ذكر كلام ابن عباس) فقال: «فأُتِب ابن
عباس أهل الكوفة بذلك وقال: إذا جاء رسول قلتُم بأي شيء جاء، فإن كتمتكم
قلتُم فلم تكتمنا؟ جاء بكذا وكذا، فلا تزالون توقِّنون وتغارون حتى تصيبوا
فليس لكم سرّ.

(١) مروج الذهب ٢/٤٠٦.

(٢) تاريخ الطبري ٥/٦٧.

قال نصر في حديثه: ثم أنهم خلّوا بين الحكمين، فكان رأي عبد الله بن قيس أبو موسى في ابن عمر وكان يقول: والله أن لو استطعت لأحيين سنة عمر^(١).

قال المسعودي وهو يذكر حديث استدراج عمرو لأبي موسى - إلى أن قال: «قال أبو موسى: قد علمت أن أهل العراق لا يحبون معاوية أبداً، وأن أهل الشام لا يحبون علياً أبداً، فهل نخلعهما جميعاً ونستخلف عبد الله بن عمر - وكان عبد الله بن عمر على بنت أبي موسى - قال عمرو: أيفعل ذلك عبد الله بن عمر؟ قال أبو موسى: نعم إذا حملة الناس على ذلك فعل، فعمد عمرو إلى كل ما مال إليه أبو موسى فسوّيه، وقال له: هل لك في سعد؟ قال له أبو موسى: لا فعند له عمرو جماعة وأبو موسى يأبى ذلك إلا ابن عمر، فأخذ عمرو الصحيفة وطواها وجعلها تحت قدمه بعد أن ختماها جميعاً»^(٢).

ولنقرأ عن موقف ابن عباس في تلك الساعة الحرجة كيف كان حاله فيها؟ ولا أظن وصفاً بالغا صاحبه فيه ما أراد أبلغ من وصف عمرو بن العاص له، فقد روى أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب في أماليه^(٣)، وعنه المعتزلي في شرح النهج^(٤): «أن عمرو بن العاص قال لعتبة بن أبي سفيان يوم الحكمين: أما ترى ابن عباس قد فتح عينيه ونشر أذنيه، ولو قدر أن يتكلم بهما فعل، وإن غفلة أصحابه لمجبورة بقطته، وهي ساعتنا الطولى فاكفنيه.

(١) وقعة صفين / ٦١٤.

(٢) مروج الذهب للمسعودي ٤٠٨/٢.

(٣) الأمالي ٤٧٧/٢ تحه هارون طه دار المعارف لمصر.

(٤) شرح النهج لابن أبي الحديد ١٠٧/٢.

قال عتبة: بجهدى، قال قمت فقعدت إلى جانبه، فلما أخذ القوم في الكلام أقبلت عليه بالحديث، فقرع يدي وقال: ليست ساعة حديث، قال: فأظهرت غضباً وقلت: يا بن عباس إن تقتك بأحلامنا أسرعت بك إلى أعراسنا، وقد والله تقدم من قبلنا العذر، وكثر منا الصبر، ثم أقذعته، فجاش لي مرجه، وارتفعت أصواتنا فجاء القوم، فأخذوا بأيدينا فتحوه عني ونحوني عنه، فجئت فقربت من عمرو بن العاص فرماني بمؤخر عينيه إنني ما صنعت؟ فقلت: كفيتك التقالة، فحمحم كما يحمحم الفرس للشعير.

قال: وفات ابن عباس أول الكلام فكره أن يتكلم في آخره.

وروى ابن أبي الحديد في شرح النهج: ((قال: وذكر محمد بن القاسم ابن يسار الأنباري في أماليه: قال: قال عبد الرحمن بن خالد بن الوليد: حضرت الحكومة، فلما كان يوم الفصل، جاء عبد الله بن عباس فقعد إلى جنب أبي موسى، وقد نشر أذنيه حتى كاد أن ينطق بهما فعلمت أن الأمر لا يتم لنا ما دام هناك، وأنه سيفسد على عمرو حيلته، فأعملت المكيدة في أمره فجئت حتى قعدت عنده، وقد شرع عمرو وأبو موسى في الكلام، فكلمت ابن عباس كلمة استطعت جوابها فلم يجب، فكلمته أخرى فلم يجب، فكلمته ثالثة فقال: إنني لفي شغل عن حوارك الآن، فجيته وقلت: يا بني هاشم لا تتركون بأوكم وكبركم أبداً، أما والله لولا مكان النبوة لكان لي ولك شأن قال: فحمي وغضب واضطرب فكره ورأبه، وأسمعني كلاماً يسوء سماعه، فأعرضت عنه وقمت فقعدت إلى جانب عمرو بن العاص،

فقلت قد كفيتك التقواله، أي شغلت باله بما دار بيني وبينه فأحكم أنت أمرك، قال: فذهل والله ابن عباس عن الكلام الدائر بين الرجلين حتى قام أبو موسى فخلع علياً^(١).

ولما كانت محادثات الجلسة يلقها الطابع السري للمفاوضات، فربما يستشكل على تسرب ما دار بين عمرو بن العاص وعتبة إلى الخارج، بل وحتى ما رواه الاتباري في أماليه من خبر عبد الرحمن بن خالد، ولكن ذلك لا يلزم منه أن يكون الرواة قد خبروه في تلك الجلسة، بل روه عما حدثا به عتبة وعبد الرحمن بن خالد بعد حين، ومهما يكن فقد كان ذلك يحكي جو الحال الذي هو صدق المقال.

وهكذا تم الأمر المعادي المعاري على ابن عباس، وهكذا كانت الخشية كل الخشية من حضوره لفظته، وهكذا كان هو أيضاً الحذر الفطن إلى تلکم المكاييد والمصايد، ومع ذلك كله فلم يأل جهداً في اتخاذ الحيطة لأبي موسى الشانيء المناوئ الذي فرضه اليمانية أن يكون حكم أهل العراق، فقد بادره ناصحاً، ومحذراً غدرة عمرو بن العاص حين تقدم أبو موسى ليتكلم بما اتفق عليه.

ولنقرأ الخير في ذلك برواية نصر بن مزاحم من بدايته:

قال نصر: ((عمر بن سعد قال حدثني أبو جناب الكلبي، إن عمراً وأبا موسى حيث التقيا بدومة الجندل، أخذ عمرو يقدم عبد الله بن قيس في الكلام ويقول: إنك قد صحبت رسول الله ﷺ قبلي، وأنت أكبر مني، فتكلم ثم أتكلم،

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد ٢٠٠/١ ط الأولى بمصر.

وكان عمرو قد عودَ أبا موسى أن يقدمه في كلِّ شيء، وإنما اختره بذلك ليقدمه فيبدأ بخلق عليّ.

قال: فنظرا في أمرهما وما اجتماعا عليه. فأراده عمرو على معاوية فأبى، وأراده على ابنه فأبى، وأراده أبو موسى على عبد الله بن عمر فأبى عليه عمرو. قال: فأخبرني ما رأيك يا أبا موسى؟ قال: رأيي أن أطلع هذين الرجلين علياً ومعاوية ثم نجعل هذا الأمر شورى بين المسلمين يختارون لأنفسهم من شاءوا ومن أحبوا.

فقال له عمرو: الرأي ما رأيت... قال: فأقبلا إلى الناس وهم مجتمعون، فتكلم أبو موسى فحمد الله وأثنى عليه فقال: إن رأيي ورأي عمرو قد اتفق على أمر نرجو أن يصلح الله به أمر هذه الأمة.

قال عمرو: صدق، ثم قال: يا أبا موسى فتكلم، فتقدم أبو موسى ليتكلم فدعاه ابن عباس فقال: ويحك إنني لأظنه قد خدعك، إن كنتما قد اتفقتما على أمر فقدّمه قبلك، فيتكلم بذلك الأمر قبلك ثم تكلم أنت بعده، فإن عمراً رجل غدار، ولا آمن أن يكون قد أعطاك الرضا فيما بينك وبينه، فإذا قمت به في الناس خالفك - وكان أبو موسى رجلاً مقللاً - فقال: إيهأ عنك إننا قد اتفقنا.

فتقدم أبو موسى فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أيها الناس، إننا قد نظرنا في أمر هذه الأمة، فلم نر شيئاً هو أصلح لأمرها، وألمّ لشعثها من الأتباين أمورها، وقد اجمع رأيي ورأي صاحبي عمرو على خلق عليّ ومعاوية، وأن نستقبل هذا الأمر فيكون شورى بين المسلمين، فيولكون أمورهم من أحبوا،

وإني قد خلعت علياً ومعاوية فاستقبلوا أمركم وولّوا من رأيتم لها أهلاً. ثم تنحى فقعده.

وقام عمرو بن العاص مقامه، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن هذا قال ما قد سمعتم وخلع صاحبه، وأنا أطلع صاحبه كما خلّعه، وأثبت صاحبي معاوية في الخلافة، فإنه ولي عثمان والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه. فقال أبو موسى: ما لك لا وفقك الله قد غدرت وفجرت، وإنما مثلك مثل الكلب (إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ...) إلى آخر الآية^(١).

قال فقال له عمرو: إنما مثلك مثل (الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا)^(٢) إلى آخر الآية وحمل شريح بن هاتئ على عمرو فقنعه بالسوط وحمل على شريح ابن عمرو بن العاص فضربه بالسوط، وقام الناس فحجزوا بينهم، فكان شريح يقول بعد ذلك: ما ندمت على شيء ندامتي أن لا ضربته بالسيف بدل السوط، والتمس اصحاب عليّ أبا موسى فركب ناقته فلحق بمكة^(٣).

وفي رواية المسعودي: ((فقال له عمرو: بل إياك يلعن الله كلذبت وغدرت إنما مثلك مثل الكلب إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ، ثم ركز - ركل - أبا موسى فألقاه لجنبه، فلما رأى ذلك شريح بن هاتئ قنع عمراً بالسوط، وانخزل أبو موسى فاستوى على راحته ولحق بمكة وهو يقول: لقد حذّرني ابن عباس غدرة الفاسق ولكن اطمأننت إليه، وظننت أنه لن يؤثر شيئاً على نصيحة الأمة^(٤))).

(١) الأعراف / ١٧٦.

(٢) الجمعة / ٥.

(٣) وقعة صفين / ٦٢٥.

(٤) مروج الذهب ٢ / ٤١٠ تح محمد محي الدين عبد الحميد.

فكان ابن عباس - كما في رواية نصر - يقول: «فتح الله أبا موسى، حذرتَه وأمرته بالرأي فما عقل»^(١).

وفي رواية غيره: «فتح الله أبا موسى لقد تبهته فما اتبهه، وحذرتَه ما صار إليه فما انحاش، وهديته إلى الرأي فما عقل. وكثر اللوم والتعريب من الناس لأبي موسى، كما كان الندم من نصيبه حين ولات مندم»^(٢).

وممن روي عنه الشعر في ذلك الموقف المخزي المحزن ما رواه المسعودي من نسبه إلى ابن عباس، ونسبه غيره إلى غيره وذلك قوله:

أبا موسى بليت وأنت شيخ	قريب القعر مخزون اللسان
رمى عمرو صفاتك يا بن قيس	بأمر لا ينسوء به اليدان
وقد كنا نجمجم عن ظنون	فصرحت الظنون عن العيان
فأمسيت العشية ذا اعتذار	ضعيف الركن منكوب الجنان
تعض الكف من ندم وماذا	يرد عليك عضك بالبنان ^(٣)

وذكر المسعودي أيضاً أن أيمن بن خريم بن فاتك الأسدي قال في فعل

الحكمين:

لو كان للقوم رأي يُعصمون به	عند الخطوب رموكم باين عباس
لكن رموكم بوغد من ذوي يمن	لم يدر ما ضرب أحماس لأمداس ^(٤)

(١) وقعة صفين / ٦٢٨ ط مصر سنة ١٣٦٥ تحقيق عبد الملأم محمد هارون.

(٢) الأخبار الطوال للدينوري / ٢٠١.

(٣) مروج الذهب ٤١٠/٢ تح محمد محي الدين عبد الحميد.

(٤) نفس المصدر.

آراء حرّة من دون تعليق:

من الخيرّة المستساغة تعريف القارئ ببعض الآراء الحرّة التي شجبت نتائج التحكيم من خلال إدانة الحكمين، وأصحاب تلك الآراء ليسوا من شيع الإمام عليه السلام حتى تمسّهم التهم، لكنهم أصحاب مشاعر وجدانية تطفئ على العاطفة فتصوّر لنا مدى تأثير تلك المهزلة أو المأساة - كما سماها العقاد - في نفوسهم.

١- قال الدكتور طه حسين: «ولم يكن أبو موسى مغفلاً كما قال المؤرخون، ولو كان مغفلاً لما اختاره عمر لولاية الأمصار، ولما اختاره أهل الكوفة لولاية مصرهم حين ظهرت الفتنة واشتدت أيام عثمان، ولكنه كان رجلاً تقياً ورعاً سمح النفس رضي الخلق، يظن أن المسلمين ولا سيّما الذين صحبوا النبيّ منهم خاصة أرفع مكانة في أنفسهم وفي دينهم من أن يتزلوا إلى الغدر، فأخلف ظنه عمرو، ولا أكثر من ذلك ولا أقل، وهو من أجل ذلك فرّ بدينه إلى مكة فاعتزل فيها مجاوراً نادماً على أنه لم يسمع لابن عباس»^(١).

٢- قال الشيخ عبد الله العلاملي: «ولقد أخطأ من ظن من المستشرقين وسواهم أن الذي أظفر معاوية بهذه الحكومة هو عمرو بهدائه وخفلة أبي موسى، والحقيقة أن الذي أظفر معاوية وأكسبه النجاح هو أبو موسى نفسه الذي لم يكن ما أتاه خفلة وأثوناً، بل سوء نية ومكر حيث اقترح إقالة عليّ وترشيح عبد الله بن عمر فقد يحتمل أن يكون خفلة لو كان يعمل لحساب عليّ كرمّ الله وجهه، ولكن أمّا وهو يسمى لترشيح عبد الله بن عمر باستغلال الظرف فمما لا يحتمل أبداً...»^(٢).

(١) عليّ وينوه / ١١١ ط دار المعارف سنة ١٩٥٣ م.

(٢) سمو الممنى في سمو الذات لعبد الله العلاملي / ٥٦ - ٥٧ ط عيسى البابي الحلبي

وشركاه بمصر سنة ١٣٥٨ هـ.

٣- قال عبد المتعال الصعيدي المدرس بكلية اللغة العربية من كليات الجامع الأزهر: «ولا شك أن هذا التحكيم من الناحية القضائية لا قيمة له، لأن الحكمين لم يتفقا فيه على شيء يلزم المتخاصمين ولكنه كان من الناحية السياسية فوزاً سياسياً لـ (معاوية) وشيعته، فقد أمكنه أن ينجو به من هزيمة محققة، وأن يوقع به خلافاً كبيراً في شعبة (علي) وإن يحمل الحكم الذي اختاره (علي) على خطئه، وهذا انتصار سياسي له قيمته.

وإنني أرى - بعد هذا - أن فشل الحكمين يرجع إلى عدم تعيين أمر التحكيم، لأن خلافة (علي) صارت ثابتة باختيار جمهور المسلمين له، وإنما كان النزاع بينه وبين (معاوية) في دم (عثمان) وكان الواجب أن يقتصر أمر التحكيم على هذه المسألة، والأ يترك مبهماً من غير تعيين، ولو أنه اقتصر على ذلك لأمكن اتفاق الحكمين فيه، لأنه يرجع إلى أمر معلوم حكمه في الشرع، أما مسألة الخلافة فأمرها متشعب كل التشعب، وللسياسة إصبع ظاهرة فيها، وقلما يتفق الناس في أمر تدخل السياسة فيه بإصبعها، على أن الخلافة يرجع أمرها إلى المسلمين كافة، فلا يصح أن يقضى فيها بمثل هذا التحكيم، وإنما يجب أن يترك أمرها للمسلمين، ولكن في غير الحال التي اجتمع فيها الحكماء، لأنه حال الخلافة قائمة باختيار المسلمين، فلا يملكون عزل الخليفة القائم إلا بسبب يوجب العزل.

كما أرى أيضاً أن (أبا موسى) يتحمل تبعه فشل هذا التحكيم أكثر من (عمرو) لأنه ذهب فيه مذهباً لا يمكن تحقيقه، وإن كان له فيه عذر المجتهد الذي يخطئ في اجتهاده، أما (عمرو) فقد رأى أنه لا يمكنه مجاراة (أبي موسى)

في مثل هذا الرأي، ولم يكن أمامه إلا أن يمضي في رأيه في (معاوية) لأنهما لم يصلأ إلى رأي يراه أحسن منه»^(١).

٤- قال عبد الكريم الخطيب في كتابه: «لم يكن ما انتهى إليه الحكمان ليحسم الفتنة التي كانت دعوة أصحاب المصاحف، تشير بكتاب الله ليقضي فيها بحكمه، ويقضي عليها بعدله... بل إن ما انتهى إليه الحكمان كان فتنة إلى فتنة، وبلاء إلى بلاء.

فالحكمان اللذان ارتضاهما المسلمون ليحكما بكتاب الله قد خاننا علياً ومعاوية، فلم يضعأ كل واحد منهما بموضعه! بل إنهما خانأ كتاب الله ولم يقضيا به، حين سويأ بين أول الناس إسلاماً وآخر قريش دخولاً في الإسلام، ثم بين المهاجر والطلق، وبين من لم يضرب بسيفه إلا في سبيل الله، ومن ضرب بسيفه في وجوه المؤمنين بالله. ثم لم يرعيا ما لقراءة رسول الله والصهر إليه، من حق في ترجيح الأكلفاء والنظرأء، بل وأكثر من هذا... فإن الحكمين قد خانأ أنفسهما، فلم يرع أحدهما عهد صاحبه وميثاقه الذي واثقه به... فقال أحدهما قولاً، وقال الآخر قولاً، وكان الخلاف بين القولين في حاجة إلى من يحتكم إليه فيه»^(٢).

٥- وبالتالي لقد كان الحكمان والتحكيم كما قال الاستاذ عباس محمود العقاد في كتابه عبقرية الإمام: «كلب وحمار فيما حكما به على نفسيهما غاضبين، وهما يقضيان على العالم بأسره ليرضى بما قضياه»^(٣).

(١) القضايا الكبرى في الإسلام / ١٧٢ ط الثانية سنة ١٩٦٠.

(٢) علي بن أبي طالب بقية النبوة وخاتم الخلافة / ٥١٣ ط الأولى سنة ١٣٦٨ هـ دار الفكر العربي.

(٣) العبقريات الإسلامية / ٧٤٨ ط دار الكتاب العربي بيروت.

(وانتهت المأساة بهذه المهزلة، أو انتهت المهزلة بهذه المأساة).
 (وبان أن اجتماع الحكمين لم يفض إلى اتفاق بين الحكمين، فعاد الخلاف إلى ما كان عليه... اها) ولنعم ما قال ونحن أيضاً ننهي عرض الآراء الحرة من دون تعليق، وحسبنا منها أن السنة الخلق أقلام الحق، مقولة شائعة ذائعة وهي كلمة سائفة بالغة تصدق أحياناً كثيرة، وقد تنقص قائلها الحيطة في القول فتتخلف عن الصدق حيناً ما، كما أحسب أن القارئ أدرك مغزى مقالة أصحاب الآراء ورأى شيئاً من هذا وضغناً من ذلك، والحقيقة لا تخفى.

ورحم الله هشام بن الحكم فقد سأله بعض المخالفين: إن الحكمين لقبولهما الحكم كانا مردين للإصلاح بين الطائفتين.

فقال هشام: بل كانا غير مردين للإصلاح بين الطائفتين.

فقال المخالف: من أين قلت هذا؟

قال هشام: من قول الله ﷻ في الحكمين حيث يقول: ﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾^(١) فلما اختلفا ولم يكن بينهما اتفاق على أمر واحد ولم يوفق الله بينهما علمنا أنهما لم يريدوا إصلاحاً^(٢).

وصدق رسول الله ﷺ: (يكون في هذه الأمة حكمان ضالان، ضال من

اتبهما...)^(٣).

(١) النساء / ٣٥.

(٢) من لا يحضره الفقيه ٣/ ٣٣٧ ط النجف.

(٣) وقد مر ذكر هذا الحديث في رقم (٥) من تقسيمات آثار خدمة التحكيم السنية.

ماذا بعد التحكيم ؟

قال أبو حنيفة الدينوري: ((وأقبل ابن عباس وشريح بن هانئ ومن كان معهما من أهل العراق إلى عليّ فأخبروه الخبر، فقام سعيد بن قيس الهمداني فقال: والله لو اجتمعنا على الهدى ما زادانا على ما نحن عليه بصيرة. ثمّ تكلم عامة الناس بنحو من هذا))^(١).

قال ابن قتيبة: ((وانصرف القوم إلى عليّ فقال عدي: أما والله يا أمير المؤمنين لقد قدمت القرآن وأخرت الرجال، وجعلت الحكم لله، فقال عليّ: أما إني قد أخبرتكم ان هذا يكون بالأمس، وجهدت أن تبعثوا غير أبي موسى فأيتهم عليّ، ولا سبيل لحرب القوم حتى تنقضي المدة))^(٢).

وفي رواية المسعودي قال: ((ولمّا بلغ عليّاً ما كان من أمر أبي موسى وعمرو قال: إني كنت تقدمت إليكم في هذه الحكومة ونهيتكم عنها، فأيتتم إلّا عصباني، فكيف رأيتم عاقبة أمركم إذ أبيتتم عليّ؟ والله إني لأعرف من حملكم على خلفي والترك لأمري، ولو أشاء أخذه لفعلت، ولكن الله من ورائه - يريد بذلك الأشعث بن قيس والله اعلم - وكنت فيما أمرت به كما قال أخو بني خثعم:

أمرتهم أمري بمنعرج اللوى فلم يستينوا الرشداً لأضحى الغد

من دعا إلى هذه الحكومة فاقطوه قظه الله ولو كان تحت عماتي هذه، إلّا أن هذين الرجلين الخاطئين اللذين اخترتموهما حكّمين قد تركا حكم الله،

(١) الأخيار الطوال / ٢٠٢ مد تراثنا.

(٢) الإمامة والسياسة ١١٦/١ مطب الأمة سنة ١٣٢٨ هـ.

وحكما بهوى أنفسهما بغير حجة ولا حقٍ معروف. فأماتا ما أحيا القرآن، وأحيا ما أماته، واختلفا في حكمهما كلاهما، ولم يرشدهما الله ولم يوفقهما، فبرئ الله منهما ورسوله وصالح المؤمنين، فتأهبوا للجهاد، واستعدوا للمسير، وأصبحوا في عساكرهم إن شاء الله تعالى^(١).

قال ابن قتيبة في الإمامة والسياسة^(٢)، وابن عبد ربه في العقد الفريد^(٣)، وابن شهر آشوب في المناقب^(٤)، ثم قال: ((قم يا حسن فتكلم في أمر هذين الرجلين أبي موسى وعمرو.

فقام الحسن فتكلم فقال: أيها الناس قد أكثرتم في أمر أبي موسى وعمرو، وإنما بُعثا ليحكما بالقرآن دون الهوى فحكما بالهوى دون القرآن على الكتاب فمن كان هكذا لم يسم حكماً ولكنه محكوم عليه، وقد كان من خطأ أبي موسى أن جعلها لعبد الله بن عمر فإخطأ في ثلاث خصال: خالف - يعني أبا موسى - أباه إذ لم يرضه لها ولم يره أهلاً لها، وكان أبوه أعلم به من غيره، ولا أدخله في الشورى إلا على أنه لا شيء له فيها شرطاً مشروطاً من عمر على أهل الشورى فهذه واحدة. وثانية: لم تجمع عليه المهاجرون والأنصار الذين يعتقدون الإمامة ويحكمون على الناس. وثالثة: لم يستأمر الرجل في نفسه ولا علم ما عنده من رد أو قبول. وأما الحكومة فقد حكّم النبي عليه الصلاة والسلام سعد بن معاذ في بني قريظة، فحكّم بما

(١) مروج الذهب ٤١٢/٢.

(٢) الإمامة والسياسة ١١٦/١.

(٣) العقد الفريد ٣٥٠/٤ ط محققة أحمد أمين ورفيقاه.

(٤) المناقب ٣٧٣/٣ ط الحيدرية.

يُرضي الله به ولا شك، ولو خالف لم يرضه رسول الله صَلَّى الله عليه (وآله) وسَلَّمَ ثمَّ جلس.

ثمَّ قال لعبد الله بن عباس قم فتكلّم، فقام عبد الله بن عباس وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

أيها الناس إنَّ للحق أناساً أصابوه بالتوفيق والرضا، والناس بين راضٍ به وراغب عنه، وأنما سار - بعث - عبد الله بن قيس يهدي إلى ضلالة، وسار - بعث - عمرو بضلالة إلى الهدى، فلما التقيا رجع عبد الله بن قيس عن هداه ومشى عمرو على ضلّالته، فوالله لئن كنا حُكِّمًا بالكتاب لقد حَكِّمنا عليه، وإن حُكِّمنا بما اجتمعنا عليه معاً ما اجتمعنا على شيء، وإن كنا حُكِّمنا بما سارا به، فقد سار عبد الله - أبو موسى - وعليّ إمامه، وسار عمرو ومعاوية إمامه، فما بعد هذا من عيب ينتظر ولكن ستموا الحرب وأحَبُّوا البقاء ودفَعوا البلاء، وجاء كلُّ قومٍ صاحبهم، ثمَّ جلس.

فقال عليّ لعبد الله بن جعفر بن أبي طالب: قم فتكلّم، فقام فحمد الله وأثنى عليه وقال: أيها الناس، إن هذا الأمر كان النظر فيه إلى عليّ والرضا فيه لغيره، فنجتم بأبي موسى عبد الله بن قيس مبرنساً فقلتم لا نرضى إلا به. وأيم الله ما استفدنا به علماء، ولا انتظرنا منه غائباً، وما نعرفه صاحباً، وما أفسدا بما فعلا أهل العراق، وما أصلحنا أهل الشام، ولا وضعنا حق عليّ، ولا رفعنا باطل معاوية، ولا يذهب الحق رقية راقٍ، ولا نفخة شيطان، ونحن اليوم على ما كنا عليه أمس. ثمَّ جلس.

أنماط من الحججة مع البرهان ساقها أهل البيت عليهم السلام بألوان من البيان، تبصر المستبصر، وتعرف المخدوع زيف الباطل، وتدمغ الماكرين النهازين، فهم لم يتركوا شبهة إلا دحضوها، ولا بينة إلا أقاموها، ولكن أتى لهم يرتق أمر استوسع فتنه، واستعصى على أولياء الأمور رتقه، وتدارك ما خلفته فتنة التحكيم من أولها وحتى منتهاها. فها هي الكوفة منقسمة على نفسها، تفرقت كلمة أهلها أشتاتاً. فمنهم المحكِّمة الذين ينغضون رؤوسهم كل حين ومنهم المكِّرة الخداعون كالأشعث بن قيس وأضرابه، ممن كانوا يتعاونون مع أولئك من حيث يريدون أو لا يريدون، وبين هؤلاء وأولئك أناس مخلصون امتحن الله قلوبهم بالإيمان فهم يدرأون بالحسنة السيئة بقياً على وحدة الكلمة، وقليل ما هم.

لما انتهت خدعة التحكيم وعاد ابن عباس إلى الإمام مع الوفد العراقي، وحضر بليلة الأفكار التي أحدثتها تلك الفتنة، وبدأت المحكمة تنشط في إعلان الخلاف في الكوفة، وكان لهم في البصرة وغيرها أشباه كانوا معهم في صفين وعادوا إلى بلدانهم، فبدأ التحرك المريب، وأخذ الخلاف يطفو على السطح، وصار المحكِّمة قوة ممعنة في الشقاق، وهذا شر مستطير داخلي يقابله خطر خارجي سوف يدهام المسلمين من قبل معاوية، فأصبح الإمام ومن معه بين عدوين لدودين، أهل الشام من الخارج والخوارج من الداخل، وكلا الفريقين خطر ما فوقه خطر. فكان لابد له من معالجة ذلك بكل ما له من حول وطول. وكان لابد والحال تلك أن يعود ابن عباس إلى مقر عمله، ليحفظ ذلك الثغر من

الفتن الداخلية والخارجية التي بدت تنفض برؤوسهما. فعاد بعد غياب طويل، وبدأ أعماله بحزم يتطلب أخبار الناس عن علمه بأخبارهم، فبث العيون لترصد له تحركات المشبهين.

وثمة مسألة يجب أن نبحثها في المقام:

وهي مسألة لعن الإمام معاوية وأشياعه، وإنما أوجبت بحثها، لأن الإمام إنما فعل ذلك بعد عودة ابن عباس إليه مع الوفد من مؤتمر التحكيم المهين المشين، ولأن ابن عباس مكث في الكوفة برهة سمع الإمام يلعن معاوية وأشياعه في قنوته، ولأنه لما عاد إلى مقر عمله في البصرة قنت هو أيضاً في صلاة الغداة، لذلك رأيت بحث مسألة اللعن لزاماً عليّ لما تقدم ولما سمعت وقرأت أن نابتة الأمويين يستنكرون ذلك بحجة كيف يلعن الإمام عليّ معاوية ومن معه وهم جميعاً من المسلمين ورسول الله ﷺ قال: (سباب المسلم فسوق وقتاله كفر)^(١) وهم في الوقت نفسه ينكرون أن يكون معاوية سب الإمام وأن بني أمية من بعده اتخذوا ذلك سنة في خطبهم على منابر المسلمين. فرأيت الإمام ولو بنحو الإيجاز بهذه المسألة بقدر يتناسب والمقام، ولم يكن ذلك في بحثي عن ابن عباس في هيكله الأول، وإنما استجدت لما بينت من استنكار وإنكار لفعلة معاوية المنكرة الأثمة الجائرة، فدفعت في صدور تلك النابتة الخاسرة، وكمّاً لأفواههم البخرة، وللمسلمين فيه عظة وتبصرة.

فلنقرأ:

(١) صحيح البخاري ١/١٧ و ٧/٨٤ و ٨/٩١، وصحيح مسلم ١/٥٨.

لعن الإمام لمعاوية وأشياعه:

تكاد المصادر الحديثية والتاريخية المعنية، تتفق على أن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لعن معاوية وأشياعه، وصار لعنه حجة في جواز لعن المحاربين، ولا بد لي في المقام من إمامة عابرة جواباً لناهية حائرة.

فأقول: قال نصر بن مزاحم: ((وكان علي عليه السلام إذا صلى الغداة والمغرب وفرغ من الصلاة يقول: اللهم العن معاوية وعمراً وأبا موسى وحبيب بن مسلمة والضحاک ابن قيس والوليد بن عقبة وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد))^(١). فبلغ ذلك معاوية فكان إذا قنت لعن علياً وابن عباس وقيس بن سعد والحسن والحسين.

وفي تواريخ الطبري وابن الأثير وابن كثير وأبي الفداء وغيرهم تفاوت في ذكر الأشخاص الملعونين وأوقات اللعن كماً وكيفاً، حتى ذكرت بعض المصادر: الأشتر ومحمد بن الحنفية، وعبد الله بن جعفر، وشريح بن هانئ فيمن كان معاوية يلعنهم^(٢).

ومهما كان الاختلاف في الكم والكيف فذلك لا يغير من جوهر القضية، فإن الإمام عليه السلام كان يلعن أولئك نفر، ولعل تفاوت صيغ اللعن كان من الرواة، أو أن الإمام عليه السلام نفسه كان يلعن كذلك في آئات مختلفة.

فقد روى ابن أبي شيبة بسنده عن عبد الرحمن بن مغفل قال: ((صليت مع علي عليه السلام صلاة الغداة قال: قنت فقال في قنوته: اللهم عليك بمعاوية وأشياعه، وعمرو بن العاص وأشياعه، وأبا الأعور السلمي وأشياعه، وعبد الله بن قيس وأشياعه))^(٣). وعبد

(١) وقعة صفين / ٦٣٦.

(٢) راجع تذكرة الخواص / ٥٩ ط حجرية وشرح النهج لابن أبي الحديد / ٢٠٠/١.

(٣) المصنف / ١٠٨/٢ ط مكتبة الرشيد في الرياض سنة ١٤٠٩.

الله بن قيس هذا هو أبو موسى الأشعري، ولقد تقدم منا ما يصرّ القارئ بحاله، وأنه كان ممن لعنهم رسول الله ﷺ ليلة العقبة بشهادة حذيفة وعمار فراجع.

وروى لنا ابن أبي الحديد فقال: «وكان عليّ رضي الله عنه يقول: اللهم العن معاوية أولاً وعمرواً ثانياً وأبا الأحرور السلمي ثالثاً وأبا موسى الأشعري رابعاً فهذه صورة أخرى من صيغ اللعن»^(١).

ومهما يكن من أمر فعلينا أن نعرف شرعية هذا الفعل على ضوء الكتاب والسنة، لأن في نابتة العصر من ضايق ذراعاً بذلك، بحجة (شباب المسلم فسوق وقتاله كفر)^(٢) أو بغيرها فهل يجوز لمثل الإمام في علو مقامه وكرم أخلاقه أن يلعن؟ وهذا سؤال لمن جاشت به بعض الصدور ولم تقو على الظهور، فقد كان لهؤلاء أسلاف فيما مضى^(٣) ومنذ عهد الإمام عليّ رضي الله عنه كما ستأتي الإشارة إلى ذلك.

أما الآن فإلى توجيه السؤال الذي فرض نفسه وهو:

سؤال ١: هل للإمام أن يلعن أولئك النفر؟

ويستتبع هذا السؤال أسئلة أخرى هي:

سؤال ٢: ما الحجة في ذلك لو كان له الحق في اللعن؟

سؤال ٣: وما دام له الحق لماذا يلعن قبل ذلك التاريخ - أي قبل عودة الوفد

العراقي من التحكيم بالنتائج المخزية المحزنة لخيانة الحكّامين، وجناية المتآمرين - ؟

سؤال ٤: هل كان لمعاوية حق الرد بالمثل؟

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد ٢٨٨/٢ ط الأولى.

(٢) مر تفريع مصادر.

(٣) لاحظ تاريخ الخلفاء لعبد الوهاب النجار / ٤٥٠ ط السلفية بمصر.

سؤال ٥: هل أن ابن عباس كان بالبصرة يفعل فعل الإمام؟
 ولا بد لنا قبل الإجابة معرفة شرعية لعن أولئك النفر من خلال آيات
 الكتاب وروايات السنّة عن أهل السنّة تجنباً عن التهمة وسوء الظنة.
 فنقول: لقد وردت طائفة من الآيات الكريمة تناولت لعن من حارب الله
 ورسوله، ومن حادّ الله ورسوله، ومن كتم ما أنزل الله من الحق والهدى وبينه
 رسوله، ومن نقض عهد الله من بعد ميثاقه، ومن كذب على الله ورسوله، ومن
 أذى الله ورسوله إلى غير ذلك، وحسبنا الآيات التالية: قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ
 يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ
 يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاحِقُونَ﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ
 بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ
 اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ اقْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا
 وَأُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ
 اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي
 الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾^(٤).

فإن هذه الآيات دلالتها واضحة في انطباقها على معاوية وأشياعه، فهم
 مشمولون باللعن المذكور فيها، والمسلمون في حلّ من لعنهم لأنهم مصاديق
 للموصوفين في الآيات من مستحقي اللعن.

(١) البقرة / ١٥٩.

(٢) الرعد / ٢٥.

(٣) هود / ١٨.

(٤) الأحزاب / ٥٧.

وثمة آية أخرى صريحة باللعن وقد فسرها المفسرون ورووا عن النبي ﷺ شأن نزولها وأنها في بني أمية خاصة، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشُّجْرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُحَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾^(١).

فقد أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل وابن عساكر عن يعلى بن مرة والسيوطي في الدر المنثور: ((أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: رَأَيْتَ بَنِي أُمِيَّةٍ عَلَى مَنَابِرِ الْأَرْضِ، وَيَمْلِكُونَكَ فَتَجِدُونَهُمْ أَرْبَابَ سُوءٍ، وَاهْتَمَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ (وآله) وَسَلَّمَ لذلك، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا... الْآيَةَ﴾^(٢))).

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل وابن عساكر عن سعيد بن المسيب قال: ((رَأَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ (وآله) وَسَلَّمَ بَنِي أُمِيَّةٍ عَلَى الْمَنَابِرِ فَسَاءَ ذَلِكَ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: إِنَّمَا هِيَ دُنْيَا أُعْطَوْهَا، فَفَرَّتْ عَيْنُهُ وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ...﴾ الْآيَةَ^(٣))).

وأخرج ابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت لمروان بن الحكم سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ (وآله) وَسَلَّمَ يقول لأبيك وجدك: إِنَّكُمْ الشُّجْرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ^(٤).

(١) الإسراء / ٦٠.

(٢) الدر المنثور / ٤ / ١٩١.

(٣) نفس المصدر.

(٤) نفس المصدر.

وروى القرطبي في تفسيره^(١)، والنيسابوري في تفسيره بهامش الطبري^(٢) وغيرهما عن ابن عباس: ((إن الشجرة الملعونة هم بنو أمية)).

وللكوسي في تفسيره كلام في تفسير الآية المذكورة في ذم بني أمية وقبايح أعمالهم إلى أن قال: ((وجاء لعنهم في القرآن إما على الخصوص كما زعمته الشيعة، أو على العموم كما نقول، فقد قال سبحانه وتعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾^(٣)، وقال ﷺ ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﷻ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ﴾^(٤) إلى آيات أخرى، ودخولهم في عموم ذلك يكاد يكون دخولاً أولاً...))^(٥) إلى آخر كلامه.

ولا شك أن معاوية من تلك الشجرة الملعونة، فحسبنا بما ذكرنا من الآيات بلاغاً لمن ألقى السمع وهو شهيد.

وأما جواز اللعن من السنة النبوية كما جاء عن أهل السنة:

لعله ﷺ للحكم بن أبي العاص:

فقد روى الحاكم في المستدرک وصححه^(٦)، والبلاذري في الأنساب^(٧)، والواقدي كما في السيرة الحلبية^(٨) بالاسناد عن عمرو بن مرة قال: ((استأذن

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٨٣/١٠.

(٢) جامع البيان ٥٥/١٥، وبهامشه تفسير النيسابوري.

(٣) الأحزاب/٥٧.

(٤) محمد/٢٢.

(٥) روح المعاني ١٠٠/١٥ طه المنيرية.

(٦) مستدرک الحاكم ٤٨١/٤.

(٧) أنساب الأشراف ١٢٦/٥.

(٨) السيرة الحلبية ٣٣٧/١.



الصبح في دبر كل صلاة إذا قال سمع الله لمن حمده من الركعة الأخيرة يدعو على
أحياء من بني سليم، على رعل وعلى ذكوان وعصية ويؤمن من خلفه.
قال حكرمة: وهذا مفتاح القنوت»^(١).

ل عنه عليه السلام أبا الأهور السلمي:

كنت عليه السلام بلعن أولئك ولعن معهم أبا الأهور السلمي كما في حديث سعيد
ابن زيد قال: ((كنت رسول الله صلى الله عليه وآله) وسلم فقال: اللهم العن رعلأ
وذكوان وعصية عصمت الله ورسوله، والعن أبا الأهور السلمي))^(٢).

ل عنه عليه السلام المناقطين:

كنت عليه السلام بلعن أناس من المناقطين قد ساءم لولا تعميم الرواة عليهم
ل عرفناهم.

فقد أخرج البخاري في صحيحه^(٣)، والنسائي في السنن^(٤)، والبيهقي في
سننه الكبرى^(٥) بالإسناد عن الزهري عن سالم عن أبيه - عبد الله بن عمر -: ((أنه

(١) أنظر صحيح ابن خزيمة ٣١٣/١ ط المكتب الإسلامي بيروت مسند أحمد ٣٠١/١ ط
مؤسسة قرطبة بمصر، المنتقى لابن الجارود ٦٠/٢ ط مؤسسة الكتاب الثقافية بيروت،
سنن أبي داود ٦٨/٢ دار الفكر، سنن البيهقي الكبرى ٢٠٠/٢، تحفة المحتاج لابن الملقن
٣٠٨/١ دار حراء بمكة المكرمة، فيل الاوطار للشوكاني ١/٣ دار الجبل بيروت تلخيص
الجبر لابن حجر ٢٤٦/١ مختصر كتاب الوتر للمقرزي مكتبة المنار الزرقاء بالأردن.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ١٠٨/٢ ط مكتبة الرشد الرياض سنة ١٤٠٩ هـ.

(٣) صحيح البخاري ٩٩/٦ باب شذوة أحد باب ليس لك من الأمر شيء... وكتاب الدعوات
٨٣/٨. وكتاب الاحتصام بالكتاب والسنة باب قول الله تعالى ليس لك من الأمر شيء
١٠٦/٩.

(٤) سنن النسائي ٢٣٦/١ ط دار الكتب العلمية بيروت سنة ١٤١١ هـ.

(٥) السنن الكبرى للبيهقي ١٩٨/٢ و٢٠٧ ط دار الفكر.

سمع رسول الله ﷺ حين رفع رأسه في صلاة الصبح من الركعة الأخيرة قال:
اللهم المن فلاتاً وفلاتاً، دعا على ناس من المنافقين).

لعله ﷺ أبا موسى الأشعري وأصحاب العقبة:

لعن ﷺ أصحاب العقبة، ومنهم أبو موسى الأشعري كما مرّ ذلك في
حديث عمار وحذيفة وقد ذكرته في آثار خدعة التحكيم السيئة فراجع.

لعله ﷺ ستة اصناف من الناس:

ومن الموارد لعله ﷺ أناساً بأعيانهم سوى ما ورد عنه بطرق صحيحة من
لحن اصناف تشمل أوصافهم معاوية وأشياعه، روته عائشة بسند صحيح عنها أنه
قال ﷺ: ((ستة لعنتهم ولعنهم الله وكل نبيّ مجاب:

(١) الزائد في كتاب الله .

(٢) والمكذّب بقدر الله.

(٣) والمتسلّط بالجبروت ليعزّ من أدّله الله ويدلّ من أعزّه الله.

(٤) والمستحلّ لحرم الله .

(٥) والمستحلّ من عترتي ما حرّم الله.

(٦) والتارك لستى))^(١).

(١) أخرجه البغوي في المصابيح، والخطيب والتبريزي في مشكاة المصابيح ٢٨/١ برقم/١٠٩
وقال: رواه البيهقي في المدخل وزيين في كتابه وجاء في الهامش من الابناني محقق
الكتاب: أخرجه الترمذي في القدر ٢/٢٢ - ٢٣، والطبراني في المعجم الكبير ١/٢٩١ ق ١،
والحاكم ١/٣٦ وقال: صحيح الإسناد، ولا أعرف له علة ووافقه الذهبي وأعله الترمذي
بالإرسال وقال: إنه أصح. ورواه النبهاني في الفتح الكبير ٢/ ١٥٢ كذلك بلفظ ستة ورواه
أيضاً في ٥٣ بلفظ سبعة فزاد فيهم: والمستأثر بالضيء.

لعنه عليه السلام من تخلف عن جيش أسامة:

أخرج ابن سعد في الطبقات^(١)، وابن عساكر في تاريخه^(٢)، وابن الأثير في تاريخه^(٣)، والمتقي في كنز العمال^(٤) أنه عليه السلام قال: «أنفذوا بعث أسامة أو جهزوا جيش أسامة، وتروا صيغة اللعن». إلا أن الشهرستاني في الملل والنحل^(٥) ذكر لعن من تخلف عن جيش أسامة.

إلى غير ذلك من مواطن لعن فيها عليه السلام أناساً وأصنافاً يعسر حصرها.

وفيما ذكرناه كفاية لإثبات شرعية اللعن لمن يستحق اللعن ومنهم معاوية وأشياعه.

كما عرفنا أن لعن الإمام لمعاوية وبقية الذين لعنهم معه كان له ذلك بحق شرعي، لأنهم أعداء لله ولرسوله ولأمير المؤمنين، وكانوا من الظالمين. وقد ورد عنه عليه السلام لعنهم بصيغ مختلفة، وأحسب إنما ذلك لاختلاف مواردها.

فمنها: أخرج ابن أبي شيبة في المصنف بسنده عن عبد الرحمن بن معقل قال: «صلبت مع عليّ صلاة الغداة، قال: فقتت فقال في قنوته: اللهم عليك بمعاوية وأشياعه، وعمرو بن العاص وأشياعه، وأبا الأعور السلمي وأشياعه، وعبد الله بن قيس وأشياعه»^(٦).

(١) الطبقات ٤١/٢٣٢.

(٢) تاريخ مدينة دمشق ٣٩١/٢.

(٣) الكامل في التاريخ ١٢٩/٢.

(٤) كنز العمال ٣١٢/٥.

(٥) الملل والنحل ١/٢٣ ط الثانية سنة ١٣٩٥ هـ.

(٦) المصنف لابن أبي شيبة ١٠٨/٢ ط مكتبة الرشد الرياض سنة ١٤٠٩ هـ.

وعبد الله بن قيس هذا هو أبو موسى الأشعري. وهؤلاء الأربعة هم أشد الناس عداوة للإمام لذلك لعنهم بأسمائهم.

ومنها: ما قاله ابن أبي الحديد في شرح النهج: «كان عليّ عليه السلام يقول: اللهم العن معاوية أولاً، وعماراً ثانياً، وأبا الأحرور السلمي ثالثاً وأبا موسى الأشعري رابعاً»^(١).

وحيث انتهينا إلى هنا وعرفنا شرعية اللعن من الكتاب والسنة برواية أهل السنة، يحسن بنا تنبيه القارئ إلى أن فعل الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بلعن معاوية وأشياعه كما هو حجة لشيعته، فكذلك احتج به فقهاء أهل السنة كما كانوا يحتجون بفعل النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وإلى القارئ بعض أقوالهم:

- ١- روى أبو حنيفة في مسنده عن حماد بن إبراهيم عن علقمة قال: «ما قنت أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا عليّ حتى حارب أهل الشام فكان يفتن»^(٢).
- ٢- قال ابن قدامة المقدسي - من الحنابلة - : «...إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قنت شهراً يدعو على حي من أحياء العرب ثم تركه»^(٣). وإن علياً قنت وقال: إنما استصبرنا على عدونا»^(٤).

ولئن أخفى ابن قدامة ذكر المدعو عليهم في قنوت عليّ فقد تبع أسلافه في ذلك. فإن الشعبي - الناصبي - قال: «لما قنت عليّ في صلاة الصبح أنكروا ذلك قال فقال: إنما استصبرنا على عدونا»^(٥).

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد ٢٨٨/٣ ط الأولى بمصر.

(٢) الجواهر النقي بهامش سنن البيهقي ٢٠٤/٢.

(٣) قال البيهقي في سننه ٢١٣/٢: وقد روينا عن عبد الرحمن بن مهدي أنه قال إنما ترك اللعن.

(٤) المغني ١/٤٥٠.

(٥) المصنف لابن أبي هيبه ١٠٣/٢ ط مكتبة الرشد الرياض سنة ١٤٠٩ هـ.

٣- وذكر الطحاوي - وهو من الأحناف - بإسناده عن إبراهيم - النخعي - قال: «كان عبد الله - يعني ابن مسعود - لا يقنت في الفجر، وأول من قنت فيها علي، وكانوا يرون إنما فعل ذلك لأنه كان محارباً.
وذكر أيضاً عن إبراهيم قال: إنما كان علي ﷺ يقنت فيها - الصلاة - ههنا بالكوفة - لأنه كان محارباً فكان يدعو على أعدائه في القنوت في الفجر والمغرب».

ثم قال الطحاوي: «ثبت بما ذكرنا أن مذهب علي ﷺ في القنوت هو مذهب عمر ﷺ الذي وصفنا، ولم يكن علي يقصد بذلك إلى الفجر خاصة، لأنه قد كان يفعل ذلك في المغرب فيما ذكر إبراهيم»^(١).

٤- حكى الزيلعي عن إبراهيم النخعي قال: «وأهل الكوفة إنما أخذوا القنوت من علي، قنت يدعو على معاوية حين حاربه، وأهل الشام أخذوا القنوت من معاوية قنت يدعو على علي»^(٢).

فتبين من جميع ما تقدم جواب السؤالين الأول والثاني (هل للإمام أن يلتمس معاوية ومن معه)؟، و(ما الحجة في ذلك)؟.

أما جواب السؤال الثالث (لماذا أقر اللعن حتى عاد ابن عباس ومن معه من مؤتمر التحكيم وأخبره بقدر عمرو بن العاص وأبي موسى الأشعري ونتيجة التحكيم المخزية والمحنة)؟

فأرى - والله أعلم - أن الإمام عليه السلام كان قبل ذلك اليوم يرجو استصلاح أولئك المحاربين بما يرسل اليهم من كتب وعظية ورسول إصلاح لغرض إنابتهم

(١) شرح معاني الآثار ١/٢٥١ ط دار الكتب العلمية سنة ١٣٩٩ بيروت.

(٢) نصب الراية ٢/١٣١.

إلى الحق والطريق المستقيم، وحتى بعد أن شبت الحرب وقامت على ساق، لم يألو جهداً في سبيل ذلك، وتلك سيرته المثلى مع كل محاربه من قبل ومن بعد، ولكن معاوية وأشياعه طبع على قلوبهم فلم تنفع معهم نصائح الإمام ودعوته الإصلاحية، حتى إذا ألجأوه إلى التحكيم، وكانت خيانة الحكّمين اللذين حكما على الكتاب ولم يحكما به، وكانت جنايتهما على الأمة الإسلامية آخر ما تضاد معه أمل الإمام في الاستصلاح، إن لم يكن هي الانقطاع التام، ولم يبق إلا إعلان الدعاء عليهم ليعلم المسلمون ضلالة الحكّمين وضلالة معاوية وأشياعه فدعا عليهم ولعنهم في صلواته، وكان في ذلك مع الحق والحق معه - كما في الحديث النبوي الشريف^(١) لذا صار فعله حجة يحتج بها فقهاء المسلمين من شيعة وغيرهم.

وأما جواب السؤال الرابع (هل كان من حق معاوية أن يردّ بالمثل) لأن الإمام بدأ باللعن؟

فالجواب: ليس له ذلك، لأن بداية الظلم كانت منه حين عتا وتمرد على الإمام فلم يبايعه مع أن بيعته لزمته منذ أوّل خلافته عليه السلام، ولما استمر

(١) أخرج الخطيب في تاريخ بغداد ٣٢٠/١٤، والحاكم في المستدرک ١٢٤/٣ وصححه الذهبي في التلخيص وصدقه بالاسناد عن أبي ثابت مولى أبي ذر قال: دخلت على ام سلمة فرأيتها تبكي وتذكر علياً وقالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (علي مع الحق والحق مع علي) (علي مع القرآن والقرآن مع علي) ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض يوم القيامة، يرواه ابن عساکر في ترجمة الإمام وروى الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٣٥/٧ عن سعد بن أبي وقاص - قال في حديث له مع معاوية - فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: علي مع الحق والحق مع علي. وفي الحديث الثالث من مناقب علي في سنن الترمذي قال رسول الله ﷺ: رحم الله علياً اللهم ادر الحق معه حيث دار، يرواه الحاكم في المستدرک ١٢٤/٣.

في عدوانه بدءاً من ذلك اليوم وحتى ساعة التحكيم، كان هو الظالم في جميع مواقفه، فكيف يحقّ للظالم الدعاء على المظلوم، وقد مرّت بنا رواية عائشة التي فيها لعن رسول الله ﷺ ستة أصناف، فكان منهم معاوية لدخوله في زمرة تلك الأصناف فإن لم يكن مع كلهم فلا شك في دخوله تحت عناوين الخمسة الأخيرة: (المتسلّط بالجبروت ليعزّ من أذله الله ويذل من أعزه الله، والمستحل لحرم الله، والمستحل من عترتي ما حرّم الله، والتارك لستتي، والمستأثر بالفيء).

فبعد هذا هل يحقّ لمن لعنه الله ولعنه رسول الله ﷺ أن يردّ اللعن على نفس رسول الله ﷺ وهو عليّ بنص آية المبالغة وأنفسنا؟!

وبدعة السبّ التي استحدثها معاوية، أثارت مشاعر المسلمين، وازداد عتواً حين خلا له الجوّ، فقد أمر ولاته على الأمصار أن يعلنوا بسب الإمام على منابر المسلمين تحدياً وتمادياً.

وما أكثر الشواهد على ذلك، سيأتي بعضها في صفحات احتجاج ابن عباس على معاوية لعنه الله.

وحسبنا في المقام ما رواه الديلمي في الفردوس^(١)، والهيتمي في مجمع الزوائد^(٢) وقال: «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير أبي عبد الله الجدلي وهو ثقة: قال رسول الله ﷺ: (من سبّ عليّاً فقد سبني ومن سبني فقد سبّ الله، ومن سبّ الله أدخله الله نار جهنم وله عذاب عظيم)».

(١) الفردوس ١٨٩/٤.

(٢) مجمع الزوائد ١٣٠/٩.

وما أخرجه الحاكم في المستدرک، وذكره الذهبي في تلخيصه وأقر تصحيحه عن أبي مليكة قال: «جاء رجل من أهل الشام فسب علياً عند ابن عباس، فحصبه ابن عباس وقال: يا هذو الله آذيت رسول الله ﷺ (إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا)»^(١) لو كان رسول الله ﷺ حياً لأذيت»^(٢).

وأخرج الحاكم أيضاً وصححه الذهبي في تلخيصه وصنّفه، والنسائي في الخصائص، وابن أبي شيبة في المصنف، والهيتمي في مجمع الزوائد وقال: رواه الطبراني في الثلاثة - يعني معاجمه الكبير والأوسط والصغير - وأبو يعلى، ورجال الطبراني رجال الصحيح غير أبي عبد الله الجدلي وهو ثقة. والحديث بلفظ الأول بإسناده عن أبي عبد الله الجدلي: «قال: حججت وأنا غلام فمررت بالمدينة، وإذا الناس عتق واحداً، فاتبعتهم فدخلوا على أم سلمة زوج النبي ﷺ فسمعتها تقول: يا شبت بن رعي، فأجابها - رجل جلف جاف: لبيك يا أمته، قالت: أيسب رسول الله ﷺ في ناديكم؟ قال: وأنى ذلك؟ قالت: فعلي بن أبي طالب؟ قال: إنا لنقول أشياء نريد عرض الدنيا، قالت: فأني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من سب علياً فقد سبني، ومن سبني فقد سب الله تعالى)»^(٣).

ولأحمد بن حنبل - إمام الحنابلة ومنهم النابتة - مقال مع استدلال يقطع جهيزة كل قيل وقال. فقد روى ابن عساکر بإسناده: «أنه سأل رجل أحمد بن حنبل عن قول النبي ﷺ: (عليّ قسم النار) فقال: هذا حديث يضطرب طريقه

(١) الأحزاب / ٥٧.

(٢) مستدرک الحاكم ١٢١/٣ وصححه.

(٣) نفس المصدر ١٢١/٣.

عن الأعمش، ولكن الحديث الذي ليس عليه لبس هو قول النبي ﷺ: (يا علي لا يحبك إلا مؤمن، ولا يبغضك إلا منافق) وقال الله ﷻ: (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ) ^(١) ^(٢).

فمن أبغض علياً فهو في الدرك الأسفل من النار.

فلينظر المسلم المنصف إلى مقال أحمد واستدلاله! فهل ثمة عنده ريب في أن معاوية وأشياحه مشمولون لما قاله أحمد؟
أو ليس إنما سبّه لأنه كان يبغضه؟

أو ليس هو الذي ابتدع تلك السنة السيئة بدعة سب الإمام؟ فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة لقوله ﷺ: (من سنّ سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة. ومن سنّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة) ^(٣).

إذن فليتبوأ مقعده في الدرك الأسفل من النار.

ويعجبني ذكر ما قاله الخياط المتكلم رئيس الفرقة الخياطية من معتزلة بغداد قال: ((ما قطعني إلا غلام قال لي: ما تقول في معاوية؟ قلت: إني أقف فيه.

قال: ما تقول في ابنه يزيد؟ قلت: ألعنه.

قال: فما تقول فيمن يحبه؟ قلت: ألعنه.

قال: أفترى معاوية كان لا يحب ابنه؟ ^(٤)

(١) النساء/ ١٤٥.

(٢) تاريخ مدينة دمشق (ترجمة الإمام) ٢٥٣/١.

(٣) أنظر على سبيل المثال مسند أحمد ٣٥٩/٤، وصحيح مسلم ٨٧/٣.

(٤) ربيع الأبرار للزمخشري ١/ ٦٨٠-٦٨١- حد أوقاف بغداد.

وأحسب أنني ذكرت فيما فيه كفاية في جواب النابتة الغاوية، الذين يرون من حقهم الدفاع عن خالهم معاوية.

وللمطارفة ما أدري وليتني كنت أدري لماذا يرون معاوية خالاً للمؤمنين لمكان اخته أم حبيبة إحدى زوجات النبي ﷺ ولا يرون غيره من اخوان أمهات المؤمنين كذلك؟ فهلا رأوا خوذة محمد بن أبي بكر وراعوا حرمة وحرمة اخته عائشة وهي عند أولئك النابتة أهم زوجات الرسول ﷺ؟ أفهل من رعاية حقها أن يقتلوا أخاها محمد بن أبي بكر أشنع قتلة ثم يدخلوه جوف حمار ميت، ثم يحرقوه؟

أي فظاظة وقسوة؟ أي همجية ووحشية؟ وقد روى المؤرخون كالطبري^(١)، وابن الأثير^(٢)، وابن كثير^(٣)، وابن أبي الحديد^(٤)، والبلاذري^(٥): «إن عائشة لما بلغها قتل محمد بن أبي بكر جزعت عليه جزعاً شديداً، وجعلت تغت وتدعو في دبر الصلاة على معاوية وعمرو بن العاص»، وقال البلاذري: «فلما بلغ ذلك عائشة ﷺ جزعت عليه وقبضت عياله وولده إليها، ولم تأكل شواء حتى توفيت^(٦) ولم تعثر قط إلا قالت: نعت معاوية بن خديج - قاتل محمد -».

(١) جامع البيان ٦٠/٦ ط الحسنية و١٠٥/٥ ذخائر العرب.

(٢) تاريخ ابن الأثير ١٥٥/٣.

(٣) البداية والنهاية ٣١٤/٧.

(٤) شرح النهج لابن أبي الحديد ٣٣/٢.

(٥) أنساب الأشراف ٤٠٣/٢ تح المحمودي.

(٦) ذكر ابن الجوزي في المنتظم ١٥١/٥ بسنده عن يزيد بن أبي حبيب قال بعث معاوية بن خديج بمولى له يقال له سليم إلى المدينة بشيراً بقتل محمد بن أبي بكر ومعه قميص محمد بن أبي بكر ودخل به دار عثمان، فاجتمع إليه آل عثمان من رجال ونساء وأظهروا السرور بمقتله وأمرت أم حبيبة بنت أبي سفيان بكيش يشوى ويعت بدلك إلى عائشة وقالت: هكذا يشوى أخولك فلم تأكل عائشة شواء حتى تحقت بالله ﷻ.

ودع عنك حديث محمد بن أبي بكر وإعراضهم عنه لأنه كان ربيب الإمام، فهلم إلى عبد الله بن عمر، فهذا ممن لم يبايع الإمام، وقد شايع الأمويين وبايعهم، لماذا لم يمنحوه فخرية لقب الخوذة وهو ابن عمر بن الخطاب الخليفة واخته حفصة إحدى أمهات المؤمنين؟^(١)

وأخيراً نودع أولئك الثابتة الذين أغراهم الشيطان فأغواهم، وغلبهم الهوى فأرداهم، بآيات من الذكر الحكيم قال الله سبحانه وتعالى في سورة التوبة: ﴿الْمُ يَغْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾^(٢)، وقال تعالى في سورة المجادلة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كَثَبُوا وَكَبُتُوا كَمَا كَبَتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾^(٣)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذْكَانِ﴾^(٤)، وقال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُغْلِبُونَ﴾^(٥).

وأما جواب السؤال الخامس (هل أن ابن عباس في البصرة كان يفعل كما فعل أمير المؤمنين عليه السلام في الكوفة فيقت بلعن معاوية وأشياعه)؟

(١) التوبة / ٦٣.

(٢) المجادلة / ٥.

(٣) المجادلة / ٢٠.

(٤) المجادلة / ٢٢.

فالجواب: نعم كان يفعل ذلك.

قد أخرج ابن أبي شيبة في المصنف^(١) بالإسناد عن أبي رجاء العطاردي قال: «صلى بنا ابن عباس الفجر بالبصرة فقنت». وقال الترمذي في الجواهر النقي بهامش سنن البيهقي: «وهذا سند صحيح»^(٢).

وعنه أيضاً قال: «رأيت ابن عباس يمدُّ بضعيه في قنوت صلاة الغداة إذا كان بالبصرة».

وعنه أيضاً قال: «صليت مع ابن عباس في مسجد البصرة صلاة الغداة فقنت بنا قبل الركوع».

وأخرج ابن أبي شيبة في مصنفه أيضاً ذلك عن أبي العالية.

وأخرج البيهقي في سننه بسنده عن أبي رجاء قال: «صلى ابن عباس صلاة الصبح في هذا المسجد فقنت وقرأ هذه الآية ﴿وَتَوَمَّؤا لِلَّهِ قَائِتِينَ﴾»^(٣).

وأخرج ابن أبي شيبة في مصنفه بسنده عن خلاس بن عمرو الهجري عن ابن عباس: «أنه صلى فقنت بهم في الفجر بالبصرة فرفع يديه حتى مدَّ بضعيه»^(٤).

فهذه الآثار التي وقفت عليها في ان ابن عباس كان بالبصرة يصلي الغداة فيقنت قبل الركوع ويقرأ قوله تعالى: ﴿وَتَوَمَّؤا لِلَّهِ قَائِتِينَ﴾ وهو يرفع يديه حتى يمدُّ بضعيه.

(١) المصنف ٣١٢/٢ ط باكستان إدارة القرآن.

(٢) السنن الكبرى ٢/٢٠٥، وهامشه الجواهر النقي.

(٣) البقرة/٣٣٨.

(٤) السنن الكبرى ٢/٢٠٥.

(٥) المصنف ابن أبي شيبة ٣١٦/٢ ط باكستان إدارة القرآن.

(٦) البقرة/٣٣٨.

ولسائل أن يسأل أين غاب اللعن الذي كان يقوله الإمام في الكوفة عن ابن عباس بالبصرة؟

ف نقول له: وإن لم نجد ذلك صريحاً فيما تقدم من الآثار، إلا أنني أرى ذلك بدلالة ما تقدم من أن لعن الإمام لمعاوية وأشياعه لأنهم من المحاربين فقت عليهم يدعو باللعن، ولما سئل عن ذلك قال: (استصننا عليهم). فابن عباس أيضاً كان معه يومئذ ولما أتى البصرة فهو لا يزال في حالة حرب مع أولئك، ولما كان يقتل فيرفع يديه حتى يمدّ بضميه فذلك منه مبالغة في التصريح وطلب النصر من الله تعالى، ولو لم يكن كذلك، لما بالغ تلك المبالغة، ولما قرأ على المأمومين قوله تعالى: ﴿وَقَوْمُوا لِلَّهِ قَاتِينَ﴾^(١) أراد - والله أعلم - ليقطع على من لا يرى ذلك ما يدور في هاجسه، لأن في البصرة من العثمانية ممن لا يرضى بالحكم القائم وقد مرّت بنا شواهد على ذلك.

فهو بقراءة الآية الكريمة ضمن ما يتلو من دعاء كأنه يخاطبهم بالصبر على ما يسمعون، ويفهمهم شرعية فعله فلا يسخطون فإن من معاني قوله تعالى: ﴿وَقَوْمُوا لِلَّهِ قَاتِينَ﴾^(٢) طول القيام^(٣)، وكان ذلك مأخوذاً من المعنى اللغوي في أصل القنوت الذي هو الدوام على الشيء، والله أعلم. وفوق كل ذي علم عليم.

عودة ابن عباس إلى البصرة:

عاد ابن عباس إلى البصرة، فوجد أجواءها مكفّهرة بالإشاعات والأكاذيب، ووجد الخوارج تنقّ أصواتهم مع العثمانية في نقد الحكم القائم، فكانت البصرة -

(١) البقرة / ٢٣٨.

(٢) البقرة / ٢٣٨.

(٣) انظر الجامع لاحكام القرآن للقرطبي ٢/٢١٤.

وهي مهبط إبليس على حد تعبير الإمام - تروج فيها المزاعم الباطلة، وتتفق فيها أساليب المكر والخداع من لدن معاوية، حيث وجد في عثمانيتها أنصاراً عرف بعضهم في صفين وتعرف على بعضهم عن طريق عيونه وجواسيسه. فهي - البصرة - أضحت بعد حرب صفين أشد عرضة للخطر الداهم سواء السياسي أو الديني المتطرف من قبل معاوية أو الخوارج، لذلك عظمت مسؤولية ابن عباس، فاتخذ لحزمه وبصيرته في الأمور، التدابير اللازمة من رقابة صارمة وبقظة هادئة، فبث العيون مترصدين تحركات المشبوهين، يعاونه في ذلك المخلصون من شيعة الإمام. فأخبروه بأن الخوارج اجتمعوا في خمسمائة رجل وجعلوا عليهم مسعر بن فدكي التميمي وقد خرجوا فأتبعهم أبا الأسود الدؤلي فلحقهم في ألف فارس، فأدركهم بالجر الأكبر - جسر تستر - فتواقفوا حتى حجز الليل بينهم، وأدلى مسعر بأصحابه وأقبل يعترض الناس، وعلى مقدمته الأشرم بن عوف الشيباني، وسار حتى لحق بعبد الله بن وهب بالنهر^(١).

فعاد أبو الأسود إلى ابن عباس فأخبره.

وليس من شك في أن الإشاعات وجدت سوقاً نازقة عما سوف يفعله الخوارج، ومن الطبيعي أن يكثر التساؤل عما سيتخذه الإمام أزاء خروجهم، فلم يلبث الناس حتى وافى البصرة عتبة بن الأحنس بن قيس من بني سعد بن بكر رسولاً يحمل كتاب الإمام إلى ابن عباس، وفيه: (أما بعد فإننا قد عسكرنا بالبخيلة. وقد أزمعنا على السير إلى عدونا من أهل الشام. فاشخص إلي فيمن قبلك حين يأتيك رسولي والسلام).

(١) انظر جامع البيان للطبري ٧٦/٥ - ٧٧ ط المصنف والأخبار الطوال / ٢٠٥ ط تراثنا بمصر.

وقبل الإسترسال في الحديث عن موقف ابن عباس أزاء الكتاب، لابد من وقفة تحقيق مع رواية الكتاب، فتمه تحريف في بعض المصادر ربما كان متعمداً لما يترتب عليه من نتائج سلبية بالنسبة إلى ابن عباس.

فأقول: إن النص الذي ذكرته آنفاً رواه أبو حنيفة الدينوري^(١) بيد أن الطبري ذكره في تاريخه بلفظ آخر وهو: «أما بعد فإننا قد خرجنا إلى معسكرنا بالنخيلة، وقد أجمعنا على المسير إلى عدونا من أهل المغرب، فاشخص بالناس حتى يأتيك رسولي، وأقم حتى يأتيك أمري والسلام»^(٢).

وهذا قريب مما ذكره ابن قتيبة في الإمامة والسياسة ففيها: «أما بعد فانا أجمعنا على المسير إلى عدونا من أهل الشام فأشخص إلي من قبلك من الناس وأقم حتى آتيك والسلام»^(٣)، وقد نقله أحمد زكي صفوت في جمهرة رسائل العرب^(٤) نقلاً عن الطبري والإمامة والسياسة من دون ذكر التفاوت.

وما ذكرناه عن أبي حنيفة الدينوري أصح مما ذكره الآخران، لأن الأحداث التي جرت بعد هذا الكتاب تدل على صحته، فمنها حضوره مع عدد معين في النخيلة، ثم حضوره مع الإمام بالنهروان، وذكر وروده المدائن، واحتجاجه على الخوارج قبل الحرب، كل ذلك يؤكد صحة ما رواه الدينوري في الأخبار الطوال (فاشخص إلي فيمن قبلك حين يأتيك رسولي).

(١) الأخبار الطوال / ٢٠٦.

(٢) تاريخ الطبري ٧٨/٥.

(٣) الإمامة والسياسة ١٢١/١.

(٤) رسائل العرب رقم / ٤٦٨.

وأما ما رواه الطبري وابن قتيبة فإنه لا يمكن المساعدة عليه، لأن قول الإمام عليه السلام في آخر كتابه: (وأقم حتى يأتيك أمري والسلام) أو (وأقم حتى آتبك) يمنع ابن عباس من التحرك من البصرة حتى يأتيه أمره. ولم يذكر المؤرخون بما فيهم الطبري نفسه أن الإمام أمره بعد ذلك بالتوجه إليه. وليس ثمة غير الكتاب المذكور، وهذا لا يتفق بلفظه (وأقم) مع تأكيد حضوره عند الإمام ومعه بدءاً من معسكر النخيلة ومروراً بالمداين وانتهاءً مع الخوارج بالنهروان وأخيراً حضوره بالكوفة عند مقتل الإمام عليه السلام.

والآن إلى موقف ابن عباس من ذلك الكتاب، وموقف الناس منه وبالتالي موقف ابن عباس من الناس. فلنقرأ بعض نصوص المؤرخين:

قال ابن قتيبة في الإمامة والسياسة والطبري في تاريخه واللفظ بينهما: ((فلما قدم كتاب عليّ على ابن عباس فقرأه على الناس، ثم أمرهم بالشخص مع الأحنف بن قيس، فشخص معه ألف وخمسمائة رجل، فاستقلهم ابن عباس، فقام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا أهل البصرة قد جاءني كتاب أمير المؤمنين يأمرني بإشخاصكم فأمرتكم بالمسير إليه مع الأحنف بن قيس، فلم يشخص إليه منكم إلا ألف وخمسمائة، وأنتم في الديوان ستون ألفاً سوى أبنائكم وعبدانكم ومواليكم، ألا فانفروا مع جارية بن قدامة السعدي ولا يجعلنّ امرؤ على نفسه سيلاً، فإنني موقع بكل من وجدته تخلف عن دعوته (مكتبته) عاصياً لإمامه، حزناً يعقب ندماً، وقد أمرت أبا الأسود بحشدكم فلا يلم امرؤ جعل السيل على نفسه إلا نفسه.

قال: فحشد أبو الأسود الناس بالبصرة فاجتمع إليه ألف وسبعمائة، فأقبل هو والأحنف بن قيس حتى وافيا علياً بالنخيلة، فلما رأى عليّ أنّه إنّما قدم عليه من أهل البصرة ثلاثة آلاف ومائتا رجل جمع إليه رؤساء الناس وأمراء الأجناد ووجوه القبائل، فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال:

يا أهل الكوفة أنتم إخواني وأنصاري وأعواني على الحقّ، ومجيبي إلى جهاد المحلّين، بكم أضرب المدبر، وأرجو إتمام طاعة المقبل، وقد بعثت إلى أهل البصرة فاستنفرتهم فلم يأتني منهم غير ثلاثة آلاف ومائتين، فأعينوني بمناصحة سمحة خلية من الغشّ، وإني أمرمك أن يكتب إليّ رئيس كلّ قوم منكم ما في عشيرته من المقاتلة وأبنائهم الذين أدركوا القتال، والعبدان والموالي، وارفعوا ذلك إليّ ننظر فيه إن شاء الله...ها»^(١).

وهذا النص مرّ وليس فيه ذكر لشخص ابن عباس من البصرة مع الجيش. غير أن الدينوري قال في الأخبار الطوال: «فقدم عليه عبد الله بن عباس في فرسان البصرة وكانوا زهاء سبعة آلاف رجل»^(٢).

وإذا أضفنا هذا الرقم إلى ما تقدم برواية ابن قتيبة والطبري كانوا جميعاً عشرة آلاف، وهذا ما ذكره المسعودي في مروج الذهب قال: «وأتاه من البصرة مع ابن عباس - وكان عامله عليها - عشرة آلاف فيهم الأحنف بن قيس وجارية ابن قدامة السعدي وذلك سنة ثمان وثلاثين»^(٣).

(١) الإمامة والسياسة ١٢١/١، تاريخ الطبري ٧٨/٥.

(٢) الأخبار الطوال ٢٠٦/ ط تراثنا بمصر.

وفي مصباح الأنوار لمحمد بن هاشم ٢ باب ٣٢ مخطوط ذكر أنهم تسعة آلاف واحتمال التصحيف وارد.

(٣) مروج الذهب ٣٦/٢ ط العامرة البهية سنة ١٣٤٦هـ.

وهنا لا يفوتني التنبيه إلى تفاوت في هذا النص وقع في مروج الذهب فقد ورد: «وأناه من البصرة (من قبل) ابن عباس... بدل: وأناه من البصرة (مع ابن عباس)»^(١) كما مرّ في ط العامرة البهية. وهذا التفاوت يغيّر كثيراً في مجريات الأمور بالنسبة إلى ابن عباس، ولا أعلم هل أنّ ما في طبعة تحقيق عبد الحميد كان من المزيد والتنقيح الذي امتازت به طبعته؟ بعد ثلاثين سنة من تاريخ الطبعة الأولى، ولا يحضرني فعلاً طبعات آخر للمقارنة، إلا أنّ الذي سبق لي ذكره من إمارات وجود ابن عباس مع الإمام في تلك الحرب تؤيد نص طبعة العامرة البهية (وأناه من البصرة مع ابن عباس).

ومع جميع تلك الإمارات فلم يأخذ بها بعض الباحثين المحدثين ومنهم طه حسين فقد قال في كتابه عليّ وبنوه: «وكتب عليّ إلى أهل البصرة فجاء منهم جند صالح، ولم يشخص ابن عباس هذه المرة، وإنما اكتفى بتسريح الجند إلى عليّ»^(٢) وكأنّه يحاول ترتيب مقدمات الإدانة لحديث الخيانة والله العالم.

إلى النهروان:

ذكر غير واحد من مترجمي حبر الأمة عبد الله بن عباس ﷺ حضوره مع الإمام في حربه الخوارج بالنهروان، فمنهم ابن عبد البر في الاستيعاب^(٣)، والديار بكري في تاريخ الخميس^(٤)، والمسعودي في مروج الذهب كما مرّ.

-
- (١) مروج الذهب طبعة مصرية بتحقيق محمد محي الدين عبد الحميد الطبعة الثالثة سنة ١٣٧٧ هـ. مكتوب عليها (مزيدة ومنقحة).
- (٢) عليّ وبنوه / ١١٢ ط المعارف.
- (٣) الاستيعاب ٢/ ٣٥٢.
- (٤) تاريخ الخميس ١/ ١٨٩.

والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ذكره فيمن ورد المدائن مع الإمام عليه السلام (١). كما ذكر ابن شهر آشوب في المناقب (٢) بعث الإمام ابن عباس إلى الخوارج في النهروان فقال له: (يا ابن عباس امض إلى هؤلاء القوم فانظر ما هم عليه ولماذا اجتمعوا؟ الخ ثم ذكر محاججته إياهم بعين ما مرّ منا ذكره في معاورة ابن عباس مع المحكمة في حروراء نقلاً عن ابن أحنم).

وقال ابن حجر في فتح الباري: ((ومقتضى ما ذكره أهل العلم بالأخبار كالمدايني ان ابن عباس كان استنفر أهل البصرة بأمر عليّ ليعاودوا محاربة معاوية بعد الفراغ من أمر التحكيم ثم وقع أمر الخوارج فسار ابن عباس إلى عليّ فشهد معه النهروان...)) (٣).

وقال المدني في الدرجات الرفيعة: ((وعن عبد الله بن عوف بن الأحمر أن علياً عليه السلام لم يبرح النخيلة حتى قدم عليه ابن عباس من البصرة)) (٤).

وقال سبط ابن الجوزي: ((وكانت الخوارج بالنهروان، فقال له ابن عباس: قد تجدّد أمر فاكتب إليهم قبل لقائك إياهم، فكتب إليهم يخبرهم بأمر الحكيمين فاقبلوا إلينا لنجاهد القوم فإنا على الأمر الأول.

فكتبوا إليه: إنك لم تغضب لله تعالى وإنما غضبت لنفسك، فإن شهدت على نفسك بالكفر وتبت نظرنا فيما بيننا وبينك، وإلا نأبدناك على سواء إن الله لا يحب الخائنين.

(١) تاريخ بغداد ١/ ١٧٤.

(٢) مناقب ابن شهر آشوب ٢/ ٣٦٩ ط الحيدرية.

(٣) فتح الباري ١٣/ ٢٨ حر محمد هؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب ط بيروت.

(٤) الدرجات الرفيعة / ١١٠.

فلما قرأ كتابهم يش منهم»^(١).

إذن تبين لنا عدم الشك في حضور الحر بن عباس مع جند أهل البصرة عند الإمام في النخيلة، وهو عليه السلام لم يرح حتى تكامل جيشه، ولما عزم على المسير إلى أهل الشام، بلغه مقالة الناس: «أن لو سار بنا إلى هذه الحرورية فبدأنا بهم، فإذا فرغنا منهم وجهنا من وجهنا ذلك إلى المحطين»، فقام في الناس خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: (أما بعد فإنه قد بلغني قولكم لو أن أمير المؤمنين سار بنا إلى هذه الخارجة التي خرجت عليه فبدأنا بهم، فإذا فرغنا منهم وجهنا من وجهنا ذلك إلى المحطين، وإن غير هذه الخارجة أهم إلينا منهم، فدعوا ذكرهم وسيروا إلى قوم يقاتلونكم كما يكونوا جبارين ملوكاً، ويتخذوا عباد الله خولاً).

فتنادى الناس من كل جانب سر بنا يا أمير المؤمنين حيث أحببت.

فلما هم بالمسير بلغه ما صنع الخوارج بعبد الله بن خباب وقتلهم امرأته وهي حامل متم فشقوا بطنها.

قام إليه ناس فقالوا: يا أمير المؤمنين حلام ندع هؤلاء وراءنا يخلفوننا في أموالنا وعيالنا، سر بنا إلى القوم، فإذا فرغنا فيما بيننا وبينهم سرنا إلى عدونا من أهل الشام.

فارتضى ذلك الرأي وأمر الناس بالرحيل، ثم سار والناس معه حتى أتى النهروان، وسار بأصحابه حتى نزل على فرسخين من النهروان ثم راسلهم وكاتبهم فلم يرتدعوا^(٢).

(١) التذكرة / ١١٠ ط حجرية.

(٢) مطالب السؤل لابن طلحة الشافعي / ٤٥ ط حجرية.

ويعث إلى الخوارج يطلب قطة ابن خباب ومن معه، فبعثوا إليه كلنا قتلهم، وكلنا نستحل دماءهم ودماءكم وقد أرسل تلك المرة قنبر غلامه فعاد بجوابهم فأرسل ابن عباس إليهم.

قال حميد الدين في الحدائق الوردية: ((قال: يا بن عباس انهض إلى القوم فادعهم بمثل الذي دعاهم به قنبر، فإنني أرجو أن يجيبوك، فقال ابن عباس: يا أمير المؤمنين ألقى عليّ حلتي أو ألبس عليّ سلاحي فإنني أخافهم على نفسي؟

قال: بلى فانهض إليهم في حلّتك:

فمن أيّ يوميك تفرّ أيّوم لم يقدر أم يوم قدر^(١)

((فنهض إليهم ابن عباس وقد لبس أحسن ثيابه، وتعلّب أفضل طيبه، وركب أحسن مراكبه. فلما رأوه ضجّوا في وجهه يا بن عباس أنت أفضل الناس بينا تأتينا في لباس الجبايرة ومراكبهم))^(٢).

وفي رواية ابن أحنم: ((أن الإمام عليه السلام قال له: تقدم فما أنا ذا من ورائك.

قال فتقدم عبد الله بن عباس حتى واجه القوم ثم قال: أيها الناس ما الذي

نقمتم على أمير المؤمنين عليه السلام؟

فقالوا له: يا بن عباس الذي نقمناه عليك في وقتنا هذا أشد ممّا نقمناه

على عليّ، وذلك أنك قد جئتنا في حلة يمانية، ونحن نريد حربك وحرب ابن

عمك.

(١) الحدائق الوردية ٨٣/١ ط صنعاء.

(٢) من زيادات مخطوطة مكتبة الشيخ كاشف الغطاء قدس سره ولم يوجد في المطبوعة بصنعاء.

فقال ابن عباس: أما هذه الحطة فقد رأيت خيراً منها على من هو خير مني وهو أبو القاسم محمد صلى الله عليه (وآله) وسلم، وأما الحرب فقد دنت منا ومنكم ولا شك في ذلك، فهاتوا ما الذي نقتم على عليؑ؟
قالوا: نعمنا عليه أشياء، لو كان حاضراً لكفّرنا بهن، وعليّ وراءه يسمع ذلك.
فالتفت ابن عباس إلى عليّ فقال: يا أمير المؤمنين إنك قد سمعت الكلام فأنت أحق بالجواب^(١).

وروى السبط عن ابن عباس قال: «لما خرجنا إلى قتال الخوارج سمع عليّؑ رجلاً منهم يتهجّد بالقرآن فقال: نومٌ على يقين خير من صلاة في شك^(٢) - ما أبلغها من كلمة تصلح أن تكون ميزاناً توزن به أعمال الرجال - .
قال ابن أعثم في تاريخه^(٣)، وابن طلحة الشافعي واللفظ له: «فتقدم عليّ حتى واجه القوم وقال: أيها الناس أنا عليّ بن أبي طالب فتكلموا بما نعمتم به عليّ؟ فقالوا: نعمنا عليك أولاً قاتلنا بين يديك بالبصرة، فلما أظفرك الله بهم أبحتنا ما كان في عسكرهم ومنعتنا النساء والذرية، فكيف تستحل ما كان في العسكر ولا تستحل النساء والذرية؟»

فقال لهم عليّؑ يا هؤلاء إن أهل البصرة قاتلونا وبدأونا بالقتال، فلما ظفرتهم أقتسمتم سلب من قاتلكم، ومنعتكم من النساء والذرية، فإن النساء لم يقاتلن، والذرية ولدوا على الفطرة ولم ينكثوا ولا ذنب لهم، وقد رأيت رسول الله ﷺ

(١) تاريخ ابن أعثم ١٢١/٤ .

(٢) تذكرة الخواص / ٦١ .

(٣) تاريخ ابن أعثم ١٣٣/٤ - ١٢٥ .

من على المشركين فلا تعجبوا أن منتت على المسلمين، فلم أسب نساءهم ولا ذريتهم.

وقالوا: نعمنا عليك يوم صفين وقت الكتاب أنك قلت لكاتبك اكتب هذا ما تقاضى عليه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، فأبى معاوية أن يقبل منك أنك أمير المؤمنين، وقلت للكاتب هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، فإن لم تكن أمير المؤمنين، فنحن المؤمنون فلست أميرنا.

فقال: يا هؤلاء أنا كنت كاتب رسول الله ﷺ يوم الحديبية، فقال لي النبي ﷺ اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله وسهيل بن عمرو، فقال سهيل: لو علمنا أنك رسول الله لما صددناك ولا قاتلناك. فأمرني رسول الله ﷺ فمحوت اسمه من الكتاب وكتب هذا ما اصطلع عليه محمد بن عبد الله. وأما محوت اسمي من إمرة المؤمنين كما محاه رسول الله اسمه من الرسالة، وكانت لي به أسوة.

قالوا: فإننا نعمنا عليك أنك قلت للحكمين: انظروا في كتاب الله فإن كنت أفضل من معاوية فأثبتاني في الخلافة، وإن كان معاوية أفضل مني فأثبتاه في الخلافة، فإن كنت شاكاً في نفسك أن معاوية أفضل منك فنحن فيك أعظم شكاً. فقال لهم علي: إنما أردت بذلك النصفة لمعاوية، فإنني لو قلت للحكمين أحكما لي وذرا معاوية كان لا يرضى بذلك. والنبي ﷺ لو قال لنصارى نجران لما قدموا عليه فقالوا نبتهل واجعل لعنة الله عليكم كانوا لا يرضون بذلك، ولكنه أنصفهم من نفسه، فقال كما أمره الله تعالى به ﴿تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ

وَسَاءَ مَا وَسَاءَ كُفْرًا وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ تَبْتِهَلُونَ فَتَجْعَلُونَ لِقَوْلِ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ^(١)
فأنصفهم من نفسه فكذلك أنصفت من نفسي ولم أعلم بما أراد عمرو بن العاص
من خديعة أبي موسى.

قالوا: فإننا نعمنا عليك أنك حكمت حكماً في حق هؤلاء.

فقال: إن رسول الله ﷺ حكّم سعد بن معاذ في بني قريظة، ولو شاء لم
يفعل، فحكّم فيهم سعد بما علمتم، وإنما أقيمت حكماً كما أقام رسول الله ﷺ.
فهل عندكم شيء غير هذا تحتجون به علي؟ فسكت القوم، ثم صاح جماعة
منهم من كل ناحية: التوبة التوبة يا أمير المؤمنين، واستأمن منهم ثمانية آلاف
وبقي على حربه أربعة آلاف، فأقبل على هؤلاء الذين استأمنوا إليه وقال: اعترلوا
في وقتكم هذا عني وذروني والقوم، فاعترل أولئك عنه... اهـ^(٢).

وذكر الطبري في تاريخه من حديث أبي مخنف قال: ((ورفع عليّ راية
أمان مع أبي أيوب الأنصاري فتأدهم أبو أيوب: من جاء هذه الراية منكم ممن
لم يقتل ولم يستعرض فهو آمن، ومن انصرف منكم إلى الكوفة أو إلى المدائن
وخرج من هذه الجماعة فهو آمن، إنه لا حاجة لنا بعد أن نصيب قتلنا أخواننا
منكم في سفك دمائكم.

فقال فروة بن نوفل الأشجعي: والله ما أدري على أي شيء نقاتل عليّاً، لا
أرى إلا أن انصرف حتى تنفذ لي بصيرتي في قتاله أو أتباعه، وانصرف في
خمسمائة فارس حتى نزل البندنجين والدسكرة.

(١) آل عمران / ٦١.

(٢) مطالب السؤول / ٤٥، ط حجرية سنة ١٢٨٧هـ.

وخرجت طائفة أخرى متفرقين فتزلت الكوفة. وخرج إلى عليّ منهم نحو من مائة. وكانوا أربعة آلاف، فكان الذين بقوا مع عبد الله بن وهب منهم الفين وثمانمائة، وزحفوا إلى عليّ... ونهض إليهم الرجال بالرماح والسيوف فوالله ما لبثوهم أن أناموهم»^(١).

وفي لفظ آخر عند الدينوري: «وقتلت الخوارج كلها ربيعة واحدة»^(٢). وقال ابن خلدون في تاريخه: «فهلكوا كلهم في ساعة واحدة كأنما قيل لهم موتوا»^(٣).

وقال المبرّد في الكامل: «وقد قال لهم - يعني الإمام - أنه والله ما يقتل منكم عشرة ولا يفلت منهم عشرة، فقتل من أصحابه تسعة وأفلت منهم ثمانية»^(٤). قال أبو مخنف في حديثه عن عبد الرحمن بن جندب بن عبد الله: «أنه لم يقتل من أصحاب عليّ إلا سبعة»^(٥).

وقال في حديثه الآخر قال: «كان عليّ لما فرغ من أهل النهروان حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن الله قد أحسن بكم، وأعز نصركم، فتوجهوا من فوركم هذا إلى عدوكم معاوية وأشياعه القاسطين الذين نبدوا كتاب الله وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون.

(١) تاريخ الطبري ٨٦/٥.

(٢) الأخيار المطوال / ٢١٠.

(٣) تاريخ ابن خلدون ١١٢٣/٢ ط دار الكتاب اللبناني سنة ١٩٥٦.

(٤) الكامل ١٨٧/٣ مطبعة نهضة مصر.

(٥) تاريخ الطبري ٨٩/٥.

فقالوا: يا أمير المؤمنين نفذت نبائنا، وكلت أذرعنا، وتقطعت سيوفنا، ونصلت أسنة رماحنا، فارجع بنا إلى مصرنا فلنستعد بأحسن عدتنا، ولعل أمير المؤمنين يزيد في عدتنا عدة من هلك منا فإنه أقوى فإنه أوفى (أقوى) على عدونا^(١).

قال الطبري وغيره: «وكان الذي تولى هذا الكلام هو الأشعث بن قيس»^(٢). قال البلاذري: «وكان الأشعث طينياً وسماه عليّ عرف النار»^(٣). فأقبل الإمام راجعاً حتى نزل النخيلة، فأمر الناس أن يلزموا عسكريهم، ويوطنوا على الجهاد أنفسهم، وأن يقلوا زيارة نساءهم وأبنائهم حتى يسيروا إلى عدوهم، فأقاموا أياماً، ثم تسللوا من معسكرهم، فدخلوا إلى رجالاً من وجوه الناس قليلاً، وترك المعسكر خالياً، فلما رأى ذلك دخل الكوفة، وأنكر عليه رأيه في المسير.

قال الطبري: «وكان غير أبي مخنف يقول: كانت الواقعة بين عليّ وأهل النهر سنة ثمان وثلاثين، وهذا القول عليه أكثر أهل السير»^(٤). بينما رأى اليعقوبي^(٥)، وابن تغري بردي^(٦) أنها سنة ٣٩ هـ وصحح ذلك.

(١) تاريخ الطبري ٨٩/٥.

(٢) المصدر السابق.

(٣) انساب الأشراف ٣٧٩/٢، وأحسب تصحيحاً وقع في قوله (طينياً) وفسره في الهامش أي رفع الصوت فسمع الناس قوله هذا فركنوا إليه. ولعل الصواب (ظنيناً) أي متهماً في دينه. وهذا ما يتناسب مع وصف الإمام له بأنه عرف النار.

(٤) تاريخ الطبري ٩١/٥.

(٥) تاريخ اليعقوبي ١٦٩/٢٥.

(٦) النجوم الزاهرة ١١٧/١.

وعندي أن بداية المسير كان في آخر سنة ثمان وثلاثين، ولما كانت الواقعة في اليوم التاسع من صفر كما في أنساب الأشراف^(١) فلا بد أن تكون سنة تسع وثلاثين. فقد قال اليعقوبي: ((وكانت وقعة النهروان سنة تسع وثلاثين))^(٢)، وقال ابن تغري بردي: ((فيها - سنة تسع وثلاثين - أيضاً كانت وقعة الخوارج مع علي بن أبي طالب بحروراء، وبالنخيلة قاتلهم علي فكسرهم وقتل رؤوسهم، وسجد شكراً لما أتى بمخدج اليد مقتولاً... وكان رأسهم عبد الله بن وهب الراسبي، وقد تقدم ذكرها في السنة الماضية، والأصح أنها في هذه السنة))^(٣).

ومهما يكن الاختلاف في تعيين السنة، فلا خلاف في أن الإمام قاتل أهل النهروان فقتلهم وهم المارقون الذين حذر منهم النبي ﷺ، فإنهم شر الخليفة وأخبر عنهم: (يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يقتلهم خير الخلق والخليفة). وهو أمير المؤمنين.

وله عليه السلام كلام قاله بعد تلك الواقعة رواه البرقي المتوفى سنة (٢٧٤هـ) أو (٢٨٠هـ) في كتابه: ((قال: (والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لقد شهدنا في هذا الموقف أناس لم يخلق الله آباءهم ولا أجدادهم بعد)، فقال الرجل: وكيف شهدنا قوم لم يُخلقوا؟ قال عليه السلام (هلي، قوم يكونون في آخر الزمان يشركوننا فيما نحن فيه، وسلمون لنا، فأولئك شركاؤنا فيما كنا فيه حقاً))^(٤).

اللهم فاشهد إنا على ذلك وأنت خير الشاهدين.

(١) أنساب الأشراف للبلاذري ٣١٢/٢ و ٣٧٥.

(٢) تاريخ اليعقوبي ١٦٩/٢٥.

(٣) النجوم الزاهرة ١١٨/١ ط دار الكتب المصرية.

(٤) المحاسن ٢٦٢/٣٢٢ رقم ٣٢٢ تحه السيد جلال الدين الحسيني ط ايران.

محض هراء، وافتراء، من دون حياء^(١):

لقد اتفقت المصادر الحديثية والتاريخية وحتى كتب المقالات والفرق، القديمة والحديثة، على أنّ ابن عباس حاور الخوارج سواء في حروراء أو في الكوفة، أو في النهروان، واتفقت على غلبته عليهم بالحجة في موقفه معهم في حروراء والكوفة حتى استجاب لنصحه أعداد مر ذكرها عند ذكر المحاورتين مفصلة.

أما عن محاورته الثالثة في النهروان، فقد كان رسولا إليهم بين يدي الإمام، ولما بلغهم الرسالة وسألهم عما يريدون وطلبوا أن يكون الإمام هو الذي يتولى جوابهم تقدم الإمام وحاججهم حتى خصمهم، فأتاب منهم من أناب، واعتزل من اعتزل، وأخيراً دخل بعضهم تحت راية الأمان، وبقي الآخرون الذين حصدتهم السيوف حتى كأنهم قيل لهم موتوا فماتوا، ولم يرد في شيء من تلك المصادر عن ابن عباس انقطاع حجة أو عجز عن بيان محجة، فضلاً عن غلبة الخوارج عليه.

غير أنّ من العجيب الغريب أن أجد كاتباً من الأباضية وأحسبه من المعاصرين كما ورد بخطه في أول الكتاب تاريخ سنة ١٣٩٤هـ يذكر هذا الكاتب - واسمه سالم بن حمد بن سليمان بن حميد الحارثي العاني الأباضي في كتابه (العقود الفضية في أصول الأباضية)^(٢) - صورة محاوره جرت بين ابن عباس وبين الخوارج على خلاف جميع ما مرّ في تلك المصادر القديمة

(١) ممّا استجدّ بحثه وإحاطه بالكتاب.

(٢) العقود الفضية في أصول الأباضية ط دار البقعة العربية في سوريا ولبنان.

والحديثه، ولم يكتب بانقطاع حجة ابن عباس مخصوصاً، بل تعدى إلى جملة في صنفهم خصماً خصوماً، وبالتالي مفارقاً للإمام حاقاً ظلوماً.

ولم أكن أتوقع أن أقرأ يوماً عند كاتب من البهتان ما يصادم الوجدان بلا أي برهان، لأن الناس في هذا الزمان قد تخطوا في ثقافتهم حواجز الزمان والمكان، ولم تعد تنطلي عليهم أساليب الغش والخداع، ولا هذا لمن يحكي قولاً أو رأياً أو يزعم زعماً، أن يذكر مصدره، ليصدق نقله، وليبرأ من عهده. ثم يترك الأمر إلى قناعة القارئ تصديقاً أو تكذيباً.

أما أن يذكر شيئاً على خلاف ما هو ثابت تاريخياً ثم يحكيه مرسلًا عن كتاب هيان بن بيان عن كتاب شختي بن بختي فذلك أمرٌ مرفوض جملة وتفصيلاً، ولم أكن يوماً شاكاً في صحة ما ورد عن بعض الخوارج وأنهم كانوا إذا هوروا أمراً صبروه حديثاً، كما روى ذلك الخطيب البغدادي في كتابه^(١)، وكذلك روى القرطبي في تفسيره عن شيخ من شيوخ الخوارج بعد أن تاب قال: ((إن هذه الأحاديث دين فانظروا ممن تأخذون دينكم، فإننا كنا إذا هورنا أمراً صبرناه حديثاً))^(٢).

فأنا لم أكن شاكاً في صحة ذلك عنهم، لكني كنت أستغرب تلك المقولة، مع ما أعطى الله الإنسان من نعمة العقل كيف يتجاهل المرء عقله فينبذه ويتبع هواه مع ما هم عليه حيث يراؤون الناس من صلاح الظاهر وثقات السجود.

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ١/١٣٧ ط مكتبة المعارف الرياض والكفاية في

علم الرواية/١٣٣ ط المكتبة العلمية بالمدينة المنورة.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١/٧٨ ط دار الشعب.

لقد صدق الله مولانا العلي العظيم حيث يقول في سورة البقرة:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٦﴾
يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ فِي قُلُوبِهِمْ
مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٨﴾ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١٠٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ
لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١٠﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ
لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١١﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ
السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١١٢﴾﴾. وقال سبحانه وتعالى في سورة
القصص: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ
هَوَاهُ يَبْغِي هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَكَذَلِكَ وَصَّلْنَا لَهُمُ
الْقَوْلَ لَمَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٠٧﴾﴾.

ولذا أتجنى على مؤلف الكتاب وزمرته، وتويراً للقارئ بما أشرت إليه
في العنوان لا بد لي من نقل ما ساقه في كتابه بنصه وفصه كما يقولون ثم التعقيب
عليه بعد ذلك.

فقد قال: «(وأرسل عليّ ابن عباس ليناظرهم. نقلاً من شرح اللامية للقطب،
وأصله في كتاب السير العثمانية من سيرة شبيب بن عطية من علماء القرن الثاني
للهجرة هكذا: طلب ابن عباس اليهم الرجوع، وقالوا له: انّ صاحبك ترك اسم
أمير المؤمنين وطلب الحكومة، وخلع سربالاً ألبسه الله إياه.

فقال ابن عباس ~~جذبتنا~~: أما علمتم أنّ رسول الله صلى الله عليه (وآله) وسلّم
لنا عاهد أهل مكة ومشركي العرب - ومشركي قريش عام الحديبية حين صدّه

(١) البقرة / ٨ - ١٣ .

(٢) القصص / ٥٠ - ٥١ .

المشركون عن المسجد الحرام إلى مضيّ المدة التي سماها لهم (من ترك فيها) (٩) القتال والدماء، وأما ما ذكرتم من خطعه نفسه من اسم أمير المؤمنين فقد فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه (وآله) وسلم حين كتب الكتاب لقريش وأملاها (٩) رسول الله صلى الله عليه (وآله) وسلم، هذا ما قاضى به محمد رسول الله صلى الله عليه (وآله) وسلم قريشاً، فقال المشركون: لو علمنا أنك رسول الله ما خالفناك، فكتب من محمد بن عبد الله.

وأما ما ذكرتم من الحكومة وأنها لا تجوز فقال عز من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَ مِنْكُمْ مَتَعَمْدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَتْبَةِ﴾^(١)، وقال عز من قائل: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْهتُوا حَكْمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكْمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾^(٢).

فقالوا: قد سمعنا قولك والذي أرسلت به واحتجاجك، فنذكرك الله لما سمعت قولنا وفهمت حجبتنا ثم كنت عدلاً بيننا وبين من أرسلك.
قال: اللهم نعم.

قالوا: أخبرنا عن قتل الصيد وهو محرم هل يسهه أن يحكم من يرى استحلال الصيد المحرم، ويستحل قتل صيد الحرم؟ قال: لا.

قالوا: وكيف يسع علينا أن يحكم في دين الله من يدين باستحلال ما حرم الله من دماء المسلمين، ويحرم ما أحل الله من قتال الفسحة الباغية، ومن يدين

(١) المائدة / ٩٥.

(٢) النساء / ٣٥.

بولاية من عادى الله ورسوله وبعداوة أولياء الله، ويدين بخلاف ما عليه المسلمون من الحقّ الذي هم عليه، وفارقوهم على خلافه، فوالله لو كانت الحكومة حقاً لكان عليّ ترك الحقّ بتحكيمة في دين الله من يدين بخلاف دين الله فيما استحل من قتل المؤمنين وسفك دماهم وما حرّم الله من قتال الفئسة الباغية مع ما يدين به من ولاية من عادى الله ورسوله وبعداوة أولياء الله، على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والله سبحانه يقول: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَتُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾^(١).

ثمّ قالوا: نذكرك الله يا بن عباس هل تعلم أنّ أبا موسى كان شاكاً في قتال الفئسة الباغية يحرم ما أحلّ الله من قتال الفئسة الباغية، ويحذرك الناس عن القتال؟

قال: اللهم نعم.

قالوا: إنّ عليّاً حكّم فيمن قتل الصيد وهو محرم من يعتقد أنّه لا يحرم قتل الصيد في الحرم، ولا يحرم قتل الصيد في الحلّ على المحرم، أكان بتحكيمة من كان هذا أمره وصفته على هذا الوجه ضلالاً إذ حكّم شاكاً - مرتاباً فيما حكم الله به من تحريم قتل الصيد في الحرم إذ كان محرماً لضلّ بتحكيمة من هذا أمره وصفته، ولو كانت الحكومة عدلاً لكان بحكومة من يستحل قتل المؤمنين وبعاديهم ويكفر بدينهم ضالاً، وقد أضلّ بحكومته من يحرم ما أحلّ الله للمؤمنين من قتال من بغى عليهم، واتبع سيلاً غير سيّلتهم، وأبى أن يقرّ بحكم القرآن فيما خالفوا فيه، فنذكرك الله يا بن عباس هل تعلم أنّ عمرو بن العاص استحلّ ما حرّم الله من دماء المسلمين، وحرّم ما أحلّ الله من قتال من بغى على

(١) النساء / ١١٥.

المسلمين، وتولى من عادى الله، وعادى المسلمين ومن دان بدينهم، وما هم عليه من الحق ومن تال أهل البغي؟

فقال: اللهم نعم قد خصتم علياً بهذا وقولكم الحق (١).

ثم قالوا: أما ما ذكرت من قول الله ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا - إِلَى قَوْلِهِ ﷺ - يُوقِفِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾^(١) فأخبرنا عن رجل من المسلمين عنده يهودية أو نصرانية وكان بينهما اختلاف ومنازعة هل ينبغي له وللمن حضره من المسلمين أن يدعو اليهود أو النصارى يحكمونهم بما هم به كافرون من أحكام المؤمنين؟

قال: لا.

قالوا: كيف حكم عليّ عمرو بن العاص وهو يكفر بما حكمه فيه ويستحل ما حرّم الله من دماء المسلمين ويدين بغير دينهم، ويوالي من عادوا وعادى من والوا، فذكرك الله هل يسع علياً هذا؟

قال: لا يجوز هذا لمن فعله ولا يسهه.

وقالوا: أما ما ذكرت من أمر الموادعة والقضية التي كانت بين رسول الله ﷺ وبين المشركين، فإنها كانت منازل ونقل عنها منزلة منزلة، وكلّ منزلة نقل الله عنها نيّيه أو أمره بغيرها حرّم عليه الإقامة عليها وحرّم على المسلمين أيضاً أن يقيموا على ما نقل عنه، من ذلك القبلة التي كانت بيت المقدس نقل الله نيّيه والمؤمنين عنها باستقبال البيت الحرام، ومثل الخمر كانت حلالاً ثم نهى الله

عنها أولاً تأديباً ثم حرّمها بعد ذلك من نعمه وطوله ومثته على نبيه ﷺ وعلى المؤمنين، وكذا مفاداة النبي ﷺ لأهل بدر، ولا أمر ولا نهى ولا وعيد، وقال تعالى: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(١) وقد كان سبق من الله العفو عنهم والمغفرة لهم فيما فعلوا، (وقيل) (٢) سبق من الله أن لا يعذب أحداً إلا بعد بيان، (أو سبق) (٣) من الله ﷻ أن يحل لهذه الأمة ما ضمنوا من عدوهم إذا حاربوا، وأنزل الله ﷻ على نبيه بعد ذلك تحريم معاهدة المشركين فقال ﴿بِرَاءةٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ - إِلَى قَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا - إِنَّ اللَّهَ عَفْوٌ رَحِيمٌ - وَإِلَى قَوْلِهِ: - لَا يَغْلَمُونَ﴾^(٤) فجاءت براءة بنقض كل عهد وتحريم أمان المشركين وقتلهم حيث ما وجدوا وحصرهم والقعود لهم بكل مرصد وتحريم الجنوح اليهم، ولا يقبل منهم إلا الدخول في الإسلام والاقرار به ولاهل الكتاب الجزية، فما لهم إلا الإسلام أو الجزية ولم يحل الله أمان أحد منهم إلا من استجار ليسمع كلام الله فان لم يؤمن أبغنه آمنه. وقال الله ﷻ: ﴿رَبَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا - إِلَى قَوْلِهِ - بَعْدَ غَايِهِمْ هَذَا﴾^(٥) فلا إقامة لأحد على ما نقل الله نبيه عنه. فما حجة صاحبك علينا فيما نقل الله نبيه والمؤمنين عنه، وحرّم ذلك عنه، وان جوّز ذلك فليرجع إلى استقبال بيت المقدس وإلى كل ما نسخ.

ثم قالوا نذكرك الله يا بن عباس هل تعلم أن الذي احتج به صاحبك علينا

منتقض غير جائر في الدين؟

(١) الأنفال / ٦٨.

(٢) براءة / ١.

(٣) براءة / ٢٨.

قال: اللهم نعم.

قالوا: يا بن عباس ألسنت تعلم أن الله ﷻ قال في كتابه: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي...﴾ الآية^(١)، ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ...﴾ الآية^(٢).

قالوا(٣): اللهم نعم.

قالوا: فهل تعلم ان قتال الفئة الباغية حد من حدود الله كالجلد والقطع؟

قال: نعم.

قالوا: فأخبرنا (عمن زنا)(٤) أو سرق فأراد امام المسلمين أن يقيم عليه

الحد فامتنع وقامت معه طائفة تمنعه عن إقامة الحد أليس يحل قتالهم؟

قال: بلى.

قالوا: فان المسلمين قاتلوهم حتى قتلوا منهم قتلى ثم ابتغوا الحكومة أيسع

المسلمين قبولها وتحريم القتال وتعطيله؟

قال: اللهم لا.

قالوا: فكيف يسوغ لنا أن نحكم في دين الله من يدين بتعطيل الحدود

وتحريم ما أحل الله من قتال الفئة الباغية مع أنه حد من حدود الله، وكل ما

حكّم الله فيه فلا تخيير فيه لعباده قال الله ﷻ: ﴿وَأَنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ يَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ

وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ - إلى

قوله ﷻ - ﴿لَقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾^(٥) وقال: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْمًا...﴾ الخ^(٦) وقال:

(١) النور/٢.

(٢) المائدة/٣٨.

(٣) المائدة/٤٩.

(٤) الأنعام/١١٤.

﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ - إِلَى قَوْلِهِ - لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١) وما جعل الله ﷻ الحكم فيه للرجال فليحكم فيه ذوا عدل ولا حكم في غير ذلك للرجال، قال الله جلّ وعلا: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ - إِلَى قَوْلِهِ - ﴿ضَلُّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾^(٢) وقال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ - إِلَى قَوْلِهِ ﷻ - ﴿وَيَسْأَلُوا تَسْلِيمًا﴾^(٣) فكيف يحكم في دين الله من لم يحكمه الله ورسوله، ووجد في نفسه حرجاً مما قضى الله ورسوله وأبى أن يسلم تسليمًا، واستحل قتل من حكم الله ورسوله وسلم لحكمه تسليمًا، فان معاوية وعمرو ابن العاص أيا أن يسلمًا لحكم الله ورسوله؟

قال: اللهم نعم.

ثم قالوا: يا بن عباس ان كان معاوية وعمرو بن العاص سلما لحكم الله وما أنزل من القرآن ورجما عما كانا عليه وفاءً إلى أمر الله ورجما إلى دين المسلمين فالحق علينا أن نقبل عنهما وتتولاهما، لأن الله أمر بقتال الفئدة الباغية حتى تفيء إلى أمر الله، فإذا فاءوا إلى أمر الله قبل ذلك منهم، ولم يسع أحداً يرد ذلك عليهما، وأما أن نحكم الرجال فيما قد فرغ الله من الحكم فيه، فإن كان حكموا بنقض ما جاءنا من الله فنتنقل عما نحن عليه من البيئات إلى الضلال والعمى والترك لحكم الله، والإيمان الذي نحن عليه حتى يستحل ما حرم الله ويحرم ما أحل الله، ونوالي من كنا نعاديه بدين وفريضة، ونعادي من كنا نواليه بدين الله

(١) الأنعام / ٥٧.

(٢) الأحزاب / ٣٦.

(٣) النساء / ٦٥.

ويحكم كتاب الله وما افترض علينا من ولاية من أقر بديننا، فمعاذ الله أن نفعل ذلك إن شاء الله حتى تذهب أنفسنا أو نظهر على عدونا.

فقال ابن عباس: اللهم هذا هو الحق.

وقالوا: ألسنت تعلم أن فيما اشترط عليّ ومعاوية كل واحد منهما على صاحبه، أنه أيما رجل أحدث حدثاً من أصحاب عليّ ودخل في دين معاوية وحكمه فليس لعليّ إقامة الحد عليه لدخوله في دين معاوية وحكمه، وأيما رجل أحدث حدثاً من أصحاب معاوية ودخل في دين عليّ وحكمه فليس لمعاوية إقامة الحد عليه لدخوله في دين عليّ وحكمه، فكيف يدخل في دين قوم قد أقروا على أنفسهم بأنه من أحدث حدثاً منهم ففر من حكم الله عليه وكره إقامة الحد بأن يقول دخل في دين معاوية زال ذلك الحكم والحد عنه؟ وكيف يدخل في دين عليّ وأمره كذلك، وزاد بأن خلع نفسه من إمرة المؤمنين ولم يرجع ولم يستغفر مما قد أتى مما وصفناه وذكرناه من أمره فيما سوى ذلك قد استحق من امر الله البراءة والخلع حتى يتوب ويستغفر ربه ويرجع من ذنبه. ألسنت تقول إن علياً قاتل طلحة والزبير بكتاب الله وبما افترض الله عليه من قتال الفئة الباغية، وعلى ذلك الأمر قاتل معاوية؟

قال: اللهم نعم.

قالوا: وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قاتل عمار بن ياسر ومن معه بصفين حتى قتل عمار بن ياسر ومن معه من أصحاب النبي ﷺ والتابعين باحسان، وبأمر الله وإذنه قاتلوا الفئة الباغية؟

قال: اللهم نعم.

قالوا: أخبرنا عن عليّ حين حَكَمَ الحكمين أليس قد حرّم القتال الذي أحلّ الله من معاوية وجنده حتى يحكم الحكمان ويأذنا به؟
قال: اللهم نعم.

قالوا: فأخبرنا عن عليّ أحرّم دماءهم بتوبة من معاوية وجنده، ودخول منهم في الإسلام؟ أم حرّم دماءهم بغير توبة منهم ولا دخول في الإسلام؟
قال: بل حرّم دماءهم بالمهد الذي أعطاهم حتى يحكم (الحكمين) (؟) بغير توبة ولا دخول في الإسلام.

قالوا: أليس قد حرّم عليّ منهم ما أحلّ الله من قتالهم من غير انتقال منهم عن الذي أحلّ دماءهم، واستحل قتال من قتل بلا حدث، (فمن أقام) (؟) الآن بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وبما قام به عمّار ومن معه من المسلمين فقاتل من قاتله عمار واستحل من استحل عمّار فهو من الكافرين عند صاحبك؟ وكيف يكون عمار من المهتدين المؤمنين ويضل من عمل عمله واقتدى بهداه بعده، فإن (كان) (؟) قاتلهم عمّار هدى، فقد اهتدى من اهتدى بهداه، وإن كان ضلالاً فقد ضل عليّ وأتباعه بولاية عمّار ومن معه من المسلمين، لقتالهم معاوية؟ وكيف يكون القتال لمعاوية ضلالاً ومعاوية على الدين الذي استحل منه عمار قتاله وقاتل من معه ثم لم يتوبوا ولم يرجعوا عما هم عليه من دين المسلمين وقولهم؟ وكيف لم يكن القتال لطلحة والزبير على البغي ضلالاً وقد كانا أفضل من معاوية، ويكون القتال لمعاوية ومن معه ضلالاً فهم على الدين الذي كان عليه طلحة والزبير، هذا ما نعرف من خطأ عليّ ورجعته عما كان عليه من الحقّ ورغبته عما مضى عليه خيار المسلمين؟ وكيف يحلّ الله قتال قوم ويأمر به ثم

يهتدي من حرّمه وهم على ذلك الدين ويضل من استحلّه، وكيف يحلّ الله قتال قوم ويأمر به ويأذن فيه ثمّ يكفّر من استحلّه حتى يأذن فيه من يستحلّ تحريمه من الحكمين، وذلك إنّ عليّاً حرّم القتال الذي أحلّه الله من معاوية وجنده، حتى يأذن فيه عمرو بن العاص وأبو موسى وزعم عليّ أنّه من قام بكتاب الله جلّ وعلا وسنة نبيّه ﷺ، ويستحلّ ما أحلّ الله من قتال الفئة الباغية حتى تفيء إلى أمر الله فهو من الكافرين حتى يأذن فيه من يدين بتحريم ما أحلّ الله من قتال الفئة الباغية حتى تفيء إلى أمر الله بغير كتاب من الله حدث يحرمّ ما أحلّ الله من قتالهم وحتى يأذن فيه من يدين بتحريمه ويستحلّ ما حرّم الله من دماء المسلمين، ويحرّم ما أحلّ الله من قتال الفئة الباغية ومعادي أولياء الله ويوالي أعداء الله. فنذكرك الله يا ابن عباس هل يسع هذا من فعله ويهتدي به؟

قال: اللّهم لا. (وانصرف عنهم وهو مقرّ لهم ومعترف لهم أنّهم قد خصموه، ونقضوا عليه ممّا جاء به ممّا احتجّ به عليهم) (٩)

(فرجع ابن عباس إلى عليّ، فلمّا رآه قام إليه وتاجاه وكره أن يسمع أصحابه قولهم وحجتهم التي احتجوا بها) (٩)

فقال له عليّ: ألا تعينني على قتالهم؟

فقال ابن عباس: لا والله لا أقاتل قوماً قد خصموني في الدنيا وأنهم يوم القيامة لي أخصم وعليّ أقوى وإن لم أكن معهم لم أكن عليهم.

واعترل عنه ابن عباس ﷺ ثمّ فارقه، وكتب إليه عليّ (بؤنّه) (٩) بمال أخذه

من البصرة من بيت المال.

فقال له: قد عرفت وجه أخذي المال أنه كان بقية دون حقي من بعد ما أعطيت كل ذي حق حقه، قد علمت أخذي المال من قبل قولي في أهل النهروان، ولو كان أخذي المال باطلاً كان أهون من أن اشرك في دم مؤمن فاكف عن القوم فأبي، والله أعلا وأعلم، انتهى^(١).

فهذا ما سطره سالم بن حمد العماني في كتابه، ولا بد لنا من تعقيب يكشف للقارئ زيف ما ذكره وسطره.

ويتم ذلك من خلال النقاط التالية:

تعقيب بلا تشريب^(٢):

لنقف وقفة عابرة عند تلك المحاور، ولنتنظر كم عليها من علامات الاستفهام، مما يسقطها عن الاعتبار في هذا المقام.

١- ذكر المؤلف أسماء ثلاثة كتب أخذ بعضها عن بعض فجعلها مصادر للمحاور، فقال: «تقلاً عن شرح اللامية للقطب وأصله في كتاب السير العمانية من سيرة شيب بن عطية».

ولما كانت تلك الأسماء مجهولة الهوية عند أصحاب المعجمات البيلوغرافية المعنية، بدءاً من ابن النديم صاحب الفهرست، ومروراً بكتاب جلبي صاحب كشف الظنون، انتهاءً بإسماهيل البغدادي صاحب ذيل كشف الظنون فمن أين السبيل إلى معرفة أصحابها وتقييم كتبهم فضلاً عن توثيقهم ١٩

(١) العقود الفضية في أصول الأياضية / ٥٠ - ٥٩.

(٢) مما استجد بحته فالحناء بالكتاب.

٢- ذكر المؤلف اسم اثنين من علمائهم هما القطب صاحب شرح اللامية، وشيب بن عطية صاحب السيرة، وقال عنه: ((من علماء القرن الثاني للهجرة))، وحسبنا أن نبحث عنه وحده، ولو عرفناه فهو الأصل لمن بعده، ولكننا بعد البحث المضني والأستعانة بالحاسوب الآلي في المكتبة الألفية وكتب العقائد والفرق بعد هذا كله لم نجد له ذكراً في كتب أصحاب الرجال والتراجم والتاريخ وكتب الفرق والمقالات. فمن ذا يكون هذا الإنسان المجهول الذي ذكره في (ص ٢٥٣) وقال عنه في حديثه الجليل من أئمة الأباضية في عمان فقال: ((وتوفي في زمانه خلف بن زياد البحراني، وبقي في منزلة إمام بعده شيب بن عطية الأباضي العماني ومحمد بن أبي عفان وفي زمانهما بعض جور وقتل)) ؟

وحبذا لو ذكر عنه شيئاً من ترجمته أسوة بمن ترجم لهم من أئمة الأباضية، حيث ترجم لأبي الشعثاء جابر بن زيد في (ص ٩٣)، ولأبي بلال مرداس بن حدير في (ص ١٠٧)، ولعبد الله بن أباض (ص ١٢١)، ولأبي عبيد مسلم بن أبي كريمة في (ص ١٣٩)، وللربيع بن حبيب في (ص ١٤٩)، فبقي على جهالته، ولا تجدنا معرفة الباقيين ما دام الأصل مجهولاً.

٣- ولو سلمنا جدلاً أن (شيب بن عطية) كان شخصاً واقعياً له وجود خارجي، ولم يكن اسماً موهوماً، فلماذا لم يسند روايته بإسناد يرفع عنه إصر الوضع، وقد كان الإسناد في عصره هو الوسيلة الوحيدة لبراءة عهد الرواة، وبقي الإسناد كذلك إلى قرون بعده، أنظر الطبري المتوفى سنة ٣١٠هـ والبلاذري المتوفى سنة ٢٧٦، وحتى المسعودي واليعقوبي وابن أعثم، كلهم اعتمدوا الإسناد في الرواية، إما في أوائل كتبهم أو في أول كل حدث أو حديث.

٤- شيوخ الأخطاء الاملائية والنحوية وقد وضعتها بين أقواس وأتبعتها بعلامة استفهام بين قوسين. ولم تقتصر تلك الأخطاء على الاملائية والنحوية، بل تسرّب الخطأ حتى نال الآي القرآني، فغلط في نقلها، وذلك قوله تعالى في سورة براءة فقال: (والى قوله لا تعملون) ولدى مراجعة الآية الكريمة كانت قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١)، ولم يرد تصحيح ما ذكرت في جدول (تصويب) في آخر الكتاب.

٥- هلهلة اللغة الفجة التي ساق بها المحاور مع كثرة التكرار المملّ فيها، ولم يعهد ذلك في شيء من محاورات الخوارج وخطبهم، بل وصفوا بالبلاغة وحسن البيان، ولندع الشكليات، ولنتنظر إلى الأهم منها.

٦- قال: ((وانصرف عنهم وهو مقرّ لهم أنهم قد خصموه ونقضوا عليه ممّا جاء به ممّا احتج به عليهم)). وهنا لا بدّ من وقفة تأمل!

لماذا انصاع ابن عباس لحجتهم؟ وهم لم يأتوه بشيء جديد، وإنما حشروا في حوارهم المزيد من غير المفيد، هو اجترار وتكرار لما سبق أن سمعه منهم من إشكاليات تافهة مرّت به في حروراء وفي الكوفة، حينما أتاهم في منزلهم، ومرّت بنا محاوراته وفيها قرأناه مخصصاً جداً بقوة جنان وحسن بيان مع انارة المحجة بيلغ الحجة، فاستطاع أن يقنع منهم من أناب فتاب، وآب إلى جادة الصواب، فما باله في هذه المرة اخرجهم عن الجواب؟

٧- وإذا صحّ ما ذكره المؤلف في المحاور من انصاع ابن عباس لحجتهم، وبالأحرى انقطاع حجته عن جوابهم، فما باله لم يتبدّل نظره إليهم بعد

ذلك، بل كانت مواقفه هي الأولى، وهي الأقوى في إظهار موالاة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ومعاداة أعدائه، ومنهم الخوارج، وستأتي شواهد على ذلك في صفحة احتجاجاته.

وللتدليل أذكر موقفاً واحداً يفند زعم المؤلف: فقد روى الشيخ الطوسي بسنده عن سعيد بن المسيب قال: «سمعت رجلاً يسأل ابن عباس عن علي بن أبي طالب، فقال له ابن عباس: إن علي بن أبي طالب صلى القبلتين، وبايع البيعتين، ولم يعبد صنماً ولا وثناً، ولم يضرب على رأسه بزكم ولا بقدرح، ولد على الفطرة، ولم يشرك بالله طرفة عين أبداً.

فقال الرجل: إنني لم أسألك عن هذا، وإنما أسألك عن حمله سيفه على عاتقه يختال به حتى أتى البصرة فقتل بها أربعين ألفاً، ثم صار إلى الشام فلقى حوارج العرب فضرب بعضهم ببعض حتى قتلهم، ثم أتى النهروان وهم مسلمون فقتلهم عن آخرهم.

فقال له ابن عباس: أعلمي عندك أم أنا؟

فقال: لو كان عليّ أعلم عندي منك لما سألتك.

قال سعيد بن المسيب فغضب ابن عباس حتى اشتد غضبه ثم قال:

ثكلتك أمك. عليّ علمني وكان علمه من رسول الله صلى الله عليه وآله، ورسول الله

علمه الله من فوق عرشه فعلم النبي من الله، وعلم عليّ من النبي، وعلمي من علم عليّ، وعلم أصحاب محمد كلهم في علم عليّ كالقطرة الواحدة في سبعة أبحر^(١).

(١) الأمالي ١١/١ مطب النعمان في النجف.

وستأتي له مواقف مع بعض الخوارج منها مع ذلك الذي كان متعلقاً بأستار الكعبة وهو يعلن براءته من الإمام وحديثه رواه ميمون بن مهران، ولولا طوله لذكرته.

ومنها مع السائل الخارجي الذي سأله عن الإمام فأعرض ثم سأله ثانياً فأجابه بجواب بليغ وحديثه عن ضرار بن الأزور.

ومنها ما رواه الأصمعي بن نباتة عن إسلام الأعرابي على يد الإمام، وما كساه الإمام، وتعرض الخوارج له حتى شككوه في الإمام فأتى ابن عباس وهو في مسجد الكوفة فسأله عما جرى له فأجابه حتى أقتعه، والحديث طويل سيأتي في صفحة احتجاجاته.

٨- قال: ((فرجع ابن عباس إلى علي، فلما رآه قام إليه وناجاه وكره أن يسمع أصحابه قولهم وحثهم التي احتجوا بها)).

أقول: وهذا أمر لم يعهد من الإمام مثله من ذي قبل، كما لم يعهد من ابن عباس كذلك.

ولو أغمضنا عن مناقشة ذلك فلنا أن نسأل المؤلف: من أين علم الإمام بأن ابن عباس أتاه مخصوماً فكره أن يسمع أصحابه قولهم وحثهم التي احتجوا بها، حتى احتاط للأمر بالنجوى؟ على أن ذلك التصرف منه أدهى إلى إثارة الفضول ولقت النظر ثم التساؤل عما جاء به ابن عباس، مع أننا قد مررنا في الحديث عن مؤتمر التحكيم مضايقة الكوفيين لابن عباس في السؤال عما تجيء به رسل الإمام حتى تبرم ساخطاً عليهم فضولهم غير المستحب قاتلاً كما في الطبري: (أما تعقلون! أما ترون رسول معاوية يجيء لا يعلم بما جاء به، ويرجع لا يعلم ما

رجع به، ولا يسمع لهم صياح ولا لفظ (لفظ) وأنتم عندي كل يوم تظنون الظنون).

فمن مرّت به هكذا تجربة كيف يُعقل تناسيها، ولا يحتاط بعدم إثارة الفضول والشكوك؟

وأيضاً كيف لم يثر ذلك المشهد فضول الأصحاب وفيهم أمثال الأشعث ابن قيس الذي كان يدس أنفه في كل شيء، وتفتح شهيته إثارة الفتنة؟

٩- قال: ((إن علياً قال له: ألا تعينني على قتالهم؟ فقال ابن عباس: لا والله لا أقاتل قوماً قد خصموني في الدنيا وأنهم يوم القيامة لي أخصم وعليّ أقوى، إن لم أكن معهم لم أكن عليهم)).

أقول: ما دام الحديث كان سرّاً ونجوى بين الإمام وابن عباس ولم يكن معهم ثالث، فمن ذا يا ترى أذاع النجوى؟

هل هو الإمام الذي حرص على عدم معرفة أصحابه بما جاء به ابن عباس؟ وهذا لا يعقل لأن إذاعته على خلاف مصلحته.

أو هو ابن عباس لأنه الطرف الآخر؟ وهنا سؤال يقفز في الذهن: فإذا كان هو ابن عباس فلا بدّ أنه حدّث به لآخر أو آخرين فسُمع منه وروي عنه، فمن هو الراوي لذلك؟ لماذا لم يذكر اسمه في المحاورّة؟

١٠- قال: ((واعتزل ابن عباس ﷺ ثمّ فارقه... وكتب إليه عليّ يأنبه (وهذا غلط إملائي وصوابه: يؤنّبه) بمال أخذه من البصرة من بيت المال: فقال له: قد حرفت وجه أخذي المال... قد علمت أخذي للمال من قبل قولني في أهل النهروان)).

أقول: وهنا تبدئى الصبح لذي عينين، وصكّ الحجر المصفورين كما يقول المثل السائر.

فابن عباس اعتزل وفارق، وأخذ من بيت مال البصرة، وبرّر أخذه، وأصرّ مستكبراً بقوله: «ولو كان أخذي المال باطلاً كان أهون من أن أشرك في دم مؤمن فاكفف عن القوم»، والإمام علم بذلك من قبل قول ابن عباس في أهل النهروان ولم يؤاخذه أو يعاتبه، وسكت على خيائته، ليكون شريكاً له في جنايته، فكلاهما أصابه حظ من ذرو هذا القول في المحاورة.

أليس كذلك؟ وعرفنا منذ الآن أن عنصراً رابعاً دسّ أنفه في مسألة مال البصرة ولم أكن قد وقفت عليه من قبل، فتعاونت تلك العناصر على غير مودة بينها على تشويه صفحة ابن عباس فهو ضحية: أموية حاتقة، وعباسية بغيضة، وشيعة متورة، وأخيراً خوارج نائرة.

١١- ولنعد إلى عدم انتظام سياق الكلام في المقام، فقد قال المؤلف: «وكتب إليه عليّ يأنبه (؟)»، وهذا يعني الجمد المكاني ليصح التعبير بقوله: وكتب إليه.. ولا أقل عن مجطسه إن لم يكن عن بلده كما هو المتعارف.

ثمّ قال المؤلف: «فقال له: قد عرفت وجه أخذي المال».. وهذا يعني الحضور ليصح التعبير بقوله: فقال له... فكيف التوافق والاتساق بين (كتب) وبين (فقال)؟ أليس الجمع بين الغائب والحاضر في آن واحد يعني التنافي كما في المثل المعروف (أكوس عريض اللحية).

١٢- وأخيراً ختم المؤلف تلك المحاورة بقول ابن عباس: «فاكفف عن

القوم».

ولنا أن نسأل: من هم القوم الذين يطلب ابن عباس من الإمام الكف عنهم؟
 أهم الخوارج - كما هو المتبادر للقرينة المقامية ٤ - فهؤلاء سبق للإمام أن
 حاربهم بالنهروان واستأصل شأفتهم ولم ينج منهم إلا ثمانية فرّوا كما مرّ ذكر
 ذلك. وابن عباس على علم بذلك، فأَيّ معنى للكف عن أناس انتهى أمرهم
 وقضي عليهم بالنهروان؟

وإن كان القوم غيرهم فمن هم؟

والذي يبدو لي أن المحاورة من نسج غيبي لم يحسن الصنعة ولا شك أنه
 من أولئك الذين إذا هروا أمراً صيروه ديناً كما مرّت الإشارة إليه آنفاً، ولكنه من
 قوم لا يفقهون.

ويبدو أن المؤلف الأباضي صاحب العقود القضية لم يقف على ما ذكره
 البلاذري في الأنساب: ((قالوا: وكتب عليّ إلى عبد الله بن عباس بمقتل محمد
 ابن أبي بكر وعبد الله بالبصرة، قبل أن يكتب أبو الأسود الدنلي إلى عليّ فيه،
 وقبل أن يقع بينهما المتافرة، وكان عبد الله قد نافر عليّاً بالنهروان ولحق بمكة))^(١).
 قلت: يبدو أن الأباضي لم يقف على هذا، وإلا لجعل منها أساساً يعليّ عليه
 بنيانه، ويدعم هذيانه على أن ذلك لا يجديه شيئاً، لأنّ وقعة النهروان - فيما رواها
 البلاذري - كانت في ٩ صفر سنة ٣٨هـ، وفي قول غيره سنة تسعة وثلاثين، ومقتل
 محمد كان في سنة ٣٩هـ. لكنه لم يكن قبل وقعة النهروان، فإذا (كان ابن عباس
 قد نافر عليّاً بالنهروان ولحق بمكة) كيف يصح أنه كتب إليه بمقتل محمد وهو
 بالبصرة...؟

(١) أنساب الأشراف ٤٠٥/٢ تح المحمودي.

ومهما شككتنا في القبيلة والبعديّة بين النهروان ومقتل محمّد، فإننا لا نشك في حضور ابن عباس بالكوفة بعد حرب النهروان وقد أرسله الإمام داعياً ببقية الخوارج في النخيلة فأبوا.

والآن لنقرأ ما قاله أبو العباس المبرّد^(١): ((وكان أهل النخيلة جماعة بعد أهل النهروان ممن فارق عبد الله بن وهب، وممن لجأ إلى راية أبي أيوب، وممن كان أقام بالكوفة فقال: لا أقاتل عليّاً ولا أقاتل معه، فتواصوا فيما بينهم وتعاضدوا وتأسفوا على خذلانهم أصحابهم - ثم ذكر قيام المستورد فيهم خاطباً يدعوهم إلى الجهاد - فكلُّ أجاب وباع).

قال المبرّد: فوجّه إليهم عليّ بن أبي طالب عبد الله بن العباس داعياً، فأبوا... ثم قال ثم سار إليهم فطحنهم جميعاً لم يفلت منهم إلا خمسة... قال المبرّد: وفيهم يقول عمران بن حطان:

إنّي أدين بما دان الشراة به يوم النخيلة عند الجوسق الخرب^(٢)

وعاد المبرّد فذكر مناظرة أهل النخيلة لابن عباس، فقال: وكان أصحاب النخيلة قالوا لابن عباس: إن كان عليّ عليّ حق لم يشكك فيه، وحكّم مضطراً فما باله حيث ظفر لم يسب، فقال لهم ابن عباس: قد سمعت الجواب في التحكيم، فأنا قولكم في السباء، أفكنتم ساين أمكم عائشة فوضعوا أصابعهم في آذانهم وقالوا: أمسك عنا غرب لسائك فأنه طلق ذلق، غواصّ على موضع الحجة^(٣).

(١) الكامل ٣٣٦/٣ ط نهضة مصر بتحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم.

(٢) الجوسق الخرب بظاهر الكوفة عند النخيلة، والبيت في معجم البلدان ٣/١٧٠ من أبيات نصيبها إلى قيس بن الأصم الضبي.

(٣) الكامل ٣٣٨/٣.

في مقتل محمد بن أبي بكر:

لما انقضى أمر الحكمين، وعاد أهل الشام مع عمرو بن العاص سلموا على معاوية بالخلافة، ولم يكونوا بايعوه من قبل إلا على الطلب بدم عثمان، أما الآن فقد تصيبت الدنيا رجالاً بفحها، فمعاوية صار نداً لعلي في دعوى الخلافة، وعمرو بن العاص يريد طعمته التي شاع معاوية عليها وهي مصر، ومصر لا تزال تحت حكم الإمام، إذن لابد من التحرك لافتتاحها وما أسره إذ لا تزال بمصر عثمانية الهوى، ومهما كان محمد بن أبي بكر والي الإمام على درجة عالية من الحنكة السياسية فهو بين عدوين للدودين، من الداخل والخارج وهما أقوى منه لو أراد المجادلة، لكنه كان يمكنه أن يكون هو الأقوى منهما لو استعمل المجادلة بالحسنى مع العدو الداخلي كما فعل ذلك قيس بن سعد يوم كان عامل الإمام على مصر، أما محمد بن أبي بكر فلم يهادن العثمانية ولم يهادن أهل خربت بل قاتلهم في أول ولايته فهم ناصبوه العدا كما ناصبهم فأصبحت مصر فريسة مستساغة لمعاوية، فأرسل إليها عمرو بن العاص مع ستة آلاف لأخذها وطرد محمد منها ولكن محمد لم يكن لين العريكة بل كان أقوى شكيمة وعزيمة فلم يكن يتخلى عن مصر ويسلم أمانته إلى عمرو بن العاص وداومه الخطر وأحذق به فاستنصر الإمام يطلب منه المدد، وفي العدة والعدد، فأمر الإمام بأن ينادى بالصلاة جامعة فاجتمع الناس فخطبهم وحمد الله وأثنى عليه، وصلى على محمد ﷺ ثم قال: (أما بعد فإن هذا صريخ محمد بن أبي بكر وإخوانكم من أهل مصر قد سار إليهم ابن التابغة عدو الله وولي من عادي الله، فلا يكونن أهل الضلال إلى باطلهم والركون إلى سبيل الطاغوت أشد اجتماعاً منكم على حاكم هذا فإنهم قد بدأوكم وإخوانكم بالجزو فأعجلوا إليهم بالمواساة والنصر، عباد الله

إن مصر أعظم من الشام أكثر خيراً، وخير أهلاً، فلا تغلبوا على مصر، فإن بقاء مصر في أيديكم عز لكم وكبت لعدوكم، اخرجوا إلى الجرعة بين الحيرة والكوفة فوافوني بها هناك خدأ إن شاء الله).

وبكر من الغد إلى الجرعة وأقام بها حتى انتصف النهار فلم يوافه من الناس مائة رجل، وعلى رواية الطبري فلم يوافه منهم رجل واحد، فرجع وقد ساءه تخاذل أصحابه وتناقلهم عن نصره محمد. فلما كان العشي بعث إلى رؤساء الناس وأشرفهم فدخلوا عليه وهو حزين كئيب فلما حضروا خطبهم عاتباً وغاضباً فقال: (الحمد لله على ما قضى من أمري، وقدّر من فعلي، وابتلاني بكم أيّتها الفرقة ممن لا يطيع إذا أمرت، ولا يجيب إذا دعوت، لا أبأ لغيركم، ما تنتظرون بصبركم والجهاد على حكم الموت والذل لكم في هذه الدنيا على غير الحق، فوالله لئن جاء الموت - وليأتين - ليفرقن بيني وبينكم، وأنا لصحتكم قال، وبكم غير ضنين، لله أنتم ألا دين يجمعكم إلا حمية تفضبكم إلا تسمعون بعدوكم ينتقص بلادكم ويشن الغارة عليكم، أو ليس عجبا أن معاوية يدعو الجناة الطغاة الظلمة فيتبعونه على غير عطاء ولا معونة ويجيئون في السنة المرة والمرة والثلاث إلى أي وجه شاء، ثم أنا أدهوكم وأنتم أولو النهى وبقية الناس على المعونة وطائفة منكم على العطاء فتقومون عني وتعصونني، وتختلفون علي^(١)).

فقام إليه مالك بن كعب الهمداني ثم الأرحبي فقال: يا أمير المؤمنين اندب الناس فإنه لا عطر بعد عروس، لمثل هذا اليوم كنت أذخر نفسي، والأجر لا يأتي

(١) انظر تاريخ الطبري ١٠٧/٥ ط دار المعارف.

إلا بالكرة، اتقوا الله واجيبوا إمامكم وانصروا دعوته، وقاتلوا عدوه أنا أسير إليها يا أمير المؤمنين.

فأمر الإمام سعداً - مولاة - فنأدى في الناس: ألا فائتدبوا إلى مصر مع مالك ابن كعب.

ثم إنه خرج وخرج معه عليّ، فنظر فإذا جميع من خرج نحو ألفي رجل، فقال: سر ما أخالك تدرك القوم حتى ينقضي أمرهم.

قال: فخرج بهم فصار خمساً.

ثم إن الحجاج بن غزية الأنصاري قدم على عليّ من مصر، وقدم عبد الرحمن بن شبيب الفزاري. فأما الفزاري فكان عينه بالشام، وأما الأنصاري فكان مع محمد بن أبي بكر، فحدثه الأنصاري بما رأى وعابن وبهلاك محمد، وحدثه الفزاري أنه لم يخرج من الشام حتى قدمت البشارة من قبل عمرو بن العاص تترى، يتبع بعضها بعضاً بفتح مصر وقتل محمد بن أبي بكر، وحتى أذن بقتله على المنبر، وقال: يا أمير المؤمنين قلما رأيت قوماً قط أسراً ولا سروراً قط أظهر من سرور رأيت بالشم حين أتاهم هلاك محمد بن أبي بكر.

فقال عليّ: حزنتا عليه على قدر سرورهم به، لا بل يزيد أضعافاً^(١).

وقد روى الطبري وغيره من المؤرخين كتاب الإمام أمير المؤمنين إلى ابن عباس وهو بالبصرة يخبره بمقتل محمد بن أبي بكر ويشكو إليه تخاذل أصحابه، ويثنه بعض شجونه.

(١) نقص المصدر ١٠٨/٥.

وكان مقتل محمد من أنكى الرزايا التي اترفها معاوية وأشياعه، فقد مر بنا أن ذكرنا كيفية قتله البشعة، وذكرنا مدى وقع نيا الفاجعة على أخته عائشة على ما كان بينهما من نهوة في الرأي حتى صارت تدعو على معاوية وعمر بن العاص. فما ظنك بمدى حزن الإمام عليه وهو ربيبه، ومدى حزن ابن عباس عليه وهو ابن خالته وصلحبه، ولم يكن كتاب الإمام إلى ابن عباس نبأ الفاجعة لمجرد الإخبار وبث الشكوى فيما أرى - بل فيه إيماء إلى اتخاذ ابن عباس الحيلة واليقظة في ضبط البلاد لأن البصرة هي ثالث المعسكرات الإسلامية التي كانت تضمها حكومة الإمام، وقد سقطت مصر منها بيد العدو، فلم يبق إلا الكوفة والبصرة، وهي مطلع نظر معاوية، لطمه بأن فيها من العثمانية والموتورين بحرب الجمل ما يكفيه لإثارة الشغب، وبالتالي الانقضاض عليها، فهو سوف يتحين الفرصة لذلك، وكما حدث بعد في فتنة ابن الحضرمي وسنأتي على ذكرها.

ونعود إلى كتاب الإمام إلى ابن عباس وتذكره برواية الشريف الرضي في نهج البلاغة. قال: «ومن كتاب له عليه السلام إلى عبد الله بن العباس بعد مقتل محمد بن أبي بكر: (أما بعد فإن مصر قد افتتحت ومحمد بن أبي بكر عليه السلام قد استشهد، فعند الله نحسبه ولداً ناصحاً، وعاملاً كادحاً، وسيفاً قاطعاً، وركناً دافعاً. وقد كنت حشت الناس على لحاقه، وأمرتهم بغيائه قبل الوقعة، ودعوتهم سراً وجهراً وعوداً وبدماً، فمنهم الآتي كارهاً، ومنهم المعتل كاذباً، ومنهم القاعد خاذلاً، أسأل الله أن يجعل لي منهم فرجاً عاجلاً، فولله لولا طمعي عند لقائي عدوي في الشهادة، وتوطيني نفسي على الميتة لأحبيت أن لا أبقي مع هؤلاء يوماً واحداً، ولا ألتقي بهم أبداً)».

وهذا الكتاب كما يفيض أسى ولوعة، مع حرارة لها للذعة، هو آية في الفصاحة والبلاغة، قال ابن أبي الحديد في تعقيبه عليه: «أنظر إلى الفصاحة كيف تعطي هذا الرجل قيادها وتملكه زمامها؟ واعجب لهذه الألفاظ المنصوبة، يتلو بعضها بعضاً كيف تواتيه وتطاوله، سهلة سلسلة، تندفق من غير تعسف ولا تكلف حتى انتهى إلى آخر الفصل، فقال: يوماً واحداً، ولا ألتقي بهم أبداً. وأنت وغيرك من الفصحاء إذا شرعوا في كتاب أو خطبة، جاءت القرائن والفصائل تارة مرفوعة، وتارة مجرورة، وتارة منصوبة، فإن أرادوا قسرها بإحزاب واحد ظهر منها في التكلف أثر بئس، وعلامة واضحة، وهذا الصنف من البيان أحد أنواع الإحجاز في القرآن، ذكره عبد القاهر قال: «انظر إلى سورة النساء وبعدها سورة المائدة، الأولى منصوبة الفواصل، والثانية ليس فيها منصوب أصلاً، ولو مزجت إحدى السورتين بالأخرى لم تمتزجا، وظهر أثر التركيب والتأليف بينهما. ثم إن فواصل كل واحدة منهما تساق سياقة بمقتضى البيان الطبيعي لا الصنعة التكلفية».

ثم انظر إلى الصفات والموصوفات في هذا الفصل كيف قال: ولداً ناصحاً وعاملاً كادحاً، وسيفاً قاطعاً، وركناً دافعاً، لو قال: ولداً كادحاً، وعاملاً ناصحاً، وكذلك ما بعده لما كان صواباً، ولا في المواقع واقعاً، فسبحان من منح هذا الرجل بهذه المزايا النفسية، والخصائص الشريفة، أن يكون غلام من أبناء مكة ينشأ بين أهله، لم يخالطه الحكماء وخرج أعرف بالحكمة ودقائق العلوم الأكهية من افلاطون وأرسطو، ولم يعاشر أرباب الحكم الخلقية والآداب النفسانية، لأن قريشاً لم يكن أحد منهم مشهوراً بمثل ذلك، وخرج أعرف بهذا الباب من

سقراط، ولم يرب بين الشجمان لأن أهل مكة كانوا ذوي تجارة ولم يكونوا ذوي حرب، وخرج أشجع من كل بشر مشى على الأرض.

قيل لخلف الأحمر: أيما أشجع عتية وِسْطام أم علي بن أبي طالب؟ قال: إنما يذكر عتية وِسْطام مع البشر والناس، لا مع من يرتفع عن هذه الطبقة، فقيل له: فعلى كل حال.

قال: والله لو صاح في وجهيهما لماتا قبل أن يحمل عليهما.

وخرج أفصح من سحبان وقس، ولم تكن قریش بأفصح العرب، كان غيرها أفصح منها. قالوا: أفصح العرب جرهم وإن لم تكن لهم نهاة، وخرج أزهذ الناس، وأحفهم مع أن قریشاً ذووا حرص ومحبة للنديا، ولا غرو فيمن كان محمد ﷺ مربيه ومخرجه، والعناية الألهية تمدّه وترفده أن يكون منه ما كان^(١).

قال أبو مخنف في كتابه مقتل محمد بن أبي بكر والأشتر، وقد ذكر كتاب الإمام إلى ابن عباس بصورة أوسع ممّا مر وهي: «بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى عبد الله بن عباس، سلام عليك فإنني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فإن مصر قد افتتحت، ومحمد بن أبي بكر قد استشهد، فعند الله نحسبه ونلتخره، وقد كنت قمت في الناس في بدنه، وأمرتهم بغيائه قبل الوقعة، ودعوتهم سرّاً وجهراً، وعوداً وبدءاً، فمنهم من أتى كارهاً، ومنهم من اعتل كاذباً، ومنهم القاعد حالاً (خاذلاً)، أسأل الله أن يجعل لي منهم فرجاً ومخرجاً، وأن يريضي منهم عاجلاً، والله لولا طمعي عند لقاء

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد ٥٤/٤ - ٥٥.

عدوي في الشهادة، لأحببت ألا أبقى مع هؤلاء يوماً واحداً، عزم الله لنا ولك على الرشد، وعلى تقواه وهداه، إنه على كل شيء قدير والسلام».

وهذا الكتاب كما تضمن إعلام ابن عباس بفتح مصر وقتل محمد بن أبي بكر، كذلك تضمن إعلامه بحال الناس معه في عدم استجابتهم حين يدعوهم لما يحييهم، فهو ييث ابن عمه شكواه منهم، ومن تمنيه مفارقتهم يُعلم مبلغ حزنه عليه السلام، ولا ريب أن ابن عباس أحزنه جميع ذلك، فبادر بالجواب معزياً ومواسياً، ومخففاً بعض ما يجده الإمام من الناس بمداراتهم فكتب إليه:

((بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله علي بن أبي طالب أمير المؤمنين من عبد الله بن عباس، سلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، أما بعد فقد بلغني كتابك تذكر فيه افتتاح مصر، وهلاك محمد بن أبي بكر، فالله المستعان على كل حال، ورحم الله محمد بن أبي بكر، وأجرك يا أمير المؤمنين، وقد سألت الله أن يجعل لك من رعيتك التي ابتليت بها فرجاً ومخرجاً، وأن يُعزك بالملائكة عاجلاً بالنصرة، فإن الله صانع لك ذلك، ومعزك ومجيب دعوتك، وكابت عدوك، أخبرك يا أمير المؤمنين أن الناس ربما تناقلوا ثم ينشطون، فأرقق بهم يا أمير المؤمنين، وداجنهم ومنهم، واستعن بالله عليهم، كفاك الله المهم والسلام))^(١).

ويبدو أن حزن الإمام على مقتل محمد قد ألقى بظلاله الحزينة على ابن عباس من خلال كتابه إليه وجوابه هو الآخر عليه وشق علي ابن عباس ذلك

(١) انظر تاريخ الطبري ١٠٩/٥ ط دار المعارف.

التشردم الذي هرا المجتمع بالكوفة، فرأى أن جوابه على كتاب الإمام وحده لن يخفف من غلواء حزنه، فصمّم على التوجّه إلى الكوفة بنفسه ليسلّي الإمام عن تلك الفوادح التي تضافرت عليه فانتابته غرضاً، وأورثته حزناً كاد معه أن يكون حَرَضاً.

فقد ذكر الطبري: بسنده عن أبي نعامة قال: «لَمَّا قَتَلَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ بِمِصْرَ، خَرَجَ ابْنُ عَبَّاسٍ مِنَ الْبَصْرَةِ إِلَى عَلِيٍّ بِالْكُوفَةِ وَاسْتَخْلَفَ زِيَاداً»^(١).

وقال إبراهيم بن محمد الثقفى: «في حديثه عن فتنة ابن الحضرمي بالبصرة - كما سيأتي - وإن الأمير بالبصرة يومئذ زياد بن عبيد قد استخلفه عبد الله بن عباس وقدم على عليٍّ ~~الكوفة~~ إلى الكوفة يعزّيه عن محمد بن أبي بكر...»^(٢).

فتنة ابن الحضرمي بالبصرة:

لقد ذكر المؤرخون أن معاوية بعد أن افتتحت له مصر، صوّب نظره إلى العراق والحجاز واليمن وهي البلاد التي كانت تتبع في حكوماتها إلى الإمام، والذي لا شك فيه أن كان قد نفذ إلى تلك الولايات من خلال بقايا العثمانية، فكان همه الأول بعد مصر أن يفتح البصرة، وهي أقرب منالاً لطبيعة تركيبها السكّانية، ففيها قبائل بني تميم وهم من العناصر التي لم تخف تدمرها من الحكم العلوي، إلا أنفار وقليل ما هم، وقد مرّ بنا تتّمّر ابن عباس معهم لولا كتاب الإمام إليه، ولم تكن بقية مضر دونهم، وحتى الأزدي كانوا كذلك إلا قليلاً منهم، وهذا ما كان يعرفه معاوية معرفة تامة، وله فيها من يواليه. لذلك صمّم على قطعها عن

(١) نفس المصدر ١١٠/٥ ط دار المعارف.

(٢) الفارات ٢٨٧/٥ تح الأرموي.

مرکز الخلافة بكل حول وطول، والعقبة الكأداء في طريقه وجود عبد الله بن عباس فيها وهو العامل اليقظ الذي لم يترك بحزمه وهزمه مجالاً ينفذ فيه معاوية، فكان عليه أن يتربص خلوة البلاد منه، وهذا ما حدث وبترقب ما يأتيه من عيونهم، حتى إذا كتب إليه صحار بن عباس العبدي - وهو ممن كان يرى رأي العثمانية ويخالف قومه في حبهم علياً عليه السلام ونصرتهم إياه -

«أما بعد: فقد بلغنا وقتك بأهل مصر الذين بغوا على امامهم، وقتلوا خليفتهم ظلماً وبغياً، فقررت بذلك العيون... فإن رأيت أن تبعث إلينا أميراً طيباً ذكياً ذا صفاء ودين يدعو إلى الطلب بدم عثمان فعلت، فإنني لا أخال الناس إلا مجتمعين عليك، فإن ابن عباس غائب عن الناس (المصر) والسلام. فلما قرأ معاوية كتابه قال: «لا عزمت رأياً سوى ما كتب به إليّ هذا، وكتب إليه جوابه...»^(١).

قال ابن الأثير: «سير معاوية عبد الله بن الحضرمي إلى البصرة وقال له: إن جلّ أهلها يرون رأينا في عثمان، وقد قتلوا في الطلب بدمه، فهم لذلك حنقون يودون أن يأتيهم من يجمعهم وينهض بهم في الطلب بثأرهم ودم امامهم، فانزل في مصر، وتودد الأزديّ إليهم كلهم معك، ودع ربيعة فلن ينحرف عنك أحد سواهم، لأنهم كلهم ترابية فاحذرهم».

فسار ابن الحضرمي حتى قدم البصرة، وكان ابن عباس قد خرج إلى عليّ بالكوفة واستخلف زياد بن أبيه على البصرة فلما وصل ابن الحضرمي إلى البصرة

(١) الفارات/ ٣٨٥، وشرح النهج لابن أبي الحديد ١/ ٣٥٠، وجمهرة رسائل العرب/ ٥٧٥ - ٥٧٦ نقلًا عن شرح النهج.

نزل في بني تميم، فأتاه العثمانية مسلمين عليه، وحضره غيرهم فخطبهم وقال: إن عثمان إمامكم إمام الهدى قتل مظلوماً قتله عليّ فطلبتم بدمه فجزاكم الله خيراً.

فقام الضحاک بن قيس الهلالي - وكان على شرطة ابن عباس - فقال: قبح الله ما جئتنا به وما تدعونا إليه، أتيتنا والله بمثل ما أتانا به طلحة والزبير أتينا وقد بايعنا علياً واستقامت أمورنا فحملنا على الفرقة حتى ضرب بعضنا بعضاً، ونحن الآن مجتمعون على بيعته، وقد أقال العثرة وعفا عن المسيء، أفتأمرنا أن نتنضي أسياقتنا ويضرب بعضنا بعضاً ليكون معاوية أميراً، والله ليوم من أيام عليّ خير من معاوية وآل معاوية.

فقام عبد الله بن خازم الأسدي فقال للضحاک: أسكت فلست بأهل أن تتكلم، ثم أقبل على ابن الحضرمي فقال: نحن أنصارك ويدك والقول قولك فاقرا كتابك، فأخرج كتاب معاوية إليهم يذكرهم فيه آثار عثمان فيهم ووجه العافية وسدّه ثغورهم، ويذكر قتله ويدعوهم إلى الطلب بدمه، ويضمن أنه يعمل فيهم بالسنة ويعطيهم عطاءين في السنة. فلما فرغ من قراءته قام الأحنف بن قيس فقال: لا ناقتي في هذا ولا جملي واعتزل القوم.

وقام عمرو بن مرجوم العبدي فقال: أيها الناس الزموا طاعتكم وجماعتكم ولا تنكثوا بيعتكم فقع بكم الواقعة. وكان عباس^(١) بن صحار العبدي مخالفاً لقومه في حب عليّ، فقام وقال: لننصرنك بأيدينا وألسنتنا.

فقال له المثنى بن مخزبة العبدي: والله لئن لم ترجع إلى مكانك الذي جئنا منه لنجاهدناك بأسياقتنا ورماحتنا، ولا يفرنك هذا الذي يتكلم - يعني ابن صحار -

(١) هكذا في تاريخ ابن الأثير وقد مر أن اسمه صحار بن عباس، ولعل سهواً في أحد النقلين.

فقال ابن الحضرمي لبصرة بن شيمان: أنت نأب من أنياب العرب فانصرتني، فقال: لو نزلت في داري لنصرتك. فلما رأى زياد ذلك خاف فاستدعى حَضِين ابن المنذر ومالك بن مسمع فقال: أنتم يا معشر بكر بن وائل أنصار أمير المؤمنين وثقاته، وقد كان من ابن الحضرمي ما ترون وأتاه من أتاه فامنعوني حتى يأتيني أمر أمير المؤمنين.

فقال حَضِين بن المنذر: نعم، وقال مالك - وكان رأيه مائلاً إلى بني أمية - هذا أمر لي فيه شركاء استشير فيه وأنظر. فلما رأى زياد تتأقل مالك خاف أن تختلف عليه ربيعة، فأرسل إلى صبرة بن شيمان الحداني الأزدي يطلب أن يجيره وبيت مال المسلمين، فقال: إن حملته إلى داري أجرتكما، فنقله إلى داره بالحدان، ونقل المنبر أيضاً، فكان يصلي الجمعة بمسجد الحدان ويطعم الطعام...^(١).

قال إبراهيم بن محمد الثقفي: ((وكتب إلى عبد الله بن عباس...

للأمير عبد الله بن عباس من زياد بن عبيد سلام عليك أما بعد فإن عبد الله ابن عامر الحضرمي أقبل من قبل معاوية حتى نزل في بني تميم ونعى ابن عفان ودعا إلى الحرب، فبايعه جلّ أهل البصرة، فلما رأيت ذلك استجرت بالأزد بصبرة بن شيمان وقومه، لنفسي ولييت مال المسلمين، فرحلت من قصر الإمارة فنزلت فيهم وإن الأزد معي، وشيعة أمير المؤمنين من سائر القبائل تختلف إليّ، وشيعة عثمان تختلف إلى ابن الحضرمي، والقصر خالٍ منا ومنهم، فارفع ذلك

إلى أمير المؤمنين ليرى فيه رأيه واعجل علي بالذي ترى أن يكون فيه منه والسلام.

قال: فرجع ذلك ابن عباس إلى علي عليه السلام فشاع في الناس بالكوفة ما كان من ذلك^(١).

قال ابن أبي الحديد: ((وروى الواقدي: أن علياً عليه السلام استنفر بني تميم أياماً لينهض منهم إلى البصرة من يكفيه أمر ابن الحضرمي ويرد عادية بني تميم الذين أجاروه بها، فلم يجبه أحد، فخطبهم وقال: (أليس من العجب أن ينصرني الأزدي وتخذلني مضر، وأعجب من ذلك تقاعد تميم الكوفة بي وخلاف تميم البصرة عليّ وأن استجد بطائفة منها تشخص إلى إخوانها فيدعوهم إلى الرشاد فإن أجايت وإلا فالمنابذة والحرب، فكأنني أخطب صمّاً بكماً لا يفقهون حواراً ولا يجيبون نداءً، كلّ هذا جبناً عن البأس وحياً للحياة لقد كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله نقتل آباءنا وأبنائنا وإخواننا وأعمامنا، ما يزيدنا ذلك إلا إيماناً وتسليماً... إلى أن قال: وأيم الله لتحتلبنها دماً ولتبعنّها ندماً).

قال: فقام إليه أعين بن ضبيعة المجاشعي فقال: إنا إن شاء الله أكفيك يا أمير المؤمنين هذا الخطب، وأتكفل لك بقتل ابن الحضرمي أو إخراجه عن البصرة، فأمره بالتهيؤ للشخص فشخص حتى قدم البصرة - ثم ساق حديثه إلى أن ذكر تبسّت نفر من المارقة الخارجة له في بيته وقطعه عليه السلام، فكتب زياد بذلك إلى الإمام عليه السلام، فدعا جارية بن قدامة السعدي وكلمه في ذلك ثم بعثه إلى البصرة ومعه خمسين رجلاً، وكتب معه كتاباً إلى أهل البصرة يوتخهم على النكت

والتخاذل، ويتوعددهم إن أصروا على ذلك بوقعة لا يكون يوم الجمل عندها إلا كلعقة لاقق. وورد جارية البصرة ونهض معه جماعة من الأزد، وانتهى أمر ابن الحضرمي إلى أن حصر ومعه جماعة وأبى أن يستسلم فأحرق جارية عليهم البيت، فهلك ابن الحضرمي وسبعون من أتباعه، وسمي جارية من ذلك اليوم محرقة. وانتهت فتنة ابن الحضرمي، وخاب سعي معاوية، وبلغ الإمام الخبير فائتي على جارية ومن ناصره وقال في البصرة: (أول القرى خراباً إما غرقاً أو حرقاً حتى يبقى مسجدها كجوجو سفينة)^(١).

وهنا نقف قليلاً لتساءل: لماذا لم يرجع ابن عباس إلى البصرة - مقر عمله - فيتولى هو معالجة الموقف بنفسه حسب ما يقتضي به الحال، وهو الخبير به لسابق معرفته مع حنكته وتجربته؟ وهذا سؤال يبدو وجيهاً، ولا بد له من جواب.

وإذا تلمسنا الجواب نعرفه من خلال ما مرّ بنا من مجريات الأحداث بدءاً من أول أيام ولايته على البصرة وانتهاءً به إلى حادثة فتنة ابن الحضرمي. فإنه لا يخفى على من استذكر ما مرّ بنا من تاريخ حياته بالبصرة، وأعدنا قراءة نشاطه الإداري والسياسي، وعرفنا كيف كان يتعامل مع أهل البصرة على ضوء التركيبة السكانية، ولا يهمل جانب الموالاتة للحكم - بل لم يتسامح - مع الذين كانوا في حرب الجمل قد وقفوا ضده. فهو قد تمرّ لبني تميم، وهم أيضاً قد تمرّوا له، وقد كتب إليه الإمام عليه السلام في ذلك ليخفف من شدته وتغيير موقفه معهم.

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد ١/٣٥٢.

ثم لو أعددنا قراءة ما خطب به في الأمس القريب حين استهضهم إلى الخروج لمعاودة حرب أهل الشام، فرأى التماسس والتخاذل فأعاد الخطبة ثانية مع وعيد وتهديد.

أقول: فإذا استذكرنا ذلك كله من موقف ابن عباس بالبصرة، وأضفنا إليه ما جرى أمامه مع إمامه بالكوفة حيث استنفر الإمام تميم الكوفة لرد عادية تميم البصرة في فتنة ابن الحضرمي حين أجاروه وأجابوه وناصروه. فلم يجب الإمام من تميم الكوفة أحد، وهو يستهضهم أياماً ولا من مجيب حتى خطبهم بما مرّت روايته عن الواقدي.

فكان هذا كله بمراى ومسمع من ابن عباس، ولا شك كانت تجري مشاورات بينه وبين الإمام في كيفية معالجة الموقف المتأزم، وما يدرينا لعل من رأيه كانت العودة وتولي حسم الموقف حسب نظره إلا ان الإمام لم يأذن له بذلك. وهذا لئن كان مجرد احتمال من دون استدلال. فإن الذي لا شك فيه أنه لو عاد لزيد الموقف حراجة، فالبصرة حين يغلي مرجلها لا يصلح لها من يزيدا غلياناً، وربما ترهق نفسه، كما زهقت نفس محمد بن أبي بكر. وتذهب البصرة كما ذهب مصر بالأمس القريب.

فإن ابن عباس وما يجد في نفسه على بني تميم سابقاً قد زاده الموقف الحاضر عليهم حنقاً، ولا ريب لو رجع إلى البصرة فلسوف يستعمل معهم أقسى العقوبات فيضع السيف أمام السوط، ولا يقي ولا يدر، وهذا ما سيزيد النار أواراً، ويفسد تميم الكوفة، ويزيد في حنقهم عليه وعلى الإمام، ولا تؤمن عاديتهم، وربما ثارت ثائرتهم وحيثئذ يتسع الخرق، فلا يرتق الفتق. خصوصاً مع

ترخص ذوي الإحن والأحقاد لمثل ذلك الإنشقاق، فبدسوا آنافهم، ويزيدوا خلافهم ليصطادوا في الماء العكر، لأن إحن الثرات القديم بين القبائل في المجتمع العربي لا تزال آثاره في النفوس.

وإلى القارئ رواية مشهد واحد جرى في الكوفة في تلك القضية أمام الإمام وأمام ابن عباس، وكادت الفتنة تنفض برأسها، لولا أن تداركها الإمام بحكمته وحنكته فأحمد جدوتها:

قد روى أبو الكنود: «أن شيب بن ربيع قال لعلي عليه السلام يا أمير المؤمنين ابعث إلى هذا الحي من تميم فادعهم إلى طاعتك ولزوم بيعتك، ولا تسلط عليهم أزد عُمان الجعداء البغضاء، فإن واحداً من قومك خير لك من عشرة غيرهم.

فقال له مخنف بن سليم الأزدي: إن البعيد البغيض من عصى الله وخالف أمير المؤمنين وهم قومك، وإن الحبيب القريب من أطاع الله ونصر أمير المؤمنين وهم قومي، وأحدهم خير لأمير المؤمنين من عشرة من قومك.

فقال أمير المؤمنين عليه السلام مه تناهوا، أيها الناس وليردعكم الإسلام ووقاره عن التباغي والتهاذي، ولنجتمع كلمتكم والزموا دين الله الذي لا يقبل من أحد غيره، وكلمة الإخلاص التي هي قوام الدين، وحجة الله على الكافرين، واذكروا إذ كنتم قليلاً مشركين متباغضين متضرفين، فألف بينكم بالإسلام فكثرتم واجتمعتم وتحايبتهم فلا تفرقوا بعد إذ اجتمعتم ولا تتباغضوا بعد إذ تحايبتهم، وإذا رأيتم الناس بينهم النائرة وقد تداعوا إلى العشائر والقبائل، فاقصدوا لهاهم ووجوههم بالسيف حتى يفرعوا إلى الله وإلى كتابه وسنة نبيه.

فأما تلك الحمية من خطرات الشياطين، فاتتهوا عنها لا أباً لكم تفلحوا
وتتجروا»^(١).

فهذا الخبر الذي نتعامل معه كوثيقة تاريخية له دلالاته الحقيقية المؤسفة،
فلا نهدر مدلوله، فإنه كما يتسق مع مجرى الأحداث، فهو يلتقي مع الواقع المرير
الذي يعيشه المجتمع الإسلامي العربي يومئذ، فإحن الأصفهان لا تزال كامنة في
النفوس المرضي من تلك القبائل التي يتألف منها المجتمع سواء في الكوفة أو
البصرة أو غيرها من البلاد. ومتى أهيجت حاجت، وثارت الفتنة وماجت.

فإذن لم يكن من المصلحة أن يُرجع الإمام ابن عمه إلى مقر عمله في ذلك
الجو الملتهب الصاحب وهو يعرفه ذلك الحازم الغاضب. ولكنه أعاده بعد إخماد
فتنة ابن الحضرمي.

ولم تقف محنة الإمام عند هذا الحد، بل تجاوزته إلى شر منه، فقد بدأت
عشائر الخوارج تنفض إليه رؤوسها، فيقطعون عليه خطبته، ويردّون عليه دعوته،
ويشبطون الناس عن نصرته. ولم يتحرّجوا حتى عن مواجهته، لأنهم أمنوا سلطوته،
ولا أدل على ذلك من خبر الخريت بن راشد السامي - من ولد سامة بن لوي -
كما سيأتي:

روى الطبري عن عمر بن شبة بسنده عن الشعبي قال: «لَمَّا قَتَلَ عَلِيٌّ عليه السلام
أهل النهروان خالفه قوم كثير، وانقضت عليه أطرافه، وخالفه بنو ناجية، وقدم ابن
الحضرمي البصرة، وانقض أهل الأهواز، وطمع أهل الخراج في كسره، ثم
أخرجوا سهل بن حنيف من فارس - وكان عامل عليّ عليها -

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد ١/٣٥٢.

فقال ابن عباس لعلي: أكفيك فارس بزياد، فأمره علي أن يوجهه إليها، فقدم ابن عباس البصرة، ووجهه إلى فارس في جمع كثير فوطئ بهم أهل فارس فأدوا الخراج^(١)، وسيأتي شيء من حديثه.

ومن خير الشعبي هذا عرفنا زمن رجوع ابن عباس إلى البصرة، وقد بقي بها يدبر أمرها وأمر كور الأهواز الخمس التابعة لولايته. ولما حدثت مفارقة الخريت كان هو بالبصرة.

ولعل من الغريب أن يصير بعض الباحثين على مفارقة ابن عباس عمله بالبصرة مفاضياً لإمامه مستندين إلى ما رأوا من روايات تشير إلى ذلك أو غفلوا عن عدم استقامتها مع ما يرويه التاريخ من أحداث وقعت بالبصرة بعد حرب النهروان كحادثة ابن الحضرمي وقد مرّت، وكحادثة الخريت بن راشد الناجي وسيأتي ذكرها، وغيرهما ممّا دل على أن ابن عباس كان لا يزال أميراً على البصرة.

ومن أولئك كان طه حسين حيث جعل من حادثة ابن الحضرمي حجة على مفارقة ابن عباس فقال: «وبعض المؤرخين يزعم أن هذه الأحداث حدثت حيث كان ابن عباس قد ذهب إلى الكوفة مواسياً لعلي بعد مقتل محمد بن أبي بكر، واحتياز عمرو بن العاص لمصر، وهذا كلام لا يستقيم. فلو قد كان ابن عباس عند علي لعاد إلى البصرة مسرعاً حين بلغته هذه الأنباء، ولما أقام عند علي ينتظر أن يغني عنه زياد وأعين بن ضبيعة وجارية بن قدامة...»^(٢).

(١) تاريخ الطبري ١٢٢/٥ ط دار المعارف.

(٢) علي وبنوه / ١٦٤.

أقول: وهذا كلام لا يخلو من تجنّ علي ابن عباس، وقد بينت فيما مرّ
الجواب على ذلك فراجع.

والآن إلى حديث مفارقة الخريّت في بني ناجية:

مفارقة الخريّت بين راشد في بني ناجية:

روى الطبري بسنده عن أبي مخنف عن الحارث الأزدي عن عمه عبد الله
ابن مقيم قال: ((جاء الخريّت بن راشد إلى عليّ - وكان مع الخريّت ثلثمائة رجل
من بني ناجية مقيمين مع عليّ بالكوفة، قدموا معه من البصرة، وكانوا قد خرجوا
إليه يوم الجمل، وشهدوا معه صفين والنهروان - فجاء إلى عليّ في ثلاثين راكباً
من أصحابه يسير بينهم حتى قام بين يدي عليّ فقال له: والله لا أطيع أمرك، ولا
أصلي خلفك، وإني غداً لمفارقك - وذلك بعد تحكيم الحكيم -

فقال له عليّ: ثكلتك أمك إذا عصي ربك، وتكث عهدك، ولا تضر إلا
نفسك، خبرني لم تفعل ذلك؟.

قال: لأنك حكمت في الكتاب، وضعفت عن الحقّ إذ جدّ الجدّ، وركنت
إلى القوم الذين ظلموا أنفسهم، فأنا عليك زار، وعليهم ناقد، ولكم جميعاً مباين.
فقال له عليّ: هلمّ أدارسك الكتاب، وأناظرك في السنن، وأفاتحك أموراً من
الحقّ أنا أعلم بها منك، فلعلك تعرف ما أنت له الآن منكراً، وتستبصر ما أنت عليه
الآن جاهل.

قال: فأني عائد إليك.

قال: لا يستهويك الشيطان، ولا يستخفك الجهل، والله لئن استرشدتني
واستمحتني وقبلت مني لأهديتك سبيل الرشاد.

فخرج من عنده منصرفاً إلى أهله، فعجلت في أثره مسرعاً، وكان لي من بني عمه صديق، فأردت أن ألقى ابن عمه ذلك فأعلمه بشأنه، ويأمره بطاعة أمير المؤمنين ومناصحته، ويخبره أن ذلك خير له في عاجل الدنيا وآجل الآخرة. فخرجت حتى انتهيت إلى منزله وقد سبقني، فقممت عند باب داره. وفي داره رجال من أصحابه لم يكونوا شهدوا معه دخوله على عليّ. قال: فوالله ما خرم شيئاً مما قال، ومما ردّ عليه، ثم قال لهم: يا هؤلاء إنّي قد رأيت أن أفارق هذا الرجل، وقد فارقت عليّ أن أرجع إليه من غد، ولا أراني إلا مفارقة من غد.

فقال له أكثر أصحابه: لا تفعل حتى تأتيه، فإن أذاك بأمر تعرفه قبلت منه، وإن كانت الأخرى فما أقدرك على فراقه.
فقال لهم: فنعم ما رأيتم...».

ثم ذكر الطبري مفارقتة في أصحابه، وبلغ الإمام ذلك: ((فقال: قد فعلوها، بعداً لهم كما بعدت ثمود، أما لو قد أشرعت لهم الأستة، وصيّبت عليّ هامهم السيوف لقد ندموا. إن الشيطان اليوم قد استهواهم وأضلهم، وهو غداً متبرئ منهم ومخلّ عنهم.

قال: فقام إليه زياد بن خصفة فقال: يا أمير المؤمنين، إنّه لو لم يكن من مضرة هؤلاء إلا فراقهم إيتانا لم يعظم فقتلهم فناسى عليهم، فإنهم قلما يزيدون في عددنا لو أقاموا معنا، وقلما ينقصون من عددنا بخروجهم عنا، ولكننا نخاف أن يفسدوا علينا جماعة كثيرة ممن يقدمون عليه من أهل طاعتك، فإذا نزل في إيتابهم حتى أردّهم عليك إن شاء الله.

فقال له علي: وهل تدري أين توجه القوم؟ فقال: لا، ولكنني أخرج فأسأل
وأتبع الأثر.

فقال له: أخرج رحمك لله حتى تنزل دير أبي موسى، ثم لا توجه حتى
يأتيك أمري، فإنهم إن كانوا خرجوا ظاهرين للناس في جماعة، فإن عمالي
ستكتب إلي بذلك، وإن كانوا متفرقين مستخفين فذلك أخفى لهم. وسأكتب
إلى عمالي فيهم. فكتب نسخة واحدة فأخرجها إلى العمال:

أما بعد، فإن رجالاً خرجوا هرباً ونظنهم وجهوا نحو بلاد البصرة، فسئل
عنهم أهل بلادك واجعل عليهم العيون في كل ناحية من أرضك، واكتب إلي
بما ينتهي إليك عنهم، والسلام.

فخرج زياد بن خصيفة وجمع أصحابه فخرجوا حتى نزل دير أبي موسى
فأقام فيه بقية يومه ذلك ينتظر أمر أمير المؤمنين^(١).

وروى أبو مخنف بسنده عن عبد الله بن وال التيمي: ((إن رسول قرظة بن
كعب الأنصاري ورد على الإمام بكتاب منه فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد فأني أخير أمير المؤمنين إن خيلاً مرّت بنا
من قبل الكوفة متوجهة نحو نقر^(٢) وإن رجلاً من دهاقين أسفل الفرات قد صلى
يقال له زاذان فروخ أقبل من قبل أخواله بناحية نقر فعرضوا له فقالوا أمسلم أنت
أم كافر؟ فقال: بل أنا مسلم، قالوا فما قولك في علي؟ قال: أقول فيه خيراً، أقول:
إنه أمير المؤمنين وسيد البشر، فقالوا له: كفرت يا عدو الله.

(١) تاريخ الطبري ١١٣/٥ ط دار المعارف.

(٢) نقر: بلدة أو قرية من نواحي بابل، وقيل من أعمال البصرة (مراسد الاطلاع).

ثم حملت عليه عصاة منهم قطعوه، ووجدوا معه رجلاً من أهل الذمة فقالوا: ما أنت؟ قال: رجل من أهل الذمة، قالوا: أما هذا فلا سبيل عليه، فأقبل إلينا ذلك الدمى فأخبرنا هذا الخبر، وقد سألت عنهم فلم يخبرني أحد عنهم بشيء، فليكتب اليّ أمير المؤمنين برأيه فيهم أنه إليه والسلام».

وذكر أبو مخنف جواب الإمام وكتابه إلى زياد بن خصفة يأمره باتباع إثمهم: «فسار زياد قاصداً نقر فوصلها فلم يجدها ووجد خبرهم أنهم ارتفعوا إلى جرجرايا^(١) فتبعهم وسأل عنهم فقيل له إنهم أخذوا نحو المذار^(٢) فلحقهم وأدركهم وقد مسه وأصحابه التعب، وأضناهم النصب وهم سغب^(٣) لغب^(٤) فلما رأوا الخريت ومن معه واقفوه وجرى بينهما كلام لاينهم فيه زياد وطلب منهم النزول ثم الاجتماع والتضام حول ما حملهم على المجيء به، فقبل الخريت ونزل الطرفان واستراح زياد وأصحابه، ثم تم الاجتماع بينه وبين الخريت ومع كل واحد منهما خمسة من أصحابه، ولم يسفر الاجتماع إلا عن الحرب فقتل من أصحاب زياد إثنان هما مولاة سويد ورجل آخر، بينما قتل خمسة من أصحاب الخريت وقتل الجراح في الطرفين وحجز بينهما الليل، وأدلى الخريت بمن بقي معه فلما أصبح زياد قلم ير منهم أحداً، سار يطلبهم وأتاه الخبر بأنهم

(١) جرجرايا: بفتح الجيمين وتمكين الراء الأولى وفتح الثانية، بلد من أعمال النهروان الأسفل بين واسط وبغداد من الجانب الشرقي (مراسد الاطلاع).

(٢) المذار: بالفتح وآخره راء بلدة في ميسان بين واسط والبصرة، وهي قصبية ميسان بينها وبين البصرة نحو من أربعة أيام (نفس المصدر).

(٣) سغب: سغبا وسغويا جاع فهو ساقب وهم سغب ولا يكون السغب إلا الجوع مع التعب وربما سمي العطش سغبا (المصباح المنير).

(٤) لغب: لغباً ولغويا تعب وأعبا (نفس المصدر).

بلغوا الأهواز ونزلوا جانباً منه، وتلاحق مع الخريت من كان على رأيه من أهل الكوفة نحو من مائتين، فأتى زياد بن خصفة إلى البصرة، وكان ابن عباس يومئذ بها، فأخبره وكتب إلى الإمام بتفصيل ما جرى له، فندب الإمام ألفين من أهل الكوفة مع معقل بن قيس، وكتب إلى ابن عباس: (أما بعد فابعث رجلاً من قبلك صليلاً شجاعاً معروفاً بالصلاح في ألفي رجل فليتبع معقلاً، فإذا ببلاد البصرة فهو أمير أصحابه حتى يلقى معقلاً، فإذا لقي معقلاً فمعقل أمير الفريقين، وليسمع من معقل وليطعه، ولا يخالفه، ومر زياد بن خصفة فليقبل، فنعم المرء زياد، ونعم القبيل قبيله والسلام).

فندب ابن عباس الناس مع خالد بن معدان الطائي - وكان من ذوي البأس والنجدة والحزم والرأي - وأوصاه بطاعة معقل إذا لقيه، وأنه الأمير عليه، وخرج خالد ومعه ألفان من مقاتلة البصرة، وأرسل ابن عباس بنفيج^(١) يشتد ليلحق معقل ومعه كتاب فيه:

أما بعد فإن أدركك رسولي بالمكان الذي كنت فيه مقيماً، أو أدركك وقد شخصت منه فلا تبرح المكان الذي ينتهي فيه إليك رسولي واثبت فيه حتى يقدم عليك بعثنا الذي وجهناه إليك. فإنني قد بعثت إليك خالد بن معدان الطائي، وهو من أهل الإصلاح والدين والبأس والنجدة فاسمع منه واعرف ذلك والسلام.

فأدرك النفيج معقلاً وقد سار من الأهواز فلما قرأ الكتاب أقام حتى أتاه خالد ومن معه من مقاتلة البصرة، فسار يتبع آثار الخريت فبلغه أنه وأصحابه

(١) النفيج، هو رسول السلطان يسمى على قومه (المصباح المنير).

يرتفعون نحو جبال رامهرمز^(١) يريدون قلعة حصينة بها، فخرج معقل في إثرهم ولحقهم وقد دنوا من الجبل، فأوقع بهم وقعة انجلت عن قتل ثلثمائة من العلوج والاكراد الذين كانوا مع الخريت وجرح سبعين من قومه ومن غيرهم، وهزيمته ومن بقي معه شر هزيمة حتى لحق بأسياف البحر، وكان هناك جماعة من قومه، وكتب معقل إلى الإمام يخبره بكل ما جرى فاتاه الجواب باتباع الخريت وجماعته واستئصال شأفتهم.

فسار معقل يطلبه وقد بلغه أنه انتهى إلى أسياف البحر، وقد رد قومه عن طاعة الإمام، وأفسد من قبله من عبد القيس ومن والاهم من سائر العرب، وكان قومه قد منعوا الصدقة عام صفتين ومنعوا في ذلك العام أيضاً، فكان عليهم عقالان، فسار إليهم معقل في ذلك الجيش من أهل الكوفة وأهل البصرة، فبلغ الخريت خبره، فأقبل على من كان معه وهم فرق أشتات في آرائهم، منهم نصارى، ومنهم كانوا نصارى وأسلموا، ومنهم نصارى ارتدوا، ومنهم خوارج محكمة، وخوارج غير محكمة، ومنهم عثمانية، فأقبل على كل فرقة يوعدهم وإن حكم الإمام لضرب العنق ساعة يستمكن منهم، ولما وصل معقل رفع راية أمان وقال من أتاها فهو آمن إلا الخريت وأصحابه الذين حاربونا وبدأونا أول مرة، فانحاز إليها كثير، وتفرق عن الخريت جل من كان معه من غير قومه، ولم يبق معه غير قومه مسلموهم ونصاراهم ومائة الصدقة منهم. فقاتلهم معقل فقتل الخريت ومائة وسبعون من أصحابه، وذهب الباقرن يميناً وشمالاً، فغنم معقل ما كان في رحالهم وسبى أناساً كانوا هناك، فنظر فيمن كان مسلماً جدد البيعة عليه

(١) رامهرمز: مدينة مشهورة بناوحي خوزستان (مراصد الاطلاع).

وخلّى سبيله، ومن كان مرتدّاً عرض عليه الإسلام فمن أبى منهم قتله، وأخذ من المسلمين عقالين صدقة عام صفيين وذلك العام، وساق السبي معه راجعاً نحو الكوفة، فمرّ بمصقلة بن هبيرة الشيباني وكان عامل الإمام على اردشير خرة^(١) فاستغاث السبايا به، فساوم معقلاً على شرائهم، فاشتراهم وكانوا خمسمائة إنسان بألف ألف، ودفعهم معقل إليه وقال له حجلّ بالمال إلى أمير المؤمنين، فقال: أنا باعث الآن بصدور، ثمّ أبعث بصدور آخر كذلك حتى لا يبقى منه شيء إن شاء الله تعالى.

وعاد معقل بمن معه من أهل الكوفة إليها وأخبر الإمام بفعل مصقلة وأنه خلّى سبيل الأسارى ولم يسألهم أن يعينوه في فكّك أنفسهم بشيء، فقال الإمام: ما أظن مصقلة إلا قد تحمّل حمالة، ولا أراكم إلا سترونه مبلداً - المبلد: ضعيف الرأي عاجز الهمة - وكتب إليه يستعجله بإرسال المال، وإلاّ يقدم عليه بنفسه. وعاد خالد بن معدان بمن معه من أهل البصرة إليها، وبلغ ابن عباس خبر مصقلة، ولما كان تابعاً في عمالته إلى ولاية البصرة بقي ينتظر إرسال المال)).

قال الطبري: ((وكان عمال البصرة يحملون - المال - من كور البصرة إلى ابن عباس، ويكون ابن عباس هو الذي يبعث به إلى عليّ.

وأتى مصقلة بنفسه يريد الإمام، فنزل في طريقه بالبصرة فطالبه ابن عباس بالمال، فقال له: نعم أنظرني أياماً، ثمّ أتى الإمام بالكوفة فأقرّه أياماً ثمّ سأله المال

(١) اردشير خرة: من أجل كور فارس ومنها مدينة هيراز وجور وخبروميمند والخواز وسيراف وكانزونا وقهرها من احيان مدن فارس وأكثرها ممتد على البحر قصبتهها سيراف (مراصد الاطلاع).

فأدى منه مائتي ألف، وعجز عن الباقي ففرّ هارباً إلى معاوية وبلغ الإمام ذلك فهدم داره وقال: (ما له برّحه الله فعل فعل السيّد، وفرّ فرار العميد، وخان خيانة الفاجر، أما والله لو أنّه أقام فعجز ما زدنا على حبسه، فإن وجدنا له شيئاً أخذناه، وإن لم نقدر على مال تركناه))^(١).

وهنا لابدّ لي من وقفة مع الذين نقدوا سياسة الإمام في تلك الحالة. وإنّما هم على شاكلة مصقلة بن هيرة الذي كان يقول: ((أما والله لو أنّ ابن هند أو ابن عفان لتركها لي.

ويقول لصديق له: ألم تر إلى ابن عفان حيث أطعم الأشعث من خراج أذربيجان مائة ألف في كلّ سنة. فقال له صاحبه وهو يحاوره: إنّ هذا لا يرى هذا الرأي، لا والله ما هو بياذل شيئاً كنت أخذته))^(٢).

قال الدكتور طه حسين: ((وكان أمر مصقلة هذا من أوضح الأدلة وأقواها على طبيعة الطاعة التي كان كثيراً من أشراف أهل العراق يبذلونها لعليّ، فقد التوى بدّيته، وحمل إلى ابن عباس، فلمّا طالبه ابن عباس بأداء الدين قال: لو قد طلبت أكثر من هذا إلى ابن عفان ما منعتني إياه...

فلم تكن طاعة مصقلة إذا لعليّ طاعة الرجل الذي يُصدر في كلّ ما يأتي عن معرفة الحقّ والإيمان به والقيام دونه والصبر على ما يكون من نتائج هذا كلّه، وإنّما كانت طاعته طاعة رجل من الناس لخليفة من الخلفاء، رجل يؤثّر

(١) تاريخ الطبري ٦٥/٦ - ٧٥ ط الحسينية و ١١٣/٥ - ١٣٠ ط دار المعارف وشرح النهج لابن

أبي الحديد ٣٦٤/١ - ٣٧١ ط مصر الأولى.

(٢) تاريخ الطبري ١٣٠/٥ ط دار المعارف.

العافية ويتنزه الفرصة ويتغني لنفسه الخير مهما يكن مصدره، يعنيه أمر نفسه قبل أن يعنيه أي شيء آخر.

ولم يكن مصقلة فذاً في ذلك، وإنما كان له أشباه من أشراف الناس فضلاً عن عامتهم في الكوفة والبصرة جميعاً، فهو يشتري الأسرى ويعتقهم لا يتغني ثواب الله، ولا يتغني حسن الأحداث، وإنما يستجيب للعصية وحدها، ويتخذ المكر بالسلطان وسيلة إلى إرضائها، فإذا علم السلطان مكره وطالبه بالحق لم يصطبر له، ولم يؤذ منه ما لزمه، وإنما فرّ إلى الذين يحاربون الخليفة، ويكيدون له، فأصبح عدواً بعد أن كان ولياً. ولم يكن لقاء معاوية له وترحيبه به وإيثاره إياه بالمعروف خيراً من التواته هو بالذين وفراره هو إلى الشام، وإنما كان كيداً من الكيد، ومكراً من المكر، ومكافأة على ما لا يحسن أن يكافأ عليه المسلم الصدوق، إنما كان ذلك يحسن لو قد فرّ إلى معاوية رجل من الروم ليكيد معه لقيصر، ويؤينه على غزو العدو، فأما أن يؤوي من كاد معه لإمامه لا بشيء، ونكث عهده لا بشيء، إلا لأنه قد يعينه على إفساد أمر العراق، فهذا هو الذي يبين وجهاً خطيراً من وجوه السياسة التي أراد معاوية أن يقيم عليها أمر السلطان الجديد، سياسة الدنيا بأغراضها وأغراضها، وبمنافعها وآربها، وباهوائها وشهواتها^(١).

وهنا يظهر الفرق واضحاً بين مذهب علي في السياسة التي تُخلص للدين،

ومذهب معاوية في السياسة التي تخلص للدنيا.

(١) علي وبنوه / ١٢٧-١٢٨ ط دار المعارف.

وقال: ((ومضى امتحان عليّ على هذا النحو المرّ، خيانةً من الوليِّ وكيداً من العدو، وهو بين ذلك كله مصمّم على خطئته الواضحة، لا يرضى الدتية من الأمر، ولا يُدهن في دينه، ولا يتحوّل عن سياسته الصريحة قليلاً ولا كثيراً، والمحن تتابع عليه ويقفو بعضها إثر بعض، وهو ماضٍ في طريقه لا ينحرف عنه إلى يمين أو إلى شمال، يبلغ منه الغيظ أقصاه، ويضيق بحياته أشد الضيق، فلا يزيد عليّ أن يجمجم ويظهر غيظه دون أن يلفته شيء من ذلك عمّا صمّم عليه))^(١).

بواثق معاوية:

لم يدع معاوية فرصة تمرّ به دون أن يتتهزها للكيد للإمام عليه السلام، من غارات على أطراف البلاد التي تتبع الإمام في حكومته، فشاع الخوف والرعب في نفوس الناس من جراء تلك الغارات، وقد ذكر المؤرخون كثيراً منها، وجمع منها بعضهم ما سمي بها كتاب الغارات وذلك هو محمّد بن إبراهيم الثقفي المتوفى سنة ٢٨٣هـ ولم يقصر عنه ابن أعثم المتوفى سنة ٣١٤هـ في كتابه الفتوح في ذكرها وكذلك الطبري المتوفى سنة ٣١٠هـ.

فذكروا أن معاوية وجّه النعمان بن بشير سنة تسع وثلاثين إلى عين التمر في أفي رجل فأغاروا عليها، وكان بها مالك بن كعب مسلّحاً للإمام في مائة رجل فكتب مالك إلى عليّ يخبره بأمر النعمان ومن معه، فخطب عليّ الناس وأمرهم بالخروج فشقوا، وواقع مالك النعمان، والنعمان في أفي رجل ومالك في مائة رجل، وأمر مالك أصحابه أن يجعلوا جذر القرية في ظهورهم. وكتب

(١) نفس المصدر/١٢٩.

إلى مخنف بن سليم يسأله أن يمدّه - وهو قريب منه - ووجه ابنه عبد الرحمن في خمسين رجلاً فانتهوا إلى مالك وأصحابه وقد كسروا جفون سيوفهم، واقتتلوا أشد قتال، واستمتلوا، فلمّا رأهم أهل الشام ظنوا أن لهم مدداً فانهزموا عند المساء، وتبعهم مالك فقتل منهم ثلاثة ...

ويبلغ الخبر إلى الإمام فاستنهض الناس فتأقّلوا، فخطبهم وقال: (يا أهل الكوفة كلما سمعتم بمنسر من مناسر أهل الشام أظلكم وأغلق باب، انحجر كل امرئ منكم في بيته انحجار الضبّ في جحره والضبغ في وجارها، المغرور من غررتموه، ولمن فاز بكم فاز بالسهم الأخيبي، لا أحرارٌ عند النداء، ولا اخوان ثقة عند النجاء، إنا لله وإنا إليه راجعون، ماذا مُنيت به منكم، عمي لا تبصرون، وبكم لا تنطقون، وصم لا تستمعون، إنا لله وإنا إليه راجعون)^(١).

وإلى القارئ عرضاً سريعاً بأسماء من بعثهم معاوية في تلك الغارات انتقاءً من الجزء الرابع من كتاب الفتوح لابن أعمش ط دار الندوة الجديدة. بيروت:

١- غارة الضحاك بن قيس الفهري: نزل الثعلبية ثم سار إلى القلعة وهي على بعدٍ قريب من الكوفة.

فأرسل الإمام حجر بن عدي في ألف فارس فطاردهم وأدركهم في بلاد كلب فقاتلهم فقتل من أهل الكوفة ومن أهل الشام سبعة ورجع الضحاك إلى معاوية مغلولاً مهزوماً^(٢).

(١) تاريخ الطبري ١٣٣/٥ - ١٣٤ ط دار المعارف باقتضاب.

(٢) الفتوح ٣٧/٤ - ٣٨.

٢- تسيير يزيد بن شجرة الرهاوي في ثلاثة آلاف إلى مكة المكرمة، ليطردوا لي الإمام - وهو يومئذ قثم بن العباس - فدخلها الرهاوي وكادت الفتنة أن تقع لولا رعاية قثم لحرمة البيت الحرام وتوسط أبي سعيد الخدري في أن يقيم الحج للناس شية بن عثمان العبدري واستجد قثم بالإمام فأرسل الإمام (١٧٠٠) رجلاً من فرسان العرب فيهم الريان بن ضمرة بن هوذة الحنفي وأبا الطويل عامر بن وائلة فخرجوا من الكوفة أول ذي الحجة وقد فات الوقت، فأدركوا الرهاوي قافلاً في وادي القرى فاصابوا عشرة من الشاميين فأسروهم وعادوا إلى الإمام فأمر بحبسهم وقال: لنا في يد معاوية أسارى فإذا أطلقهم أطلقنا نحن هؤلاء إن شاء الله تعالى^(١).

٣- غارة الحارث بن نمير التتوخي في الف على بلاد الجزيرة فأغاروا على قوم من بني تغلب ممن كانوا في طاعة الإمام فأسروا منهم ثمانية وانصرفوا راجعين، فكتب الإمام إلى معاوية في شأن الأسارى، وتم إطلاق الأسارى من الطرفين^(٢).

٤- غارة سفيان بن عوف الغامدي على أراضي العراق فبلغوا هيت والأنبار، فبلغ الإمام ذلك وهم أن يسير إليهم بنفسه ثم سیر إليهم خيلاً بقيادة سعيد بن قيس الهمداني، وسار فلم يلحق به^(٣).

٥- غارة عبد الرحمن بن أشيم على بلاد الجزيرة، فصنّده شيبب بن عامر - وكان مقيماً بنصيبين في ستمائة رجل - وكميل بن زياد - وكان مقيماً في هيت

(١) نفس المصدر ٣٨/٤ - ٤٥ -

(٢) نفس المصدر ٤٥/٤ - ٤٧ -

(٣) نفس المصدر ٤٧/٤ - ٥٠ -

في أربعمائة رجل - ووقعت الهزيمة في أهل الشام فقتل منهم بشر كثير، وقُتل من أصحاب شيبب أربعة ومن أصحاب كميل اثنان^(١).

٦- غارة بسر بن أبي أرطاة على الحجاز واليمن وأوصاه معاوية: واقتل كل من نابذك حتى تدخل أرض اليمن. فأتى المدينة فقتل بها خلقاً كثيراً وأمر بدور من الأنصار فحرقت وهدمت.

وسار إلى مكة فخافه أهلها فخرجوا هارين. وسار إلى الطائف فلم يؤذ أهلها لشفاعة المغيرة بن شعبة، ولكنه أرسل إلى تبالة - وهي قرية - بها يومئذ قوم من شيعة الإمام فأمر بقتلهم جميعاً.

ثم سار إلى نجران فقتل من كان من شيعة الإمام، وسار إلى بلاد همدان وبها قوم من أرحب من شيعة الإمام فقتلهم عن آخرهم.

وسار إلى صنعاء وقد خرج منها عبيد الله بن العباس - وهو الوالي - هارباً واستخلف عمرو بن أراكه فقتله بسر صبراً وقتل كل من كان شيعة للإمام حتى لم يبق منهم أحداً - وفي الطبري: ((ولقي بسر ثقل عبيد الله بن عباس وفيه اثنان له صغيران فذبحهما، وقد قال بعض الناس أنه وجد ابني عبد الله بن عباس عند رجل من كتانة من أهل البادية، فلما أراد قتلهما قال الكناني: علام تقتل هذين ولا ذنب لهما، فإن كنت قاتلتهما فاقتلني قال: افعل فبدأ بالكناني فقتله ثم قتلتهما))^(٢) - وفي قتلها قالت أمهما أم حكيم بنت قارظ اشجى رثاء فقالت:

(١) نفس المصدر ٤/٥٠.

(٢) الطبري ٥/١٤٠.

كالدرّتين تشظّلي عنهما الصدف	ها من أحسنّ بابنيّ اللذّين هما
سمعي وقلبي فقلبي اليوم مزدهف	ها من أحسنّ بابنيّ اللذّين هما
مخ العظام فمخّي اليوم مختطف	ها من أحسنّ بابنيّ اللذّين هما
من قولهم ومن الإفك الذي اقترفوا	نبئت بسراً وما صدقت ما زعموا
مشحوذة وكذاك الإفك يُقترف	أنحى على ودجي ابنيّ مرهفة
شمّ الأتوف لهم في قومهم شرف	حتى لقيت رجالاتي من أرومتي
هذا لعمر أبي بسر هو السرف	فالآن العن بسراً حق لعنته
على صبيّين ضلاً إذ غدا السلف	من دلّ والهة حسريّ مدلهة

وكان اسم أحدهما عبد الرحمن والآخر قثم^(١).

ولأمهما فيهما أشعار كثيرة^(٢) قال ابن الأثير^(٣): وهي أبيات مشهورة.

روى الذهبي: ((إن معاوية لما بويع وبلغه قتال عليّ أهل النهر كاتب وجوه من معه مثل الأشعث، ومناهم وبذل لهم حتى مالوا إلى معاوية، وتناقلوا عن المسير مع عليّ فكان يقول فلا يلتفت إلى قوله، وكان معاوية يقول: لقد حاربت عليّاً بعد صفتين بغير جيش ولا عتاد))^(٤).

وهكذا حارب معاوية الإمام في بلاده التابعة لحكمه، حتى بان المخل في الأطراف الشرقية منها، فقد أراد أهل فارس وكرمان أن يكسروا الخراج وطعموا

(١) الفتوح ٥٩/٤.

(٢) دائرة المعارف للبيستاقني ٣٨٣/١ ط بيروت.

(٣) تاريخ ابن الأثير ١٦٧/٣.

(٤) سير اعلام النبلاء ٣٠٢/٤٤ ط دار الفكر بيروت (ترجمة معاوية).

فيه، وتجاوزوا ذلك إلى طرد سهل بن حنيف الأنصاري وكان عامل الإمام بفارس استضعافاً منهم له، وبلغ ذلك الإمام فساءه الخبر، وشاور أصحابه ومنهم ابن عباس فقال: أكفيك فارس، وأرسل زياد ابن أبيه ومعه من الجند ما استطاع به أن يخضع تلك البلاد وضبطها حتى قال قائلهم: ما رأينا سيرة أشبه بسيرة كسرى أنوشروان من سيرة هذا العربي.

ويبقى عاملاً على فارس بقية خلافة الإمام وأيام خلافة الإمام الحسن السبط، واحتال عليه معاوية بعدئذ حتى استلحقه، فصار عدواً بعد أن كان ولياً، كآلدي آتياه آياتنا فاستهوته الشياطين فأنسلخ منها فأصبح من الغاوين.

وصار ابن عباس بعد ذلك إذا خرج إلى الكوفة استخلف على البصرة أبا الأسود الدؤلي.

ابن عباس في الكوفة:

لقد مرت بنا بعض النصوص لها دلائلها على مدى ما اعتورت الإمام من محن داخلية وخارجية حين صار أعداؤه يكيدونه بها، وصار هو يتميز غيظاً، ويتعجر غضباً، فهو حين يخطب - ولا أبلغ منه خطيب - لا يلقي السامع المجيب، ولما استنهضهم وجدهم تقالاً، هم سماعون للكذب، صمُّ بكم عن مواعظه، فزاد ذلك في ألمه وهرمه، وبلغ الحزن منه مبلغه. ومما جاوز الحد في ذلك دخول (عمرو بن الحمق وحجر بن عدي وحبة القرني والحارث الأعور وعبد الله بن سبأ على أمير المؤمنين عليه السلام) بعدما افتتحت مصر وهو مغموم حزين فقالوا له بين لنا ما قولك في أبي بكر وعمر؟ فقال لهم علي عليه السلام وهل فرغتم لهذا؟ وهذه مصر قد افتتحت وشيعتي بها قد قُتلت. أنا مخرج إليكم كتاباً أخبركم فيه عما

سألتهم، وأسألكم أن تحفظوا من حقي ما ضيَعْتُمْ، فأقروؤهُ على شيعتي وكونوا على الحقِّ أعواناً).

ثم ذكر الرواة نسخة الكتاب، وأحسب أن أقدم نص في ذلك هو رواية ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٠هـ في الإمامة والسياسة^(١)، ومن بعده رواية إبراهيم بن محمّد الثقفي المتوفى سنة ٢٨٣هـ في الفارات^(٢)، وقد ذكر الشريف الرضي بعض الفقرات بعنوان (ومن خطبة له: أن الله بعث محمداً ﷺ) وفقرات أخرى متفرقة، وذكر الكتاب أيضاً ابن جرير الطبري الإمامي في المسترشد^(٣).

فمن شاء الكتاب فليرجع إلى المصادر المذكورة فإنه يفيض ألماً ويتفجّر سأمًا وبرماً، ولا شك أن ذلك الحال والمقال كله كان يبلغ ابن عباس وهو بالبصرة من خلال مراسلات الإمام إليه ورسله، فضلاً عما يتحدث به الناس ويتناقلونه من أخبار تخاذل المجتمع الكوفي، ومن الطبيعي كان لذلك تأثيره على المجتمع البصري الذي لم يكن هو الآخر أحسن حالاً من المجتمع الكوفي إن لم يكن أسوأ لتركيبته السكانية، واتساع رقعة ولاياته التابعة لإمارته، وقد قرأنا أخبار ما جرى في بعض الولايات التابعة للبصرة في حكومتها نحو ما مرّ عن فارس وكور الأهواز، وخبر الخريّت بن راشد في سيف البحر من أطراف رامهرمز، وعامل أردشير خرة. إلى غير ذلك ممّا لم نذكره ممّا دل على عُنف الزلزال الذي بدأ يهزّ المجتمع الإسلامي الذي يحكمه الإمام، وينخر بنية المجتمع في البصرة والكوفة بل واليمن وغيرها على حدّ سواء.

(١) الإمامة والسياسة ١٢٩/١ - ١٣٣ ط ١٣٢٨ سنة ١٣٢٨ بمصر.

(٢) الفارات ٣٠٢/١ - ٣٢٢ تح السنيّد جلال الدين الحسيني (محدث).

(٣) المسترشد ٩٥/ - ١٠٣ ط الحيدرية مع زيادات.

وكان والحال هذه لابن عباس من الذهاب إلى الكوفة بين فترة وأخرى ما وسعه ذلك، لمواساة الإمام والتخفيف عنه بعض حزنه، وقد مرّ بنا حضوره بعد مقتل محمد بن أبي بكر رضي الله عنه ليعزي الإمام بمقتل محمد، فقتله كان الفادحة العظمى التي سلبت مصر من حكومة الإمام، وجريمة شنعاء ارتكبها ابن العاص وجنده في قتله.

ولما لم تكن لدينا تواريخ محدّدة باليوم والشهر لذلك الحضور ولا غيره ممّا يشابهه، فصرنا نستعين في التحديد التقريبي بنصوص الوثائق التي يرد فيها ما يشير إجمالاً إلى حدّث معين. ونحن من خلال تلك النصوص نستشفّ تاريخ الحضور.

ولدينا الآن نصّان لهما أهميتهما القصوى في تصوير الحزن الذي أحاط بالإمام من ست جهاته - كما يقال في المثل - وهما متشابهان شبيهاً كثيراً في المضمون ممّا جعلنا نذكرهما كصنوين. مضافاً إلى الزمان والمكان فكلّ منهما حدّث في الكوفة، وكلّ منهما يرويّه ابن عباس رواية حضور ولا يخفى أنّ عنصر المشاهدة أكثر ضبطاً للخصوصيات ويمتاز بها الراوي على غيره من رواة السماع.

كما أنّ كلاهما فيه لابن عباس أثر ذاتي يعكس مشاركته للإمام في أحزانه بوجدانه.

كما نرى فيهما الإمام يفضي إليه بما يتلج بصدوره ممّا لحقه من ظلم الأمة له وهضمها لحقوقه، ومن غريب الصدف أن نجدهما معاً يتهبان بمفاجأة تعرض فينهي الإمام كلامه عندها.

فما هما النصان؟

إنهما الخطبة الشقشقية وصنوها، ولا مشاحة في الاصطلاح لو سمينا النص الثاني بذلك لما مرّ من أوجه الشبه بينهما.

والآن إلى قراءة عابرة لهما :

أولاً: الخطبة الشقشقية:

ولمّا كانت شهرتها وفيما كتب عنها ما يفني عن الإفاضة في أدلة إثباتها^(١) فلا نطيل الوقوف عند ذلك. إلا أنّنا لا مناص لنا من التّيه على أمور اقتضى المقام ذكرها:

١- إن المصادر التي روت الخطبة كلها تقريباً روت النص عن ابن عباس، اللهمّ إلا ما وجدناه في سند واحد عند الشيخ الطوسي تنتهي روايته إلى الإمام الباقر عليه السلام، فقد روى الخطبة عن ابن عباس كما رواها عن أبيه عن جده - يعني الإمام الحسين عليه السلام.

٢- ممّا يشير الغرابة والتساؤل، كيف تكون خطبة على المنبر يسمعها من حضر، ولا شك بأنهم كانوا كثيرين وإن لم نعلم عددهم بالضبط، فلا تشتهر روايتها إلا عن ابن عباس فلماذا لم يروها الآخرون؟

ثمّ ما بال الرواة عن ابن عباس لهذه الخطبة لم نعرف منهم إلا الإمام الباقر الطاهر عليه السلام، وإلا عطاء بن أبي رباح وعكرمة الخارجي الخاسر مع كثرة الذين يروون عنه؟

(١) راجع مصادر نهج البلاغة للمرحوم السيّد عبد الزهراء الخطيب ٣٠٩/١ - ٣٢٤ ط الأعلمي - بيروت.

والذي يدفع الإستغراب ويُقنع السائل بالجواب، هو أن الخطبة تناول فيها الإمام حكومة المخالفين قبله، وندد بهم حتى وصف كلاً منهم بأوصاف لم تدع مجالاً للشك في أنهم تآمروا على استعباده عن حقه المشروع، ولما شاعت ووصلت أنباؤها حتى الشام، اتخذها معاوية وحزبه ذريعة للتبديد بالإمام - كما سيأتي ذلك في حديثنا عن الصنو - ولما ولي معاوية بعد ذلك متغلباً على الأمة ومنع الناس من التحدث بفضائل الإمام، وأمر بإشاعة احاديث موضوعة في فضائل الصحابة، كان من الطبيعي أن ينال التعميم الإعلامي تلك الخطبة، فلا يجسر أحد على روايتها، اللهم إلا الإمام الحسين الذي رواها عنه ابنه الإمام السجاد، وعنه ولده الإمام الباقر عليه السلام، وإلا ابن عباس الذي كان معلناً بمر الحق في مجابهة معاوية وسلطانه - كما ستأتي الشواهد على ذلك في الحديث عن أيام معاوية - وفي صفحة احتجاجاته.

لذلك قلت الرواية عنه إلا من طريق ثلاثة فحسب، هم الإمام الباقر عليه السلام، وعطاء وعكرمة ولما كان الثالث هو مولى ابن عباس، فلعل روايته عنه ورواية عطاء كاتبا حين سماعهما منه وهو يحدث بها الإمام الباقر عليه السلام لذلك قل روايتها عنه، وكانت سلسلة الرواة عن عكرمة تنتهي إلى أصحاب الإمام الباقر عليه السلام، فقد رواها عنه أبان بن تغلب وعلي بن خزيمة - كما في أسانيد الصدوق - فذلك يقرب صحة ما احتملناه في سماع عكرمة لها، لذلك لم يتطرق الريب إليه في روايته للخطبة على أنه خارجي.

٣- ورد في إرشاد الشيخ المفيد وشرح النهج للقطب الراوندي أن الخطبة كانت بالرجبة، ويبدو أن المكان كان متدي القوم وقد ورد ذكر الرجبة في

حديث المناشدة الذي استشهد فيه الإمام من سمع حديث الغدير فشهد أقوام وأبلس آخرون كان منهم أنس بن مالك وزيد بن أرقم فدعا عليهما فبرص أنس وعمي زيد. والرحبة المشار إليها إنما هي رحبة الجامع بالكوفة وهي الفناء الذي أمامه. وليس في تعيين ذلك المكان كبير شأن لولا ما وجدته في تذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي وهو يذكر الخطبة فقال: «خطبة أخرى، وتعرف بالشقشقية ذكر بعضها صاحب نهج البلاغة وأخلّ بالمعنى وقد آتيت بها مستوفاة. أخبرنا بها شيخنا أبو القاسم النفيس الأنباري بإسناده عن ابن عباس قال: لما بويع أمير المؤمنين بالخلافة ناداه رجل من الصف وهو على المنبر ما الذي أبطأ بك إلى الآن؟ فقال: بديها؛ والله لقد تقمصها...»^(١).

وهذا أمر منه غريب فإن بيعة الإمام كانت بالمدينة، والخطبة تناولت ذكر الناكثين والقاسطين والمارقين فكيف يصح ما ذكره السبط؟ ولو أنه ذكر لنا تمام سند شيخه النفيس لكان أولى.

والآن إلى رواية النص بأسانيد المشايخ الأعلام الثلاثة: الصدوق، والطوسي، والقطب الراوندي.

فقد رواه الصدوق فقال: «حدثنا محمد بن إبراهيم بن إسحاق الطالقاني رضي الله عنه قال: حدثنا عبد العزيز بن يحيى الجلودي قال: حدثنا أبو عبد الله أحمد بن عمار ابن خالد، قال: حدثنا يحيى بن عبد الحميد الحماني، قال: حدثنا عيسى بن راشد، عن علي بن خزيمة عن عكرمة عن ابن عباس»^(٢).

(١) تذكرة الخواص / ٧٣ ط حجرية.

(٢) معاني الأخبار / ٣٤٣ ط الحيدرية بتقديمنا، وعلل الضالغ / ١/ ٢٠٥ ط مكتبة الرضي بقم.

ثم قال الصدوق: «وحدثنا محمد بن علي بن ماجيلويه عن عمه محمد بن أبي القاسم عن أحمد بن أبي عبد الله البرقي عن أبيه عن ابن أبي عمير عن أبان ابن تغلب عن عكرمة عن ابن عباس».

ورواه الطوسي فقال: «وبهذا الإستاذ أخبرنا الحفّار قال حدثنا أبو القاسم الدعبلّي قال: حدثنا أبي قال: حدثني أخي دعبل، قال: حدثنا محمد بن سلامة الشامي عن زرارة بن أعين عن أبي جعفر محمد بن علي عليه السلام عن ابن عباس. ثم قال الطوسي: وعن محمد بن أبيه عن جده»^(١).

ورواه القطب الراوندي فقال: «وأما الرواية للخطبة فعن الشيخ أبي نصر الحسن بن محمد بن إبراهيم ابن البونارتي عن الحاجب أبي الوفاء محمد بن بديع وأبي الحسين أحمد بن عبد الرحمن الذكواني عن المحافظ أبي بكر بن مردويه الاصبهاني عن سليمان بن أحمد الطبراني، أخبرنا أحمد بن علي الأبار أخبرنا إسحاق بن سعيد أبو سلمة الدمشقي أخبرنا خليل بن دعلج عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس...»^(٢).

(النص) برواية الصدوق المتوفى سنة ٣٨١ في كتابه وهما أقدم مصدر وصل إلينا. وإليك لفظه:

«عن ابن عباس قال: ذكرت الخلافة عند أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فقال: (أما والله لقد تفضلها ابن أبي قحافة أخو تيم وأنه ليعلم أن محلي منها محل القطب من الرحي، ينحدر عني السيل، ولا يرقى إليّ الطير،

(١) الأمامي ٢٨٢/١ مع النعمان في النجف.

(٢) منهاج البراهة ١٣١/١ - ١٣٣ ط قم منشورات مكتبة السيد المرعشي.

فسدلت دونها ثوباً، وطويت عنها كسحطاً، وطفقت أرتأي بين أن أصول بيد جذاء، أو أصبر على طخية عمياء، يشيب فيها الصغير، ويهرم فيها الكبير، ويكدح فيها مؤمن حتى يلقي ربه، فرأيت أن الصبر على هاتا أحجى، فصبرت وفي العين قذى، وفي الحلق شجى، أرى تراثي نهبا، حتى إذا مضى لسبيله، فادلى بها لأخي عدي بعده، فيا عجباً بينما هو يستقبلها في حياته، إذ عقدها الآخر بعد وفاته، فصيرها في حوزة خشناء، يخشن مسها، ويغلظ كلمها، ويكثر العثار فيها والاعتذار منها، فصاحبها كراكب الصعبة، إن عنف بها حزن، وإن أسلس بها غسق، فمني الناس بتلون واعتراض ويلوى، وهو مع هن وهن. فصبرت على طول المدة، وشدة المحنة، حتى إذا مضى لسبيله جعلها في جماعة زعم أنني منهم، فيا لله وللشورى! متى اعترض الرب في مع الأول منهم، حتى صرت أقرن إلى هذه النظائر؟ فمال رجل لضفته، وأصفى الآخر لصهره، وقام ثالث القوم نافجاً حضنيه بين تشيله ومعتقه، وقام معه بنو أبيه يخضمون مال الله خضم الإبل نبت الربيع، حتى أجهز عليه عمله، وكبت به مطيته، فما راحني إلا والناس إلي كعرف الضبع قد انثالوا علي من كل جانب، حتى لقد وطى الحستان، وشق عطاياي، حتى إذا نهضت بالأمر نكثت طائفة، وفسقت أخرى، ومرق آخرون كأنهم لم يسمعوا الله تبارك وتعالى يقول: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(١) بلى والله لقد سمعوا ووعوها، لكنهم أحلوت الدنيا في أعينهم، وراقهم زبرجها، أما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لولا

حضور المحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء ألا يقرّوا على كظة ظالم، ولا سغب مظلوم، لألقيت حبلاً على غاربها، ولستيت آخرها بكأس أولها، ولأفئتم دنياكم هذه عندي أزهـد من عفة عتر).

قال - ابن عباس: وناوله رجل من أهل السواد كتاباً قطع كلامه وتناول الكتاب. فقلت: يا أمير المؤمنين لو أطردت مقاتلك إلى حيث بلغت، فقال: ميهات ميهات يا بن عباس، تلك شقشقة هدرت ثم قرّت.

قال ابن عباس: فما أسفي على كلام قط كأسفي على كلام أمير المؤمنين عليه السلام إذ لم يبلغ به حيث أراد).
مطايبة ابن الخشاب لابن عباس:

قال ابن أبي الحديد بعد ذكره الخطبة: ((حدثني شيخني أبو الخير مصدق ابن شبيب الواسطي^(١) في سنة ثلاث وستمائة قال: قرأت على الشيخ أبي محمد عبد الله بن أحمد المعروف بابن الخشاب^(٢) هذه الخطبة فلما انتهيت إلى هذا الموضع - يعني قول ابن عباس: ما أسفت الخ - قال لي: لو سمعت ابن عباس يقول هذا لقلت له: وهل بقي في نفس ابن عمك أمر لم يبلغه في هذه الخطبة لتأسف أن لا يكون بلغ من كلامه ما أراد؟ والله ما رجع عن الأولين ولا عن

(١) بغدادي المولد والوفاء، كان أعلم معاصريه بالعربية، وصالح معلوم الدين وله المصنف بالفلسفة والحساب والهندسة وقف كتبه على أهل العلم قبل وفاته، توفي سنة ٥٦٧ هـ. (أعيان الشيعة ٢٨/٩٤ وروضات الجنات ٥/٢٢ والأعلام للزركلي ٤/٦٧).

(٢) اللغوي النحوي الأديب المفسر الفاضل صاحب تاريخ مواليد ووفيات أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله، كان من تلامذة الجواليقي وابن الشجري. وكان خطه في نهاية الحسن توفي ببغداد سنة ٥٦٧ هـ (قرب قبر بشر الحافي) الكنى والألقاب ١/٢٢٢ ط الحيدرية سنة ١٣٦٦ هـ).

الآخرين، ولا بقي في نفسه أحد لم يذكره إلا رسول الله ﷺ. قال مصدق: وكان ابن الخشاب صاحب دعاية وهزل، قال: أتقول إنها منحولة؟

فقال: لا والله، وأني لأعلم أنها كلامه كما أعلم أنك مصدق.

فقلت له: إن كثيراً من الناس يقولون: إنها من كلام الرضي عليه السلام تعالى.

فقال: أتى للرضي ولغير الرضي هذا النَّفْس وهذا الأسلوب، فقد وقفنا على رسائل الرضي وعرفنا طريقته وفنه في الكلام المتثور، وما يقع في هذا الكلام في خل ولا خمر. ثم قال: والله لقد وقفت على هذه الخطبة في كتب صنفت قبل أن يخلق الرضي بمائتي سنة، ولقد وجدتها مسطورة بخطوط أعرفها، وأعرف خطوط من هو من العلماء وأهل الأدب، قبل أن يخلق النقيب أبو أحمد والد الرضي).

وعقب ابن الحديد على ذلك بقوله: ((قلت: وقد وجدت أنا كثيراً من هذه الخطبة في تصانيف شيخنا أبي القاسم البلخي إمام البغداديين من المعتزلة. وكان في دولة المقتدر قبل أن يخلق الرضي بمدة طويلة...))

ووجدت كثيراً منها في كتاب أبي جعفر بن قبة أحد متكلمي الإمامية وهو الكتاب المشهور المعروف بكتاب (الإتصاف) وكان أبو جعفر هذا من تلامذة الشيخ أبي القاسم البلخي عليه السلام تعالى، ومات في ذلك العصر قبل أن يكون الرضي عليه السلام موجوداً^(١).

والآن إلى النص الثاني وهو الذي سميته:

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد ٦٩/١.

ثانياً: الصنوع:

لقد تيقظت في نفس الإمام ذكريات مريرة، فصار يستعرض صفحات من تاريخه البعيد والقريب، وفي استعادته ذكرياته الماضية عاف النوم واستولى عليه الأرق، وهذا ما رواه السيد ابن طاووس المتوفى سنة ٦٦٤ في كتاب اليقين^(١) ورواه المجلسي في البحار^(٢) وقد رمز له بعلامة (شف) ويعني ذلك الرمز كتاب (كشف اليقين للعلامة الحلبي ٧٢٦ هـ) وقد بحثت في نسخته المطبوعة قديماً على الحجر وحديثاً فلم أقف عليه، ولعل في المطبوع سقط لم يتنبه له الطابعون، أو أن سهواً من النساخ وقع في الرمز. ومهما يكن فأنا أنقله عن السيد ابن طاووس كما ذكره.

قال (فيما ذكره): «عن أحمد بن محمد الطبري المعروف بالخليفي^(٣) المقدم ذكره من كتابه المشار إليه من تسمية مولانا علي^{عليه السلام} أمير المؤمنين في حياة النبي^{صلى الله عليه وآله} وأمره بالتسليم عليه بذلك فقال: أخبرنا أحمد بن محمد بن ثعلبة الحماني قال حدثنا مخول بن إبراهيم النهدي قال حدثنا عمرو بن شمر عن جابر عن أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب^{عليه السلام} قال قال ابن عباس: كنت أتبع غضب أمير المؤمنين^{عليه السلام} إذا ذكر شيئاً أو هاجه خبير، فلما كان ذات يوم كتب إليه بعض شيعته من الشام يذكر في كتابه أن معاوية

(١) اليقين في إمره أمير المؤمنين علي بن أبي طالب^{عليه السلام} الباب/١٢٢ ط الحيدرية سنة ٣٦٩.

(٢) بحار الأنوار ٢٦١/٨ ط حجرية الكمباني.

(٣) ويقال له غلام خليل أبو عبد الله محدث سكن بغداد وحدث بها من تصانيفه: الوصول

إلى معرفة الأصول، الكشف وفضائل أمير المؤمنين^{عليه السلام} توفي سنة ٢٧٥ هـ (أعيان الشيعة

وعمر بن العاص وعتبة بن أبي سفيان والوليد بن عقبة ومروان اجتمعوا عند معاوية فذكروا أمير المؤمنين فعابوه وألقوا في أفواه الناس أنه ينتقص أصحاب رسول الله ﷺ، ويذكر كل واحد منهم ما هو أهله، وذلك لما أمر أصحابه بالانتظار له بالنخيلة فدخلوا الكوفة وتركوه، فغلظ ذلك عليه. وجاء هذا الخبر، فأتيت بابه في الليل، فقلت يا قنبر أي شيء خبر أمير المؤمنين؟ قال: هو نائم، فسمع كلامه فقال: من هذا؟ فقال: ابن عباس يا أمير المؤمنين. قال: ادخل، فدخلت فإذا هو قاعد ناحية عن فراشه في ثوب جالس كهيئة المهموم. فقلت: مالك يا أمير المؤمنين الليلة؟

فقال: ويحك يا بن عباس وكيف تنفس المصدر عينا قلب مشغول؟

يا بن عباس ملك جوارحك قلبك، فإذا أربه أمر طار النوم عنه، ها أنذا كما ترى من أول الليل اعتراني الفكر والسهر لما تقدم من نقض عهد أول هذه الأمة، المقدر عليها نقض عهدها، إن رسول الله ﷺ أمر من أمر من أصحابه بالسلام علي في حياته بإمرة المؤمنين، فكنت أؤكد أن أكون كذلك بعد وفاته. يا بن عباس أنا أولى الناس بالناس بعده ولكن أمور اجتمعت على رغبة الناس في الدنيا وأمرها ونهيها وصرف قلوب أهلها عني، وأصل ذلك ما قال الله تعالى في كتابه: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾^(١) فلو لم يكن ثواب ولا عقاب، لكان بتبليغ الرسول ﷺ فرض على الناس اتباعه، والله ﷻ يقول: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا

نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا»^(١) اتراهم نُهوا عني فأطاعوه، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، وغدا بروح أبي القاسم عليه السلام إلى الجنة لقد قرنت برسول الله صلى الله عليه وآله حيث يقول صلى الله عليه وآله: «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا»^(٢).

ولقد طال - يا بن عباس - فكري وهمي وتجريمي غصة لأمر ورود أقوام على معاصي الله، وحاجتهم إلي في حكم الحلال والحرام، حتى إذا أتاهم أمن الدنيا أظهروا الغنى عني، كان لم يسمعوا الله صلى الله عليه وآله يقول: «وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَ الَّذِينَ يُسْتَبِطُونَ مِنْهُمْ»^(٣) الآية، ولقد علموا أنهم احتاجوا إليّ ولقد غنيت عنهم «أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا»^(٤) فمضى من مضى قال عليّ بضغن القلوب، وأورثها الحق عليّ، وما ذاك إلا من أجل طاعته في قتل الأقارب مشركين، فامتلاً غيظاً واعتراضاً، ولو صبروا في ذات الله لكان خيراً لهم، قال الله صلى الله عليه وآله: «لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ»^(٥) الآية، فأبطنوا من ترك الرضا بأمر الله ما أورثهم النفاق، وألزمهم بقلة الرضا الشقاق، وقال الله صلى الله عليه وآله: «فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا»^(٦).

فالآن يا بن عباس قرنت باين آكلة الأكباد وعمرو وعتبة والوليد ومروان وأتباعهم وصار معهم في حديث، فمتى اختلج في صدري وألقي في روعي أن

(١) الحشر / ٧.

(٢) الأحزاب / ٣٣.

(٣) النساء / ٨٣.

(٤) محمد / ٢٤.

(٥) المجادلة / ٢٢.

(٦) مريم / ٨٤.

الأمر يتقاد إلى دنيا يكون هؤلاء فيها روساء يطاعون، فهم في ذكر أولياء الرحمان يثلبونهم ويرمونهم بمظالم الأمور من إفكٍ مخلوق، وحقْدٍ قد سبق، وقد علم المستحفظون ممّن بقي من أصحاب رسول الله ﷺ أن عامة أعدائي ممّن أجاب الشيطان عليّ، وزهد الناس فيّ، وأطاع هواه فيما يضره في آخرته وباللّهِ الغنى وهو الموفق للرشاد والسداد.

يا بن عباس ويل لمن ظلمني ودفع حقي، وأذهب عني عظيم منزلتي، أين كانوا أولئك وأنا أصلي مع رسول الله ﷺ صغيراً لم يكتب عليّ صلاة، وهم عبدة الأوثان وعصاة الرحمن، ولهم توقد النيران، فلما قرب إصغار الخدود وإتعاس الجدود أسلموا كرهاً، وأبطنوا طمعاً في أن يطفئوا نور الله، وترتبوا انقضاء أمر الرسول وفناء مدته، لما أطمعوا أنفسهم في قتله، ومشورتهم في دار نذوتهم. قال الله ﷻ: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾^(١)، وقال: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾^(٢).

يا بن عباس نذبهم رسول الله ﷺ في حياته بوحى من الله يأمرهم بموالاتي، فحمل القوم ما حملهم ممّا حقد على أينا آدم من حسد اللعين له، فخرج من روح الله ورضوانه، وألزم اللعنة لحسده لولي الله. وما ذاك بضارّي إن شاء الله شيئاً.

يا بن عباس أراد كلّ أمرئ أن يكون رأساً مطاعاً تميل إليه الدنيا وإلى أقاربه، فحمله هواه ولذة دنياه، واتباع الناس إليه، أن نوزعت ما جعل لي، ولولا

(١) آل عمران / ٥٤.

(٢) التوبة / ٣٢.

اتقائي على الثقل الأصغر أن ينبذ فتقطع شجرة العلم وزهرة الدنيا وحبل الله المتين، وحصنه الأمين، ولد رسول رب العالمين، لكان طلب الموت والخروج إلى الله ﷻ ألدّ عندي من شربة ظمآن ونوم وسمان، ولكنني صبرت وفي الصدر بلايل، وفي النفس وساوس، فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون، ولقد يمأً ظلم الأنبياء، وقتل الأولياء قديماً في الأمم الماضية والقرون الخالية ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾^(١)، وبالله أحلف يا بن عباس إنه كما فتح بنا يختم بنا وما أقول لك إلا حقاً.

يا بن عباس إن الظلم يتسق لهذه الأمة ويطول ويظهر الفسق وتعلو كلمة الظالمين، ولقد أخذ الله على أولياء الدين ألا يقاروا أعداءه، بذلك أمر الله في كتابه على لسان الصادق رسول الله ﷺ فقال: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾^(٢) الآية.

يا بن عباس ذهب الأنبياء فلا ترى نبياً، والأوصياء ورنتمهم، عنهم أخذوا علم الكتاب وتحقيق الأسباب قال الله ﷻ: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ﴾^(٣) فلا يزال الرسول باقياً ما نفذت أحكامه وعمل بسنته، وداروا حول أمره ونهيه.

وبالله أحلف يا بن عباس لقد بُذ الكتاب، وترك قول الرسول إلا ما لا يطبقون تركه من حلال وحرام، ولم يصبروا على كل أمر بينهم ﴿وَتَمْلِكُ الْأَمْثَالَ

(١) التوبة / ٢٤.

(٢) المائدة / ٢.

(٣) التوبة / ٢٤.

نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ^(١)، «أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ
إِتَيْنَا لَا تَرْجَعُونَ»^(٢) فينتنا وبينهم المرجع إلى الله «وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ
مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ»^(٣).

يا بن عباس عامل الله في سره وعلايته تكن من الفائزين، ودع من أتبع
هواه وكان أمره قُرطاً، ويحسب معاوية ما عمل وما يعمل به من بعده، وليمدته ابن
العاص في غيّه فكان عمره قد انقضى، وكيده قد هوى «وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ
عُقِيَ الدَّارُ»^(٤).

وأذن المؤذن فقال: الصلاة يا بن عباس لا تفت، استغفر الله لي ولك
وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.
قال ابن عباس: فغمّني انقطاع الليل وتلهفت على ذهابه^(٥).

وإذا قارنا هذا النص بما مرّ من نص الشقشقية وجدنا وجه الشبه كبيراً
وكثيراً كما قلنا آنفاً. فبداية كبداية ونهاية كنهاية، وما بين البداية والنهاية نفاثات
أحزان وأشجان متشابهة وحتى أسف ابن عباس في آخر الشقشقية يقابله تلهّف
في آخر صنوها.

وإذا رجعنا إلى النصين نتعامل معهما كوثائق تاريخية تستشف منهما
تحديد البعد الزمني للحدّث، وأنهما معاً كانا بعد واقعة النهروان. ففي النص

(١) آل عمران / ١٠١.

(٢) المنكوت / ٤٣.

(٣) المؤمنون / ١١٥.

(٤) الضمراء / ٢٢٧.

(٥) كتاب اليقين في أسرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام الباب ٤٢/ ط

الحيدرية سنة ١٣٦٩ هـ.

الأول نجد قوله عليه السلام (ومرقت أخرى) والمارقة هم الخوارج الذين قتلهم بالنهروان.

وفي النص الثاني قرأنا في مقدمته قول ابن عباس «وذلك لما أمر أصحابه بالانتظار له بالنخيلة، فدخلوا الكوفة وتركوه فغلظ ذلك عليه» وهذا إنما كان بعد رجوعهم من النهروان وأرادهم عليه السلام على الخروج إلى أهل الشام إلا أن الأشعث الغادر الفاجر أبى عليه ذلك.

كما أننا عرفنا لولا حضور ابن عباس في كلا الموقفين وروايته لهما، لضاعت تلك النفثات الحارة الساعرة تحت وطأة الجليد الأموي الذي جمّد الأفكار وكمّ الأفواه.

ومن خلالهما أيضاً أدركنا عمق الصلة بين الإمام ومأمومه، وأن لابن عباس مكانة عند الإمام سمت به إلى أوج الثقة فصار بيّنه شجونه وشؤونه. كما عرفنا صدق الموالية والمواساة من ابن عباس المأموم لإمامه المهضوم المظلوم. وثمة موقف آخر وليس أخيراً لابن عباس حضر فيه إلى الكوفة، ربّما أتحد مع أحد الموقفين السابقين زماناً، وربّما غيرهما.

ومهما كان زمانه، فإن أهميته البالغة خير شاهد على تبديد الضبابية الحالكة التي أحاطت بابن عباس من أجل تهمة خيانة بيت مال البصرة. ولما كنت قد جعلت الحلقة الرابعة من الموسوعة لبحث جميع ما وقفت عليه من شوائب ونوائب لحقت به وسميتها (ابن عباس في الميزان) فلا أفيض هنا بالحديث عنها، ولكنني أذكر إجمالاً بعض النصوص لاقتضاء المقام ذكرها:

فأقول: لقد مرّت بنا في البحث عن حياته بالبصرة وذكر نشاطه الإداري والسياسي، بعض كتب الإمام إليه، وكان منها كتاب ذكرت له أكثر من صورة، وأكثر من ذكر مصادره حتى جازت الثلاثين، ولم يكن ذلك مني عبثاً ولا ترفاً ولا سرفاً وإنما لغرض تسديد موقفي إزاء تلك التهمة، فإن لذلك الكتاب في نفس ابن عباس أثر بالغ عبّر عنه بقوله: «ما انتضعت بكلام أحد مثل ما انتضعت بكلام أحد بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كانتضاعي بكلام كتب به أمير المؤمنين كتب إلي».

«سلام عليك أما بعد: فإن المرء يسوؤه فوت ما لم يكن ليدركه، ويسره درك ما لم يكن ليفوته، فليكن سرورك بما نلت من امر آخرتك، وليكن أسفك على ما فاتك منها، وما فاتك من الدنيا فلا تأسفن عليه، وليكن همك فيما بعد الموت».

وهذا ما رواه سبط ابن الجوزي بإسناد ينتهي إلى المأمون العباسي وهو يرويه عن آبائه الخالفين عن ابن عباس. وعقب السبط عليه بقوله: «وقد روى السدي هذا عن أشياخه وقال حقيقه: كان الشيطان قد نزع بين ابن عباس وبين علي عليه السلام مدة ثم عاد الأمر إلى موالاته...»^(١). ثم ذكر المراسلات التي خبط فيها الكثيرون ممّا سنذكرها في الحلقة الرابعة إن شاء الله.

ولعل هذا الذي أشار إليه السدي إنما أراد ما ذكره اليعقوبي في تاريخه، فقد قال: «وكتب أبو الأسود الدؤلي - وكان خليفة عبد الله بن عباس بالبصرة - إلى علي عليه السلام يعلمه أن عبد الله أخذ من بيت المال عشرة آلاف درهم، فكتب

(١) تذكرة الخواص / ٨٩ ط، حجرية سنة ١٢٨٥ هـ.

إليه يأمره بردها فامتنع فكذب يقسم له بالله ليردتها، فلما ردها عبد الله بن عباس أو ردها أكثرها كتب إليه عليه السلام أما بعد فإن المرء يسره درك ما لم يكن ليفوته، ويسوؤه فوت ما لم يكن ليدركه، فما أتاك من الدنيا فلا تكثر به فرحاً، وما فاتك منها فلا تكثر عليه جزعاً، واجعل همك لما بعد الموت والسلام^(١).

وأخيراً بعد ما ذكرناه من أمر الكتاب فلنقرأ ما وجدناه يتضمن حضوره بالكوفة، وقد أتى بما عليه من المال:

روى الطبرسي في مكارم الأخلاق خيراً له اتساق واتفاق مع ما مر: «عن عبد الله بن عباس لما رجع من البصرة وحمل المال ودخل الكوفة، وجد أمير المؤمنين عليه السلام قائماً في السوق وهو ينادي بنفسه: معاشر الناس من أصبناه بعد يومنا هذا يبيع الجري والطاقي والمارماهي حلوانه بدرتنا هذه.. وكان يقال لدرته السبئية -

قال ابن عباس: فسلمت عليه فرد علي السلام ثم قال: يا بن عباس ما فعل المال؟

قلت: ها هو يا أمير المؤمنين، وحملته إليه، فقربني ورحب بي، ثم أتاه منادٍ معه سيفه ينادي عليه بسبعة دراهم. فقال: لو كان لي بيت مال المسلمين ثمن سواك أراك ما بعته، فباعه واشترى قميصاً بأربعة دراهم، وتصدق بدرهمين، وأضافني بدرهم ثلاثة أيام^(٢).

(١) تاريخ اليعقوبي ١٨١/٢ ط النجف.

(٢) مكارم الأخلاق (آداب اللباس - تزيين الثياب) / ١٣٠ ط حجرية سنة ١٣٧٦ و ٤٨ ط مصر

سنة ١٣٦٩ و ١١٢ ط الحيدرية بتقديمنا سنة ١٣٩١ هـ.

فهذا الخبر يتسق مضموناً مع ما مرّ، فثمة مال أخذه ابن عباس، وثمة مطالبة به، وثمة تسليم أنبي، ثمّ من بعده تقريب وترحيب، وأخيراً ضيافة ثلاثة أيام بدرهم.

ثمّ إنّ الخبر بكل مفرداته يتفق مع سيرة إمام عادل شديد في مراقبة ومحاسبة عمّاله القريب منهم والبعيد كلّهم سواسية أمام العدالة. ومع الأسف لم يفصح الخبر عن وجه الأخذ بأيّ اعتبار كان، فهل كان له على وجه الحقّ الشرعي فيما يراه؟ أو كان على سبيل القرض؟ ومهما كان وجه ذلك فقد ردّه فرضي عنه الإمام: فرواية اليقوي أولى بالقبول لأنّها ملتصقة بالمقبول وهو المعقول وهي أنسب بواقع الحدث كما حدث وتلمسنا صحتها بخبر مكارم الأخلاق، فهو رصين ومقبول أيضاً. كما إنّ الخبر أيضاً أوضح سيرة ذلك الإمام العادل في مراقبة ومعاقبة أصحاب المكاسب المحرّمة حتى الصيادين فكان ينادي بنفسه. وأوضح جانباً من ورعه عن تناول ما يحتاج من بيت مال المسلمين، ولو كان له فيه ثمن سواك من أراك لما باع سيفه. ثمّ ها هو قد باعه بسبعة دراهم فأين صرفها؟ اشترى قميصاً بأربعة دراهم، وتصدّق بدرهمين وأضاف ابن عمه بدرهم ثلاثة أيام فدتك النفوس يا إمام العدالة في الأرض.

وثمة آخر موقف فيه حضور لابن عباس في الكوفة نجد في أخباره دلالات تبعد عنه الشكوك كما تدل على حسن السلوك. وهو آخر حضور له، ولعله أطول مكثاً في زمانه من غيره، فقد كان ذلك في شهر رمضان سنة ٤٠ من الهجرة، وهو الشهر الذي استشهد فيه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

وهذا الحضور اعتبره معبراً أكثر منه حضوراً عابراً وليس كالمواقف السابقة على ما مرّ فيها من إيجابيات مؤثرة ومعبرة، فقد كان فيه ما يلي:

١- كان الإمام عليه السلام يتناول عشاءه عنده مرة في إحدى ليال ثلاث أو أربع من شهر رمضان وأقدم من رواه لنا البسوي المتوفى سنة ٢٧٧ هـ كما روى ذلك أيضاً ثلاثة من الأحناف. وهم المؤيد الخوارزمي في مناقبه، وشيخ الإسلام الجويني في فرائد السمطين، وجمال الدين الزرندي في نظم درر السمطين، ورواه من الشافعية ابن عساكر في تاريخه - ترجمة الإمام - ورواه من الزيدية محمّد بن سليمان الكوفي في كتابه مناقب أمير المؤمنين ^(١).

ومن أصحابنا الشيخ المفيد في إرشاده وكلّ هؤلاء يروونه عن أبي نعيم الفضل بن دكين عن عبد الجبار بن العباس الهمداني عن عثمان بن المغيرة وسيأتي مزيد بيان عن هذه الحضور في الحلقة الرابعة (ابن عباس في الميزان) إن شاء الله تعالى.

٢- ولادة ابنه عليّ بالكوفة في شهر رمضان قبل مقتل الإمام عليه السلام يوم أو ليلة، وهذا أمر ذكره جملة من المؤرخين في ترجمته.

فقد ذكر ابن سعد في الطبقات فقال: «ولد ليلة قتل عليّ بن أبي طالب رحمة الله عليه في شهر رمضان سنة أربعين فسُمّي باسمه وكنيته أبي الحسن، فقال له عبد الملك بن مروان لا والله لا احتمل لك الاسم والكنية جميعاً فغيّر أحدهما، فغيّر كنيته فغيّرنا أبا محمّد. وحكى ذلك غير واحد نقلًا عنه وعن

(١) مناقب أمير المؤمنين عليّ ٧١/٢.

غيره، وعقب ابن خلكان على قول عبد الملك بقوله: وإنما قال له عبد الملك هذه المقالة لبغضه في علي بن أبي طالب عليه السلام، فكره أن يسمع اسمه وكنيته»^(١).
وأحسب أن المبرّد المتوفى سنة ٢٨٥ هـ هو أقدم من وصلت روايته في ذلك إلينا مستوفية للزمان والمكان، وإلى القارئ ما ذكره في كتابه الكامل:

قال: ((يروى عن علي بن أبي طالب رحمة الله عليه أنه افتقد عبد الله بن العباس عليه السلام في وقت صلاة الظهر فقال لأصحابه: ما بال أبي العباس لم يحضر؟ فقالوا: ولد له مولود، فلما صلى علي عليه السلام قال: أمضوا بنا إليه، فاتاه فهناه فقال: شكرت الواهب وبورك لك في الموهوب ما سميت؟ قال: أو يجوز لي أن أسميه حتى نسميه فأمر به فأخرج إليه فأخذه وحنكه ودعا له، ثم رده إليه وقال: خذه إليك أبا الأملاك، قد سميت علياً وكنيته أبا الحسن.

قال المبرّد: فلما قام معاوية قال لابن عباس: ليس لكم اسمه وكنيته، وقد كنيته أبا محمد فجرت عليه»^(٢).

قال ابن أبي الحديد: ((فإن علي بن عبد الله لما ولد أخرجه أبوه عبد الله إلى علي عليه السلام فأخذه وتفل في فيه وحنكه بتمر قد لاقها ودفعه إليه وقال خذ إليك أبا الأملاك»^(٣).

هكذا الرواية الصحيحة وهي التي ذكرها أبو العباس المبرّد في كتاب

الكامل...

(١) طبقات ابن سعد ٢٢٩/٥ ط افست ليدن.

(٢) الكامل ٢١٧/٢ مطبعة نهضة مصر.

(٣) شرح النهج لابن أبي الحديد ١٧٦/٢ ط مصر الأولى.

وسياتي أيضاً مزيد تحقيق حول ذلك في الحلقة الرابعة (ابن عباس في الميزان) إن شاء الله تعالى.

ورحم الله المعري حيث يقول:

وقد سمّاه سيده علياً وذلك من علو القدر فال^(١)

مأساة الشهادة:

لقد كان الإمام عليه السلام منتظراً للشهادة، بل ومتجزأً لها فيقول: (متى يبعث أشقاها) لشدة ما كان يجده من خلافات مجتمعة، وما يجده في نفسه من ظلم لحقه من بعد الرسول صلى الله عليه وآله وحتى يومه، فهو لئن جاهد الكفار والمشركين أيام الرسول صلى الله عليه وآله على تنزيل القرآن حتى دخلوا في دين الله، فقد صار يجاهد المسلمين من بعد رسول الله صلى الله عليه وآله على تأويل القرآن، حيث ذهبت بهم منازعهم إلى تنازعه، حتى تفلتوا من أحكام الدين على غير هدى، فصار يدعو لنفسه وعليهم فيقول: (ما يحبس أشقاكم أن يجيء فيقتلني، اللهم إني قد سئمتهم وسئمتوني، فأرحني منهم وأرحهم مني)^(٢). وقد مرّت بنا شواهد على ذلك في حديثه مع ابن عباس في الشقشقية وفي صنوها.

واستجيب دعوته فقتل غيلة بضرية غادرة آئمة من سيف آثم كفور، فأورث قتله عليه السلام المسلمين ذلاً شاملاً، كما أورث آله وذويه حزناً دائماً.

يقول جورج جرداق: ((وقال القدر كلمته الغادرة فأناه ابن ملجم بسيف مسموم يضرب رأسه الضربة التي قال فيها الخيـث إنها لو كانت بأهل مصر جميعاً لأنت عليهم...))

(١) الفيت المسموم ١/١٢٠.

(٢) أنساب الأشراف ٥٠١/٢٤ تحت المحمودي بيروت.

وحلّت على ابن ملجم لعنة الله ولعنة اللاعنين ومن وُلدوا ومن ماتوا ومن قال لهم الله كونوا فكانوا. لعنة تجفّف النبع، وتخضم الزرع، وتحرق الثبت في الأرض وهو وسيم، وجعل الله زفير جهنم وشهيقها في أصول تكوينه، وأهلكه ألف شيطان كبره على وجهه في سواء الجحيم وفيها لفع وفيها أفواه من اللهب ذات أجيح وذات صغير... اهـ^(١).

نعم لقد قضى الإمام شهيد عظمته والصلاة بين شفّته كما يقول ذلك مسيحي آخر. حتى قالت من كانت أشد الناس شماتة بشهادته وهي عائشة التي لما بلغها الخبر وتمثلت بقول البارقي:

فألقت عصاها واستقر بها النوي كما قرّ عيناً بالإياب المسافر

فقد روى عنها أبو عمر أنها قالت: «فلتصنع العرب ما شاءت فليس أحدٌ ينهاها»^(٢).

وهذه كلمة لها مغزاها، أيا نمرساها، وقد صدقت في ماتاها.

أما عظم المأساة في جنّبات الصدور فقد فجّرت مصيبتة البكاء والرتاء في ذويه ومواليه.

وكان ابن عباس أحد أولئك الذين أشعلهم الحزن أواراً فأرسل دمه مدراراً، وأشفع دمه بكلماته التي سالت مع دمعه وهي على وجازتها معربة عن مدى حزنه، وبأبيات من نظمه، وهي على قلتها تفيض بعاطفته، ويشعر القارئ لها بأن صاحبها لمتاع أشدّ التياح، لما فيها من حرارة وانتجاع.

(١) الإمام عليّ صوت العدالة الإصناية - عليّ ومصبره - ١٠٠٣/٤.

(٢) الاستيحاب بهامش الاصابية ٥٧/٣ و ٢١٨.

والى القارى ما قام به ابن عباس بعد شهادة الإمام عليه السلام:

١- مشاركته في تفسيل الإمام عليه السلام:

قال أبو الفرج: ((حدثني أحمد بن عيسى حدثنا الحسن (الحسين خ ل) ابن نصر قال: حدثنا زيد بن المعدل عن يحيى بن شعيب عن أبي مخنف عن فضيل بن خديج عن الأسود الكندي والأجلح قالا: توفي أمير المؤمنين عليّ - عليه السلام - وولي غسله ابنه الحسن بن عليّ وعهد الله بن العباس وكفن في ثلاثة أثواب ليس فيها قميص، وصلى عليه ابنه الحسن، وكبر عليه خمس تكبيرات...))^(١).

٢- تأيين وراثه:

أ- روى ابن شهر اشوب قال: ((الزعفراني عن المزني عن الشافعي عن مالك عن سمي عن أبي صالح قال: لما قتل عليّ بن أبي طالب قال ابن عباس: هذا اليوم نقص الفقه والعلم من أرض المدينة.

ثم قال: ان نقصان الأرض نقصان علمائها وخيار أهلها، إن الله لا يقبض هذا العلم انتزاعاً ينتزعه من صدور الرجال، ولكنه يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالم، اتخذ الناس رؤساء جهالاً فيسألوا فيفتوا بغير علم فيضلوا وأضلوا))^(٢).

(١) مقاتل الطالبين / ٤١ ط مصر، ورواه يحيى بن الحسين الهاروني في إسناده / ٨٥ ط بيروت سنة ١٣٩٥ هـ.

(٢) مناقب ابن شهر آشوب / ٩٢/٣ ط ١ تحييرية ورواه المجلسي في البحار / ٧٤٣/٩ ط تبريز على الحجر.

ب- ذكر ابن أبي الحديد في ذكر مقتل الإمام عليه السلام وموضع قبره وما قيل فيه من الأشعار فقال: ((وقال عبد الله بن العباس بن عبد المطلب:

وهز عليّ بالعراقيين لحية	مصيبتها جلت على كل مسلم
وقال سيأتيها من الله نازل	ويغضبها أشقى البرية بالدم
فعاجله بالسيف شلت يمينه	لشؤم قطام عند ذاك ابن ملجم
فيا ضربة من خاسر ضلّ سعيه	تبواً منها مقعداً في جهنم
ففاز أمير المؤمنين بحظّه	وإن طرقت إحدى الليالي بمعظم
ألا إنّما الدنيا بلاء وفتنة	حلاوتها شيبت بصباب وعلقم ^(١)

٣- حزن وبكاء:

أ- روى فرات بن إبراهيم - من علماء القرنين الثالث والرابع - في تفسيره قال: ((حدثنا علي بن محمد بن مخلد الجعفي معنعناً عن سليمان بن يسار قال: رأيت ابن عباس لما توفي أمير المؤمنين بالكوفة وقد قعد في المسجد محتبياً ووضع مرفقه على ركبته، وأسند به تحت خده وقال:

يا أيها الناس إنني قائل فأسمعوا من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، سمعت رسول الله ﷺ يقول: إذا مات علي وأخرج من الدنيا ظهرت في الدنيا خصال لا خير فيها، فقلت وما هي يا رسول الله؟

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد ٤٦/٢ ط مصر الأولى، وذكر ابن عبد البر في الاستيعاب ٤٧٢/٢ ط حيدر اباد هذه الأبيات منسوبة إلى بكر بن حماد التاهرتي، وتعلمه استشهد بها فظنت أنها له والله أعلم.

فقال: تقل الأمانة، وتكثر الخيانة، حتى يركب الرجل الفاحشة وأصحابه ينظرون إليه، والله لتضايق الدنيا بعده بنكبة، وإن الأرض لا تخلو مني ما دام عليّ حياً في الدنيا بقية من بعدي، عليّ في الدنيا عوض مني بعدي، عليّ كجلدي، عليّ كلحمي، عليّ (ك) عظمي، عليّ كدمي، عليّ (ك) عروقي، عليّ أخي ووصيي في أهلي وخليفتي في قومي، ومنجز عداوتي، وقاضي ديني، وقد صحبني عليّ في ملّات أمري، وقاتل معي أحزاب الكفار، وشاهدني في الوحي، يأكل معي طعام الأبرار، وصافحه جبرئيل مراراً نهاراً جهاراً، وقبّل جبرئيل خدّ عليّ اليسار، وشهد جبرئيل وأشهدني أنّ عليّاً من الطيبين الأخيار، وأنا أشهدكم معاشر الناس لا تتساءلون من علم أمركم ما دام عليّ فيكم، فإذا فقدتموه فعند ذلك تقوم الآية: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(١)^(٢).

وأخيراً ابيضت عيناه من الحزن:

قال الله سبحانه وتعالى حكاية عن حال نبيّه يعقوب حين فقد ولده ﴿وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾^(٣) قال المفسرون: وإنما ابيضت عيناه من البكاء وسبب البكاء هو الحزن. ولا شك أنّ البكاء كما أنه خير وسيلة لتخفيف الضغط النفسي الذي يكابده المرء عند ملّات النوازل، فهو يأتي على بصر الإنسان

(١) تفسير هرات / ٥٤ ط الحيدرية و / ١٥٤ ١٩٢ - ١٩٨، ورواه المجلسي في البحار ٩ / ٧٦٤ ط تبريز على الحجر.

(٢) الأنفال / ٤٢.

(٣) يوسف / ٨٤.

يفقده، ومع ذلك ففيه تخفيف اللوعة بنزول الدمعة، ولعل قول ذي الرمة خير معبر في تصوير تلك الحال:

خليلي عوجاً من صدور بجهور حزوي وابكيا في
 لعل انحدار الدمع يعقب راحة من الوجد أو يشفي نجياً
 ولقد ذكر في كتب السيرة أن النبي ﷺ بكى عند فقده أحبته، وآخرهم
 ابنه إبراهيم فقال: (إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول ما لا يرضي الرب وأنا
 بك يا إبراهيم لمحزونون)^(١).

وكأما عظمت الرزية وجلت المصيبة عظم الحزن بها، واشتد الوجد
 بصاحبها، ومهما بلغ في إيمانه مقاماً رفيعاً لتستولي عليه أحزانه، فيفزع إلى البكاء
 ليخفف من غلواء المصاب، فإن في إفاضة الكتيب لدمعته ما يذهب من لوعته،
 وفي إرساله لعبرته ما يعينه على سلوته، وهذا مما لا شك فيه، لكن ليس انسكاب
 الدموع يذهب ما في نفس المفجوع، فلئن سكنت النفس آنأ ما إلى رشداء،
 وتأسى صاحبها بالصبر على عظيم فقدها، إلا أن الذكرى توجب جدوة الحزن،
 فمتى استثيرت ثارت، فتحول الحزن إلى بركان يثور، وعندما يلح الواجد الفاقد
 الحزين بالبكاء وتبيض عيناه من الحزن يفقد بصره، كما مرّ في أمر
 يعقوب عليه السلام وكان ابن عباس مثله في هذا الباب فيما يروي الرواة، قال سفيان
 ابن عيينة: «كانوا يروون أن ابن عباس إنما ذهب بصره لكثرة البكاء على عليّ
 ابن أبي طالب عليه السلام»^(٢).

(١) السيرة الحلبية وسيرة زيني دحلان وفيههما.

(٢) تفسير المطالب هي امالي الإمام أبي طالب يحيى بن الحسين الهاروني المتوفى سنة

٤٢٤ هـ ط بيروت سنة ١٣٩٥ هـ.

وذكر ذلك السيد ابن طاووس نقلاً عن النقاش في المجلد الأول من تفسيره، فقد رواه بإسناده عن الكلبي قال: ((وذهب بصر ابن عباس من كثرة بكائه على علي بن أبي طالب عليه السلام)^(١).

ورواه النهائي في الشرف المؤيد ونسبه إلى القيل^(٢)، وذكره الياضي في الصراط المستقيم^(٣)، وقال المسعودي: ((وكان - ابن عباس - قد ذهب بصره لبكائه على علي والحسن والحسين))^(٤).

ويبدو أن بداية ضعف بصره وتقرّح جفونه كانت بعد مقتل الإمام عليه السلام ثم تزايد ذلك بمرور الزمان، وكثرة ما أصابه من نوازل الحداثان فيفزع إلى البكاء، وكاد أن يكفّ بصره تماماً قبل مقتل الحسين عليه السلام، لكنه بعد مقتله وتزايد الحزن عليه فلم ترقأ له دمة فكفّ بصره تماماً، حتى كان أبو رجاء العطاردي يقول: ((رأيت ابن عباس وأسفل من عينيه مثل الشراك البالي من البكاء))^(٥)، وقد حدّد علي بن أبي طلحة زمن العمى بقوله: ((وكان أحسن عيناً قبل أن يكفّ بصره، وكفّ قبل موته بست سنين أو نحوها))^(٦)، وهذا التحديد يتسق تقريباً مع ما مرّ عن المسعودي وقول السبط في تذكرته: ((ولمّا قتل الحسين لم يزل ابن عباس

(١) سعد المسعودي / ٢٨٥.

(٢) الشرف المؤيد / ٦٤ ط بيروت سنة ١٣٠٩ هـ.

(٣) الصراط المستقيم / ١٤٤/١.

(٤) مروج الذهب / ٣/١٠٨ تح. هيد الحميد، وحكاها أيضاً السيد المدني في الدرجات الرفيعة / ١٣٩ ط الحيدرية.

(٥) سير أعلام النبلاء / ٤/٤٥٢ ط دار الفكر.

(٦) انساب الأشراف - ترجمة ابن عباس - برقم ١٢٤ مخطوطة بقلم.

بيكي عليه حتى ذهب بصره»^(١). وسيأتي أنه لما كان يدخل على معاوية كان لا يستين مكانه بل كان يستعين بقائه.

ومهما يكن تحديد الزمن إلا أن بعض المناقبين قد اتخذ من مسألة كف بصر ابن عباس ذريعة إلى مبتغاه، فروى أن السبب كان رؤيته جبرئيل عند النبي ﷺ وقد مرّ في الجزء الأول تنفيذ ذلك عند الكلام عن حياته في عهد الرسول ﷺ فراجع.

ولم يقصّر عن هذا آخر حين قصّر بفهم ابن عباس وققهه عن إدراك حكم تكليفه حين كفّ بصره وقد أتاه من عرض عليه إجراء عملية جراحية على أن يصلي سبعة أيام مستلقياً يؤمي إيماء، فزعم الراوي أنه أرسل إلى عائشة وأبي هريرة وغيرهما من أصحابه (٢) كلّ يقول: «أرأيت إن متّ في هذه السبع كيف تصنع بالصلاة؟ قال فترك عينه ولم يداوها»^(٣).

فبهذا الخبر أثبت الراوي جهل ابن عباس بوظيفته الشرعية فهو لا يعلم كيف يعمل وما هو حكم تكليفه؟ فاستفتى عائشة وأبا هريرة، وبعض أصحابه (٤) من لم يكشف الراوي عن هويتهم المجهولة، فأتته فتاواهم متفقة: «كلّ يقول: أرأيت إن متّ في هذه السبع كيف تصنع بالصلاة؟».

وما أدري كيف استساغ الراوي رواية ذلك وهو يروي بأن ابن عباس لو رضي بإجراء العملية كان عليه أن يصلي مستلقياً إيماءً، فهل من كان حكمه ذلك يقال له: كيف تصنع بالصلاة؟ فهل هو يترك الصلاة كلية؟ أم أن فرضه وحكمه

(١) تذكرة الخواص / ٩٠ ط حجرية سنة ١٢٨٥ هـ.

(٢) مستدرک الحاکم ٥٤٥/٣ وتلخیص المستدرک للذهبي بهامشه.

في تكليفه انتقل من الصلاة قائماً إلى الصلاة مستلقياً مؤدياً للركوع والسجود وباقي أفعاله بالإيماء؟ ومهما يكن فقد أورد راويه هذا الخبر وأورده مخرجه بسنده توثيقاً له مدلكين على احتياج ابن عباس إلى عائشة وأبي هريرة وبعض أصحابه (٢) ليعرفوه حكمه لو فعل ما أشار عليه به الجراح.

ألا على العقول العفا تلك التي تصدق بذلك، فأين أثر دعاء النبي ﷺ له بأن يفقهه في الدين ويعلمه الحكمة وهم يروونه؟ ثم ألم تكن عائشة هي التي شهدت له في سنة ٤٥هـ حين ولي أمر الموسم بأنه أعلم الناس بالحج، وهو الذي كان عمر يستغثه ويقول له خص يا خواص وقد مرّ ذلك كله، وقال عنه طاووس: ((رايت سبعين من أصحاب رسول الله ﷺ إذا تدارأوا صاروا إلى قول ابن عباس))^(١)، وفي لفظ البغوي عنه: ((أدركت خمسين أو سبعين من الصحابة إذا سئلوا عن شيء فخالفوا ابن عباس لا يقومون حتى يقولوا هو كما قلت أو صدقت))^(٢).

وقال علي بن المديني: ((لم يكن في أصحاب رسول الله ﷺ أحد له أصحاب يقومون بقوله في الفقه إلا ثلاثة وعدّ ابن عباس منهم))^(٣).

وأخيراً لقد مرّ بنا في أعقاب حرب الجمل في مواقف متشنجة شواهد على ما كان بين عائشة وابن عباس من نفور لم تحمله الصدور حتى بدا فوق السطور. فكيف نصدّق الرواة في استغثائه منها؟

(١) الإصابة ترجمة ابن عباس.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) تهذيب الأسماء واللغات للذوي ١/٢٧٤ ط المنيرية.

وقد جعله أبو حامد الغزالي في كتاب كشف علوم الآخرة من أوائل من يعطي الله أجورهم، لأنهم فقدوا أبصارهم في الدنيا وحكى ذلك عنه القرطبي^(١). وما أدري كيف استساغ القرطبي حكاية ذلك وهو من الغيب الذي لم يأت فيه حديث من معصوم.

والآن وقد شارفنا على الإتهام من القسم الأول من الفصل الأول فيما يتعلق بتاريخ ابن عباس حبر الأمة عليه السلام في فترة خلافة الإمام عليه السلام أرى لزماً عليّ أن أذكر بعض الروايات التي تزيد فيها الرواة، فألحق بها من الهناء والقداة، ما شوّه صفحة ابن عباس ببعض السيئات.

روايات تافهة:

لقد وردت بعض الروايات التي لم تسلم سنداً حتى تستحق الوقوف عندها كثيراً، تدين ابن عباس في إعلانه مخالفته لإمامه في أحكام قهوية، أو إجراءات قضائية، أو آراء سياسية، فكيف يمكن تصديق الرواة في ذلك، وهو الذي كان يقول: «إذا حدثنا الثقة بفتيا عن عليّ لم نتجاوزها»^(٢) وفي لفظ: «إذا حدثنا ثقة عن عليّ بفتيا لا نعدوها»^(٣)، ثم هو القائل لخارجي سأله عن الإمام فأجابه حتى قال له: «أعليّ أعلم عندك أم أنا؟ فقال: لو كان عليّ أعلم عندي منك لما سألتك فغضب ابن عباس حتى اشتد غضبه ثم قال: ثكلتك أمك، عليّ علمني، وكان علمه من رسول الله صلى الله عليه وآله، ورسول الله علمه الله من فوق عرشه، فعلم النبي من الله،

(١) التذكرة/ ٣٧٣ ط دار المنار سنة ١٤١٨.

(٢) طبقات ابن سعد ١٠٠/٢٢٢ ط لندن والاستيعاب ٣٩/٣.

(٣) سير اعلام النبلاء للذهبي ٦٢٨/٢ ط دار الفكر وتاريخ الخلفاء للسيوطي/ ١٧١.

وعلم عليّ من النبيّ، وعلمي من علم عليّ، وعلم أصحاب محمّد كلّهم في علم عليّ كالقطرة الواحدة في سبعة أبحر»^(١).

لذلك فأنا لا أكاد أصدّق الرواة الذين رروا لنا: «إن ابن عباس أتى إليه بكتاب فيه قضاء عليّ عليه السلام فمطاه إلا قدر ذراع»^(٢).

كيف وهو إلدي كان مجدداً في اتباع سنّة الإمام وهديه حتى في أخرج الأوقات التي مرّت به في عهد معاوية.

فقد روى النسائي في سننه، والبيهقي في سننه الكبرى عن سعيد بن جبير قال: «كان ابن عباس بعرفة فقال: يا سعيد ما لي لا أسمع الناس يلبّون؟ فقلت: يخافون معاوية، فخرج ابن عباس من فسطاطه فقال: لبيك اللهمّ لبيك وإن رغم أنف معاوية، اللهمّ العنهم فقد تركوا السنّة من بغض عليّ»^(٣).

وقال السندي في تعليقه على سنن النسائي: «من بغض عليّ» أي لأجل بغضه، أي وهو كان يتقيّد بالسنن فهؤلاء تركوها بغضاً له.

وسياتي مزيد بيان وإيضاح في آرائه الفقهية.

وقد مرّ بنا في حياته بالبصرة في توجيهه العلمي والديني ما يصلح أن يكون شاهداً على مدى التوافق بين ابن عباس وإمامه قياً وعملاً، وحسبك مراجعة مسألة تعريفه بالبصرة وقد مرّ بحثها مفصلاً فراجع.

ومسألة بحث الهدى من مكانه ويبقى محرماً حتى يذبح.

(١) أمالي الطوسي / ٧ ط، حجرية ١١/١ مطب النعمان ومنه في بحار الأنوار ٤٦٥/٨ ط حجرية.

(٢) مقدمة صحيح مسلم ١١/١.

(٣) سنن النسائي - المجتبى - ٢٥٣/٥، والسنن الكبرى ١١٣/٥.

أنا الآن فأشير إلى ورود بعض الروايات التي وصفتها بالتضاهة لعدم سلامة أسانيدھا، ولا متونها من المناقشة وهي في المسائل التالية:

١- مسألة تحريق الغلاة - الزط - بالبصرة بعد حرب الجمل.

٢- مسألة تحريق الزنادقة بالكوفة بعد حرب الخوارج، وهاتان المسألتان مختلفتان زماناً ومكاناً ورواة وقد خفى أمرهما على بعض الباحثين فتخيلهما مسألة واحدة، فالأولى كانت بالبصرة والثانية بالكوفة، والأولى بعد واقعة الجمل، والثانية في أواخر خلافة الإمام عليه السلام والأولى يرويها أنس بن مالك والثانية يرويها عكرمة.

قال طه حسين في الفتنة الكبرى: «وقد روى المؤرخون أن أناساً من أهل الكوفة ارتدوا فقتلهم ثم حرقهم بالنار، وقد ليم في ذلك من ابن عباس. وأظن أن هذه القصة هي التي غلا خصوم الشيعة فيها فزعموا أن هؤلاء الناس ألهوا علياً. ولكن المؤرخين والثقة منهم خاصة، يقفون من هذه القصة موقفين: فمنهم من يرويها في غير تفصيل كما رويتها، ومن هؤلاء البلاذري. ومنهم من لا يرويها ولا يشير إليها كالطبري ومن تبعه من المؤرخين.

وإنما يُكثر في هذه القصة أصحاب الملل والمخاصمون للشيعة. وما أرى إلا أن القوم يتكثرون فيها ويحملونها أكثر مما تحتمل كما فعلوا في أمر ابن السوداء... اهـ»^(١).

قال شيخنا المفيد قدس الله روحه - تعقياً على مسألة التحريق ونقد ابن عباس وندم الإمام على احراقهم - «وهذا من أظرف شيء سمع وأعجبه، وذلك

(١) الفتنة الكبرى (عليّ ونوه) ١٦٦/٢ ط دار المعارف.

أن ابن عباس أحد تلامذته والآخذين العلم عنه، وهو الذي يقول: كان أمير المؤمنين عليه السلام يجلس بيننا كأحدنا ويداعبنا ويأسطنا، ويقول: والله ما ملأت طرفي منه قط هبة له، فكيف يجوز من مثل من وصفناه التقدّم على أمير المؤمنين في الفتيا وإظهار الخلاف عليه في الدين، لا سيما في الحال التي هو مظهر له فيه الإتياع والتعظيم والتبجيل، وكيف ندم على احراقهم، وقد أحرق في آخر زمانه عليه السلام الأحد عشر الذين ادعوا فيه الربوبية، أفتراه ندم على ندمه الأول؟ كلا، ولكن الناصبة تتعلق بالهباء المثلور»^(١).

وقال ابن أبي الحديد: «وهل أخذ عبد الله بن عباس الفقه والتفسير إلا عنه عليه السلام»^(٢).

ومهما يكن أمر هؤلاء وأمر أولئك فسوف نهت المسألة من الناحية الفقهية في (الحلقة الثالثة) إن شاء الله تعالى في بحث: (مسألة التحريق بين التشريع والتطبيق).

٣- مسألة نكاح المتعة.

٤- مسألة لحوم الحمر الإنسية^(٣).

٥- مسألة الصرف التي شُنع عليه فيها كثيراً حتى قالوا أنه رجع عنها وتاب قبل موته بثلاثة أيام.

إلى غير ذلك مما ستعرض له في (الحلقة الثالثة) في آرائه الفقهية إن شاء الله تعالى.

(١) الدرجات الرهيمة للمدني / ١١٧.

(٢) نفس المصدر / ١١٨.

(٣) سير أعلام النبلاء للنهبي ٦٢٨/٢ ط دار الفكر، وتاريخ الخلفاء للسيوطي / ١٧١.

أما عن الروايات التي ذكرت له مخالفات في آرائه السياسية: فأول حادث وحديث هو ما مرّت الإشارة إليه في أوّل خلافة الإمام عليه السلام في قضية مشورة المغيرة، ورأي ابن عباس فيها، واتخذها الكتاب المحدثون سنداً في تجنيهم على الإمام في سياسته حتى أشاعوا بين قرائهم نفياتهم فشل تلك السياسة حتى جرت عليه خوض الحروب، فرأيت لزاماً عليّ أن أذكر بعض آراء الذين أنصفوا أنفسهم وأنصفوا قراءهم حين وعوا حقيقة الإمام وحقيقة سياسته، وقدودوا تلك المفاهيم الخاطئة، فإلى قراءة في ذلك.

مفاهيم خاطئة عن سياسة الإمام !

لك الله يا أبا الحسن كم تجنّي عليك المسلمون قديماً وحديثاً، ولئن كان سيفك أزهق الكفار والمشركين فأورثك عداوة أبنائهم من الأولين، فما بال الآخرين ثارت بلايل أشجانهم وأحزانهم فسقت أحلامهم وأقلامهم فتجنّوا عليك بأنك رجل حرب وشجاع، وليس رجل دولة وقيادة، واتخذوا من سياستك التي هي جزء من دينك، ومن صرامتك ومصراحتك، ذريعة للتطاول عليك. فجعلوا من مشورة المغيرة بن شعبة شاهداً، ومن رأي ابن عباس عاصداً. حين عرضت عنهما حامداً، فيما عرضاه من إبقاء عمّال عثمان عاماً واحداً، فأبيت أن تتخذ المضلّين عضداً، حتى رووا أن ابن عباس قال لك في مشورته ما لا يكاد أن يُصدّق!

فقد روى الطبري وغيره عنه قوله: ((أنت رجل شجاع لست بأرب الحرب، أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: (الحرب خدعة) فقلت: بلى، فقال ابن عباس: أما والله لئن أطعني لأصدرن بهم بعد ورد، ولأتركنهم

ينظرون في دُبر الأمور لا يعرفون ما كان وجهها، في غير نقصان عليك ولا أثم لك...» وقد مرّ ذكرنا له.

فيا لله هل أن ابن عباس كان أبصر بصواب الرأي منك؟ أنها لإحدى الكُبر.
فابن عباس هو القائل عنك للمغيرة: «كان والله أمير المؤمنين عليه السلام أعرف
بوجوه الرأي ومعاهد الحزم وتصريف الأمور من أن يقبل مشورتك فيما نهى الله
عنه وعَنف عليه - إلى آخر ما قال» وقد تقدم منا ذكره.

فهل يصح أن تقبل ما رواه الرواة وفي النفس من رواياتهم ما يبعث على
الاشمئزاز؟

وهذا الموقف زلت فيه أقدام وأقلام فتجنّى غير واحد على الإمام، حتى
بلغت القحّة ببعض المستشرقين - مثل نيكلسون - أن يقول: «كان عليّ يعوزه
حزم الحاكم ودهاؤه برغم ما كان يمتاز به من الفضائل الكثيرة، فقد كان نشيطاً
ذكياً بعيد النظر، بطلاً في الحرب، مشيراً حكيماً وفيماً، شريف الخصومة، نبغ في
الشعر والبلاغة، واشتهرت أشعاره وخطبه في الشرق الإسلامي... وكانت تنقصه
الحنكة السياسية وعدم التردد في اختيار الوسائل أيّاً كانت لتثبيت مركزه، ومن
ثمّ تغلّب عليه منافسوه الذين عرفوا أوّل الأمر أن الحرب خدعة، والذين كانوا لا
يتورعون عن ارتكاب أيّ جرم يبلغ بهم الغاية ويكفل لهم النصر»^(١).

والمعجب كلّ المعجب أن يكون قد تبنى هذا الرأي أخوان مسلمان مصريان
هما الدكتور حسن إبراهيم حسن وأخوه الدكتور عليّ إبراهيم حسن في كتابهما

(١) انظر تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ١/٢٩٤ ط مكتبة النهضة
بمصر سنة ١٩٥٣.

النظم الإسلامية، فقد قالوا: «أراد علي أن يحكم وفق التقاليد التي سادت زمن النبي وأبي بكر وعمر، مع أن الأحوال كانت تستلزم شيئاً من السياسة والدهاء، فقد بادر بعزل ولاة عثمان ولم يصغ لتصيحة بعض الصحابة له بابقائهم حتى تهدأ الحالة وتستقر الأمور ممّا حدا بالاستاذ نيكلسون إلى القول بأنه كان يتقصه حزم الحاكم ودهاؤه وتعوزه الحنكة السياسية»^(١).

وهذا منهما يقضي العجب! كيف كتبنا ذلك؟

ومهما أغضبتنا عن الكاتب المسيحي نيكلسون لأنه على أسوأ الظنون يريد الوقيعة بالإسلام ورجالاته، وعلى أحسن الظنون فهو بعيد عن الإسلام ولا يعرف أحكام الإسلام، وما الذي توجه على خليفة المسلمين من إقامة صرح حكمه على الحق والعدل لا على المخادعة والمواربة، فإننا لا نعذر الأخوين المسلمين، فلديهما من عدة الثقافة ما أتاح لهما التأليف في النظم الإسلامية، ولا شك أنهما أطلعا على كثير من المصادر التي أوضحت السبب في انتهاج الإمام لتلك السياسة، وأخص بالذكر الدكتور حسن إبراهيم حسن فقد ذكر في مصادر كتابه تاريخ الإسلام السياسي... كتاب شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، وفي هذا الكتاب ما يدفع زلة الأعلام ويبين عذر الإمام، وإلى القارئ نبذة منه ممّا قال: «وأما قول ابن عباس له عليه السلام وله شهراً واعزله دهرأ، وما أشار به المغيرة بن شعبة فإنهما قالوا ما توهماه، وما غلب على ظنونهما وخطر بقلوبهما. وعلي عليه السلام كان أعلم بحاله مع معاوية وأنها لا تقبل العلاج والتدبير، وكيف يخطر ببال عارف

(١) النظم الإسلامية / ٣٣ ط الثانية.

أن التوفيق أخطأ علياً، وأن ذلك لم يكن من الحكمة. والذي اعتقده أن ذلك الحكم على عليّ مبالغ فيه، وأنه من الأقوال التي تشاع فيأخذها الناس دون دراسة وبغير تمحيص، وللتدليل على ذلك نسأل الأسئلة التالية:

١- هل كان من الممكن أن يحجج عليّ على الولاة الظالمين وأن يطلب من عثمان عزلهم حتى إذا تولى هو الخلافة تركهم؟

٢- وهل كان من الممكن أن يثور على القطائع التي أعطيت ظلماً لأقارب الخليفة حتى إذا تولى هو الخلافة أقرها؟

٣- وهل كان التمرد الذي عاناه ناشئاً عن عزل الولاة واسترداد القطائع؟ وإذا كان كذلك فلماذا تمرد طلحة والزبير^(١) وشنا على عليّ حرب الجمل؟

٤- وهل يتخيل المؤرخون أن معاوية كان سيبيع علياً ويسير في ركابه لو لم يُعزل؟

٥- وأخيراً هل يمكن أن نطلب من عليّ أن يكون شخصاً آخر غير عليّ. إن مطالبة عليّ بترك والي ظالم في الولاية، أو الإغضاء عن مال أخذ من بيت مال المسلمين من دون حقّ هو بمثابة أن نطلب من الأسد أن يصبح هراً وهيئات أن يكون ذلك.

لعل من الأفضل للمؤرخين أن يقولوا: إن ذلك الوقت لم يكن الوقت الملائم لعليّ ليصبح خليفة، وكان من الخير للمسلمين أن يتولى الخلافة في ذلك الوقت شخص آخر غير عليّ^(٢) شخص يستطيع أن يدور وأن يداهن، شخص لم

(١) وضييف نحن اليهما عائشة لماذا خرجت؟

(٢) انظر تاريخ الطبري ٤٥٩/٣.

أن التوفيق أخطأ علياً، وأن ذلك لم يكن من الحكمة. والذي اعتقده أن ذلك الحكم على عليّ مبالغ فيه، وأنه من الأقوال التي تشاع فيأخذها الناس دون دراسة وبغير تمحيص، وللتدليل على ذلك نسأل الأسئلة التالية:

١- هل كان من الممكن أن يحجج عليّ على الولاة الظالمين وأن يطلب من عثمان عزلهم حتى إذا تولى هو الخلافة تركهم؟

٢- وهل كان من الممكن أن يثور على القطائع التي أعطيت ظلماً لأقارب الخليفة حتى إذا تولى هو الخلافة أقرها؟

٣- وهل كان التمرد الذي عاناه ناشئاً عن عزل الولاة واسترداد القطائع؟ وإذا كان كذلك فلماذا تمرد طلحة والزبير^(١) وشنا على عليّ حرب الجمل؟

٤- وهل يتخيل المؤرخون أن معاوية كان سيبيع علياً ويسير في ركابه لو لم يُعزل؟

٥- وأخيراً هل يمكن أن نطلب من عليّ أن يكون شخصاً آخر غير عليّ. إن مطالبة عليّ بترك والي ظالم في الولاية، أو الإغضاء عن مال أخذ من بيت مال المسلمين من دون حقّ هو بمثابة أن نطلب من الأسد أن يصبح هراً وهيئات أن يكون ذلك.

لعل من الأفضل للمؤرخين أن يقولوا: إن ذلك الوقت لم يكن الوقت الملائم لعليّ ليصبح خليفة، وكان من الخير للمسلمين أن يتولى الخلافة في ذلك الوقت شخص آخر غير عليّ^(٢) شخص يستطيع أن يدور وأن يداهن، شخص لم

(١) وضييف نحن اليهما عائشة لماذا خرجت؟

(٢) انظر تاريخ الطبري ٤٥٩/٣.

يشارك في الأحداث السابقة، او اشترك فيها بنصيب ضئيل، ولكن يجب ألا ننسى أن أية محاولة لتولية شخص غير عليّ حينذاك كان لا بد من فشلها، فتولية عليّ كانت قد أصبحت أمراً طبيعياً كما سبق القول.

والخلاصة أن تولية عليّ كانت طبيعية، وأن سلوكه كان طبيعياً، وأن التمرد الذي واجهه عليّ كان طبيعياً أيضاً وكان نتيجة لسير الأحداث وكان صراعاً على السلطة وإن اتُخذ من أسبابه قتل عثمان، أو المطالبة بشاره، أو عزل الولاية، أو استرداد ما سُلِب من بيت المال.

ويقول محمد بن سيرين: ما علمتُ أن عليّاً اتهم في دم عثمان حتى يوبع، فلما يوبع اتهمه الناس^(١) (٢).

وأخيراً لقد تبين للقارئ مدى الجناية التي لحقت بالإمام نتيجة سياسته الحكيمة، فظن من لا حريجة له في الدين أن الخلاف الذي نشب في أيام خلافته، لأنه لم يأخذ بنصائح المغيرة وابن عباس، وقد بينا ما يتعلق بابن عباس وشككتنا في صدق الرواة فيما هو الثابت الصحيح عنه.

وأما المغيرة كيف يتوقع من الإمام أن يقبل بمشورته، وهو الذي كان يعرفه بدماءً وخطاماً، كفراً وإسلاماً، حرباً وسلاماً؟

هلم فلنقرأ ما رواه إبراهيم بن محمد الثقفى في كتابه الغارات عن أبي صادق عن جندب بن عبد الله قال: ((ذكر المغيرة بن شعبة عند عليّ عليه السلام وجدّه مع معاوية. قال: وما المغيرة؟ إنما كان إسلامه لفجرة وغدرة غدورها بنفر من

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه ٣٠٥/٤.

(٢) التاريخ الإسلامي ١/٣٣٥ - ٣٣٧ ط الخامسة / ١٩٧٠.

قومه، فتك بهم وركبها منهم، فهرب منهم فأتى النبي ﷺ كالعائد بالإسلام، والله ما رأى أحد عليه منذ ادعى الإسلام خضوعاً وخشوعاً.

ألا وأنه كان من تقيف فراخنة قبل يوم القيامة يجانبون الحق ويسمعون نيران الحرب ويوازررون الظالمين، ألا إن تقيفاً قومٌ عُذر لا يوفون بعهده، يخضون العرب كأنهم ليسوا منهم، ولرب صالح قد كان فيهم، فمنهم عروة بن مسعود وأبو عبيد بن مسعود المستشهد يوم قسّ الناطف، وإن الصالح في تقيف لغريب^(١).

ولا تزال تعيش الفكرة الخاطئة في كثير من الأدمغة التي ترى الميكافلية السبيل الأقوى إلى بلوغ الغاية، ولا تنظر إلى السبيل الأقوم، حتى كانوا يرون في بلوغ معاوية إلى سدة الحكم حجة لهم. وأنه كان داهية ولم يكن الإمام كذلك، وقد فاتهم قد يرى الحول القلب وجه الحيلة ولكن دونها حاجز من تقوى الله. وللدرد على هؤلاء فلنقرأ أولاً: ما قاله أمير المؤمنين عليه السلام ((والله ما معاوية بأدهى مني ولكنه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر لكتت من أدهى العرب، ولكن كل

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد ٣١٣/١ - ٣١٤ ط مصر الأولى، وكتاب الفارات ٥١٦ تحقيق السيد جلال الدين الحسيني، وغزوة المفيرة وفجرته، ذكرها من المؤرخين ابن هشام في سيرته عند صلح الحديبية ٣١٣/٢ ط مصر سنة ١٣٧٥، وذكرها ابن جرير الطبري في تاريخه في حوادث السنة السادسة ١٥٣٧/١ ط أوروبا. والواقدي في المغازي تحت عنوان: غزوة الحديبية ٥٩٥/٢ وهو أوسع من ذكر ذلك. وابن الأثير ٧٦/٢ وفهرم وملخصها بلفظ ابن هشام، فقال عروة: من هذا يا محمد؟ قال: هذا ابن أخيك المفيرة بن ضبة قال: أي غدر وهل فعلت سؤلك إلا بالأمس؟ قال ابن هشام: أراد عروة بقوله هذا أن المفيرة بن ضبة قبل إسلامه قتل ثلاثة عشر رجلاً من بني مالك من تقيف فتهايج الحيان من تقيف بنو مالك رهط المقتولين، والأحلاف رهط المفيرة هودي عروة المقتولين ثلاث عشرة دية وأصلح ذلك الأمر.

غدرة فجرة، ولكل فجرة كفرة، ولكل غادر لواء يُعرف به يوم القيامة، والله ما أستغفل بالمكيدة، ولا أستغمر بالشديدة»^(١).

ولندكر في هذا المقام ما حكاه ابن أبي الحديد عن أبي عثمان - الجاحظ - قال أبو عثمان: «وربما رأيت بعض من يظن بنفسه العقل والتحصيل والفهم والتميز، وهو من العامة، ويظن أنه من الخاصة، يزعم ان معاوية كان أبعد غوراً، وأصح فكراً وأجود روية، وأبعد غاية، وأدق مسلكاً، وليس الأمر كذلك، وسأومي إليك بجملة تعرف بها موضع غلظه، والمكان الذي دخل عليه الخطأ من قبله.

كان عليّ عليه السلام لا يستعمل في حربه إلا ما وافق الكتاب والسنة، وكان معاوية يستعمل خلاف الكتاب والسنة كما يستعمل الكتاب والسنة، ويستعمل جميع المكاييد حلالها وحرامها، ويسير في الحرب بسيرة ملك الهند إذا لاقى كسرى، وخاقان إذا لاقى رتييل، وعليّ عليه السلام يقول: لا تبدوهم بالقتال حتى يبدوؤكم ولا تتبعوا مُدبراً، ولا تجهزوا على جريح ولا تفتحوا باباً مغلماً. هذه سيرته في ذي الكلاع وفي أبي الأعرور السلمي وفي عمرو بن العاص وحيب بن مسلمة وفي جميع الرؤساء كسيرته في العاشية والحشو والأتباع والسفلة، وأصحاب الحروب ان قدروا على البيات يتوا، وان قدروا على رضخ الجميع بالجنادل وهم نيام فعلوا، وإن أمكن ذلك في طرفه عين لم يؤخروه إلى ساعة،

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد ٥٧٢/٢، وشرح محمد عبده ٢٠٦/٢ وجاء في حديث ابن أبي شيبة في كتاب الجمل من مصنفه ٢٥١/١٥ مد باكستان قول كليب الجرهمي وقد دخل على امير المؤمنين عليه السلام بندي قار فقال: قدمت على ادهى العرب - يعني علياً - ... وقد أخرج الطبري الحديث بكامله وفيه شهادة الجرهمي بأن علياً من ادهى العرب - راجع ٤٩١/٤.

وإن كان الحرق أصجل من الفرق لم يقتصروا على الفرق ولم يؤخروا الحرق إلى وقت الفرق...

فمن اقتصر - حفظك الله - من التدبير على ما في الكتاب والسنة كان قد منع نفسه الطويل العريض من التدبير وما لا يتناهى من المكاييد، والكذب - حفظك الله - أكثر من الصدق، والمحرام أكثر عدداً من الحلال... فعلي عليه السلام كان ملجماً بالورع عن جميع القول إلا ما هو لله وكتابه رضاً، فصار ممنوع اليدين من كل بطش إلا ما هو لله رضاً ولا يرى الرضا إلا فيما يرضاه الله ويحبه، ولا يرى الرضا إلا فيما دلّ عليه الكتاب والسنة، دون ما يعول عليه أصحاب الدهاء والمكر والمكاييد والآراء، فلما أبصرت العوام كثرة نوادر معاوية في المكاييد وكثرة غرائبه في الخداع، وما اتفق له وتهياً على يده ولم يروا ذلك من علي عليه السلام، ظنوا بقصر عقولهم وقلة علومهم أن ذلك من رجحان عند معاوية ونقصان عند علي عليه السلام ^(١).

وهذا الحال ذكره غير واحد من الكتاب المعاصرين.

منهم الكاتب أحمد عباس صالح، قال في كتابه اليمين واليسار: «وكان علي بن أبي طالب يمثل في نظر غالبية المسلمين الرجل الوحيد الأقرب إلى روح الإسلام وأصوله الصحيحة، ولكنه في نفس الوقت يمثل السياسي المتشدد أو على الأصح الأكثر تشدداً من عمر بن الخطاب نفسه، وهو الأمر الذي جعل الكثيرين من القادة والطامحين والمستفيدين ينظرون إلى تولية علي بن أبي طالب نظرة حذر وتردد. وأصحاب المصالح لم يستطيعوا أن يحتملوا عمر، ابن

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد ٥٧٧/٢ ط مصر الأولى.

الخطاب، فأولى بهم أن يتخوفوا من عليّ وأن يعملوا جهدهم ألا يصل إلى
الخلافة»^(١).

ومنهم الدكتور هشام جمعيّط (تونسي)، قال في كتابه الفتنة ما يلي:
«هناك في التراث التاريخي العربي ميل شديد إلى إظهار عليّ على أنه سياسي
رديء، وحتى كأنه رجل محدود^(٢) وفي المقابل هناك ميل إلى اعتبار معاوية ذا
حسنٍ سياسي عميق. وليس في ذلك فقط انعكاس لواقع، أو على العكس، تعبير
عن شبكة رقيقة من الروايات المعادية لعليّ، بل هناك أيضاً الميل الغالب على
العقل البشري لرفض الكمال وإلى مساواة اللعبة، وإلى تمييز مجالات الأنشطة،
فبما ان التقوى هي نصيب عليّ، فعدنئذ تكون السياسة نصيب معاوية.

وحتى أننا نلاحظ في الموروث التاريخي المؤيد لعليّ إلى حد كبير، نزوعاً
غامضاً إلى التشديد على دهاء معاوية، يكون في آنٍ عبقرية استراتيجية ومكر
يستحق الإعجاب والإدانة.

في الواقع ليست الأمور بهذه البساطة: فقد كان عليّ سياسياً أكثر ممّا يُعتقد،
وكان معاوية استراتيجياً أقلّ كياسة، وكان بالأخص أقلّ مكرراً ممّا جرت العادة
على وصفه.

وبعد يبقى صحيحاً أنّ عليّاً كان بوجه خاص قد عرف تجربة المرحلة
التاريخية النبوية المحصورة في المجال الحجازي والعربي على الأكثر، وأنه لم

(١) اليمين واليسار في الإسلام / ٩٨-٩٧ ط المؤسسة العربية للدراسات والنشر سنة ١٩٧٢ .

(٢) هذه روايات من أصل أمويّ وأما من أصل هبامسي. راجع مثلاً الطبري ٤٣٩/٤ حيث يبرز
الواقدي على المسرح علياً وابن عباس، علياً والمغيرة بن شعبة، وحيث يبدو عليّ مفتقراً
إلى الحسّ السياسي بالمقارنة مع الرجلين.

يُرد له، أو أنه هو ذاته لم يُرد إقحام نفسه في مغامرة الفتح، وبالتالي توسيع آفاقه، بينما كان معاوية قد وجد نفسه طيلة ٢٠ سنة مشاركاً في تنظيم الامبراطورية وإدارتها...»^(١).

ومنهم الشيخ العلاتلي، في كتابه القيم سمو المعنى في سمو الدات، وقد بحث (أسباب فشل سياسة علي عليه السلام ونجاح السياسة المعادية) كما عنون ذلك، فقال: «والحق أنا إذا درسنا سياسة علي عليه السلام وسياسة معاوية، على مناهج علوم النفس والسياسة والاجتماع والقانون، رأينا عمق سياسة علي ونفوذها ورجاحة خطه، ونرى أيضاً كيف يبني ويهدم تبعاً لنظر دقيق وتفكير موقف، وإنما جاء فشلها من نواح:

(١) إن التربية الدينية لم تشمل العرب على وجه صحيح، ولم يعن الخلفاء بنشرها على الطريقة الوجدانية التي اخترمت في نفس أبي ذر رضي الله عنه فقام بنشرها مجتهداً... ثم ذكر أسباب ذلك التخلف في الشعور الديني عند العرب ثم قال: إذاً فقد كان أخذ علي عليه السلام لهؤلاء بالسياسة الدينية الصارمة وهم على غير استعداد لها سبباً من أسباب الفشل.

(٢) سياسة علي عليه السلام القانونية، فقد كان يلتمس لكل اجراءاته وجوهاً من القانون أي دينية، ويجتهد في ايضاحها قبل أن يقوم بحركة ما، ولا شك في أن طبيعة القانون غير طبيعة الظروف المفاجآت هذا سبب ثان للفشل، بينما كانت

(١) الفتنة ١٨٦، جدية الدين والسياسة في الإسلام المبكر - ترجمة خليل أحمد خليل
استاذ المعرفة والفلسفة - الجامعة اللبنانية بمراجعة المؤلف. ط دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت ط الثالثة سنة ١٩٩٥ .

سياسة معاوية لا تتقيد بحدود ولا بأوضاع، وإنما تركب كل صعب وذلول في سبيل أغراضها، وكذلك كانت سياسة مستشاره عمرو...

هذا ميزان نستطيع أن نزن به سياسة علي عليه السلام ومعاوية، فقد كان عليّ محافظاً دينياً لا يمكنه أن يحمل الناس إلا على قانونه الخاص الذي يسيطر عليه، ولا يتحلل من أسره، ولذلك هو يلتمس لنفسه شواهد من القانون تبرّر عمله، فإن لم يجدها أحجم إحجام المدعور، ومن ثم لا يعطي أذنه لأي ناصح مهما علم صدقه وصدق رأيه ما دام لا يتفق مع الدين (القانون الذي يحترمه علي عليه السلام ويعمل به).

بينما كان معاوية متحلاً من هذا القيد، فلم تكن سياسته قانونية بل سياسة ظرفية، ومن ثم كانت قمينة بالنجاح وجديرة بأن لا تقبل.

(٣) روح العراق التي كانت قَبَلِيَّة في ذلك العهد على شكل وبيد فظيع، إذ كان يجمع أقواماً من قبائل شتى وجهات مختلفة تقوم في مجموعها على التقليد البدوي القديم الذي لم يؤثر فيه الإسلام شيئاً، لأنه لم يهاجمه في محل العقيدة ومكان الضمير، وإنما هاجمه في الأعمال الظاهرة والشكل الصوري فقط... وبهذا أعلل كلّ الإضطرابات التي ثارت في محيط العرب، وأبرزها إكراه خليفة كعلي عليه السلام لقبول التحكيم وتهديده بأن يفعل به كما فعل بعثمان رضي الله عنه، ولقد قال عليّ كرم الله وجهه في كلمة له: (لا رأي لمن لا يطاع)...

(٤) من القضايا الثابتة أن البدوي يؤخذ بالاحتكام والخوف والسيطرة، ويمتد الرعب في نفسه والتظاهر عليه بالقوة...

هذه أسباب اجتمعت على فشل سياسة عليّ.

وقال: إنَّ المقدرة السياسية لا تقاس بمقدار النجاح بل بمقدار ما تكون مقدماتها التعليلية صحيحة، لأنَّ الفشل كثيراً ما يكون نتيجة مفاجأة لم تكن في الحسبان كما وقع لعليّ عليه السلام بالفعل في حركة الخوارج، ولولاها لكان نجاحها مضموناً أو محتوماً...»^(١).

ومنهم الدكتور طه حسين، يقول في كتابه عليّ وبنوه في حديثه عن فرار مصقلة بن هبيرة إلى معاوية: «يظهر الفرق واضحاً بين مذهب عليّ في السياسة التي تخلص للدين، ومذهب معاوية في السياسة التي تخلص للدنيا»^(٢).

وقال: «وهذه السيرة التي سارها عليّ في عمّاله هي نفس السيرة التي سارها في الناس، فلم يكن يُطمع الناس في نفسه، ولم يكن يوثسهم منها، وإنما كان يدنو منهم أشدَّ الدنوِّ ما استقاموا على الطريق وأدّوا الحقَّ، فإن انصرفوا عن الجادة أو التروا ببعض ما يجب عليهم بقَدِّ عنهم أشدَّ البعد، وأجرى فيهم حكم الله غير مصطنع هوادة أو رفقاً»^(٣).

وقال أيضاً: «فقل إذاً في غير تردد: إنَّ أوَّل الظروف التي كانت تقتضي أن يخفق عليّ في سياسته هو ضعف سلطان الدين على نفوس المحدثين من المسلمين، وتغلَّب سلطان الدنيا على هذه النفوس»^(٤).

وقال: «كان عليّ يدبِّر خلافة، وكان معاوية يدبِّر ملكاً وكان عصر الخلافة قد انقضى وكان عصر الملك قد أظلم»^(٥).

(١) سمو المعنى في سمو الذات / ٤٩ مط، عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر سنة ١٣٥٨ .

(٢) عليّ وبنوه / ١٢٨ ط دار المعارف.

(٣) نفس المصدر / ١٦٦ .

(٤) المصدر السابق / ١٧٧ .

(٥) نفس المصدر / ١٨١ .

ومنهم الاستاذ عباس محمود العقاد، يقول في كتابه عبقرية الإمام: ((السياسة التي اتبعها الإمام هي السياسة التي كانت مقيضة له مفتوحة بين يديه، وهي السياسة التي لم يكن له مجيد عنها، ولم يكن له أمل في النجاح إن حاد عنها إلى غيرها...))

ومهما يكن من حكم الناقدين في سياسة الإمام فمن الجور الشديد أن يُطالب بدفع شيء لا سبيل إلى دفعه، وأن يحاسب على مصير الخلافة وهي منتهية لا محالة إلى ما انتهت إليه...

ومن الجور الشديد أن يلقي عليه اللوم لأنه باء بشهادة الخلافة ولا بد لها من شهيد.

وقد تجمعت له أعياء النقائص والمفارقات التي نشأت من قبله، ولم يكده يسلم منها خليفة من الخلفاء بعد النبي صلوات الله عليه...

وقد نُقِدت سياسة عليّ لقوات الخلافة منه قبل البيعة، كما نُقِدت سياسته لقوات الخلافة منه بعد البيعة، واحصى عليه بعض المؤرخين أنه تأخر تيفاً وعشرين سنة فلم يخلف النبي ﷺ ولم يخلف أبا بكر، ولم يخلف عمر... كأنه كان مستطيعاً أن يخلف أحداً منهم بعمل من جهده وسعي من تديره، فأعياء السعي والتدير...^(١)

ثم ساق العقاد ما براه بمنظوره الخاص من أسباب العوائق التي حالت بين الإمام وبين الخلافة قبل وصولها إليه، فذكر جملة منها ما صح وفيها ما لا يصح، غير أنه ختم كلامه فقال: ((وكل سياسة له لم تكن لتحيد به عن الخاتمة

(١) عبقرية الإمام / ٧٧٣ العبقريات الإسلامية.

المحتومة أقل مجيد. وكلّ ما كان من تدبير الحوادث أو من تدبيره فهو على هذا الملتقى الذي يتلاحق عنده الاسراع والإبطاء - إلى أن قال - وتقضي بنا هذه التقديرات جميعاً إلى نتيجة واضحة تلخصها في كلمات وجيزة ونعتقد أنها أعدل الأحوال في وصف تلك السياسة التي كثرت مطارح النقد والدفاع.

سياسة عليّ لم تورّطه في غلطات كان يسهل عليه اجتنابها باتباع سياسة أخرى. وهي كذلك لم تبلغه مآرب مستعصية، كان يعز عليه بلوغها في موضعه الذي وضع فيه وعلى مجراه الذي جرى عليه.

فليست هي علة فشل متزعج، ولا علة نجاح متزعج، أو هي لا تستدعي الفشل من حيث لم يخلق، ولا تستدعي النجاح من حيث لم يسلس له قياد...
ورأينا في سياسته فهماً وعلماً، ولكننا لم نر فيها الحيلة العملية التي هي إلى الغريزة أقرب منها إلى الذكاء...

فكان نعم الخليفة، لو صادف أوان الخلافة...

وكان نعم الملك لو جاء بعد توطيد الملك واستغنائاه عن المساومة والإسفاف. ولكنه لم يأت في أوان الخلافة ولا في أوان ملك مؤطد، فحمل أعباء النقيضين وأخفق حيث ينبغي أن يخفق أو حيث يعيه أن ينجح، وتلك آية الشهيد^(١).

وقال العقاد أيضاً: «ثم يفترق الناس في رأيه إلى رأيين وإن لم يكونوا من الشائنين المتحزبين، فيقول أناس إنه كان على قسط وافر من الفهم والمشورة، ولكنه عند العمل لا يرى ما تقضي به الساحة الحازية، ولا يتضح بما يراه، ويقول أناس: بل

هو الاضطراب والتحرّج يقيدانه ولا يقيدان أعداءه، وأنهم لدونه في القطنة والسداد وهو ﷺ قد اعتذر لنفسه بمشابهة من هذا العذر حين قال: (والله ما معاوية بأدهى مني، ولكنه يغدر ويفجر، ولولا كراهية العذر لكنت من أدهى العرب)»^(١).

ومنهم عبد الوهاب النجار، قال في كتابه تاريخ الخلفاء: «إننا إذا نظرنا إلى عليّ من جانب الدين وحب الحقّ والزهد في الدنيا والإعراض عن زخارفها وزينتها وجدناه يمشي في صفّ أبي بكر وعمر لا يتخلف عنهما قيد خطوة.

وإذا نظرنا من جهة الفقه في أحكام الدين والعلم بجزئيات فروع الشريعة وجدناه يسبقهما. أمّا من حيث تدبير الملك وسياسة الرعية ومقاربة العامة، والتنبّه لدقائق السياسة والأخذ على شكائم القوم والإحاطة بأحوالهم، فإنّه يتأخّر عن الرجلين في هذا المقام. مع سعة درايته وقوة عارضته، لأنّ الأقوال في السياسة وحسن الملكة والإعراب عن دقائق ذلك شيء، وإفاضة ذلك على الرعية وبسط النفوذ على الكافة وإخضاعهم للإرادة شيء آخر.

وقد يمر بنا شيء من ذلك ومن تعليل عدم نجاحه في جمع كلمة الأمة. والسرّ في ذلك سوء الأحوال التي تولى فيها. وعندني أنّ الوقت لو صفا لعليّ ﷺ وواتته المقادير باستتباب الراحة واجتماع الكلمة، لأذاق الأمة حلاوة العدل، وحملهم على الجادة وسار بهم في طريق الفتح، وبسط نفوذ الإسلام وإعزاز كلمته بما لم يدع مقالاً لقاتل، والله في خلقه شؤون.

ويكفي من ينظر في أمر عليّ أنّه لم يوجد عنده من المال سوى سبعمائة درهم كان أرصدها لشراء خادم له لم يكن عنده سواها، وفي رعيته من يملك

(١) نفس المصدر / ٦٩٩ مجموعة العبيريات الإسلامية.

عشرات الآلاف ومئات الآلاف، ولم يكن مترفعاً في معيشته ولا متوسعاً كما كان معاوية أو عثمان، بل كان من طراز أبي بكر وعمر^(١).

أقول: ومهما كانت آراء من سبق من الباحثين متفاوتة في تقييمهم لسياسة الإمام عليه السلام، لكنها متفقة على أنه عليه السلام كان المصيب في عزله ونصبه، وسلمه وحره، متبعاً أمر ربه، لذلك لم تكن الخلافة عنده تساوي شسع نعل إلا أن يقيم حقاً أو يدفع باطلاً.

وقد قال أحمد بن حنبل - إمام الحنابلة - ((إن علياً ما زاته الخلافة ولكن هو زانها)).

وتعقبه ابن الجوزي بعد أن حكى ذلك عنه بقوله:

ما زانه الملك إذ حواه بل كل شيء به يزان
جرى ففات الملوك سبقاً فليس قدامه عنسان
نالت يده ذرى معالٍ يعجز عن مثلها العيان^(٢)

وقد أدرك ذلك في الإمام عليه السلام حتى غير المسلمين، وحسبنا نموذجاً واحداً هو جورج جرداق، فقد قال: ((لقد كان علي من المهارة والمقدرة على الدهاء بحيث لم يكن غيره من مهرة العرب ودهاتهم، وكان من بُعد الغور وعمق النظر في أمور السياسة والقتال، ومن سبر النفوس وإدراك الدخائل، ومن معرفة النتائج قبل الوصول إليها، والبصر بأهواء الرجال ومطامعهم وأساليبهم في الحيلة، بحيث لم يكن معاوية بن أبي سفيان ولا عمرو بن العاص ولا غيرهما من أهل الدهاء

(١) تاريخ الخلفاء / ٤٧٤ ط السلفية بمصر.

(٢) التبصرة / ٢٤٣ ط عيسى البابي الحلبي سنة ١٣٩٠ تح د. مصطفى عبد الواحد.

والحيله. ولكنه كان يزدي الحيلة الملتوية، ويمقت ما يسميه الناس استغلال الفرصة إذا كان فيه ما يخجل الخلق. وكان يرفع نفسه عن المكر والكيد، ولو جاءه بالنصر، وبأبي إلا الصراحة والصدق، أو ليس هو القائل بصدد ما شاع في زمانه عن دهاء معاوية، وعوده هو عن مثل هذا الدهاء - (والله ما معاوية بأدهى مني، ولكنه يفدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر لكنت أدهى العرب) -

وقد أشبعنا هذه الناحية درساً مباشراً أو غير مباشراً فما بنا حاجة للعودة إليها الآن، وإنما نذكرها بمعرض الحديث عن حادثتي صفين - يعني استيلاء الإمام على الماء بعد ان أجلى جند معاوية عنه ثم أباحه لهم، ويعني تمكنه من قتل عمرو بن العاص ثم عفاه عنه لأنه شغل برجله وأبدي عورته - لنرى إلى أي حد يعجز بعض خصومه وبعض محبيه عن إدراك شخصيته إدراكاً صحيحاً شاملاً، فإذا بأولئك يتهمون بالتقصير في الميدان السياسي، وإذا بهؤلاء يأسفون لفرستين لم يستغلها في الميدان الحربي، وكلهم مخطئ بمقياس الشخصية العلوية، لأن مفاهيم السياسة وقواعد الحرب عند الإمام نابعة من معين واحد لا يتجزأ ولا يتقطع، هو الشخصية العلوية، أو قل: الروح العلوية التي يُصدق بعضها بعضاً، وتستند مآتيها الواحد إلى الآخر، ولا مقياس لديها أجل وأعظم من الوجدان السليم والخلق الكريم اللذين يكمنان عنده وراء كل قاعدة وكلّ شريعة.

ثم إن قولاً غير هذا نرى من الخير أن تثبت في هذا المقام. تحدثت إلي مرة صديق أديب يعنى بشؤون الإسلام قال: وكأنه ينزع عن السنة سائر القائلين: لن تقنعني بأن علياً كان خيراً بأحوال السياسة وأمور الرجال، وبأنه كان من الموهبة

السياسية بحيث تقول فسألته قائلاً: لنفرض أن الصدفة لم تسق عبد الرحمن بن ملجم إلى قتل علي، أو لنفرض أن الصدفة شاءت أن يكون إلى جانب علي صبيحة مقتله رهط من أنصاره فوقه الضربة الغادرة فنجاء، ثم عاد ثانية لتأديب معاوية تنفيذاً لما كان عازماً عليه، وانتصر على جند الشام في معركة السيف كما كان مرجحاً أن يكون أو لنفرض إن حيلة التحكيم في موقعة صفين لم تجز على قسم من جيش علي، فتابعوا القتال وقبضوا على معاوية وعمرو بن العاص، وانتهى أمر الموقعة كما انتهى أمر موقعة الجمل!

أقول: لنفرض كل هذا أو شيئاً من هذا، وأن علياً انتصر أخيراً على معاوية كما انتصر على طلحة والزبير - وهو إن لم يتصر فعلى الصدفة والقدر تقع المسؤولية - فماذا كنت تقول في سياسة علي عند ذلك؟ وأي مطعن في كفاءاته كنت ترى؟!

أما كنت تقول مع القائلين: إن علياً جمع إلى البلاغة والحكمة وشرف النفس وصفاء الوجدان، دهاءً فوق دهاء معاوية في السياسة، وطاقة فوق طاقة عمرو بن العاص في مواجهة الأحداث ومعالجة المضلات له.

وما يقال في شأن علي بهذا الصدد يقال في شأنه يوم أخذ عليه الآخذون عزل معاوية عن الولاية، وعزل غيره من الولاة الذين شاءت الصدفة وأحوال العصر وسياسة عثمان وأوضاع الناس أن تمدهم بأسلحة لا شأن في مقارعتها للخلق السليم والإدراك العظيم والكفاءة الخالصة. لقد تعود الناس وفيهم الدارسون والمؤرخون أن ينساقوا في تيار المألوف من النظر في الأمور والحكم عليها. وفي مقدمة هذا المألوف أن تقاس كفاءات الرجال في الصراع بمقياس الانتصار والإنكسار، دونما نظر إلى الأسلوب المتبع في إدراك النصر، ودونما

نظر إلى احتمالات كثيرة يتعلّق بعضها بالأخلاق إذ تتحدر أو تعلو، ويرتبط بعضها بالصدق والتقدير التي لا يذوّب في دفعها لمنكسر، ولا يذوّب في إعدادها وإتزالها منزلة السلاح القادر لمتمصر أو لذي دهاء.

وعلى كلّ حال فهؤلاء يريدون من عليّ أن يوارب في السياسة، وأن يستغلّ الظرف في القتال ويأبى هو ذلك.

إنهم يريدونه أن يكون معاوية بن أبي سفيان، وهو عليّ بن أبي طالب...؟ اهـ^(١).

وفي هذا التصوير والتقدير الذي رآه جرداق فقد شاركه في التصوير قبله السيّد قطب في كتابه العدالة الاجتماعية في الإسلام فقال: ((والذين يروون في معاوية دهاء وبراعة لا يرونهما في عليّ، ويعزّون إليهما غلبة معاوية في النهاية إنّما يخطئون في تقدير الظروف، كما يخطئون فهم عليّ وواجبه، لقد كان واجب عليّ الأوّل والأخير أن يردّ للتّكاليف الإسلامية قوتها، وأن يردّ إلى الدين روحه، وأن يجلو الغاشية التي غشت هذا الروح على أيدي أمية في كبرة عثمان ووهته، ولو جرى معاوية في إقصاء المنصر الأخلاقي من حسابه لسقطت مهمته، ولما كان لظفره بالخلافة خالصة من قيمة في حياة هذا الدين، فما جدوى استبدال معاوية بمعاوية؟! إن عليّاً إما أن يكون عليّاً أو فلتذهب الخلافة عنه، بل فلتذهب حياته معها، وهذا هو الفهم الصحيح الذي لم يغيب عنه - كرم الله وجهه - وهو يقول: (والله ما معاوية بأدهى مني، ولكنه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس... اهـ)^(٢).

(١) الإمام عليّ صوت العدالة الإنصافية (عليّ وعصره) ٩٨٧/٤ ط بيروت.

(٢) العدالة الاجتماعية في الإسلام / ١٩٧ - ١٩٨ ط ٤ سنة ١٣٧٣ بمصر.

بداية عهد الخلافة الجديدة :

استقبل ابن عباس عهد الخلافة الجديدة بإيمانه الراسخ بأحقيتها الشرعية، فعليه أن يستلهم بمقريته ما يستوحيه منها فيما يجب عليه القيام به أزاء الخلافة الجديدة، وما يلزمه من العمل في سبيل إرساء دعائمها، فهو في سنّه الذي تجاوز بداية الكهولة حتى كان هو أكبر الهاشميين الذين معه في الكوفة سنّاً، وهو في علمه أوسعهم - بعد الحسين - علماً وفهماً، وهو في تجاربه أيضاً أكثر تجربة، فمن جميع ذلك له رصيدٌ يؤهله أن يكون هو صاحب الرأي والكلمة في تلك الساعة.

وهكذا كان، فقد قال الرواة: لما توفي الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وجهزه أولاده وآله ومنهم ابن عباس، حتى رووا أنه شارك الحسين في تفسيره كما في رواية أبي مخنف عند أبي الفرج في المقاتل^(١)، ورواية الهاروني في تيسير المطالب عن الأسود الكندي والأجلح قالا في حديثهما: ((وولي غسله ابنه الحسن بن علي عليه السلام وعبد الله بن العباس))^(٢).

وقال الرواة: حمله بنوه وآله إلى مشواه الأخير حيث أمرهم بدفنه فيه في النجف - الغري - وذلك في جوف الليل الغابر^(٣)، وعادوا إلى الكوفة قبل أن ينبج عمود الصبح، فدخلوا دار الإمام، وما من شك أنهم تداولوا الحديث حول مواجهة الموقف مع الناس الذين يترقبون ما يأتيهم من وراء رتاج الباب، ولا بدّ

(١) مقاتل الطالبيين / ٤١ تح. السيد أحمد صقر ط. مصر سنة ١٣٦٨ هـ.

(٢) تيسير المطالب في أمالي أبي طالب الهاروني المتوفى سنة ٨٥/٤٥٤ ط. بيروت سنة ١٣٩.

(٣) انظر الفتوح لابن اعثم ١٤٥/٤ ط. حيدرآباد.

لمن في الدار من التذكير في كيفية أخذ البيعة للإمام الحسن عليه السلام من الناس، وهم هم أنفسهم في الأمس القريب في مواقفهم المتخاذلة مع الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حتى ملّهم وتبرّم بهم ومنهم، ودعا لنفسه وعليهم أن يريحه الله منهم، فاستجاب له دعاءه.

وما من شك أيضاً أن الناس الذين اجتمعوا في المسجد في حالة انتظار وترقب، وهم على وجل ممّا تحمله معها أيامهم المقبلة من عاديّات معاوية الذي يتربص بهم ويتحين الفرصة، وقد وافته، وبالأمس القريب كانت غاراته تترى على أطراف بلادهم، مضافاً إلى ما له في الكوفة من أناس - ولتسميهم طابوره الخامس ان صح التعبير - سوف يستغلون الفراغ الذي خلفه غياب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إذن فلا بدّ من سدّ هذا الفراغ بقيام إمام من بعده، يستند شؤونهم، ويلوذون به في ملاتاتهم، وإلا فسيكونون عرضة للضباع وانتهاش الضباع.

وبين خضم المداولات في الدار والتكهنات خارج الدار، تبدى الصبح لذي عيّن، كما بدت طلعة الكهل الوقور وقد جّله الحزن ليطالع الناس بموقف إعلام بصيفة استعمال، وإعلان بلغة استفهام، فمن ذا هو؟ وماذا قال؟
إعلام واستعلام:

كان ذلك الرجل التاكل الحزين الذي بدّد سأم التربص والترقب لدى الناس، هو عبد الله بن عباس.

ومن هو أولى منه في تلك الساعة الحرجة فهو مع حزنه البالغ المشوب بالحذر من المفاجأة، عليه أن يلج الرتاج ويفتح المغلق في صدور الناس، وعليه أن يهيء الجو المكفهر بالحزن لاستقبال بيعة جديدة، وعليه أن يدعو بدون

ترهيب أو ترغيب، وعليه أن يخبر ولكنه بلغة المستخبر، فهو معلن ولكنه بلهجة مستفهم، لذلك خرج إلى الناس وهم في تطلع إلى ما يقول، وهو أيضاً في تطلع إلى ما في النوايا، يريد أن يستطلع الآراء ليعرف الخبايا في مدى الاستجابة والاستعداد لقبول البيعة الجديدة، وذلك قبل أن يعلمهم بالإمام الجديد فقال للناس بصوته الجمهوري الموروث: «إن أمير المؤمنين عليه السلام توفي وقد ترك خلفاً، فإن أحببتم خرج إليكم، وإن كرهتم فلا أحد على أحد»، فبكى الناس وقالوا: بل يخرج إلينا.

ولا شك أن المقام كان يستدعي أكثر من هذا الكلام، ويتضح ذلك مما جاء في رواية البلاذري: قال: «وخرج عبيد الله (كلنا) بن العباس بن عبد المطلب إلى الناس بعد وفاة عليّ ودفنه فقال: إن أمير المؤمنين عليه السلام قد توفي برأ تقياً، عدلاً مرضياً، أحبب سنة نبيّه وابن عمه وقضى بالحق في أمته وقد ترك خلفاً رضيعاً، مباركاً حليماً، فإن أحببتم خرج إليكم فبايعتموه، وإن كرهتم ذلك فليس أحد على أحد. فبكى الناس: وقالوا: يخرج مطاعاً عزيزاً»^(١).

لغة تبتك مما تكنه نفس القائل من حنكة ودربة ودهاء، كما أن جواب الناس بلغة البكاء، تبتك مما تكنه نفوس السامعين من الحب والولاء، وما في دخيلتها من عاطفة وورثاء، ولا يمنع ذلك من وجود مراض النفوس بينهم ممن يسرون حسواً في ارتقاء.

والآن نحن أزاء هذا الموقف في حدود ما قرأناه في الخبر فهل نجد تطوراً في المبدأ الثابت لابن عباس والمعلن في مسألة الإمامة والإمام، فبعد

(١) انساب الأشراف ٢٨/٣ تحم المحمودي ط بيروت.

أن كان هو النص والوصاية من السابق إلى اللاحق - كما هو مبدأ أئمة أهل البيت عليهم السلام؟ فما باله الآن يقول للناس: إن أحببتم... وإن كرهتم... وكأنه ترك النص والتزم الدعوة إلى الشورى والاختيار؟ وهذا ما كان يرفضه هو وجميع أهل البيت من قبل، وقد رذّه هو بكلّ قوة منذ أيام الخالفين الذين ابتدعوه. وفي محاوراته مع عمر في أيامه ما يكفي لإثبات مبدأ النص ورفضه مبدأ الاختيار.

أليس هو الراذ على عمر قوله: ((كرهت قريش أن تجتمع لكم النبوة والخلافة، فتجحفوا الناس جحفاً، فنظرت قريش لأنفسها فاختارت فأصابت ووفقت))؟

فرد عليه ابن عباس بقوله: أما قولك إن قريشاً كرهت فإن الله تعالى قال لقوم: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرَهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾^(١)، وأما قولك: إننا كنا نجحف، فلو جحفنا بالخلافة جحفنا بالقرابة، ولكننا قوم أخلاقنا مشتقة من أخلاق رسول الله صلى الله عليه وآله الذي قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(٢)، وقال له: ﴿وَإِخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣)، وأما قولك: فإن قريشاً اختارت فأصابت ووفقت، فإن الله يقول: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾^(٤)، وقد علمت يا أمير المؤمنين أن الله اختار من خلقه لذلك من اختار، فلو نظرت قريش من حيث نظر الله لها،

(١) محمد / ٩.

(٢) القلم / ٢.

(٣) الشعراء / ٢١٥.

(٤) القصص / ٦٨.

واختارت لأنفسها من حيث اختار الله لها لكان الصواب بيدها غير مردود ولا محسود ولو فُتت وأصاب^(١).

أليس هذا هو المبدأ الثابت والمعلن من رأي ابن عباس؟ إذن فما الذي يعنيه بقوله: إن أحببتم... وإن كرهتم...؟

إنه فيما أرى الاستكشاف للخبايا، والاستعلام للنوايا التي انطوت في نفوس ذلك المجتمع المتمزق المتفرق، الذي يضم أنماطاً شتى، فمن أقصى اليمين المؤمن المتماسك أمثال حجر بن عدي وعدي بن حاتم وقيس بن سعد بن عبادة وسعيد بن قيس الهمداني وآخرين وقليل ما هم. إلى أقصى اليسار المناوئ كشيبة بن ربعي وابن الكواء وبقية الخوارج الذين ما زالت غدرتهم واضحة، وما بين أولئك وهؤلاء أنماط منافقون متربصون كالأشعث بن قيس وجريير بن عبد الله وآخرين أضرابهما، وسوى هؤلاء من المتخاذلين ممن لم يتخلفوا عن وصفهم بما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شِيَاعِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾^(٢)، وأعطف عليهم عشائر الذين انتقل ولاؤهم إلى معاوية حين فارقوا الإمام كمصقلة بن هبيرة وأمثاله، ولم يكن لتخفي على ابن عباس دخائل تلك النفوس المراض الذين كانوا يكاتبون معاوية سراً في أمورهم واتخذوا عنده الأيادي منذ أيام الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

وكيف يخفي عليه ذلك، وهو بالأمس القريب مقيم بين ظهراتهم يسمع كلام الإمام يخطب فيهم ويذكر فيه أيام معاوية لهم ومن تلاه من يزيد ومروان

(١) لقد تقدم في الجزء الثاني فراجع.

(٢) البقرة / ١٤.

وبنيه، وذكر الحجاج وما يسومهم من العذاب، فارتفع الضجيج وكثر البكاء والشهيق، فقام قائم من الناس فقال: يا أمير المؤمنين لقد وصفت أموراً عظيمة الله إن ذلك لكائن؟

فقال عليّ: والله إن ذلك لكائن ما كذبت ولا كذبت.

فقال آخرون: متى يكون ذلك يا أمير المؤمنين؟

قال: إذا خضبت هذه من هذه، ووضع إحدى يديه على لحيته والأخرى على رأسه فأكثر الناس من البكاء، فقال: لا تيكوا في وقتكم هذا فستكون بعدي طويلاً.

فكاتب أكثر أهل الكوفة معاوية سرّاً في أمورهم واتخذوا عنده الأيادي، فوالله ما مضت إلا أيام قلائل حتى كان ذلك^(١).

فكلّ أولئك الحضور بدءاً بالتماسك أو المتمسك بولائه إلى المجاهر بعدائه وما بينهما من تفاوت الدرجات كانت شرائع المجتمع الكوفي الذي واجهه ابن عباس بخطابه مستعلماً نواياه، ولمّا بكى الناس علم ابن عباس أنّ ذلك البكاء عاطفة ورتاء، ومع ذلك فقد استروح من تلك العاطفة روح استجابة، ولم تخل من بارقة أمل ورجاء، والأمل دائماً يعمر القلوب المؤمنة بصحة القضية التي تؤمن بها وتدعو إليها، ويشدّ من عزيمتها. لذلك عاد إلى الدار وأخبر الإمام الحسن عليه السلام بما قاله للناس وبما قالوه له. فخرج الإمام وعليه ثياب سود - كما يقول المدائني في روايته^(٢).

(١) انظر مروج الذهب ٢/٤٣٠ ط السعادة تح. محمد محي الدين صيد الحميد.

(٢) انظر شرح النهج لابن أبي الحديد ٨/٤ ط الأولى.

خطبة ودعوة للبيعة:

ذكر الشيخ المفيد وأبو الفرج^(١) والأربلي^(٢) وغيرهم واللفظ للأول، قال: ((وروى أبو مخنف لوط بن يحيى قال حدثني أشعث بن سوار عن أبي إسحاق السبيعي وغيره قالوا: خطب الحسن بن علي^(ع) في صبيحة الليلة التي قبض فيها أمير المؤمنين^(ع) فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسول الله^(ص) ثم قال: لقد قبض هذه الليلة رجل لم يسبقه الأولون بعمل، ولا يدركه الآخرون بعمل، لقد كان يجاهد مع رسول الله^(ص) فيقيه بنفسه، وكان رسول الله^(ص) يوجهه برأيه فيكتفه جبرئيل عن يمينه وميكائيل عن شماله، ولا يرجع حتى يفتح الله على يديه، ولقد توفي^(ع) في الليلة التي عُرج فيها بعيسى بن مريم^(ع)، وفيها قبض يوشع بن نون وصي موسى^(ع)، وما خُلف صفراء ولا يضاء إلا سبعمائة درهم فضلت من عطائه، أراد أن يتاع بها خادماً لأهله. ثم خنته العبرة فبكى وبكى الناس معه، ثم قال: أيها الناس من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني (فأنا الحسن بن محمد^(ع))^(٣) أنا ابن البشير، أنا ابن النذير، أنا ابن الداعي إلى الله بإذنه، أنا ابن السراج المنير، أنا من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، أنا من أهل بيت افترض الله مودتهم في كتابه فقال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حَسَنًا﴾^(٤) فالحسنة مودتنا أهل البيت. ثم جلس.

(١) مقال الطالبيين / ٣٢ - ٣٣ ط الحيدرية.

(٢) كشف الغمة / ١/ ٥٥٥ ط منشورات مكتبة الرضي بقم.

(٣) كذا في مقال الطالبيين.

(٤) الضوري / ٣٣.

فقام عبد الله بن العباس عليه السلام بين يديه فقال: معاشر الناس هذا ابن بنت نبيكم ووصي إمامكم فبايعوه. فاستجاب له الناس وقالوا: ما أحبه إلينا وأوجب حقه علينا، وبادروا إلى البيعة له بالخلافة. ثم نزل عن المنبر وذلك في يوم الجمعة الواحد والعشرين من شهر رمضان سنة أربعين من الهجرة، فرتب العمال، وأمر الأمراء، وأنفذ عبد الله بن العباس إلى البصرة^(١).

وقبل الإسترسال في بقية الحديث لابد لنا من وقفة تصحيح وتوضيح تفرضها طبيعة البحث والتحقيق في المقام. الأمر الذي فات بعض الباحثين من المحدثين فلم يتبينه، فجرى مع بعض المصادر من دون أن ينعم النظر في المفارقات التي تضمنها تلك المصادر.

وبيان ذلك: إنه يوجد فيها استبدال الأدوار في مواقف الأخوين عبد الله وعبيد الله ابني العباس بن عبد المطلب، نتيجة لتشابه الاسمين خطأ، مما أوقع في الوهم خطأ أولئك المحدثين من الباحثين، ولم يكن ذلك من الرواة بل هو من النساخ. وجرى الباحث على ذلك فنسب ما هو لعبد الله إلى أخيه عبيد الله، وبالعكس أيضاً، وزاد الأمر إبهاماً أنهما معاً كانا بالكوفة يومئذ، ولكل منهما ذكر في خلافة الإمام الحسن عليه السلام وله دور فاعل، فوقع الالتباس في:

١- من هو من ابني عباس الذي خرج إلى الناس أولاً قبل خروج

الإمام الحسن عليه السلام؟

٢- ومَن هو منهما الذي قام بين يدي الإمام الحسن عليه السلام ودعا الناس إلى مبايعته؟

٣- ومَن هو منهما الذي أنفذه الإمام الحسن عليه السلام إلى البصرة؟

٤- ومَن هو منهما الذي أرسله الإمام الحسن عليه السلام قائداً على مقدمة عسكره؟

٥- ومَن هو منهما الذي كتب إلى الإمام الحسن عليه السلام مشيراً عليه في شأن مداراة الناس وما ينبغي له؟

مسائل بعضها أخذ ببعضها الآخر، وللجواب عليها فلتقرأ ما رواه أشهر المؤرخين الأوائل في هذا المقام وهو: أبو مخنف الذي اعتمد روايته في المقام كلٌّ من البلاذري ٢٧٩هـ وأبو الفرج الاصفهاني ٣٥٦هـ والشيخ المفيد ٤١٣هـ وابن أبي الحديد ٦٥٥هـ لثرى التناوت في كتبهم، وإن دلَّ ذلك على شيء فإِنما يدل على وهم النساخ الأوائل وسرى ذلك في كتب المصادر.

أقول: فلقد روى البلاذري في أنسابه بسنده عن أبي مخنف باسناده عن صالح بن كيسان: ((...وخرج عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب إلى الناس بعد وفاة عليّ ودفنه فقال إن أمير المؤمنين رحمه الله تعالى قد توفي... وقد ترك خلفاً رضيعاً حليماً، فإن أحببتم خرج إليكم فبايعتموه وإن كرهتم ذلك فليس أحد على أحد (كذا) فبكى الناس وقالوا: يخرج مطاعاً عزيزاً. فخرج الحسن فخطبهم... فبكى الناس ثمّ بايعوه...))^(١).

(١) أنساب الأشراف ٣/٢٧ - ٢٨ - تمه المحمودي.

وروى أبو الفرج في مقاتل الطالبين: ((قال أبو مخنف عن رجاله، ثم قام ابن عباس بين يديه، فدعا الناس إلى بيعته فاستجابوا له...))^(١).

وذكر الشيخ المفيد في الإرشاد فقال: ((وروى أبو مخنف لوط بن يحيى... خطب الحسن بن علي عليهما السلام في صبيحة الليلة التي قبض فيها أمير المؤمنين علي عليه السلام... ثم جلس فقام عبد الله بن العباس عليه السلام بين يديه... وأنفذ عبد الله بن العباس إلى البصرة))^(٢).

وروى ابن أبي الحديد في شرحه خطبة الإمام الحسن عليه السلام نقلاً عن أبي الفرج ثم قال: ((قال أبو الفرج: فلما انتهى إلى هذا الموضع من الخطبة قام عبيد الله بن العباس بين يديه فدعا الناس إلى بيعته فاستجابوا...))^(٣) هكذا في طبعة دار الكتب العربية بمصر (الأولى)، ولكن في الطبعة الحديثة: ((قام عبد الله بن عباس))^(٤) بدل عبيد الله، فدل ذلك على أن الخبر في جميع مصادر برواية أبي مخنف ورد فيه ذكر عبد الله بن العباس والذي ورد فيه اسم عبيد الله إنما هو من سهو النساخ كما مر عن كتاب ابن أبي الحديد.

ويؤكد ذلك ما رواه المدائني وعنه ابن أبي الحديد أيضاً فقد قال: ((قال المدائني: ولما توفي علي عليه السلام خرج عبد الله بن العباس بن عبد المطلب إلى الناس فقال: ان أمير المؤمنين عليه السلام توفي وقد ترك خلفاً... فيكى الناس وقالوا: بل يخرج إلينا، فخرج الحسن عليه السلام فخطبهم... فبايهم الناس))^(٥).

(١) مقاتل الطالبين / ٣٣ ط الحيدرية و/٥٢ ط مصر تح المبدأ أحمد صقر.

(٢) الإرشاد / ١٦٨ ط حجرية سنة ١٣٧٠ هـ و ١٩٢ ط حجرية ثالثة سنة ١٣٠٨ هـ و ١٨٨ ط الحيدرية.

(٣) شرح النهج لابن أبي الحديد / ١١/٤ ط مصر الأولى.

(٤) نفس المصدر / ٣٠/١٦ تح محمد أبو الفضل براهيم.

(٥) شرح النهج لابن أبي الحديد / ٢٢/١٦ ط محققة.

وزيدنا اطمئناناً بصحة ما ذهبنا إليه ما رواه الطبرسي ٥٤٨هـ في أعلام
 النورى فقال: ((فقد روى جماعة من أهل التاريخ أنه - الإمام الحسن عليه السلام -
 خطب صبيحة... ثم جلس فقام عبد الله بن العباس بين يديه فقال...))^(١).
 فقول الطبرسي: ((فقد روى جماعة من أهل التاريخ)) يدل على ثبوت ذلك
 عند من رواه من أولئك الجماعة الذين اعتمد روايتهم، وهو وإن لم يستمهم لنا
 بأسمائهم، إلا أننا عرفنا أنهم جماعة، فهم يؤثقون لنا ما تقدم من رواية أبي
 مخنف ورواية المدائني.

ولم يكن الطبرسي وحده الذي نقل ذلك عن جماعة من أهل التاريخ، بل
 إن الأربلي ٦٩٢هـ في كشف الغمة أورد نحو ذلك فقال: ((وقد روى جماعة...
 فقام عبد الله بن العباس بين يديه فقال...))^(٢). ثم كرر مرة أخرى ذكر الخبر
 برواية أبي مخنف نقلاً عن الإرشاد للمفيد وهذا يدلنا على أن ما رواه أولاً من
 رواية غير أبي مخنف.

وإلى هنا عرفنا جواب السؤال الأول (من الذي خرج إلى الناس قبل خروج
 الإمام الحسن عليه السلام)، وأنه عبد الله كما مرّ في رواية أبي مخنف عند المفيد، لا
 عبيد الله كما في نسخة أنساب الأشراف للبلاذري.

كما عرفنا أيضاً جواب السؤال الثاني (من الذي قام بين يدي الإمام
 الحسن عليه السلام ودعا الناس إلى بيعته)، وأنه عبد الله كما في رواية أبي مخنف عند
 المفيد، ورواية المدائني عند ابن أبي الحديد لا عبيد الله كما في نسخة ابن أبي
 الحديد ط الأولى نقلاً عن أبي الفرج ويَبَيِّنُ أن ذلك من غلط النسخة.

(١) أعلام النورى / ٢٠٨ - ٢٠٩ ط الحيدرية.

(٢) كشف الغمة / ٢ - ٥٠٠ - ٥٠١ ط مكتبة الشريف الرضي بقم.

وعرفنا أيضاً جواب السؤال الثالث (من الذي أنقذه الإمام الحسن عليه السلام إلى البصرة). وأنه عبد الله كما في رواية أبي مخنف عند المفيد، لا عبيد الله كما عن بعض المحدثين^(١).

أما جواب السؤال الرابع (من هو الذي أرسله الإمام الحسن عليه السلام قائداً ومعه قيس بن سعد بن عبادة في مقدمة جيشه): فقد ذكر ابن أبي الحديد نقلاً عن المدائني قوله: ((ثمَّ وجه عبد الله بن عباس ومعه قيس بن سعد... وجعل أصحاب الحسن الذين وجههم مع عبد الله يتسللون إلى معاوية، الوجوه وأهل البيوتات. فكتب عبد الله بن العباس بذلك إلى الحسن عليه السلام فخطب الناس ووبخهم))^(٢). وهنا أيضاً من سهو النساخ كما لا يخفى، فإنَّ عبد الله لم يكن هو الذي معه في الجيش، بل ذاك هو عبيد الله أخوه.

وقد وقع مثل هذا الوهم أيضاً في تاريخ الطبري في حديث الزهري، وقد وجدت التفاوت في النسخ المطبوعة منه. ففي الطبعة الأوروبية ورد في المتن: ((وعرف الحسن أن قيس بن سعد لا يوافق على رأيه فتزعه وأمر عبد الله بن عباس، فلما علم عبد الله بن عباس بالذي يريد الحسن...))، وورد في الهامش رقم (١) و (٢) اسم (عبيد الله) بدل عبد الله^(٣). أما الطبعة المصرية بالحسينية فقد ورد المتن كما في الأوروبية ولم يذكر في الهامش شيء^(٤). وأما الطبعة المحققة

(١) عبد القادر أحمد اليوسف في كتابه الحسن بن علي عليه السلام، صام الجماعة ط مطبعة الهلال بغداد سنة ١٩٤٨.

(٢) شرح النهج لابن أبي الحديد ٨/٤ و ٢٢/١٦ تح. أبو الفضل إبراهيم.

(٣) تاريخ الطبري ١/٦ - ٢ ط الأوروبية.

(٤) نفس المصدر ٩١/٦ ط المصرية بالحسينية.

بتحقيق محمد أبو الفضل فقد ذكر المتن والهامش بعكس ما في الأوروبية، إذ جعل المتن عبيد الله والهامش عبد الله^(١).

ويبدو أن ابن الأثير تخيل أنه قد احتاط لنفسه حين قال في الكامل: ((وقيل بل كان الحسن قد جعل على مقدمته عبد الله بن عباس، فجعل عبد الله على مقدمته في الطلائع قيس بن سعد بن عبادة...))^(٢). ولكن الأمر كما بيناه.

أما جواب السؤال الخامس (من هو الذي كتب إلى الإمام الحسن عليه السلام مشيراً عليه في شأن مداراة الناس) فنقرؤه في:
عودة إلى البصرة:

لقد فارقنا النص ((فأنفذ عبد الله بن عباس إلى البصرة)) ولما كانت دلالة لفظ الفعل (أنفذ) تحمل السرعة قياساً على نفاذ السهم، وربما استعطن النص أيضاً في دلالة إعادة أمير البصرة إلى بلد إمارته، ليقوم بدوره هناك في إحكام الأمر كما قام به في الكوفة، فهو كان والي البلاد التي مرّ بنا شيء من حياته فيها، فهو الأحرى أن ينفذه الإمام الحسن عليه السلام إليها لسابق معرفته بطبائع مجتمعها ونزوات أهلها، فسار ابن عباس مجدداً ووصلها فوجد خليفته عليها أبا الأسود الدؤلي قد يادر بحزمه فأخذ البيعة للإمام الجديد حين بلغه نعي الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

روى أبو طالب الهاروني ٤٢٤هـ بسنده عن أبي بكر الهذلي قال: ((أتى أبا الأسود الدؤلي نعي أمير المؤمنين عليه السلام وبيعة الحسن عليه السلام فصعد المنبر فخطب ونعى علياً عليه السلام وقال في خطبته: إن رجلاً من أعداء الله المراقبة في دينه اغتال أمير

(١) نفس المصدر ١٦٠/٥ تح محمد أبو الفضل إبراهيم.

(٢) الكامل ١٧٥/٣ ط بولاق.

المؤمنين عليهم السلام في مسجده، وهو خارج لتجهده في ليلة يرجى فيها مصادفة ليلة القدر فقتله، فبأمر من قتل، واکرم به وروحہ من روح عرجت إلى الله بالبر والتقوى والإيمان والهدى والإحسان، ولقد انطلقاً به نوراً لله في أرضه، لا يرضى (كذا) بعده، وهدم ركناً من أركان الإسلام لا يشاد مثله، فإننا لله وإنا إليه راجعون، وعند الله نحتسب نصيبنا بأمر المؤمنين عليهم السلام ورحمة الله يوم ولد ويوم قتل ويوم يبعث حياً - ثم بكى حتى اختلجت أضلعه. ثم قال: - وقد أوصى بالإمامة إلى ابن رسول الله وابنه وسليبه، وشيبهه في خلقه وهديه، وأتى لأرجو أن يجبر الله به ما وهى، ويسد به ما اتلم، ويجمع الشمل، ويظفي به نيران الفتنة، فبايعوه ترشدوا. فبايعت الشيعة كلها، وهرب قوم فلحقوا بمعاوية»^(١).

وأخذ ابن عباس يواصل جهوده في استتاب الأمر والأمن في عهد الخلافة الجديدة، وقد أشار عليه زياد برأي فيه حيفاً على الناس فلم يقبله ابن عباس. ونحن قد مررنا أن زياداً كان عامله على فارس أرسله بأمر الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حين اضطرب أمر فارس فولاه عليها فضبطها غير أنه يبدو ممّا رواه الحافظ نعيم بن حماد في كتاب الفتن^(٢) أنه قد أتى البصرة فاجتمع بابن عباس - ولعله أتاه معزياً بالإمام أمير المؤمنين عليه السلام وجرى حديث خلافة الإمام الحسن عليه السلام فقال له: أتريد أن يستقيم لكم الأمر؟ قال - ابن عباس - نعم، قال: فاقتل فلاناً وفلاناً ثلاثة من أصحابه، فقال له ابن عباس: أصلوا الغداة اليوم؟ قال: نعم، قال: فلا سبيل إليهم أراهم في ذمة الله - وفي رواية: (فلا والله ما إلى ذلك

(١) تيسير المطالب / ١٩٦ ط بيروت سنة ١٣٩٥ .

(٢) كتاب الفتن / ٩٨ و٩٤ - ط سهيل زكار ط بيروت، و ١٣٩ برقم ٤٤٣ - ط صرفة ط المكتبة الحيدرية قم و ١٤٦ أيضاً.

سيل) - فلما بلغ ابن عباس ما صنع زياد بعدئذ قال: ما أراه إلا قد كان أشار علينا بالذي هو آء.

ولم يكن ابن عباس ممن يقتل على الظنة والتهمة أناساً من أهل القبلة، لكن زياداً يرى ذلك في سيل استقامة الأمور وإن خالف الشرع. ولا يعني ذلك أن ابن عباس كان خافلاً عن سبل الوصولية المقيمة ولكن دونها حاجز من تقوى الله. وهو في حزمه وعزمه لم تزل تساوره الشكوك في استقامة الأمور ما دام العدو اللدود يتربص الدوائر ويشحن الفرص وقد وافته، وزاد في قلق ابن عباس ما بلغه من اختراق معاوية لمجتمع المصريين - الكوفة والبصرة - فأرسل إليهما جاسوسين، رجلاً من حمير إلى الكوفة، ورجلاً من بني القين إلى البصرة، يكتبان له بالأخبار، ويفسدان الرجال، فذلل الإمام الحسن عليه السلام على الحميري عند لحام بن جرير، فأخذه وقتله. وذل ابن عباس على القيني وكان نازلاً في بني سليم بالبصرة فأخذه وقتله، وكتب إلى معاوية:

أما بعد، فإنك ودستك أخوا بني قين إلى البصرة تلتبس من غفلات قريش مثل الذي ظفرت به من يمايتيك لكما قال أمية بن الأسكر^(١):

لعمرك إنني والخزاعي طارقاً	كنعجة صاد حتفها تتحفر
أثارت عليها شفرة بكراعها	ففلتت بها من آخر الليل تحصر
شمت بقوم من صديقك أهلكوا	أصابهم يوم من الدهر أصفر

(١) الأغانى ١٦٢/١٨ ط دار الكتب - مقالات المطالبين / ٥٣ - ٥٤ ط مصر وهرج النهج لابن أبي الحديد ١٢/٤ ط مصر الأولى و ٣٢/١٦ ط مطبقة.

فأجابه معاوية: أما بعد، فإن الحسن بن عليّ قد كتب إليّ بنحو ممّا كتبت به، وأنبأني بما لم أجز ظناً وسوء رأي وإتّك لم تصب مثلكم ومثلي، ولكن مثلنا ما قاله طارق الخزاعي يجب أمة عن هذا الشعر:

فوالله ما أدري وإني لصادق إلى أيّ من يظنّني أتعدّر
أعف أن كانت زينة أهلك ونال بني لحيان شرّاً فأنفروا

ولا أحسب أن أحاييل معاوية وأباطيله وصلت هذا الحد من إرسال جواسيسه يكتبون له بالأخبار كما يقول الرواة فما أحسبه بحاجة لأن يرسل من الشام من يتجسّس له بالكوفة والبصرة، وله فيهما من عيون الجواسيس من يكفيه ما يتغيه بدون حساب، منذ أيام الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وهم في تزايد مستمر، ولم ننس خير ابن الحضرمي الذي أرسله إلى البصرة ليفسد أهلها على أميرهم وإمامهم، فلقى مصيره بنار الدنيا قبل نار الآخرة.

والذي أراه أنه أراد منهما مساومة الأذنان بإشاعة الإرهاب، وحسبنا شاهداً على ذلك ما فعله بالكوفة وهي عاصمة الخلافة في محاولته اغتيال الإمام الحسن عليه السلام فما الذي يمنعه من فعل ذلك في البصرة وهي ولاية تابعة للكوفة، وفيها ابن عباس فهو وإن كان دون الإمام الحسن مقاماً، لكنه ممثله في ثاني العراقين أكبر الأمصار التابعة لحكمه، فإن تم اغتياله من قبل أذنان معاوية فقد تم له فتحٌ ليس دون فتح مصر من قبل.

روى الشيخ الصدوق ابن بابويه في كتابه علل الشرائع فقال: «دس معاوية إلى عمرو بن حرث، والأشعث بن قيس، وإلى حجر بن الحجر (عمرو) وشبث بن ربعي، دسيساً أفرد كل واحد منهم بعين من عيونهم: إنك إن قتلت الحسن بن عليّ فلك مائتا ألف درهم، وجند من أجناد الشام، وبت من بناتي، فبلغ الحسن عليه السلام ذلك،

فاستلام ولبس درعاً وكفرها^(١) وكان يحترز ولا يتقدم للصلاة بهم إلا كذلك، فرماه أحدهم في الصلاة بسهم فلم يثبت فيه لما عليه من اللامة^(٢).

وإذا لم نقف على مثل خطته تلك في البصرة لاغتيال ابن عباس، فلا يعني عدم محاولته لأنه لم يصل إلينا خبرها، كيف وهو كان يحسب لابن عباس أيضاً حسابه كثنائي عنصر يأتي بعد الإمام الحسن عليه السلام عليه أن يتخلص منه، وحسبنا محاولته اختراق حدود ولايته في تهديده زياد ابن أبيه عامل ابن عباس على فارس.

فقد روى الطبري في تاريخه عن عمر بن شبة بسنده عن الشعبي قال: ((كتب معاوية حين قتل علي عليه السلام إلى زياد يتهلته فقام خطيباً فقال: العجب من ابن آكلة الأكباد وكهف النفاق ورئيس الأحزاب كتب إلي يتهلني ويمني وبينه ابنا عم رسول الله صلى الله عليه وآله - يعني ابن عباس والحسن بن علي - في تسعين ألفاً واضعي سيوفهم على عواتقهم، لا يبتون، لئن خلص إلي الأمر ليجلني أحمرّ فرباً بالسيف...))^(٣).

كتاب ابن عباس إلى الإمام الحسن عليه السلام:

ونتيجة لتمادي الأمور سوءاً حين كثرت تجاوزات معاوية، كتب ابن عباس إلى الإمام الحسن عليه السلام كتاباً يُعتبر بحق من خيرة كُتبه بياناً وتبياناً، يحرضه على إنتهاج سياسة الترغيب مع الأولياء، والترهيب مع الأعداء، ولتقرأ نصه كما ذكره المؤرخون لتتلمى معانيه، وتفهم مبادئه، وتعامل معه كوثيقة تاريخية ذات دلالة عالية، فهو خلاصة تجاربه في الحياة، ونتيجة درسته وحكمته السياسية، عاشها في السلم وفي الحرب.

(١) كثر عليه يكفر غطاءه والشبه ستره (قاموس).

(٢) حلل الشرايع للمدوق ٢٨٣/١ منشورات مكتبة الشريف الرضي بقم.

(٣) تاريخ الطبري ١٤/٧ اظمت لندن ٩٧/١ ط الحسينية ١٧٠/٥ ط دار المعارف.

وأقدم من وقفت على رواته من المؤرخين هو شيخهم أبو مخنف المتوفى سنة ١٥٧هـ وعوانة بن الحكم ١٥٨هـ^(١)، كما أشار إلى ذلك البلاذري ٢٧٩هـ فقال: «ثم مكث - الحسن رضي الله عنه - أياماً ذات عدد يقال: خمسين ليلة ويقال: أكثر منها - وهو لا يذكر حرباً ولا مسيراً إلى الشام. وكتب إليه عبد الله بن عباس كتاباً يعلمه فيه أن علياً لم يجب إلى الحكومة إلا وهو يرى في آتة إذا حكم بالكتاب يرذ الأمر إليه، فلما مال القوم إلى الهوى فحكموا به ونهلوا حكم الكتاب، رجع إلى أمره الأول، فشمّر للحرب ودعا إليها أهل طاعته، فكان رأيه الذي فارق الدنيا عليه جهاد هؤلاء القوم، ويشير عليه أن ينهد إليهم وينصب لهم ولا يعجز ولا يهن»^(٢). هذه إشارة البلاذري.

ولكنه في ترجمة ابن عباس ذكره مختصراً بسنده عن عوانة قال: «كتب ابن عباس إلى الحسن بن علي: إن المسلمين قد وكوك أمورهم بعد علي، فشمّر لحربك، وجاهد عدوك، ودار أصحابك، واشتر من الظنين دينه ولا تسلم دينك، ووال أهل البيوتات والشرف تستصلح عشائهم، واعلم أنك تحارب من حاد الله ورسوله، فلا تخرجن من حق أنت أولى به، وإن حال الموت دون ما تحب»^(٣). وينحو هذا رواه ابن قتيبة ٢٧٦هـ^(٤)، وبأخصر من ذلك رواه ابن عبد ربه^(٥)، ولم أعرف مغزى اختصارهم جميعاً وإعراضهم عن ذكر جميعه.

(١) نكت الهميان للصفدي / ٢٢٢.

(٢) أنساب الأشراف (ترجمة الإمام الحسن رضي الله عنه) رقم / ٤٣.

(٣) أنساب الأشراف (ترجمة ابن عباس) رقم / ١٠٧.

(٤) عيون الأخبار ١٤/١ ط دار الكتب.

(٥) العقد الفرید ٣٠/١ و ٣٦١/٤ تصد أحمد أمين ورفيقه.

ولكن أوفى من رواه هو المدائني ٢٢٥هـ، وعنه ابن أبي الحديد ٦٥٥هـ في شرح النهج، وروايته تكاد تكون مطابقة لما رواه ابن أعثم ٣١٤، وما نحن نذكر الكتاب نقلاً عنه بإضافة ما في رواية المدائني نقلاً عن شرح النهج لابن أبي الحديد^(١) جاهلين ذلك بين قوسين للتمييز.

((ذكر كتاب عبد الله بن عباس من البصرة إلى الحسن بن علي رضي الله عنه)
قال: فلما مضى علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى سبيل الله اجتمع الناس إلى ابنه الحسن، فبايعوه ورضوا به وبأخيه الحسين من بعده.

قال: فنأدى الحسن في الناس فجمعهم في مسجد الكوفة ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

أيها الناس إن الدنيا دار بلاء وفتنة، وكل ما فيها قائل إلى زوال واضمحلال، وقد نبأنا الله عنها لكي نعتبه وتقدم إلينا فيها بالوعيد لكي نزدجر، فلا يكون له علينا حجة بعد الإحذار والإنذار، فازهدوا فيما يقنى، وارغبوا فيما يبقى، وخافوا الله في السر والعلانية، ألا وقد علمتم أن أمير المؤمنين علياً رضي الله عنه حياً وميتاً عاش بقدر ومات بأجل، وإني أبايعكم على أن تحاربوا من حاربت وتسالما من سالمت.

فقال الناس: سمعنا وأطعنا، فمرنا بأمرك يا أمير المؤمنين.

قال: فأقام الحسن بالكوفة بعد أبيه شهرين كاملين لا يتنقذ إلى معاوية أحداً، ولا ذكر المسير إلى الشام.

قال: وإذا بكتاب عبد الله بن عباس قد ورد عليه من البصرة فإذا فيه:

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد ٨/٤ ط مصر الأولى ١٦/٣٣ ط محقق.

لعبد الله الحسن أمير المؤمنين من عبد الله بن عباس، أما بعد يا بن رسول الله فإن المسلمين ولوك أمرهم بعد أيك ﷺ (عليه السلام) وقد أنكروا أمر قعودك عن معاوية، وطلبك لحقك، فشمّر للحرب، وجاهد عدوك، ودار (وقارب) أصحابك، (واشتر من الظنين دينه بما لا يظلم لك ديناً) وولّ (ووال) أهل البيوتات والشرف ما تريد من الأعمال، فإنك تشتري بذلك قلوبهم (وتستصلح به عشائهم، حتى يكون الناس جماعة، فإن بعض ما يكره الناس - ما لم يتعد الحق وكانت عواقبه تؤدي إلى ظهور العدل وعز الدين - خير من كثير مما يحبّه الناس، إذا كانت عواقبه تدعو إلى ظهور الجور وذلّ المؤمنين، وعز الفاجرين) واقتد بما جاء عن أئمة العدل من تأليف القلوب والاصلاح بين الناس (فقد جاء عنهم أنه لا يصلح الكذب إلا في حرب أو إصلاح بين الناس) واعلم بأن الحرب خدعة، ولك في ذلك سعة (إذا) ما كنت محارباً بما لم تبطل حقاً) ما لم ينتقص مسلماً حقاً هو له.

(واعلم) وقد علمت أن اباك علياً إنما رغب الناس عنه (وصاروا) إلى معاوية، لأنه واسى بينهم في الفقه، وسوى بينهم في العطاء، فنقل ذلك عليهم. واعلم أنك تحارب من قد حارب الله ورسوله (في ابتداء الإسلام) حتى أظهره الله أمره، فلما أسلموا ووجدوا الرب، ومحق الله الشرك، وأعز الدين، وأظهروا الإيمان، وقرؤوا القرآن وهم بآياته مستهزون، وقاموا إلى الصلاة وهم كسالى، وأدوا الفرائض وهم لها كارهون، فلما رأوا أنه لا يعز في هذا الدين إلا الأتقياء الأبرار، والعلماء الأخيار، توسموا أنفسهم بسيماء الصالحين، ليظن بهم المسلمون خيراً، وهم عن آيات الله معرضون) فما زالوا بذلك حتى شركوهم في

أماناتهم وقالوا: حسابههم على الله، فإن كانوا صادقين فأخواننا في الدين، وإن كانوا كاذبين كانوا بما اترفوا هم الأخرين) وقد مُنيت أبا محمّد بأولئك القوم وأبنائهم وأشباههم، والله ما زادهم طول العمر إلا عُيَا، ولا زادهم في ذلك لاهل الدين إلا غشا (مقتا) فجاهدهم رحمك الله، ولا ترضى منهم بالندية (ولا تقبل خسفا) فإن أباك عليّاً ﷺ لم يجب إلى الحكومة في حقه حتى غلب على أمره فأجاب، وهو يعلم (واتهم يعلمون) أنه أولى بالأمر إن حكم القول بالعدل، فلما حكموا بالهوى رجع إلى ما كان عليه، وعزم على حرب القوم، حتى أتى عليه (واقاه) أجله، فمضى إلى ربه ﷻ، فانظر رحمك الله أبا محمّد ولا تخرجن من حقّ أنت أولى به من غيرك (حتى يحول الموت) إن أتاك دون ذلك.

والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

قال ابن أعثم: فلما ورد كتاب عبد الله بن عباس وقرأه سرّه ذلك، وعلم أنه قد بايعه (٩) وأنه قد أمره بما يجب عليه في حقّ الله. دعا بكاتبه وأمره أن يكتب إلى معاوية - وذكر الكتاب بطوله^(١).

وقال الخطي: ((لما وصل كتاب عبد الله بن عباس إلى الإمام الحسن ﷺ وقرأه قال: لقد نصح ابن عباس فيما يراه، ولكن هيهات أن أخالف سنّة سنّها رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين بعدهما طلباً لآلئماس دنيا، فإن في الحقّ سعة عن الباطل^(٢))).

وأنا على تحفظ من رواية الخطي التي لم يسندها إلى مصدر لثري مدى صحته، ومع ذلك لو أغمضنا عنه لم نر في كتاب ابن عباس أي مخالفة لسنّة

(١) الفتوح ١٤٨/٤ - ١٥٠ ط دار الندوة الجديدة اهست حيدرآباد ط الأولى.

(٢) المقتل للخطي / ٩٩ ط بمبئي.

رسول الله ﷺ في تعامله مع أعدائه الذين حاربوه في ابتداء الإسلام كأبي سفيان وابنه معاوية وبقية المشركين ممن حاربوا الله ورسوله، ولما ظهر أمر الله وهم له كارهون دخلوا في حظيرة الإسلام طوعاً وكرهاً، فعاملهم رسول الله ﷺ بمتنهي التلطف وتألفهم بالعطاء، وفاضل بينهم فيه، وغض عينه عن مساويهم وسوابقهم السيئة، حتى فرض لهم سهماً في الزكاة، سوى ما كان يمنحهم من الغنائم، وقصة غنائم هوازن خير شاهد على ذلك، وقد أثار سخط الأنصار، فلم يراجع النبي ﷺ عن موقفه غير أنه استرضى الأنصار بحضوره عندهم وسلّ السخيمة من صدورهم فرضوا.

فابن عباس في كتابه يطلب من الإمام الحسن عليه السلام أن ينهج ذلك النهج، وضربه المثل بما جاء عن أئمة العدل جده وأبيه فيما تفرضه ظروف الحرب، وأن الحرب خدعة، وله فيها سعة ما لم يطل حقاً، ويتنص مسلماً حقاً هو له.

ولما كان الإمام الحسن عليه السلام في حالة حرب مع معاوية منذ أيام أبيه، ولم يتغير الحال، فله أن يستعمل أساليب الغلبة ما وسعه ذلك، وحتى التفاضل في العطاء الذي رآه ابن عباس ناجحاً في ذلك الظرف لاستمالة قلوب الزعماء لم يخرج عن حدود تألف القلوب الذي سنّه رسول الله ﷺ مع المؤلفة قلوبهم بذلك، فإنا من رواية الخطي على تحفظ.

ومهما يكن فقد سبق السيف العدل وجاوز الحزام الطيبين، فإن المجتمع الكوفي لم يكن في هواه على وتيرة واحدة، وشرائحه المختلفة والمتباينة من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار كما قلناه آنفاً تكفي لزعزعة الثقة بهم. فكيف للإمام الحسن عليه السلام أن يجمع كل أولئك تحت خيمة واحدة على ما بينهم من

التنافر والعداء بالرغم من انتمائهم البلدي ولكن ليس بالعقدي، ومع ذلك فقد بذل جهداً كبيراً في سبيل لَمّ الشمل وجمع الكلمة، وقد كتب إلى معاوية يدعوهُ إلى مبايعته، وردَّ عليه معاوية بمثل ذلك، وأعلمه الرسل باستعداد معاوية لغزو العراق، ثمَّ خروجه في ستين ألفاً يريد العراق. فعندها كتب الإمام الحسن عليه السلام إلى عمّاله يأمرهم بالإحتراس ثمَّ ندب الناس إلى حرب معاوية^(١).

ولترك الحديث عن بقية المأساة فإنها بالفة الأسى فمن تخاذل وتقاوس عن الخروج إلى خيانة بعد خيانة، وجناية بعد جناية حتى الذين أرسلهم الإمام الحسن عليه السلام مقدمة لجيشه مع ابن عمه عبيد الله بن العباس وقيس بن سعد فقد صار الأشراف يتسللون لوأذاً إلى معاوية وهو قريب منهم في عسكره، فكتب قيس إلى الإمام الحسن وهو بالمدائن بذلك فخطب الناس وقال: (يا أهل العراق ما أصنع بجماعتكم معي، هذا كتاب قيس بن سعد يخبرني بأن أهل الشرف منكم قد صاروا إلى معاوية، أما والله ما هذا بمنكر منكم، لأنكم أنتم الذين أكرهتم أبي يوم صفين على الحكمين، فلما أمضى الحكومة وقبل منكم اختلافتم، ثمَّ دعاكم إلى قتال معاوية ثانية فتوانيتم، ثمَّ صار إلى ما صار إليه من كرامة الله إياه، ثمَّ إنكم بايعتموني طائعين غير مكرهين، فأخذت بيعتكم وخرجت في وجهي هذا والله يعلم ما نويت فيه، فكان منكم إليّ ما كان، يا أهل العراق فحسبي منكم لا تعزوني في ديني فإنني مسلمٌ هذا الأمر إلى معاوية)^(٢).

(١) النظر الفتوح لابن أعمش ١٥٣/٤ ط دار الندوة اهدت عن طبعة حيدر اباد.

(٢) نفس المصدر ١٥٧/٤.

قال اليعقوبي: ((وكان معاوية يدمس إلى معسكر الحسن من يتحدث أن قيس ابن سعد قد صالح معاوية وصار معه، ووجه إلى عسكر قيس من يتحدث أن الحسن قد صالح معاوية وأجابه، ووجه معاوية إلى الحسن المغيرة بن شعبة وعبد الله بن عامر بن كريز وعبد الرحمن بن أم الحكم وأتوه وهو بالمدائن نازل مضاربه ثم خرجوا من عنده وهم يقولون ويُسمعون الناس: إن الله قد حقن بابين رسول الله الدماء وسكن به الفتنة وأجاب إلى الصلح. فأضطرب العسكر ولم يشكك الناس في صدقهم، فوثبوا بالحسن وانتهبوا مضاربه وما فيها، فركب الحسن عليه السلام فرساً له ومضى في مظلم ساهط وقد كمن له الجراح بن سنان الأسدي فجرحه بمغول في فخذه، وقبض على لحية الجراح ثم لواها فلدق عنقه، وحمل الحسن عليه السلام إلى المدائن وقد نزع نزعاً شديداً، واشتدت به العلة فافترق عنه الناس، وقدم معاوية العراق فغلب على الأمر والحسن عليل شديد العلة. فلما رأى الحسن أن لا قوة به وأن أصحابه قد افترقوا عنه فلم يقوموا له، صالح معاوية وصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال: (أيها الناس إن الله هداكم بأولنا وحقن دماءكم بأخرنا وقد سالمت معاوية رضي الله عنه وإن أذري لعلة فتنة لكم ومناخ إلى حين^(١))^(٢).

أمر الخلافة في وثيقة الصلح:

لقد كانت وثيقة الصلح التي أمضاها معاوية وأشهد عليها، قد نصت صراحة على إرجاع الأمر من بعده إلى الإمام الحسن عليه السلام، وجاء في جملة من المصادر: ((وليس لمعاوية أن يعهد بالأمر إلى أحد من بعده، والأمر بعده

(١) الأنبياء / ١١١.

(٢) تاريخ اليعقوبي ١٩١/٢ ط الحيدرية.

للحسن»^(١). وقال ابن عبد البر: «واشترط عليه الحسن أن يكون له الأمر من بعده، فالتزم بذلك كله معاوية»^(٢).

ولكن معاوية قد استهان بهذا الشرط أسوة بجميع بقية الشروط، ولم يتحرّج من إعلانه ذلك في خطبته على ملا من المسلمين فقال: «ألا وإن كل شيء أعطيت الحسن بن عليّ تحت قدمي هاتين لا أفي به»^(٣).

ونحن إذا أردنا أن نحاسب رجال الإسلام السني على المعنى الذي صاروا ينادون به تبريراً لحكومة الحاكمين، وذلك هو مبدأ الشورى، نجدهم عاجزين عن إثباته ولو لمرة واحدة. وفي يوم من الأيام في تاريخ حكومات الإسلام، إذ أن معنى (الشورى) هو حق اختيار الحكام متروك للمسلمين، وذلك فيه أيضاً من الفراضات ما يعجزون عن سدها، إذ تبقى أساليب الاختيار مجهولة، ويبقى اختلاف الرأي في جواز الثورة على الظالمين وعدمه يشكل عائقاً عن تطبيق مبدأ الشورى كما ينبغي أن يكون، لأن من أكبر العوائق الطرح الذي أحاطوه بأطار من قداسة الحديث النبوي الشريف: (أطعمه وإن ضرب رأسك)^(٤) وهو طرح زائف لا كنه السنة وعاظ السلاطين كاستهلاك محلي بحجة اتقاء الفتنة وتبريراً لأعمال الحاكمين الظالمين، لذلك رفض الشيعة طرح الفكر السياسي السني في مسألة الخلافة، والتزموا بمبدأ النص الذي طرحه القرآن وبلغه النبي ﷺ حيث

(١) انظر الاصابة ١/٣٢٩، وذخائر العقبى/١٣٩، وتهذيب الأسماء واللغات ١/١٩٩.

(٢) الاستيعاب ١/٣٧٠.

(٣) انظر شرح النهج لابن أبي الحديد (رواية السبعمي).

(٤) في صحيح مسلم كتاب الامارة باب الأمر يلزوم الجماعة... في حديث حذيفة قال صلى الله عليه وآله وسلم: تسمع وتطيع للأمر وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك فاسمع وأطع ٢٠/٦ ط محمد عليّ صبيح.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾^(٣)، إلى غير ذلك من آي القرآن المجيد. مضافاً إلى أحاديث الرسول الكريم وبياناته القولية والعملية في تعيين الإمام والخليفة من بعده.

موقف ابن عباس من الصلح:

مع المسيرة المتأنية بين نصوص السير والأخبار التاريخية في فترة خلافة الإمام الحسن عليه السلام والتي استدام حكمه فيها طيلة ستة أشهر قبل وقوع الصلح، نجد أنفسنا كقراء واعين، أو باحثين متبعين، لم تخطئنا العين المدققة، إدراك الأسباب التي حملت الإمام الحسن عليه السلام على الصلح والمصالحة، كما لم تخطئ العين معرفة الراضين من أصحابه بذلك ومعرفة الساخطين. مع أنه عليه السلام في منظورهم جميعاً كان هو الإمام الذي تجب طاعته سواء حارب أو سالم، كما أنه عليه السلام في منظور هؤلاء وهؤلاء بل ومنظور الأمة التي بايعته وخرجت معه لحرب معاوية، كان القائد العسكري المحنك، الذي يجب إتباعه عند خوض المعركة، بعد أن كان قد خطط لها التخطيط السليم الدقيق. أو عدم خوضها ما دامت النتيجة محكومة بالفشل سلفاً. كما حدث فعلاً ذلك عند مباغثة عنصر

(١) الأحزاب / ٣٦.

(٢) المائدة / ٩٢.

(٣) المائدة / ٥٩.

المفاجأة في تسلل الأشراف إلى معاوية كما مرت الإشارة إلى ذلك، ثم مكاشفة الباقيين في هزال ولائهم كما وقد مرّ الدليل على ذلك، ومن قبل ومن بعد ونشاط الإعلام المعادي المعاوي في خططة المعنويات المهزوزة أ وقرأنا بعض الشواهد عليه فماذا كان يجب أن يكون الموقف من أولئك الراضين وأولئك الساخطين؟ غير التسليم، أليس فيما تقدم ما يكفي لإمام معصوم عند من يدين له بالطاعة بالإمامة؟ وما يكفي له حتى عند من يراه قائداً عسكرياً فيجب عليه الطاعة أيضاً؟ فله إذن ومن حقه أن يتخذ - وهو الإمام وهو القائد - ما يمليه عليه الموقف المتأزم، من فرار حرب أو سلم، وبعد أن أصبح واضحاً عنده خسارة الحرب مهما بذل من جهد هو والمخلصون من شيعته، وأن الشّر قد دنا فتدلى، وبانت النذر في الشعارات التي أطلقها الخوارج الذين كانوا في جيشه، والبيانات التي تلقفها الرواة فحفلت بها السير ارادة القبض عليه وتسليمه إلى معاوية.

فهل بعد ذلك كله من فرصة لخوض حرب مع معاوية محكوم عليها سلفاً بالفشل؟ إذن لا بدّ من المسالمة حقناً للدماء وبقياً على الصفوة الباقية، هكذا فقد تمّ الصلح على شروط، لكن لم يف معاوية بواحد منها.

ولنعد إلى البصرة حيث كان ابن عباس لا يزال مقيماً بها وأميراً عليها. وعلى توابعها من بلاد فارس وكور الأهواز الخمس ومنها فساو داربجرد التي ورد ذكرها في وثيقة الصلح على أن يُحمل خراجها للإمام الحسن عليه السلام وسيأتي مزيد بيان عن ذلك.

أما عن موقفه من الصلح فلم أقف على ما يمكن الإستناد إليه، إلا أن في دسائس معاوية التي طالت الكوفة والبصرة فدرس إليها رجلين رجلاً من حمير إلى من الكوفة ورجلاً من بني القين إلى البصرة فذلّ عليهما وقتلا. كما مرت الإشارة إلى ذلك وفوق هذا ما يشير إلى أن معاوية قد استطالت ذراعه فأراد أن يتناول بها زياد بن أبيه وهو عامل ابن عباس على فارس فكتب إليه يتهدده فقام زياد خطيباً فقال: «العجب من ابن آكلة الأكباد وكهف النفاق، ورئيس الأحزاب كتب إليّ يتهددني ويمني وبينه ابنا عم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - يعني ابن عباس والحسن بن عليّ - في تسعين ألفاً واضعي سيوفهم على عواتقهم لا ينتنون، لئن خلص إلي الأمر ليجدني أحمر خراباً بالسيف»^(١).

قال الشعبي في حديثه: «فلم يزل زياد بفارس حتى صالح الحسن عليه السلام معاوية، وقدم معاوية الكوفة فتحصن زياد في القلعة التي يقال لها قلعة زياد»^(٢). ومن المتيقن أن زياداً لم يكن ليردّ على تهديد معاوية له من فراغ، بل كانت بينه وبين معاوية حاميتان - الكوفة والبصرة - وفيها تسعون ألفاً، واضعي سيوفهم على عواتقهم لا ينتنون. وأنا أحسب أن ذلك من طغح الكيل عند زياد، وإلا فإين هم في الدفاع عن إمامهم الحسن عليه السلام، أوليس حامية الكوفة هي التي خاتته وغدرت به واتتهبت رحله وسلبته حتى مطرفه؟ ولم تكشف بذلك حتى طلعت في فخذ، أو ليس أشرافها الذين كاتبوا معاوية ان شاء قبضوا على الحسن

(١) تاريخ الطبري ٩٧/٦ ط الحسنية.

(٢) نفس المصدر.

وسلموه إليه مكتوفاً؟ فحملة ذلك كله على الموادعة والصلح، أمّا حامية البصرة فلم يذكر عنها شيء في ذلك الحدث، لذلك لم نستطع أن ندينهم بشيء من إصرر الخذلان، لكن سيأتي لهم مع ابن عباس موقف لا يخلو من إدانة.

أمّا عن موقف ابن عباس من الصلح فلم أقف على ما يشير إليه كما قلنا، ومن الغرابة أن لم نجد خبراً يشير إلى أن الإمام الحسن عليه السلام كتب إليه في ذلك، وهذا من الغرابة بمكان، وأضرب من ذلك كله أنا لم تقف على خبر يثبت استدعاء الإمام الحسن عليه السلام مقاتلة أهل البصرة للإشتراك مع الكوفيين في حرب معاوية، كما كان الشأن في ذلك أيام أمير المؤمنين عليه السلام في حرب صفين وحرب النهروان كما مرّ. وهذه نقطة لم يبحثها من كتب عن الإمام الحسن عليه السلام وهي حرية بالبحث، وليس من الدقة تجاهلها. وقد حاولت كثيراً أن أجد سنداً تاريخياً يصح الاعتماد عليه في المقام فلم أجده. ويقى المجال للتخمين والظن، وهذا لا يفني عن الواقع والحق شيئاً.

ولا ينقضي العجب من إغفال التاريخ وصمته المطبق إذ لم يذكر شيئاً كان بين الإمام الحسن عليه السلام وعامله عبد الله بن عباس بعد كتاب ابن عباس إليه في الحضر على مداراة أهل البيوتات والشرف وعلي محاربة معاوية، ولم يذكر التاريخ جواباً من الإمام الحسن عليه السلام على ذلك الكتاب، فهل يعقل أن لا يكون لذلك الكتاب من جواب؟! وهكذا يستمر الصمت المطبق فلا نقف على كلمة تدلنا على نحو اتصال أو مراجعة في شأن بين ابن عباس وبين الإمام الحسن عليه السلام.

وأغرب ما رأيت في المقام ما أخرجه الطبراني في المعجم الكبير وعنه الهيثمي عن عيسى بن زيد قال: ((استأذن الأشعث بن قيس على معاوية بالكوفة فحجبه ملياً وعنده ابن عباس والحسن بن علي فقال: أعن هذين حجبتني يا أمير المؤمنين، تعلم أن صاحبهم جاءنا فملأنا كذباً يعني علياً.

فقال ابن عباس: والله عنده مهرة جدك وطمع في أمت أهلك.

فقال: ألا تسمع يا أمير المؤمنين ما يقول؟

قال: أنت بدأت.

قال الهيثمي: رواه الطبراني وفيه جماعة لم أعرفهم^(١).

أقول: لقد كفانا قول الهيثمي مؤنة الرد والمناقشة في هذا الخبر. مضافاً إلى ما حكاه ابن حجر في الإصابة^(٢) (عن خليفة وأبي نعيم وغير واحد إن الأشعث مات بعد قتل علي بأربعين ليلة و...).

إذن فما دمنا لم نجد نصاً يشير إلى حضور قول أو عمل من ابن عباس في مسألة الصلح؟ وما دمنا نفتقد الحجة في ذلك، فعلينا التريث في تصنيف ابن عباس مع الراضين، هو أو مع الساخطين. لكننا قد نتمين جواب ذلك التساؤل من خلال كتاب معاوية إليه وجوابه على ذلك الكتاب، وهو كتاب له دلالة في أن ابن عباس لم يكن - في رأي معاوية على الأقل - ممن تشمله وثيقة الصلح لتعصم دمه.

قال ابن أبي الحديد: ((وكتب معاوية إلى ابن عباس عند صلح الحسن رضي الله عنه له كتاباً يدعو فيه إلى بيعته ويقول له فيه: ولعمري لو قتلتك بعثمان رجوت أن

(١) مجمع الزوائد ٧/٢٤٧.

(٢) الإصابة ١/١٦.

يكون ذلك لله رضاءً، وأن يكون رأياً صواباً، فإنك من الساعين عليه والخاذلين له، والسافكين دمه، وما جرى بيني وبينك صلح فيمنعك مني، ولا بيدك أمان.

فكتب إليه ابن عباس جواباً طويلاً يقول فيه: أما قولك: إني من الساعين على عثمان والخاذلين له والسافكين دمه، وما جرى بيني وبينك صلح فيمنعك مني فأقسم بالله لأنت المترص بقتله، والمحب لهلاكه، والحابس الناس قبلك عنه على بصيرة من أمره، ولقد أتاك كتابه وصريره يستغيث بك ويستصرخ فما حفلت به^(١) حتى بعثت إليه معذراً بأخرة، أنت تعلم أنهم لن يتركوه حتى يقتل، فقتل كما كنت أردت، ثم علمت عند ذلك إن الناس لن يعدلوا بيننا وبينك، فطفقت تمنى عثمان، وتلزمانا دمه، وتقول قتل مظلوماً، فإن يك قتل مظلوماً فأنت أظلم الظالمين، ثم لم تزل مصوباً ومصعداً، وجائماً ورايضاً تستغوي الجهال، وتنازعنا حقنا بالسفهاء حتى أدركت ما طلبت، ﴿وَإِنْ أَذْرِي لَعَلَّةٌ فَتَنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾^(٢)..^(٣)

فهذا نص له دلالاته، ولا يعقل أن يكون هذا هو جميع الكتاب والجواب، خصوصاً مع ملاحظة قول ابن أبي الحديد: «فكتب إليه ابن عباس جواباً طويلاً...»، وليته لم يقتضيه، فرواه لنا بكامله لأفدنا منه أموراً أخرى، ومهما يكن العذر له في ذلك، فإن فيما ذكره دلالة على زمن المكاتبة إذ في كتاب معاوية

(١) يشير إلى كتاب عثمان إليه يستنصره فلم ينصره قال الطبري في تاريخه ١١٥/٥ فلما جاء معاوية الكتاب تريص به...

(٢) الأبياء / ١١١.

(٣) شرح النهج لابن أبي الحديد ٥٨/٤، ولا يخفى تشابه ختام كتابه بختام خطبة الإمام الحسن عليه السلام فكلاهما يرى في تولي معاوية الفتنة وهو متاع إلى حين.

تهديد وتوعيد، وتأكيد على أن ابن عباس لم يكن قد بايع، ولم يكن جرى له صلح مع معاوية، فهذا يدل على أنه كان بعد مسالمة الإمام الحسن عليه السلام وهي كانت في النصف من جمادى الأولى سنة ٤١ كما في الاستيعاب وغيره وقيل في ربيع الأول أو الثاني، إذن فابن عباس لم يزل بالبصرة لذلك الوقت ولم يبايع معاوية. ولا يعقل أنه يكون لم يبلغ علمه ما جرى للإمام الحسن عليه السلام من الأحداث التي اضطرت به إلى المسالمة، فهو ولا شك لم يستغ مرارة الصلح الاضطراري، كيف وهو الذي كان مصراً على حرب معاوية كما في كتابه إلى الإمام الحسن عليه السلام ولكن لا يعني ذلك سخطه على خطة الإمام الحسن عليه السلام بل سيأتي ما يدل على بقاءه في ولايته على ولاته حتى فارق البصرة إلى المدينة.

والآن هلمّ الخطب فيما رواه الطبري بسنده عن الزهري في حديث يعبه الحسن عليه السلام فيه من الطامات ما يسقطه عن الاعتبار:

فمنها قوله: ((قلماً علم عبد الله بن عباس بالذي يريد الحسن عليه السلام أن يأخذه لنفسه، كتب إلى معاوية يسأله الأمان، ويشترط لنفسه على الأموال التي أصابها، فشرط ذلك له معاوية))^(١). فإذا كان قد شرط له معاوية ذلك فلماذا إذن الكتاب إليه يتهدده ويتوعده كما مر؟ ولماذا كان جواب ابن عباس طويلاً؟ كما مر.

إنها إحدى أكاذيب الزهري فهو من المنحرفين عن أهل البيت، ومن مرتزقة الأمويين وكان على شرطة بعض بني مروان. قال خارجة: ((قدمت على الزهري وهو صاحب شرط لبعض بني مروان، قال: فرأيت يركب وفي يده حربة

(١) تاريخ الطبري ١٥٨/٥ ط دار المصارف و ٢/٦ ط اشعت أوروبا، وفي الكامل لابن الأثير

١٧٧/٣ ط بولاق صبيد الله بدل عبد الله. واطنه من هلمك النسخ وخلمك الرواة وقد مر

تحقيق ذلك.

وبين يديه الناس بأيديهم كافر كويات، ققلت: قبح الله ذا من عالم، فانصرفت فلم أسمع منه»^(١). وقد مرّ بنا في مقدمة الجزء الأول نماذج من أكاذيبه.
قبيل المغادرة:

لا شك عندي ان ابن عباس كان في آخر أيام ولايته على البصرة يعاني آلام المرارة التي سببها تدني الأمور وتلاحق الأحداث، وأوجعها في نفسه تولي معاوية أمور المسلمين، ولكنه ما دام تابعاً في ولايته لإمامه الحسن عليه السلام فلا بدّ له من التسليم وعليه الرضا بما جرى به قلم القضاء، وإنّي لم أجد خبيراً واحداً يدل على وهن في عزمته أو خلل في ولايته، بالرغم من عثمانية البصرة ودسائس معاوية، فهو لم ينحني للعاصفة مع أنّه من خلال موقعه كان في مهبتها، فلم تزعزعه العواصف، ولم تهن من عزمته ونشاطه الأحداث القواصف، بل وكأنّها زادته في شعوره شموخاً ورفعة، وفي عزمته صموداً وصبراً. ولعل في خير وفادة أبي أيوب الأنصاري عليه في تلك الفترة ما يعطينا ملامح من ذلك الشعور.

فلتقرأ الخبر أولاً كما رواه الطبراني في المعجم بسنده قال: «أنّ أبا أيوب ابن زيد الأنصاري -الذي كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نزل عليه حين هاجر إلى المدينة - غزا أرض الروم، فمرّ على معاوية فجفاه، فانطلق ثمّ رجع من غزوته، فمرّ عليه فجفاه، ولم يرفع به رأساً فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنبأني أنا سنرى بعده إثرة، فقال معاوية: فهم أمركم؟ قال: أمرنا

(١) فهارس الثقة لابن حبان ١٢٢/ ط مؤسسة الكتب الثقافية من كتاب الثقات ٥/٨ و ٥/٥ ط دار الكتب العلمية.

أن نصبر، قال: فاصبروا إذن. فأتى عبد الله بن عباس بالبصرة وقد أمره عليّ رضي الله عنه عليها. فقال: يا أبا أيوب أريد أن أخرج لك عن مسكني كما خرجت لرسول الله صلى الله عليه (وآله) وسلم، فأمر أهله فخرجوا، وأعطاه كل شيء أغلق عليه الدار، فلما كان انطلاقه قال: حاجتك؟ قال: حاجتي عطائي وثمانية أعبد يعلمون في أرضي، وكان عطاؤه أربعة آلاف فأضعفها له خمس مرات، فأعطاه عشرين ألفاً وأربعين هجلاً^(١).

وهذا الخبر رواه الحاكم في المستدرک لا يخلو من فوائد واليك بلفظه: «إن أبا أيوب الأنصاري أتى معاوية فذكر له حاجة، قال: أأنت صاحب عثمان؟ قال: أما إن رسول الله صلى الله عليه (وآله) وسلم قد أخبرنا أنه سيصينا بعده إثره، قال: وما أمركم؟ قال: أمرنا أن نصبر حتى نرد عليه الحوض، قال: فاصبروا. فغضب أبو أيوب وحلف أن لا يكلمه أبداً.

ثم إن أبا أيوب أتى عبد الله بن عباس فذكر له ذلك، فخرج له عن بيته كما خرج أبو أيوب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن بيته، وقال: أيش تريد؟ قال: أربعة أغلمة يكونون في محلي، قال: لك عندي عشرون غلاماً^(٢).

ورواه مرة أخرى وفيه: «وكان قدم عليه البصرة، ففرغ له بيته، وقال: لأصنعن بك كما صنعت برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقال: كم عليك من الدين؟ قال: عشرون ألفاً، قال: فأعطاه أربعين ألفاً وعشرين مملوكاً وقال: لك ما في البيت. قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه^(٣). وواقفه الذهبي في

(١) المعجم الكبير ١٢٥/٤ طه الموصل، رواه بسند آخره في ١٢٦/٤.

(٢) مستدرک الحاكم ٤٥٩/٣.

(٣) نفس المصدر/ ٤٦٠.

التلخيص وقال: إنه صحيح^(١). وورد الخبر في سير أعلام النبلاء للذهبي^(٢)،
وتاريخ ابن كثير^(٣).

وتعقياً منا على الخبر، فهو نص صريح على وفادة أبي أيوب الأنصاري
على ابن عباس وهو بعداً بالبصرة، وكانت وفادته بعد وفادة على معاوية كانت
مخية لآماله، فلم ير الحسن ولم يسمع من معاوية غير السخرية والتهكم بالانصار
وبحديث الرسول ﷺ. لذلك يتم وجهه شطر ابن عباس، فأسدى له ومع ما مرّ
ذكره من تكريم وعطاء لم يكن ليحلم ببعضه عند معاوية.

ولعل خبر هذه الوفاة وصل إلى معاوية ففاضه أن يكون لبني هاشم شأن
يذكر، ورأس يُشار إليه ويُقصد، وهو الذي قد كاذ سيد بني هاشم الإمام
الحسن عليه السلام حتى استلب الحكم من يده فسالمة مضطراً، إذن لماذا يترك ابن
عباس وشأنه، وهو لم يبايع سالماً، ولا يزال يمارس نشاطه مراغماً، فكتب إليه بما
مرّ ذكره، وأجاب ابن عباس بجواب تقدم شطره وطره. وبعد هذا فلا يعني بقاء
ابن عباس بالبصرة بعد الصلح محتملاً إلا أن يقيم كسائر المواطنين تحت ولاية
الوالي الذي سيرسله معاوية، وما يدريه ماذا تحمله له الأيام مع الوالي الجديد. إلا
أنها بلا شك لا تحمل له ما يطمته بالراحة ويشتره بالخير. فعليه أن يرحل وعليه
أن يتهيأ للمغادرة، ويستعد للعودة إلى الحجاز - مكة أو المدينة - حيث مهبط
الوحي ومنتدى الأهل، وقد عاد من قبل إمامه الحسن عليه السلام وأهل بيته الكرام،
فقاروا الكوفة، وهي في نفس ابن عباس سيدة البصرة، ولعل مرارة تجربته الغيظ

(١) راجع مجمع الزوائد ٣٣٣/٩، وقال: رواه الطبراني.

(٢) سير أعلام النبلاء ٣٣٦/٣ ط مصر، و٥٩/٤ و٦٣ ط دار الفكر ببيروت.

(٣) تاريخ ابن كثير ٢٠٢/٣.

من البصريين نفتت على لسانه كلمة فقال: ((لو كانت البصرة أمة للكوفة فَضَلَّت ما طلبتها رغبة عنها))^(١).
طرد أو مطاردة:

روى البلاذري المتوفى سنة ٢٧٩هـ في أنساب الأشراف قال: ((كتب معاوية كتاباً نسخته:

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب للحسن بن عليّ من معاوية بن أبي سفيان.

إني صالحتك على أن لك الأمر من بعدي، ولك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسول الله ﷺ، وأشد ما أخذه الله على أحد من خلقه من عهد وعقد (أن) لا أبغيك غائلة ولا مكروهاً، وعلى أن أعطيك في كل سنة ألف ألف درهم من بيت المال، وعلى أن لك خراج (فسا) و(دارا بجرد) تبعث إليهما عمّالك، وتصنع بهما ما بدا لك.

شهد عبد الله بن عامر وعمرو بن سلمة الهمداني وعبد الرحمن بن سمرة ومحمد بن الأشعث الكندي.

وكتب في شهر ربيع الآخر سنة إحدى وأربعين.

فلما قرأ الحسن الكتاب قال: يطعني في أمر لو أردته لم أسلمه إليه...^(٢).
هذا أقدم نص ورد إلينا فيه ذكر خراج (فسا ودارا بجرد) يكون خالصاً للإمام الحسن ﷺ يبعث إليهما عمّاله، ويصنع بهما ما بدا له. ولكن بعد تمام

(١) محاضرات الأدباء للراغب ٢/٣٦٣.

(٢) أنساب الأشراف ٤١/٣ تح المحمودي.

الصلح تبدل الحال وخان معاوية جميع ما أعطى من عهد وذمم، وليس بمستغرب ذلك من ابن آكلة الأكباد، فقد روى ابن عساكر الشافعي^(١) والخوارزمي الحنفي^(٢): «أن معاوية دس إلى أهل البصرة فطردوا وكيل الحسن وقالوا له: لا تحمل فيتنا إلى غيرنا، يعنون خراج (فسا ودار ابجرد).

وأكد ذلك ابن الأثير فقال: «وأما خراج دار ابجرد فإن أهل البصرة منعوه منه وقالوا: هو فيتنا لا نعطيه أحداً، وكان منعهم بأمر معاوية أيضاً»^(٣). ولم يبعد ابن خلدون في تاريخه عن ذلك^(٤)، إلا أنه تستر على معاوية فلم يذكر أن المنع بأمره.

ولا بد لنا من وقفة عابرة عند كلمة (فطردوا) فهل صحيح حصل طرد من أهل البصرة لوكيل الحسن عليه السلام؟

ولا شك أنه لم يكن له وكيل في البصرة سوى عامله عليها وهو عبد الله بن عباس.

كما لا شك بأنه هو الذي حمل معه المال.

ولا شك أنه حصلت مناقشات في شأن ذلك - كما سيأتي - فهل تعني كلمة (فطردوا) يعني فطاردوا؟ إذ أن المعنى اللغوي لكلمة (الطرد) هو الإبعاد، وهذا لم يحصل، والذي حصل هو المطاردة، وهي حمل الأقران بعضهم على بعض^(٥).

(١) تهذيب تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر بتهذيب ابن بدران ٢٢١/٤ ط بيروت.

(٢) مقتل الحسين عليه السلام للخوارزمي ١٣٣/١ ط الحيدرية النجف.

(٣) الكامل ١٧٥/٣ ط بولاق.

(٤) تاريخ ابن خلدون ١١٣٧ ط دار الكتاب اللبناني.

(٥) راجع القاموس المحيط: طرد.

ولا يبعد أن يكون التصحيف في الخط، أو سوء الفهم في القراءة أخذ مكانه في النص، خصوصاً إذا لاحظنا قواعد الخط القديم حيث تحذف الألف المشالة في وسط الكلمة ويعوض عنها مكانها بألف صغيرة كما في (الصلوة والزكوة). وهذا فيما أرى قريباً من واقع الحدّث كما رواه البلاذري أيضاً في ترجمة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حيث ذكر مسألة حمل ابن عباس لبيت مال البصرة في عهد الإمام، وأنه فارقه. ولما كنّا أشرنا سابقاً إلى أنا سوف نبحث ذلك في الحلقة الرابعة (ابن عباس في الميزان) فلا تتعجل التفاصيل الآن ونكتفي بما رواه في خصوص المطاردة.

قال: ((ولمّا أراد ابن عباس الخروج دعا أخواله من بني هلال ليعينوه، فجاءه الضحاك بن عبد الله الهلالي - وهو كان على شرطة البصرة - وعبد الله بن رزين الهلالي، وقبيصة بن عبد عون الهلالي وغيرهم من الهلاليين، فقال الهلاليون: لا غناء بنا عن اخواننا من بني هوازن، ولا غناء بنا عن اخواننا من بني سليم فاجتمعت قيس كلّها.

وصحب ابن عباس أيضاً سنان بن سلمة بن المحبق الهلالي، والحصين بن أبي الحر العنبري، والريبع بن زياد الحارثي فلما رأى عبد الله من معه، حمل المال وهو ستة آلاف الف في الغرائر^(١) ثمّ سار. واتبه اخماس البصرة كلّهم فلحقوه بالطف على أربعة فراسخ من البصرة، إرادة أخذ المال منه.

فقال قيس: والله لا يصلون إليه ومنا عين تطرف.

(١) الغرائر بالكسر شبه المدل. المصباح المنير غرر.

قال صبرة بن شيمان بن عكيف - كذا - وهو رأس الأزد: يا قوم إن قيساً
إخواننا وجيراننا في الدار، وأعوأنا على العدو، ولو ردّ عليكم هذا المال كان
نصيبتكم منه الأقل، فانصرفوا.

وقالت بكر بن وائل: الرأي والله ما قال صبرة بن شيمان، واعتزلوا أيضاً.
قالت بنتو تميم: والله لثقالتهم عليه، فقال لهم الأحنف: أنتم والله أحقّ الأ
تقاتلونهم وقد ترك قتالهم من هو أبعد منكم رحماً، فقالوا: والله لثقالتهم عليه.
فقال الأحنف: والله لا أساعدكم وانصرف عنهم، فرأسوا عليهم رجلاً يقال
له ابن الجذعة وهو من بني تميم، وبعضهم يقول: ابن المخدعة.

فحمل عليهم الضحاک بن عبد الله الهلالي فطعن ابن الجذعة فصرعه،
وحمل سلمة بن ذؤيب على الضحاک فطعنه، فاعتقه عبد الله بن رزين الهلالي
فسقطا إلى الأرض يعتركان، وكان ابن رزين شجاعاً، وكثرت الجرحى بينهم،
ولم يقتل من الفريقين أحد.

فقال من اعتزل من الأخماس: والله ما صنعتم شيئاً حيث اعتزلتم
وتركتموهم يتساحرون. فجاؤا حتى صرفوا وجوه بعضهم عن بعض، وحجزوا
بينهم، وقالوا لبني تميم: والله لنحن أسخى أنفساً منكم، تركنا لبني عمكم شيئاً
أنتم تقاتلونهم عليه، فخلّوا عن القوم وعن ابن اختهم، ففعلوا ذلك...

ومضى عبد الله بن عباس ومعه من وجوههم نحو من عشرين سوى مواليتهم
ومواليه، ولم يفارقه الضحاک بن عبد الله، وعبد الله بن رزين، حتى وافى مكة...
وكان ابن عباس يعطي في طريقه من سأله ومن لم يسأله من الضعفاء، حتى
قدم مكة.

ويقال: أنه كان استودع حصين بن الحرّ ما لأفأذاه إليه...»^(١).

هذا ما ذكره البلاذري وهو أقدم نص وصل إلينا عن تلك المطاردة.

ثم رواه الطبري عن عمر بن شبة عن جماعة عن أبي مخنف، بتفاوت في اللفظ، واتساق في المعنى مع ما ذكره البلاذري من حديث الخيانة والمفارقة والمطاردة إلى آخر ما سيأتي بحثه بتفصيل في الحلقة الرابعة.

وفي الأغاني لأبي الفرج، خبر فيه: ((تبع أبو الأسود ابن عباس حين خرج من البصرة إلى المدينة ليرده، فأبى واعتصم بأخواله من بني هلال فمنعوه))^(٢).
وجرى التالون على ما أسس الأولون^(٣).

إذن فثمة كانت مطاردة من بعض أهل البصرة لابن عباس - وهو وكيل الحسن لأنه الوالي من قبله - لمنعه من حمل ما في مال بيت مال البصرة يعنون خراج (فسا ودار ابجرذ)، وبالتالي تمكن من الاستعانة بأخواله بني هلال ومن معه أن يحمله معه، وكان يعطي في طريقه من سأله ومن لم يسأله من الضعفاء...
والآن لنقرأ شيئاً عن طبيعة ذلك المال لتعرف لماذا الإصرار من ابن عباس على حمله؟ ولماذا الإصرار من بني تميم على منعه؟

طبيعة بيت مال البصرة وموارده:

لقد مرّ بنا في الحديث عن ولاية ابن عباس على البصرة في المحورين الأول والثاني التعرف على طبيعة التركيبة الجغرافية والسكانية والبلاد التابعة في

(١) انصاب الأشراف (ترجمة الإمام أمير المؤمنين) ١٧٤/٢ تصد. المحمودي.

(٢) الأغاني ٣٠١/١٢ ط دار الكتب.

(٣) لاحظ ابن عبد ربه في العقد الفريد ٣٥٤/٤ - ٣٥٩ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر، وابن الأثير في الكامل ١٦٧/٣ - ١٦٨ ط بولاق وغيرهما.

ولايتها للبصرة، وما يجبي منها من خراج، وكان منها ولاية فارس وهي تشمل فيما تضم (فسا ودار ابجرد) ولما كانت بلاد فارس منها ما فتح عنوة ومنها ما فتح صلحاً. فأما التي فتحت عنوة فغنائمها لمن قاتل عليها بعد تخميسه، وأما التي فتحها المسلمون صلحاً فهي من مختصات الإمام لأنها لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب.

وبلاد (فسا ودار ابجرد) قد فتحت صلحاً كما في الفتوح. قال البلاذري: ((وأتى عثمان بن أبي العاص دار ابجرد، وكانت شادروان علمهم ودينهم وعليها الهرزد، فصالحه الهرزد على مال أعطاه إياه، وعلى أن أهل دار ابجرد كلهم أسوة من فتحت بلاده من أهل فارس...))^(١).

إذن فخراج دار ابجرد يكون شأنه شأن البلاد التي فتحت صلحاً على عهد النبي ﷺ مما لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب مثل فدك وذلك خاص بالنبي ﷺ في أيامه، ثم من بعده بالإمام أمير المؤمنين وأهل بيته ﷺ لقوله تعالى: ﴿مَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَمَا لَا يَكُونُ ذُوْلَةٌ بَيْنَ الْأَعْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾^(٢).

ولما كان الإمام الحسن ﷺ هو إمام الخلق بالحق، وعليه أن يتبع سنة النبي ﷺ في الأراضي المفتوحة صلحاً، كما له أن يرتزق ويرزق من مال المصالحة بالوجه الذي يراه، لذلك اشترط أخذ خراج (دار ابجرد) لأنه له ومن

(١) فتوح البلدان للبلاذري / ٣٩٥ ط الأولى سنة ١٣١٩ بمطبعة الموسوعات بمصر.

(٢) الحشر / ٧.

حقه وحده صرفه في موارده كما يرى، بخلاف بقية وجوه أموال بيت المال من خراج البلاد المفتوحة عنوة والصدقات والعشور والجزية وغيرها، مما ينزّه عنه، وأحبّ كذلك أن ينزّه عنها من أراد إعطائهم من أبناء الذين قُتل آباؤهم مع أبيه في الجمل وصفين، لذلك قيل: ((لدار ابجرّد خطب في شأن الحسن عليه السلام بخلاف جميع فارس)).

وإلى هذا الوجه ذهب الشيخ الصدوق ابن بابويه المتوفى سنة ٣٨١ في علل الشرائع حيث ذكر جواب الشيخ محمد بن بحر الشيباني في كتابه المعروف بكتاب (الفروق بين الأباطيل والحقوق) في معنى موادة الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام لمعاوية. إلى أن قال عليه السلام:

((فإن قال - السائل - ما تأويل اختيار مال دار ابجرّد على سائر الأموال لما اشترط أن يجعله لأولاد من قتل مع أبيه صلوات الله عليهم يوم الجمل وبصفين؟

قيل: لدار ابجرّد خطب في شأن الحسن بخلاف جميع فارس، وقلنا: إن المال مالان: الفيء الذي ادّعوا أنه موقوف على المصالح الداعية إلى قوام الملة وعمارتها من تجييش الجيوش للدفع عن البيضة ولأرزاق الأسارى. ومال الصدقة الذي خصّ به أهل السهام، وقد جرى في فتوح الأرضين بفارس والأهواز وغيرهما من البلدان ممّا فتح منها صلحاً وما فتح عنوة، وما أسلم أهلها عليها هنات وهنات، وأسباب وأسباب، بإيجاب الشرائط الدالة لها...

ولابد أن يكون أولاد من قتل من أصحاب علي صلوات الله عليه بالجمل ويصفين من أهل الفياء ومال المصلحة ومن أهل الصدقة والسهام... فخاف الحسن عليه السلام أن كثيراً منهم لا يرى لنفسه أخذ الصدقة من كثير منهم، ولا أكل صدقة كثير منهم، إذا كانت غسالة ذنوبهم، ولم يكن للحسن عليه السلام في مال الصدقة سهم... فخص الحسن عليه السلام ما لعه كان عنده أعف وأنظف من مال أردشير خره لأنها حوصرت سبع سنين حتى اتخذ المحاصرون لها في مدة حصارهم إياها مصانع وعمارات، ثم ميّزوها من جملة ما فتحوها بنوع من الحكم، وبين الاصطخر الأول والاصطخر الثاني منات علمها الرباني الذي هو الحسن عليه السلام فاختار لهم أنظف ما عرف^(١).

وإذ عرفنا الوجه في خصوص ذلك المال، وأنه من أعف وأنظف وجوه الأموال الأخرى، لذلك استثناء الإمام الحسن عليه السلام من بين بقية الأموال، عرفنا أيضاً وجه إصرار ابن عباس على حمله لأنه وكيل الإمام وواليه، ولم تسقط ولايته إلا بعد الصلح والتسليم، والمال قد كانت جبايته في ولايته وسلطته الشرعية من قبل الإمام الحق العادل - سواء كان في أيام الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أو في أيام ابنه الإمام الحسن، ولما كان قد أعطى كل ذي حق حقه، وبقيت تلك البقية التي كان سابقاً يرسلها إلى الإمام في الكوفة كما في عهد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فالיום وبعد أن تمت المودعة، فليس من المنطق المعقول ولا الشرع المقبول، أن يترك ذلك المال لمعاوية وأشياعه، يعيشون فيه فساداً.

(١) انظر علل الشرائع ٢٧٨/١ ط مكتبة الشريف الرضي بقم.

وهذا هو منطق الصواب في الجواب في شرعية فعله، وقد ردّ به علي ابن الزبير يوم ندّد به فقال: ((وأما حمل مال البصرة، فإنه كان مالاً جبيناه، ثمّ أعطينا كلّ ذي حقّ حقه، وبقيت منه بقية هي دون حقنا في كتاب الله وسهامه))^(١).

وبهذا الجواب أحرص ابن الزبير فلم يردّ عليه بشيء، ولم يذكر التاريخ أنّ أحداً من الحاضرين في المسجد الحرام - حيث وقعت المشادة والمحاذاة - أنكر على ابن عباس جوابه، فتبيّن لنا وجه إصرار ابن عباس على حمل المال معه، وصحة رأيه.

يبقى علينا أن نعرف لماذا أصرّ بنو تميم - وبالأصح بعضهم - على الممانعة والمجادلة حتى أنتهت إلى المصالوة والمقاتلة؟

فنقول: لقد مرّ بنا في تاريخ حياته في البصرة شواهد التشنّج بينه وبين بني تميم، وقرأنا كتاب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إليه في الفرق بهم بعد أن جفاهم وأبعدهم وتكرّر لهم، نكاية بهم لموقفهم المتصلّب يوم الجمل مع الناكثين، ثمّ ما جرى بعد ذلك لهم معه من مواقف عدائية نتيجة الجفوة والفجوة، فلا غرابة لو أصرّوا اليوم على العناد، وقد أمنوا بطشه وسطوته وها هو يغادر البلاد إلى غير رجعة.

وأخيراً هل ترك ابن عباس البصرة هملأً وعرضة للنهب والسلب، شأن البلاد التي تفتقد السلطة؟ أم أنه استخلف عليها أحداً ينتظم شؤونها حتى يأتيها والي معاوية الحاكم الجديد؟

(١) انساب الأشراف ترجمة ابن عباس (نسختي المخطوطة بقلم).

لم يرد في أمهات المصادر التاريخية ذكر استخلافه أحداً بعينه، وطبيعة الموقف قد يقضي بذلك أيضاً، غير أن بعض المؤرخين كما حكى عنه السيد المدني الشيرازي في الدرجات الرفيعة - ولم يسمه - قال: «أنه استخلف عبد الله بن الحرث بن نوفل، ثم قال السيد: وهذا هو الصحيح»^(١).

أقول: ولا يبعد صحة ذلك القول عند من يعرف حسب ونسب عبد الله بن الحرث بن نوفل عند الهاشميين أولاً، وشخصيته في الأمويين ثانياً، ومقامه عند البصريين ثالثاً.

فأما حسبه ونسبه عند الهاشميين فهو منهم ومعهم، قال السيد المدني: «وكان عبد الله المذكور مع أمير المؤمنين عليه السلام وشهد معه مشاهدته كلها، ولما أراد الحسن عليه السلام صلح معاوية وجه به رسولا إلى معاوية»^(٢).

وأما شخصيته في بني أمية فهو ابن أخت معاوية فأمه هند بنت أبي سفيان ابن حرب، وهي التي لقبته (ببنة) فكانت ترقصه وتقول: لأنكحن بنة. جارية خذبه، مكربة محبة، تجب أهل الكعبة.

وأما مقامه عند البصريين فكانوا يرون فيه الرجل المناسب في الظرف المناسب، لأنه واسطة العقد المنافي المنفرط الذي جمع ولادة الهاشميين من الأب، والأمويين من الأم، لذلك فقد اتفقوا عليه بعد موت يزيد وهرب ابن زياد من البصرة فوكوه أمورهم^(٣).

(١) الدرجات الرفيعة مخطوط بمكتبة الشيخ السماوي قارن / ١١٩ ط الحيدرية.

(٢) الدرجات الرفيعة / ١٨٨.

(٣) راجع ترجمته في طبقات ابن سعد ٧ / ٧١ / ١ - ٧٢، وسير اعلام النبلاء ٤٣ / ٥ ط دار الفكر بيروت وتهذيب الكمال للمزي ٧٤ / ١٠ برقم ٣١٩٩.

ومع هذا كله فلست بالمتيقن باستخلاف ابن عباس له، كما لا يتنافى دعوى استخلافه وثوب حمران بن أهبان على البصرة^(١) بعد مغادرة ابن عباس حتى غلب عليها، فبعث إليها معاوية بسر بن أبي أرطاة - السفاك الأثيم - وأمره بقتل بني زياد ابن ابيه - وهو عامل ابن عباس على فارس - لأنه لم يزل على تمنعه من مبايعة معاوية - وذلك في رجب سنة ٤١ هـ.

وبناء على هذا التحديد في التاريخ يمكن معرفة تاريخ مغادرة ابن عباس البصرة بأنها كانت بعد النصف من جمادى الأولى - وهو تاريخ صلح الحسن عليه السلام - وقبل رجب - وهو تاريخ مجيء بسر بن أبي أرطاة.

ومهما تكن مسألة تحديد تاريخ المغادرة ليس بلذي أهمية عند بعض الباحثين في هذا المقام، لكن فيما أرى فيه بالغ الأهمية لأنه يشكل مؤشراً واضحاً على تكذيب حديث خيانة بيت المال في أيام الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وبالتالي مفارقة ابن عباس مغاضباً للإمام وذلك قبل مقتله. وقد جرى على تصديق ذلك الحديث جملة من المؤرخين كالبلاذري والطبري وابن الأثير ومن تأخر عنهم. وستأتي محاسبتهم على مروياتهم في الحلقة الرابعة إن شاء الله تعالى.

ومما تجدر الإشارة إليه في المقام أن خيانة النساخين والمصححين أيضاً لعبت دوراً كبيراً في إرباك الباحثين. وإليك نموذجاً واحداً مما يتعلق بالمقام: فقد ذكر المؤرخ الفاسي في العقد الثمين قول النووي: «واستعمله علي عليه السلام على البصرة ثم فارقها بعد قتله وعاد إلى الحجاز»^(٢). وعند الرجوع إلى كتاب النووي

(١) راجع من ثورته وأسبابها تواريخ الطبري وابن الأثير وابن كثير وابن خلدون في حوادث سنة ٤١ وتجد في ابن خلدون أن اسمه حمران بن زيد.

(٢) العقد الثمين ١٩١/٥ مط. السنة المحمدية القاهرة في ترجمة ابن عباس سنة ١٩٥٨.

تهذيب الأسماء وجدنا العبارة هكذا: «واستعمله عليٌّ عليه السلام على البصرة ثم فارقها قبل قتل عليٍّ وعاد إلى الحجاز»^(١).

ومعلوم أن تغيير كلمة (بعد) بكلمة (قبل) كم له من تأثير في قلب المفاهيم وتضييع الحقائق، وهذا ما يحملنا على سوء الظن بمن تولى كبر ذلك من النساخين أو المصححين، وكم لهذا من نظير^(٢). وتبقى الحقيقة حية لا تموت حتى تظهر ولو بعد حين. والحمد لله رب العالمين الذي لا يحمد على مكروه سواه، فقد انتهى عصر الخلافة الراشدة فيما يسمونه، وأطل على المسلمين عهد الملوكية المستبدة الذي حول الخلافة إلى ملك عضوض.

(١) تهذيب الأسماء واللغات ١/٣٧٦ ط المنبرية بمصر.

(٢) راجع خطبة قيس بن سعد بن عبادة بعد مفارقة عبيد الله بن عباس جيشه وذهابه إلى معاوية ستجدها في المطبوع من مقاتل الطالبين وفيها (وإن هذا وأباه وأخاه لم يأتوا بيوم خير قط. إن أباه هم رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج يقاتله ببدر، فأمره أبو اليسر كعب بن عمرو الأنصاري، فأتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخذ فداه فقسمه بين المسلمين، وإن أخاه ولأه عليٌّ أمير المؤمنين على البصرة فسرق مال الله ومال المسلمين، فاشتري به الجواري وزعم أن ذلك له حلال، وإن هذا ولأه على اليمن فهرب من يسر بين أوطان وترك ولده حتى قتلوا، وصنع الآن هذا الذي صنع...).

وإذا رجعنا إلى ابن أبي الحديد في نهج البلاغة ١٥/٤ وهو يروي عن أبي الفرج في مقاتله خطبة قيس نجد التزييد في المطبوع من المقاتل فإنه لم يذكر سوى قوله، وذكر عبيد الله فقال منه. فأين هذا من ذكر الأب والأخ ؟

فهرس الجزء الرابع

٧.....تقديم

حبر الأمة

وولايته على البصرة

١١.....ولايته على البصرة

١١.....المحور الأول

١٤.....المحور الثاني

١٦.....المحور الثالث

٢٠.....لماذا قتلنا الشيخ بالأمس؟

٢٨.....إعلان الولاية

٣٣.....وصية الإمام للوالي

٣٤.....حياته في إمارة البصرة

٣٥.....١-النشاط الإداري والسياسي

٥٣.....٢-التوجيه العلمي والديني

٦٨.....٣-السلوك الشخصي

٧٥.....حل مشكلة في التاريخ

٨٦.....معاوية والمخاتلة

٨٧.....إلى جهاد القاسطين

- إلى صفين..... ٩٠
- ماذا عن ابن عباس في صفين ؟..... ٩٣
- أولاً: مركزه القيادي..... ٩٤
- ثانياً: منازلته الحربية ٩٦
- ثالثاً: موقف خطابي ومنازلة ميدانية مع عمرو بن العاص ١٠١
- رابعاً: يوم من أيام صفين مع الوليد بن عقبة ١٠٢
- خامساً: مع عبيد الله بن عمر وذو الكلاع الحميري في قتال شديد..... ١٠٤
- سادساً: مشهد من مشاهد صفين برواية ابن عباس..... ١٠٧
- حديث الخديعة..... ١١٠
- أ- بين عمرو بن العاص وابن عباس ١١١
- ب- بين معاوية وابن عباس ١١٧
- ليلة الهرير ١٢٥
- رأي طه حسين في مكيدة ابن العاص..... ١٢٧
- ابن عباس وابن العاص في كفتي ميزان..... ١٣٣
- آثار خدعة التحكيم السيئة ١٣٧
- محاورة ابن عباس مع المحكمة في حروراء ١٥٦
- محاورة ابن عباس مع المحكمة في الكوفة..... ١٦٧
- أ- بين يدي المحاورة ١٦٧
- ب- توثيق المحاورة ١٦٨
- ج- نص المحاورة ١٦٩

- ١٧٤.....وحن الأجل الموعود.....
- ١٨٢.....آراء حرّة من دون تعليق.....
- ١٨٦.....ماذا بعد التحكيم ؟.....
- ١٩١.....لعن الإمام لمعاوية وأشياعه.....
- ١٩٥.....لعنه ﷺ للمحكم بن أبي العاص.....
- ١٩٦.....لعنه ﷺ أحياء من بني سليم.....
- ١٩٧.....لعنه ﷺ أبا الأور السلمي.....
- ١٩٧.....لعنه ﷺ المتناقضين.....
- ١٩٨.....لعنه ﷺ أبا موسى الأشعري وأصحاب العقبة.....
- ١٩٨.....لعنه ﷺ ستة أصناف من الناس.....
- ١٩٩.....لعنه ﷺ من تخلف عن جيش أسامة.....
- ٢٠٩.....عودة ابن عباس إلى البصرة.....
- ٢١٤.....إلى النهروان.....
- ٢٢٤.....محض هراء واقتراء من دون حياء.....
- ٢٣٦.....تعقيب بلا تثريب.....
- ٢٤٥.....في مقتل محمّد بن أبي بكر.....
- ٢٥٢.....فتنة ابن الحضرمي بالبصرة.....
- ٢٦٢.....مفارقة الخريت بن راشد في بني ناجية.....
- ٢٧١.....بواتق معاوية.....
- ٢٧٦.....ابن عباس في الكوفة.....

- أولاً: الخطبة الشقشقية..... ٢٧٩
- مطايبة ابن الخشاب لابن عباس ٢٨٤
- ثانياً: الصنو ٢٨٦
- مأساة الشهادة ٢٩٨
- وأخيراً أبيضت عيناه من الحزن ٣٠٢
- روايات تافهة ٣٠٧
- مفاهيم خاطئة عن سياسة الإمام ا ٣١١
- بداية عهد الخلافة الجديدة ٣٣١
- إعلام واستعلام ٣٣٢
- خطبة ودعوة للبيعة ٣٣٧
- عودة إلى البصرة ٣٤٣
- كتاب ابن عباس إلى الإمام الحسن عليه السلام ٣٤٨
- أمر الخلافة في وثيقة الصلح ٣٥٥
- موقف ابن عباس من الصلح ٣٥٧
- قبيل المغادرة ٣٦٤
- طرد أو مطاردة ٣٦٧
- طبيعة بيت مال البصرة وموارده ٣٧١
- فهرس الجزء الرابع ٣٧٩